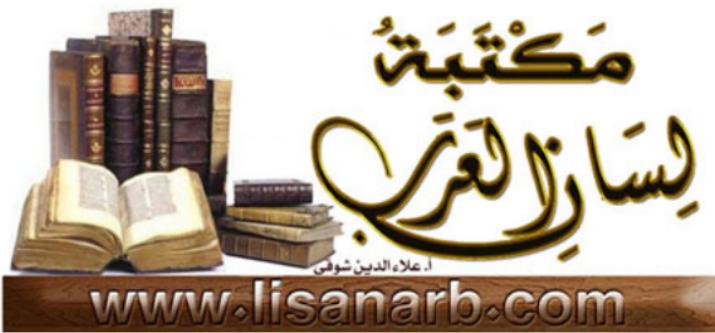


الآراء الكلامية والفلسفية عند الأمير شكيّب أرسلان

تأليف
الأستاذ / يُسْرَى مُحَمَّد خَمِير الْبَنَى

الناشر
مكتبة الشفاف الدینية



الآراء الكلامية والفلسفية
عند الأمير شكيّب أرسلان

المكتبة الفاسفية

الآراء الكلامية والفلسفية عند الأمير شكيّب أرستان

تأليف

الأستاذ / يسري محمد محمد عيسى البنا

الناشر

مكتبة الشفاعة الدينية



مكتبة لسان العرب

www.lisanarab.com

الرابط بديل lisanerab.com

الطبعة الثانية

٢٠٠٨ - ٤١٤٢٩

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٢٦ شارع بور سعيد - القاهرة

ت/ ٢٥٩٣٦٢٧٢ - ٢٥٩٢٦٢٠ - ٢٥٩٢٨٤١١ / فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٢

E-mail: alsakafa_aldinazy@hotmail.com

٢٠٠٥ / ١٨٨٥٨	رقم الإيداع
977-341-257-1	الترقيم الدولي I.S.B.N.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، وننحو بالله من شرور أنفسنا ومن سينات أعمالنا ، من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ..

أما بعد ..

فإن الأمير «شكيب أرسلان» (١٨٦٩-١٩٤٦م) ، اسم أضا ، في أفق الشرق فعلاً الأ بصار والأسعاد لمدة نصف قرن ، فهو مفكر إسلامي مستنير ، وباحث فذ البصيرة ، وسياسي محنتك ، وخطيب مقنع ، وشاعر مجاهد كرس سبعين عاماً من حياته التي قاربت الشهرين في خدمة قضايا أمته الإسلامية والعربية . لم يضع دقيبة من وقته إلا وكان فيها كاتباً أو قارئاً أو خطيباً . تعلقت به أفندة المسلمين فأصبح رجل الساعة في العالم الإسلامي ، فكان يتلقى سورياً أكثر من ألفي رسالة وبرد عليها جميراً ، ويكتب زيادة عليها مئات المقالات وينشر من المؤلفات بضعة آلاف من الصفحات ، عرف له قدره رجالات عصره ، ونشرت له كبريات صحف الشرق والغرب .

ويعتبر العصر الذي شب فيه الأمير شكب أرسلان - وهي السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والسنوات الأولى من القرن العشرين - أشد فترة تمر على الأمة الإسلامية قسوة على النفس والمصير ، فقد شهد الأمير شكب أرسلان السنوات الأخيرة في عمر الدولة العثمانية ، وحمل راية الدفاع عن دولة الخلافة ، ثم حمل هموم المسلمين والعرب جميراً بعد ضياع الخلافة الإسلامية وإعلان تركيا دولة علمانية سنة ١٩٢٩م ، وتقاسم الاستعمار للأرض العربية وعمل على تأييد سلطانه بهدم كل ما يميز الأمة من دين ، ولسان ، وتراث ، وفكرة ، وحضارة ، وقومية .

واستطيع الأمير شكب أن يحمل رسالته في تلك الأيام في قوة وإيمان لأنّه درس في روية وإمعان مشاكل الأمة الإسلامية ، والعالم العربي ، فضلاً عن أنه تربى في مهاد تلك المشاكل والأحداث ، وتتابع تياراتها وتدفقها ، وكان في صولاته الفكرية وجولاته السياسية من الأوائل الذين حرروا فترة الجمود الفكري والسياسي في الأمة الإسلامية ،

وأثار لذلك حوله طائفة من أصحاب الأقلام والحكام ، فكان منهم المشيد الحامد ، وكان منهم الناصل الناقد ، وكان منهم المتجمي الحاسد . غير أن ذلك لم يفت في عضده ولم يحل بيته وبين المضي في السبيل التي ارتضاها وأخذ نفسه على احتمال مشاقها ، فقد كان - رحمة الله - صاحب رسالة قبل أن يك حامل قلم ، وجندى عقيدة قبل أن يكون «محترف أدب» .

وشكيب في نتاجه معطا ، حتى الإرهاق ، والباحث في شكيب أرسلان يعجب من كثرة ما طالع شكيب وكتب ، فمن يتمثل حياة شكيب أرسلان وجهاده السياسي يظن أن الرجل قد تفرغ له ولم يكن في حياته غيره ، كما أن من يتمثل سعة ثقافته وكثرة اطلاعاته يظن أنه يمضي حياته قارناً لم يكن لديه وقت للكتابة ، وهنا نجد المتأمل لمزلفاته العديدة في الفكر والأدب والتاريخ والترجمة يتساءل : متى تفرغ شكيب لهذه المؤلفات الضخمة ؟ حتى قال عنه الشيخ علي الطنطاوي : «الأمير شكيب أعظم شخصية عربية فقد كان لسان الإسلام ومدرة العرب وأحسب أن مقالاته لو جمعت لجاء منها كتاب في ضعف حجم الأغاني»^(١) .

لذلك كانت الإهاطة بكل أفكار الأمير شكيب أرسلان ، ودراسة آرائه في مختلف المسابدين التي تطرق إليها مسؤولية تجاوز طاقة باحث واحد أو كتاب بعينه ، وقد لمس هنا كل من كتب عن شكيب أو بحث في جانب من جوانب شخصيته وفكرة وأثاره ، وقد عبر الشيخ أحمد الشريachi عن ذلك بقوله عن شكيب أرسلان أنه : «شخصية متعدبة متعدبة» ! .. إنه رجل متعدد مطالعه وباحثه والكاتب عنه ، فقد طال عمره وكثير عمله . وظل يكتب أكثر من ستين عاماً ، كان كالغبار الهائل المدار في كتابته ، حتى تصعب ملاحنته ومطالعته ..^(٢)

وقد أحصى الشيخ أحمد الشريachi لشكيب أرسلان أكثر من أربعين كتاباً ما بين :

١ - من مقال بقلم (أكرم زعيتر) بجريدة الشرق الأوسط ، بتاريخ ٢٨/٣/١٩٨٦ م.

٢ - أحمد الشريachi . أمير البيان شكيب أرسلان . ج ١ ص ١١-١ . دار الكتاب العربي بمصر . الطبعة الأولى ١٣٨٢-١٩٦٣ م.

مطبوع ، ومخطوط ، ومنوي ، أو مقترن ، فضلاً عن مئات المقالات في مجلات :
الشوري ، والشباب ، والعلم المصري ، والشرق ، والزهراء ، كما تفرقت آثاره وكتبه ما
بين الشرق والغرب .^(١)

ومن العقائق التي تميز فكر الأمير شبيب أرسلان أنه كان حاضراً بقوة في أحداث
عصره ووقعها وفي ما تبقى من ثقافة ذلك العصر وتراثه ، فلا يكاد يخلو كتاب يثرخ
لإتجاهات الفكرية لتلك المرحلة أو يعرض لقضية من القضايا التي أثيرت في عصره
إلا تعرّض لإسهام شبيب بفكرة فيها ، أو يستوثق واقعة من خلال شبيب ، أو يلقى
الضوء على أحدهم بتبيّن علاقته بشبيب ، أو يعرض فكر هذا أو ذاك من خلال رسائل
شبيب ، ومع ذلك فإن فكر الأمير شبيب أرسلان نفسه لم يأخذ حقه من الدراسة العميقه
التي تبرز آرائه الكلامية والفلسفية ورؤيته الإصلاحية في الدين والسياسة والحياة .

وما أقوله لا ينال على الإطلاق من أهمية الدراسات السابقة التي تناولت جوانبًا
من شخصية الأمير شبيب أرسلان ، وتمثل في الأعمال الآتية مرتبة بحسب ظهورها :

١ - الأمير شبيب أرسلان ، حياته وأثاره ، للدكتور محمد سامي الدهان . وهي
ترجمة لحياة شبيب أرسلان ، وعرض لأثاره المختلفة ، وتحليل لجوانب في شخصيته .
كانت نواتها معارضات ألقاها الدكتور الدهان في معهد الدراسات العربية ، ثم بسطها
وأواسع القول فيها ، ونشرها في كتاب عام ١٩٥٩ م.

٢ - أمير البيان شبيب أرسلان ، تأليف الشيخ أحمد الشريachi . وهي رسالة
ماجستير تقدم بها الشيخ إلى قسم الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد الدراسات العربية
سنة ١٩٦٣ م ، واكتفى فيها بالحديث عن عصر شبيب ، وحياته ، ونشره ، وشعره ،
وآرائه في النثر والشعر ، وجهوده اللغوية وكتبه وأثاره . ثم عاد الشيخ إلى شبيب في
بريل من نفس السنة وكتب عنه (شبيب أرسلان داعية العروبة والإسلام) وفيه قدم
الشيخ مجموعة من أفكار شبيب وأرائه وجواب من شخصيته وأخلاقه ، وقدم الشيخ

١ - المرجع السابق .

لبحثه بأن ما قدمه عن شكب ليس نهاية المطاف معه (فمثل هذا الرجل جدير بأن يدور حوله أكثر من بحث ، وأكثر من حديث) .

٣ - شكب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، للدكتور محمد شفيق شيا ، ويحقق هذا البحث وللمرة الأولى معرفة بنظر الأمير شكب أحسن تنظيماً وأكثر شمولًا ، وهو خطوة أولى - كما يقول كاتبه - نحو بيان حقيقة فكر الأمير السياسي والنظري ، أهم ما يؤخذ على هذا الكتاب هو خلط مؤلفه أحاجاناً بين آراء ، الأمير شكب أرسلان في تعلباته على حاضر العالم الإسلامي وبين آراء مؤلف الكتاب الأميركي لوثروب ستودارد ، وإن كان هذا لا يقلل من تقديرني للكتاب ، ولا من اعتراضي باستفادتي منه مع اختلافي عنه في المنهج ، وقد ظهر هذا الكتاب سنة ١٩٨٢م .

والحق أن كل من كتب عن الأمير شكب أرسلان شعر أنه لا يمكنه أن يفي الرجل حقه ، وأن هناك جوانب تحتاج إلى دراسات أخرى ، فهذا الدكتور الدهان يقول عن دراسته لشكب إن هي «إلا محاولة في دراسة معاصر متشعب التراخي ، يبدو أنه لا يسلس قياده لباحث .. فإذا ندعنا ما كان لنا أن نقوله فيه فعدرنا أنه واسع الآفاق بعيد الأرجاء .. ولا يستطيع الإمام به أي كتاب محدود الصفحات»^(١) .

والشيخ أحمد الشريachi يقول «إن هناك نوعي كثيرة في شخصية شكب تستحق الدراسة»^(٢) ، والدكتور محمد شفيق شيا يؤكد أن الإهاطة بكمال إسهام شكب الثقافي والتاريخي هو أمر يتتجاوز حدود البحث الواحد ، «ووهكذا ظلت ميادين كثيرة الفنى والأهمية والقيمة وجديرة باستقطاب دراسات مستقلة أخرى»^(٣) .

وقد بدا لنا أننا نستطيع بدراستنا أن نوجه ضرباً إلى جانب هام في شخصية الأمير شكب أرسلان ، وهو «المشهور بأمير البيان» ، إذ اشتهر باهتماماته الأذبية ولكنه لم يعرف بنفس القدر كصلاح إسلامي له فكره المستنير في الدعوة إلى النهوض بالأمة

١ - د/سامي الدهان ، الأمير شكب أرسلان حياته وأثاره ، ص ١١ ، دار المعارف مصر .

٢ - الشيخ أحمد الشريachi ، ش kep أرسلان داعية العربة والإسلام ، ص ٦ ، مصر ١٩٦٣م .

٣ - د. محمد شفيق شيا ، شكب أرسلان مقدمات الفكر السياسي ، ص ١٣ ، بيروت ١٩٨٣م .

والدفاع عن عقيدتها ، ومراجعة خصومها ، والعرض على وحدتها ولعلنا بذلك نsem في تزوير الفهم المطلوب لإنجازه التاريخي والفكري في كامل حقيقته وأهميته .

وقد جعلت الرسالة في ثلاثة أبواب وخاتمة :

١ - الباب الأول : الأمير شبيب أرسلان مفكر إسلامي وهو يحتوي على ثلاثة فصول ، الفصل الأول في حياته وعصره ، وهو عصر طريل حافل ، ممتلىء بالأحداث الجليلة ، وقد اقتصرت على أهم الأحداث المنصلة بحياة شبيب وبيّنت رأيه فيها ، وتحدثت عن نسبة وأسرته .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن طائفة الأمير وعقيدته ، وهي مسألة شائكة لأن الأمير شبيب ينتمي إلى طائفة الدروز بينما ينتمي في عقيدته إلى مذهب أهل السنة كما يؤكّد الباحثون ، وكما ثبّتنا من خلال دراستنا للفكرة .

وفي الفصل الثالث ، لماذا تعتبره مفكراً إسلامياً ؟

أثبتت أن الأمير شبيب أرسلان أحد رواد النهضة الإسلامية المعاصرة ، وقد تدرّج إلى ذلك باستعراض الصراع الفكري الذي رافق الفزو الاستعماري للبلاد الإسلامية ، وبيّنت حركة المقاومة للإستعمار الغربي في الفكر الإسلامي ، وعناصر هذا الاتجاه ، والعوامل المؤثرة في آراء الأمير شبيب أرسلان الكلامية والفلسفية .

- وأما الباب الثاني ، وعنوانه « الآراء الكلامية عند الأمير شبيب أرسلان » فقد قسمته إلى فصلين ، ويعنى في الفصل الأول : قضية الخلافة الإسلامية في فكر الأمير شبيب أرسلان ، ودفاعه عن الشريعة الإسلامية في مواجهة مطاعن المستشرقين والمترنجين ، وموقف الأمير من عقيدة القضا ، والقدر .

” ويعنى في الفصل الثاني : موقف الأمير شبيب أرسلان من الفرق الإسلامية ، ورأيه في بيان موقفه الكلامي من الدروز ، ثم من المعتزلة والأشاعرة ، والخوارج ، والبابية والبياضية .

- أما الباب الثالث ، وعنوانه « الآراء الفلسفية عند الأمير شبيب أرسلان » فقد قسمته إلى فصلين ، ويعنى في الفصل الأول : نقد الأمير شبيب أرسلان للفكر المادي

ال الحديث ، وبدأته بمدخل موجز . ثم تناولت أولاً قضايا الإنسان في فكر الأمير شكب أرسلان ونظرية التطور ، وتناولت ثانياً رأي الأمير شكب أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية .

وفي الفصل الثاني : بحثت الفكر السياسي عند الأمير شكب أرسلان ، وبدأته بتمهيد ، ثم تناولت أولاً تصور الأمير شكب للدولة الإسلامية ، وتناولت ثانياً الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير شكب أرسلان .

هذا موضوعي ، وذاك منهجي ، وذلك جهدي ، وأرجو أن تكون قد وفقت بهذا المجهود أن أجلي وللمرة الأولى آراء الأمير شكب أرسلان الكلامية والفلسفية ، وأن أكون استطعت التعريف بجانب عظيم من فكره الذي يذله في خدمة دينه وأمته ، وهي الحقيقة الكامنة وراء إنتاجه الفكري ، فقد كان يتعلّكه إحساس ظاهر بأنه مسؤول عن تراث العربية ومطالب بحراسة مواريث الإسلام ، ومنتسب للذب عن قضايا المسلمين إلى جانب ما أوتيه من فصاحة اللسان ، وعمق المعرفة ، وإخلاص العزيمة .

ويسعدني أن أسجل هنا تقديرني العميق وشكري الجزييل لأستاذِي :

الدكتور / مصطفى حلمي

الذي أشرف على الرسالة ، واختار موضوعها ، وخط لي منهاجها وتعهدني بتوجيهاته ورعايتها ، وسدّ الخطوطات على طريقها ، فجزاه الله عز وجل عنّي وعن خدمته للإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكتابه الذي يهدي للتي هي أقوم ، وفكرة ، وتاريخه ، خير الجزاء .

المواheim الأول

الفصل الأول

حياته وعصره

كان مولد الأمير شبيب لرسلان في (الشويفات) بلبنان يوم الإثنين غرة شهر رمضان سنة ١٢٨٦ هـ الموافق الخامس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٦٩ [١] ، وهو الإبن الثاني للأمير حمود بن حسن .. الذي يرقي نسبة إلى الأمير لرسلان المتوفى سنة ١٧١ هجرية ، أما والدته فهي سيدة شركسية جليلة.

وفي المرحلة الأولى من حياة الأمير تعلم مبادئ القراءة والكتابية مع أخيه (نسيب) على يد معلم القرية حسبما كانت عليه عادة السراة في ذلك الحين ، وحين ذهب العائلة تصطاف في (عين عنوب) أحضر الوالد معلماً آخرأ هو أسعد فحصيل حفظهما جائياً من القرآن الكريم ، ودخل مع أخيه مدرسة الأميركيان في الشويفات فتلقى قسطاً من العلوم واللغة الإنجليزية . وفي سنة ١٨٧٩ م كان الأمير شبيب قد بلغ العاشرة من عمره ، فدخل الشقيقان (مدرسة الحكم) في بيروت ، وهي التي أسسها (المطران يوسف الدبس) رئيس أساقفة الطائفة المارونية ، وتلقى الأمير فيها دروس العربية على يد الشيخ عبد الله البستاني ، وفيها تعلم الفرنسية والتركية ، وظهرت بشاعريته وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وكان في سن دراسته مبرزاً مع أخيه على أقرانهما ، فلما زار مدرسة الحكم الإمام محمد عبده ، وكان منفياً في بيروت - إثر ثورة عربي - قدم إليه الفتى على أنه مفترء إخوانه ، فقال الإمام فوراً : إبني أعرف إسمك وستكون من أحسن الشعراء وكانت هذه الشهادة أعلى ما يطمح إليه شاب في مثل سنه لذاك الزمان [٢] . بعد (مدرسة الحكم) دخل الشقيقان نسيب وشبيب (المدرسة السلطانية) في بيروت سنة ١٨٨٧ م ، وكان شبيب قد بلغ الثامنة عشرة من عمره وحضر مع أخيه دروس مجلة الأحكام العدلية على الإمام محمد

[١] ذكر شبيب نفسه تاريخ ولادته في موقع عدة من كتبه ومنها روض الشقيق من ١٧

[٢] د. سامي الدهان ، شبيب لرسلان : حياته وأثاره ، دار المعارف ، صفحة ٦٧ .

عبده ، فأحببه الفتى ولازم أستاذه الشيخ في مجالسه الخاصة ، وتونقت عرى صداقة متبعة بين الإمام وأسرة شكيب [١] .

وفي سنة ١٨٩٠ ، كان شكيب قد بلغ الحادية والعشرين من عمره والأجل قد وافق والده ، وقد عجلت دروس الإمام محمد عبده في ظهوره. طموح الفتى شكيب أرسلان لأن يتحمّل مسؤوليته وأن يصبح زعيماً من زعماء الإصلاح في العالم الإسلامي . وهكذا يسافر الأمير شيب أرسلان إلى مصر ليجاور الشيخ محمد عبده العائد إلى الوطن بعد سنوات المنفي ، ويتعلم منه ويتصل من خلاله بزعماء الوطنية وقادة الفكر والأدب والسياسة فيعرفه سعد زغلول ، ويستكتبه الشيخ علي يوسف صاحب جريدة (المزيد) التي كانت ملتقي الأقلام الكبيرة في زمنها ، ويتصل بشيخ العروبة أحمد زكي باشا والسيد رشيد رضا صاحب (المنار) ويشارك هؤلاء على صغر سنّه - في مناقشة الهموم الإسلامية ، ويلمس عن قرب الأخطار التي تهدّد عالمه الإسلامي ، ويلم بخيوط التآمر الغربي على الخلافة الإسلامية فيشد شوّقه للقاء جمال الدين الأفغاني لينهل من النبيوع ويستقي منه فيروي ظما نفسه وغليل روحه ، ويقف على كثير مما كان يتعلّج في قلبه من الأسئلة ، وبالفعل سافر إلى باريس ومنها إلى الأستانة سنة ١٨٩٢م ، عاصمة الخلافة العثمانية وهو في الثالث والعشرين من عمره فقضى أمامه جملة مشاهداته في مصر وفي الغرب ومداره في خلده عن الشرق والإسلام وموقف الاستعمار والتبيير منها ، فأعجب به جمال الدين الأفغاني كما أعجب به محمد عبده من قبل وقال له (أنا أهنيء أرض الإسلام التي أنبتتك) [٢] .

دفاع الأمير عن الخلافة العثمانية

عاد الأمير شكيب أرسلان إلى بيروت بعد أن طاف في أوروبا ودار الخلافة ومصر يحمل راية الدفاع عن الخلافة العثمانية لأنّها دولة الإسلام التي تحيط بها الدول الاستعمارية من كل جانب وتقتص أطرافها ، وتحتلب أشداها شوّفاً لإبتلاع ولاياتها ، ولا تتورع في الإيقاع بينها وبين شعوبها ، فأخذ بيده الدفاع عن الخلافة العثمانية بعد أن وقف على

[١] روض الشفيف في الجزل الريفيق ، وهو ديوان نسيب أرسلان ، جمعه وقدم له وعلق عليه وأردف بنساب الأسرة الأرسلانية شكيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدون بم دمشق ط ١٣٥٥هـ - ١٩٣٥م ، من ٢٠٠١٩.

[٢] د. سامي الدهان ، مرجع سابق ، ص ٧٠

دسلان الاستعمار ، وعرف مالم يعرفه قومه من خطط الاستيلاء على بلاد العرب وال المسلمين ، وفضل أن يقف إلى جانببني عثمان في نضالهم ضد الغرب إلى أن تجلب عمامتهم لنلا يفرق الصوف في الشرق الإسلامي ول يكون معهم في الحرب ضد التبشير وتفرقة الصوف .

ولذلك كان موقف جمال الدين ومحمد عبده في نصرة العثمانيين يختلف عن موقف كثير من زعماء لبنان آنذاك [١] الذين أغترتهم دعوة الدول الغربية للانفصال العرب عن الخلافة ، وصرخ شبيب بأعلى صوته وخطب في كل محفل وكتب في كل صحيفه بأن البديل عن الخلافة ياعرب هو الإستعمار .

وإذا عدنا إلى كتبات عصر الأمير شبيب وقبل الحرب العالمية الأولى لوجدنا أن شبيب لم يكن وحده الموالى لتركيا ، فموالاة تركيا لم تكن في حقيقة الأمر إلا تمسكاً ب الخليفة المسلمين الذي يلي أمرهم ويجمع شملهم ، وأن الخروج عليه ومهاجمته لم يكن يعني في إفهام كثرة المعاصرين - في أقطار إسلامية كثيرة كمصر والعراق وسوريا - إلا موالاة المستعمررين أداء المسلمين [٢] ، وهذا لا يعني أن الأقاليم العربية كانت راضية عن لسلوب الحكم العثماني تماماً بل كانت تحس بما ينطوي عليه هذا الحكم من مواطن الضعف ولكن سببها في معالجة الضعف لم تكن الثورة أو الانفصال بل الدعوة إلى الإصلاح وإلى المسلاحة في الحقوق بين العرب والترك ، إن الكثرة الغالبة من سكان العالم العربي لم تكن تفكر في الاستقلال . أما قادة العمل السياسي وأكثرهم من تلاميذ الأفغاني فكثروا يدعون إلى تقوية الدولة العثمانية عن طريق الإصلاح الإداري واللامركزية وتصحيح العقائد والإعتماد بالرابطة الإسلامية والإسترداد بتعاليم الإسلام النقية من الشوابن ومن أشهر هؤلاء المصلحين الشیخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٥٠) ومحمد رشید رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) [٣] . فهذا الشیخ الإمام محمد عبده يلخص دعوة أستاذه الأفغاني وغالبته من جهاده طوال حياته فيقول : " أما مقصدہ السياسي الذي وجه إليه أفكاره وأخذ على نفسه السعي إليه مدة

[١] د. سامي الدهان ، مرجع سابق ، ص ٧٠

[٢] الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، د. محمد محمد حسين ج ١ - ص ٩

[٣] نكبة الأمة العربية ، محمد الخير عبد القادر ، ص ٦٨

حياته وكل مأصلبه من البلاء أصابه في سببها فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها وتنبيتها للقيام على شئونها فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنفي مجده ويدخل في هذا تكثير دولة بريطانيا في الأقطار المشرفة وتقلص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية .. [١]. وإصلاح الأمة في رأي محمد عبده " إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على مكان في بيته وإرشاد العامة بمواعظه الواقية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق وإتقان نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة " [٢].

ويتفى السيد رشيد رضا عن العرب بهمة العمل للإنصال عن تركيا قبل الحرب العالمية الأولى وأثناء خلافة السلطان عبد الحميد الثاني ، ويوضح الأسباب التي دعت العرب إلى المحافظة على وحدة الدولة العثمانية فيقول " إنما كان السبب الصحيح لسكن العرب وسكتهم عن طلب استقلالهم وتتجدد دولة لهم هو الإسلام وأوربة . دين الإسلام وسياسة دول أوربة سببان مستقلان أو سبب واحد مركب لكل من جزئيه تأثير خاص في صرف العرب العثمانيين عن السعي للاستقلال والحق أن الباعث الأخير لإعتراف أكثر المسلمين بخلافة سلاطين الترك هو كونهم أمسوا حصنًا نقية البلاد الإسلامية في وجه أوربة " [٣] .

لم يكن الأمير شبيب أرسلان وحده المولى للدولة العثمانية من العرب ، بل كان يمثل رأي عقلاً العرب الذين كانوا لا يجهلون مطامع الدول الأجنبية في بلادهم ، ولم يكن يخفي عنهم تصميم أوربا على تقسيمها ، وأنه لاعهد للدول المسيحية بزيادة المسلمين مهما عاشرت..

" إلا أن الإنجليز تمكنوا قبل الحرب العالمية من استجلاب كثير من ناشئة العرب ، منهم من استجلابهم بالمنافع الخاصة ، ومنهم من استجلابه بطريقة الإنقاذ ، وأوهموا العرب أنهم إنما يريدون ليجددوا دولة عربية كدولة بني العباس أو دولة بنى أميه مثلاً ، ويساعدوا العرب على تجديد مجدهم القديم وعلى عمادة بلادهم التي لم يحسن الترك إدارتها ، ولا عادتها .

[١] مقدمة محمد عبده : رسالة في إبطال مذهب الدهريين ، بيروت ١٣٠٣ هـ ، ص ٩

[٢] المعروفة الوثقى : العدد الثالث ، باريس ٢٧ مارس ١٨٨٤ م ، ص ٣

[٣] المغار ج ١ م ٢ - ١١ شوال ١٣٣٥ هـ / ٣٠٩ يوليو ١٩١٧ م ، ص ٤٢-٤١

فصار بين العرب حزب غير قليل ينزعون إلى الإنفصال عن الدولة قليلاً وقليلًا متوقعين لذلك أول فرصة . ولا يمكن أن يقال أن هذا كان رأي الجمودة من الأمة العربية ، بل في الحقيقة كان عقلاً العرب يفهمون أنه إذا وقع الإنفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الإفرنج ، فلذلك كانوا يختارونبقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفاً من حكم الأجانب ... [١]

وإلى جانب الأيديالى الإستعمارية التي كانت حريصة على فصل الروابط القائمة بين العرب والترك ، جاءت سياسة جمعية الإتحاد والترقي - لاسمها بعد وقوعها تحت الدعوة الطورانية - ومحاولاتها تترك الأقاليم العربية وإحياء المصيرية الطورانية والكيد للإسلام ومساندة الصهيونية لتحقيق أطماعها في فلسطين عوامل أساسية في تحويل إتجاه القضية العربية على عهد الأئم الإتحاديين نحو الاستقلال ، وساعد على ذلك الهزات العنيفة التي أصابت الدولة العثمانية في ذلك المهد بين عامي (١٩٠٨ و ١٩١٣) والتي بدأت بمحاولة السلطان عبد الحميد استرداد مركزه وللقضاء على جمعية الإتحاد والترقي ولكن محاولته لم تنجح وإنتها بعزله ونفيه في أبريل سنة ١٩٠٩م خلفه الأمير رشاد " محمد الخامس " ولكن السلطة الحقيقة ظلت في أيدي زعماء الإتحاديين [٢] .

ويجدر بنا هنا أن نقف قليلاً للتتبين موقف الأمير شكب أرسلان من أحد الشخصيات الرئيسية التي ثار حولها جدل عظيم في عصر الأمير ومن بعده ، وأقصد بهذا السلطان عبد الحميد الثاني الذي تولى أمر الخلافة سنة ١٢٩٤ هـ .

موقف الأمير شكب أرسلان من السلطان عبد الحميد :

السلطان عبد الحميد الثاني هو أحد الشخصيات الرئيسية التي دارت حولها أحداث الخلافة فالقفت عليه التهم جزافاً ، فوصفوه بالإستبداد وأنه (السلطان الأحمر) وغيرها من الصفات التي روتها أعداؤه وخصومه من الداخل والخارج ولا ننسى أن وكالات الأنباء والصحافة التي سطرت عليها العناصر اليهودية والصليبية قد تزعمت حركة شهير واسعة

[١] تعليقات الأمير علي ابن خلدون ، شكب أرسلان من ٣٤١

[٢] نكبة الأمة العربية ، مرجع سابق ، من ٨٣

النطاق ، أخذت ترددتها بتكرار وإلحاح حتى صارت وكأنها حقائق [١] . ولقد كان الأمير شكب أرسلان من القلائل الذين أنصفوا السلطان عبد الحميد ، ودافعوا عن أخلاقه وسياسته وإدارته وتحدث عن نفاذ بصيرته ، وحدة ذكائه ، وإخلاصه لدينه وأمنه .

ومن القضايا التي اتخذها أعداء السلطان عبد الحميد وسيلة للطعن في إدارته ، مسألة إسكندر السلطان من الجواسيس ، حتى زعموا أن الحل والعقد صار بليد هؤلاء الجواسيس لكثريتهم وحصولهم على الحظوة عنده .

ويرد الأمير هذه التهمة عن السلطان عبد الحميد فيقول "وليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقاريرهم كما هو شائع ، بل كان يرمي أكثرها ولا يصدق ما فيها ، ولكن اهتمامه بقضية أخبار الجواسيس ألقى الخوف في قلوب الرعية وصارت في فلق دائم ، وأصبحت الناس تبالغ في الروايات عن الجواسيس فساعت سمعة الحكومة ، وسخط الرأى العام على هذه الحالة ، وبرغم ما كان السلطان يعفو ويصفح ويجد وينفع ، كانت سمعته بعكس ما كان يفعل " [٢] .

وبنفي الأمير شكب أرسلان أن تكون إدارة السلطان عبد الحميد هي المسؤولة عن جميع الخطوب التي أصابت الدولة في عهده ويوضح الأسباب الحقيقة وراء مأصناب الدولة العثمانية في ذلك العهد فيقول "خطوب المملكة كانت لها أسباب داخلية وخارجية لاتذكر قصة الجواسيس في جوانبها شيئاً . فاما العوامل الداخلية فهي انحطاط درجة التعليم مما يجب أن تكون ، وباستثناء الجهل ، وانقسام سكان المملكة إلى أق quam شتى كل منها له هدف غير هدف الآخر ، ومنها ما هو عدو عامل لا يرضيه إلا زوال الدولة العثمانية . ثم ما وقر في قلوب الناس أجمعين من قرب أجل هذه الدولة فصارت أشبه بالمربيض الذي انقطع الأمل من شفائه " [٣] .

[١] د.مصطفى حلسى ، الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية من ٩٦ دار الدعوة ١٩٨٥م.

[٢] تطبيقات الأمير شكب على مقمية بين خلدون ، ص ٣٣٤

[٣] المرجع السابق ، ص ٣٣٤

"فاما العوامل الخارجية فهي مطامع الدول الأوروبية في أجزاء هذه السلطنة كل دولة منهن تحب أن ترث شخصاً من هذه التركيبة فهي تدرس الدسائس في البلاد التي هي مطمح نظرها حتى تتوصل منها إلى ملربها" [١].

"وكان السلطان عبد الحميد على وعي بالمخاطر الخارجية ونوايا الدول نحوه فكيف يجاهه هذه الدول بمفرده؟! . لقد استولى الروس على بعض ولايات آسيا الوسطى العثمانية ، واستولى الإنجليز على الهند وسعوا لتأمين سلامة الطريق إليها ، كما ولدت أمريكا دولة فتية ، وانتظم يهود العالم وسعوا عن طريق المحافظة على سبل الأرض الموعودة . أورد السلطان عبد الحميد هذه الحقائق حوله في مذكراته ثم أعقبها بقوله (لم أكن أستطيع الوقوف أمام هذه القوى بمفردي) [٢]."

ويذكر الأمير شبيب أرسلان كيف استطاعت الدول الأوروبية والجمعيات المناوبة للحكم العثماني أن تسلل إلى داخل الدولة عن طريق كثير من رجالات الأتراك المتشبعين بمبادئه العربية الذين هجروا بلادهم وأقاموا بباريس وصاروا ينشرون نشرات ينتقدون فيها الحكم العثماني ، ويبثون روح الثورة بين الناشئة فكان السلطان يجتهد في إسكات هذه الفئة التي كانت تشوه سمعته في العالم ، خاصة أنه كان يعلم أن الروس والفرنسيين والإنجليز حاولوا إسقاط عمه السلطان عبد العزيز - بواسطة عملائهم - في نظر الشعب بالشائعات فنجحوا بذلك في تمزيق الجيش والأسطول لتمزيق العلاقات بين ضباطه حيث كان البعض يؤيد الأسرة المالكة والأخر يعارضها [٣] .

"ولما كانت الجمعيات الأرمنية بطبيعة الحال تميل إلى إسقاط السلطان عبد الحميد مدأ أيديها إلى هؤلاء الأتراك الذين كانوا قد هجروا أو طارتهم إلى أوروبا وشرعوا في التحرير لأجل إعلان الحكم الشورى في تركيا . وكان بعض المسيحيين من سوريا مُشترين أيضاً في هذه الحركة ، وكل فئة من هذه الفئات كانت لها أغراض غير أغراض الأخرى

[١] تعليقات الأمير شبيب على مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٣٥

[٢] الأمصار الخفية ، مرجع سابق ، ص ٩٨

[٣] الأمصار الخفية ، مرجع سابق ، ص ٩٩

في الحقيقة ، ولكنها كانت تجتمع في نقطة واحدة وهي ؟ مقاومة السلطان ، والعمل لاسقاطه " [١] .

ظهور جمعية الإتحاد والترقي

وفي هذه الحقبة التاريخية الهامة ، يرى الأمير شكيب كيف تكونت (جمعية الإتحاد والترقي) السرية ، من بعض الشبان الأتراك في سلاطين ، وأخذوا يجتذبون إلى جمعيهم كل الوطنيين المخلصين الذين قدروا على اجتذابهم برغم شدة المراقبة ، حتى أن بعض المستخدمين في الحكومة انضموا إلى هذه الجمعية ، ويشير الأمير إلى اجتماع أعضاء الجمعية في المحاكم الماسونية ، وإلى أن معظم إجتهاد هذه الجمعية السرية كان متوجهاً إلى إستجلاب الجيش حتى تصرير في أيديهم القوة الازمة لخلع السلطان .

وكانت دعوة أعضاء هذه الحركة في بدايتها ، وحاجتهم في إقناع ضباط الجيش أن هذه العصائب البلغارية واليونانية إنما تشارع لأجل الحصول على إدارة حسنة يستريح في ظلها السكان وهذه الإدارة غير ممكنة ملام السلطان عبد العميد على عرش السلطنة ، فاما إذا أمكن خلعه ، وجعل الحكم في السلطنة دستورياً شورياً كما هو في سائر الممالك المتقدمة فإن جميع هذه المشاكل تتنهى من نفسها ، وهكذا تتجوا السلطنة العثمانية من خطر السقوط المحقق بها [٢] .

ويرد الأمير شكيب على دعوة الإتحاديين بأنه إدعاء غير صحيح " بل حقيقة الحال أنه سواء إصطاحت الإدارة العثمانية أم لم تصطاح فالبلغار إنما يجهدون في ضم البلاد المأهولة بالبلغار إلى مملكتهم ، واليونان إنما يسعون في ضم البلاد التي أكثرها منهم إلى مملكتهم ولن يرضوا بالبقاء تحت حكم الأتراك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً " [٣] .

وينظر الأمير أن الشبان الأتراك الذين انضموا إلى جمعية الإتحاد والترقي فيما بعد منهم من كان يؤمن بأقوال العصائب اليونانية والبلغارية ، ومنهم من لم يكن يؤمن بها ولكنه كان يجد أن طريق النجاة لن تكون إلا بإعادة الدستور وجعل الحكم في السلطنة للشوري [٤] .

[١] تعلقات الأمير شكيب على مقدمة ابن خلدون (مرجع سابق) ، ص ٣٣٦

[٢] ، [٣] ، [٤] تعلقات الأمير شكيب على ابن خلدون ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠

والحق أن جمعية الاتحاد والترقي كانت موضع شبهات منذ وقت مبكر إذ اتهمت بأنها جماعة يهودية وأن أعضاء هالم يكونوا أتراكاً ولا مسلمين ، يقول شكيب "ولما كان الإتحاديون يتظاهرون بالترنج ويتساهلون بأمور الدين ، ويتكلمون لحياناً بما يخالف الشرع ؛ مال جمهور العلماء وأنصار المبادىء الإسلامية إلى هذا الحزب الذي شرع بمصادمة جمعية الاتحاد والترقي ، وألغوا تحت رئاسة الشيخ (درويش وحدتى) عصبة سوها (الوحدة المحمدية) وأخذ حزب الأحرار يمد يده إلى حزب الرجعيين ليكونا يداً واحدة على حزب الإتحاد والترقي ، فأشتدت المعارضه في وجه الإتحاديين "[١]. ولدى ذلك إلى نشوب الصراع بين الإتحاديين وأنصار المبادىء الإسلامية إنتهت بانتصار الإتحاديين ودخول الجيوش المؤيده لهم إلى العاصمة تحت قيادة شوكت بك.

ويروى الأمير شكيب أرسلان أن السلطان عبد الحميد رفض المقاومة خوفاً من حرب أهلية ، وكان يحيط بقصر يلدز سبعة آلاف من الجيش المخلص للسلطان إلا أنهم لم يروا السلطان ناوياً للمقاومة فخضعوا لمحمود شوكت باشا ، وفي ٢٦ إبريل تقرر في مجلس الأمة خلع السلطان "[٢].

إشتداد العصبيات الجنسية

كان السلطان عبد الحميد مقنوماً شديداً للعصبية الجنسية التركية ، بل ماقتاً بطبيعته وغريزته مقناً كبيراً لكل عصبية جنسية أية كانت ماهيتها ، وكان يرى أن من شأن هذه العصبيات أن تحول بينه وبين الوصول إلى غلبه الكجرى وهي الجامعة الإسلامية "[١]. على أن سيطرة أعضاء جمعية الاتحاد والترقي على مقاليد الأمور في الدولة بعد ثورة ١٩٠٨ ثم عزلهم للسلطان ونفيه في إبريل ١٩٠٩ وتوليه الأمير رشد (محمد الخامس) خلفاً له مع احتفاظ الإتحاديين للسلطة الحقيقة في أيديهم بفتح الباب أمام العصبية الجنسية

[١] المرجع السابق ، ص ٣٤٢

[٢] الأمير شكيب أرسلان : تلقينات الأمير على مقدمه ابن خثون ، الجزء الأول ، من ٣٤٥

[٣] حاضر العالم الإسلامي ، ستودارد الجزء ٤ ص ٨٠

التركية فابتطلقت تلك العصبية التي عرفت (بالدعوة الطورانية) [١] من عاها. ولم يكن قادة جمعية الاتحاد والترقي متاثرين بهذه الدعوة الطورانية فحسب بل كانوا يؤيدونها ويقدمون لها الإعانات المالية (وتسمى إعانت الملاية التركية) وكان كبار قادة الاتحاديين أعضاء منتمين إليها [٢] ، ومن هذه القاعدة استمدوا سياسة ترتيرك الشعوب العربية والشعوب العثمانية الأخرى [٣] . وكان لهذه السياسة الأثر العظيم في تحويل اتجاه القضية العربية نحو الاستقلال على عهد الأتراك الاتحاديين ونمو العصبية الجنسية العربية .

وفي سنة ١٩١١ اعتدت إيطالية على طرابلس الغرب (ليبيا) فغضب شبيب من هذا العداون ، وكتب إلى مختلف الجهات يحرض على نجدة العرب في طرابلس ، ويحس على مدهم بالأموال والسلاح ، وأبرق إلى المسؤولين في الأستانة بذلك [٤] . وفي سنة ١٩١٢ يسافر الأمير شبيب إلى طرابلس الغرب (ليبيا) ليتحقق بصفوف المجاهدين ضد الجيش الإيطالي المعتمد على ذلك الوطن الإسلامي ، وقد خرج من هذه التجربة وقد إزداد تيقناً بأن القوى الغربية الصليبية تحالف لاتهام بلاد العرب قطعة قطعة ، ولا سبيل للنجاة إلا بالتمسك بالرابطة العثمانية التي تمثل العزة للإسلام والقوة للعرب وإزالة أسباب التوتر بين العرب والأتراك .

وفي سنة ١٩١٢ سافر الأمير شبيب من طرابلس إلى تركيا حيث اختير مفتشاً لبعثات الهلال الأحمر المصري فقام بمهنته على خير وجه [٥] .

وما أن تشب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ حتى ينذ شبيب بعد نظره ووعيه الإسلامي الصادق موقفاً مختلفاً لموقف زعماء العرب وقلائهم في ذلك الوقت . ولقد ظن العرب أنهم بوقوفهم إلى جانب الحلفاء ضد الألمان والدولة العثمانية سيحصلون على استقلالهم الكامل . ووقف شبيب يومها ضد رأي الأغلبية التي كان يترעםها الشريف حسين

[١] الدعوة الطورانية : تهدف إلى إحياء العصبية التركية والجمع بين العناصر التركية والبلغارية والقوافاز وهم المدينة الإسلامية ، نكبة الأمة العربية من ٨٢

[٢] المغار ، مجلد ١٩ ، ج ٤ ، ٢٨٠ - ٢٣٦ سبتمبر ١٩١٦ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦

[٣] محمد الخير عبد القادر / نكبة الأمة العربية / من ٨٢

[٤] شبيب أرسلان داعية العروبة ، أحمد السريachi ، من ٢٩ - ٣٣

[٥] شبيب أرسلان داعية العروبة ، أحمد السريachi ، من ٢٩ - ٣٣

ملك الحجاز آنذاك ، فقد صرخ بأعلى صوته في المحاقيق ووجه الرسائل ودبيج عشرات المقالات قللاً أنه لن ينصر الدول الاستعمارية على الدولة الإسلامية مهما كانت عيوبها ، وأن على العرب ألا يغتروا بوعود الغرب لأن هدف هؤلاء أن يتخذوا العرب جسراً إلى قتل الدولة الإسلامية ليلتهموها ثم يتهموا أجزائها العربية بعد ذلك ، واعتبر بطرابلس الغرب ومن قبلها الجزائر وتونس .

وكان من سوء حظ شبيب أن الولاية العثمانية والباب العالي وللقيادة العسكرية حين عرفوا موقف العرب منهم صمموا على مقابلة عداء بعدهاء [١] .

"وعينت تركيا القائد أحمد جمال باشا قائد الفيلق الرابع من الجيش العثماني والياً على سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز فيجي وطفي ، والجم الألسنة وأر هب الناس ، وكان يمثل التزعة الطورانية بأقصى صورها وتعصيها ، وهو من جماعة الإتحاد والترقي " [٢] . وفي سنة ١٩١٦ وجهت تهمة الخروج على الدولة إلى زعماء وأعضاء الجمعيات العربية في سوريا ، وحكم بالموت شنقاً على ثلاثين منهم ، كما صدر الحكم غالباً بالموت شنقاً على نحو ستين ، وعرقب آخرون بالافي أو السجن [٣] .

[١] الدكتور سامي الدهان ، الأمير شبيب أرسلان ، حياته وأثره ، ص ٧٤

[٢] الشیخ احمد الشرباصی ، أمير البيان شبيب أرسلان ، ج ١ ، ص ٤٤

[٣] الشیخ احمد الشرباصی ، أمير البيان شبيب أرسلان ، ج ١ ، ص ٤٤

موقف الأمير شبيب من الثورة العربية بقيادة الشريف حسين

يقول الشيخ أحمد الشرباصي ، "ويذهب أكثر من باحث إلى أن ملasse الشنق كانت سبباً في تعجيز الشريف حسين بن علي أمير - مكه الذي كان يفاوض الحلفاء مرأ - بإعلان الثورة ضد الأتراك ، ودخول العرب في صف الحلفاء في شهر حزيران (يونية) ١٩١٦م ، أى بعد شهر من تعليق الشهداء على المشانق ، ونستطيع أن نقول أن الملasse كانت أقوى تمهد لإعلان تلك الثورة "[١].

ولكن الأمير شبيب أرسلان ينفي نفياً قاطعاً أن تكون سياسة جمال باشا هي التي أحدثت المسألة العربية مع إقراره بأن سياسة كانت منهورة وخارجية عن دائرة العقول في كثير من الأمور ، فيقول : "جنت الدولة جنابة كبرى على نفسها وعلى العرب" [٢] . إن ترك معاً بأن سلمته زمام سوريا مدة الحرب تسليناً مطلقاً ، مع ما في نحيرته من الاستعداد للإبتداد ، والنشوة بخمرة النهي والأمر ، فمضى في شهواته وأهلواته ، غير حاسب ولا مراقب ، ولا ناظر له ، العاقد [٢] .

ويمضي شكيب في عرض سياسة البطش التي اتبعها جمال باشا في سوريا ثم يقول : " أما كون سياسته هذه هي التي أحدثت المسألة العربية ، ولو لا قتله من قذ . من كبار السوريين وأدبائهم لم يكن نار الشريف على الدولة ، ولا إنشق العرب على لا يك ، فليس ب صحيح . إذ علاقة الشريف بالإنجليز وتحفظه للقيام على الدولة في أول فرصة تلوح يرجعان إلى أيام السلطان عبد الحميد نفسه الذي كان يعلم ذلك ولما أخذ الإتحاديون على يد السلطان وأجبروه على نصب الشريف حسين أميراً على مكة ، مكان الشريف على قال لهم " انتي أبراً من تبعه كل ما سيعمله هذا الرجل لأنني أعرف حقائقه " [٣] . ويؤكد الأمير شكيب أن الشريف حسين كان على إتصال بإإنجلترا من قبل الحرب لعامة واته عرض عليها أن تهد العربي بالسلاح لينقضوا على الدولة ، ويكونوا حلفاء لإإنجلترا في المستقبل ، ولكن الخارجية الإنجليزية رفضت ولم تكتم السبب في رفضها " وهو أن إنجلترا تزيد هي الإستيلاء على بلاد العرب فلا يوفقها أن تعطي جزيرة العرب سلاحاً " [٤] .

[١] الشيخ أحمد الشرباصي ، أمير البيان ، ج ١ ، من ٤٥

[٤] شكب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، ج ٤، ص ٣٩٠

[٣] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، ج ٤، ص ٢٩٠ - ٢٩١.

[١] تكثيف لرسالة ، حاضر العالم الإسلامي ، حد ٤ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١

"ثم ابن الشريف حسين راجع إنجلترا في مشروع التحالف العربي الإنجليزي لأول الحرب ، فلم يحببوه أملأ في استغاثتهم عنه ، فلما اشتدت الحرب على الإنجليز شعروا بالإحتياج إلى العرب ، فعادوا إلى قبول إقتراح الشريف" [١] . وعلى هذا فإن قسوة جمال في سوريا وفته من قتل لم يكونوا سبباً تورّه الشريف في رأي الأمير شكيب ، بل كانت الثورة واقعة سواء قتل جمال من قتل أو لم يقتله [٢] . لذلك لم يكن غريباً أن يمتنع الأمير شكيب عن المشاركة فيما سمى بالثورة العربية الكبرى التي انطلقت من الحجاز بقودها الشريف حسين سنة ١٩١٦م وكان موقف شكيب حينئذ عصبياً ، فقد كان ضد التيار العام ، وخارجياً على رأي الأكثريّة ، وبادياً في صورة من يريد أن يكون عثمانياً أكثر من بنى عثمان ! وإن تكون الأحداث قد جرت بعد ذلك بتحقيق ماتوعد به وحذر منه [٣] .

الأمير شكيب أرسلان والقضية العربية

وإنتهت الحرب العالمية الأولى ، ووقع ما حذر منه شكيب وتقاسمت الدول الاستعمارية البلاد العربية ونكلت بوعودها لحفالاتها العرب ، ومع دخول فرنسا لبنان وسوريا اختار شكيب المنفي ، فغادر الوطن فاقداً تركياً سنة ١٩١٧م . ويستقرّ الأمير شكيب أولاً في بلدة (مرسين) التركية على مقربة من الحدود السورية ، ولكن إقامته لم تطل ، فالهزيمة التي منيت بها تركيا في الحرب ثم دخول اليونان الأراضي التركية قد زلزلتا تماسك الدولة ، فكان صعود مصطفى كمال وتيار الانتدابية الساعي إلى التوريك للصرف وقطع الأواصر بالإسلام والشرق والتحول بدلاً من ذلك نحو العلمنة والأخذ بالطريق الأوروبي . ولما سقطت راية الخلافة العثمانية توجه شكيب لجمع كلمة العرب ودعى إلى وحدته ليرفع برائتها كلمة لا إله إلا الله من جديد . ووضّع شكيب منذ البداية الأمر لداعمة القومية العربية بأن لا وحدة للعرب إلا بالإسلام ، فهو الذي وحدهم وأن الدعوى بالوحدة العربية من أي منطلق آخر غير إسلامي باطلة من أساسها "وان العرب لم يكونوا ليتحدون في يوم من الأيام إلا بالإسلام ولو لا الإسلام ليقوا شعوباً وقبائل يقتلون في جزيرة العرب إلى يوم القيمة" [٤] .

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١

[٣] الشيخ أحمد الشريachi ، أمير البيان ، ج ١ ، ص ٤٦

[٤] شكيب أرسلان ، تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١٦ .

وبعد حين سافر شكيب من (مرسين) إلى (برلين) واشترى هناك بيته أقام به سنوات ، وأخذ يجاهد بقلمه ولسانه وفكرة في سبيلعروبة والإسلام [١] ، ومد يده للملك فيصل بننصره وبزيده دعوه إلى الجامعة العربية ، حتى قال الملك فيصل لشكيب : "أشهد أنك أول عربي تكلم معن في الوحدة العربية ، وأراد أن تكون وحدة عملية " [٢] .

وفي سنة ١٩٢٢ م إجتمع الزعماء العرب في القاهرة ، وشكلوا اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني ، وقرروا تأليف وفد عربي يدافع عن سوريا وفلسطين ، ويتابع المحاماة عن حقوقهما والعمل لاستقلالهما في جمعية الأمم بجنيف ، فانتخبوا الأمير شكيب مسكيبي أول للوفد . وسافر شكيب إلى جنيف سنة ١٩٢٥ م للقيام بهذه المهمة الجديدة بتكليف من قومه [٣] .

وللأمير شكيب أرسلان تراث ضخم من مئات المقالات والخطب ضمنها كبريات مجلات العصر مثل (الفتح والشوري والمؤيد) . وقام الأمير بأمر الوفد السوري الفلسطيني فشرع أبواب الدول وقبل المسئولين ، واحتاج وخطب وكتب ، ونشرت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني مافعله الوفد في الغرب في كتاب عنوانه "أعمال الوفد السوري الفلسطيني من مايو ١٩٢٢ م إلى أكتوبر ١٩٢٢ م " [٤] .

وفي سنة ١٩٢٩ م حج شكيب إلى بيت الله الحرام ، وقد بلغ السنتين من عمره ، وبالتفق بالملك عبد العزيز آل سعود ، ووضع عن هذه الرحلة كتابه "الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف " [٥] .

وفي سنة ١٩٢٠ قام برحالة إلى إسبانيا ، وعاد فكتب كتابه "تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط" . كما بدأ يفكر في إصدار كتابه الجليل "الحلل السنديسية في الآثار والأخبار الأنديسية" وأنشأ في هذه السنة نفسها مجلة بالفرنسية سماها "الأمة العربية" في جنيف [٦] جندتها لخدمة أهداف أمنه ، مما جعل فرنسا تعتبره

[١] الشيخ أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص ٤١

[٢] الشيخ أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص ٤١

[٣] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وأثره ، ص ٨٤

[٤] نمرجع السابق . ص ٨

[٥] الشيخ أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص ٥٦

[٦] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وأثره ، ص ٩١

عدوها الأول في العالم العربي .

وفي سنة ١٩٣٤ وقعت حرب بين ابن السعودية والإمام يحيى ، وقررت لجنة المؤتمر الإسلامي في القدس إرسال وفد إلى جزيرة العرب ، وأختير شكيب في الوفد ، فسافر للإصلاح بين العاهلين ، وكانت له بد فضلي على العرب في جمع الشمل [١] .

وعلى الرغم من جهاد الأمير وبذله لكل طاقته لخدمة أمته إلا أن هذا لم يسكن عنه خصومه ، فقد وقع له أن اتهمته شرزمة ضالة بأنه تواطأ مع السيد أمين الحسيني الزعيم الفلسطيني على السير في ركاب إيطاليا لقاء مال تناوله ، ثم تبين أن التهمة ملفقة وأن ورائها الإنجليز لينالوا من سمعته ويضعفوا منزلته في قومه غير أن هذه التهمة الباطلة شغلت من وقت وجه الأمير الشيء الكثير [٢] .

وكان لا بد لشكيب أن يعيش في المنفي لأن وجد أن عدة دول تطارده ، ففرنسا تزيد الإنقسام منه لتلبيه شعبي المغرب والشام عليها ، وإنجلترا تزيد الإنقسام منه لاتصالاته بالوطنيين في البلدان التي تحتلها ، حتى تركيا التي لجأ إليها من قبل لم يعد بإمكانه بحسبها ليولته بعد أن خلعت لباس الإسلام وتعرّت بالعلمانية ولحملته على تذكر الحكم الاتراك للخلافة والإسلام ، وملك الأفغان أمان الله خان يطلب رأسه لأنه وقف ضد سياسة هذا الملك المتفرنج الذي كان يقلد مصطفى كمال في كل شيء . حتى مصر كان " الملك فؤاد " يطارده ويعنجه من دخولها [٣] .

وفي سنة ١٩٣٧ سمع للأمير بن يزور سوريا ، فطاف بلدانها وخطب في قومه ، وإختار المجمع العلمي العربي بدمشق رئيسا له تكريما له لجهاده وإكثار أليده . ولكن فرنسا عادت فنقضت المعاهدة التي كانت قد عقدتها مع سوريا سنة ١٩٣٦م فترك شكيب رئاسة المجمع ، وعاد إلى أوروبا [٤] .

وفي سنة ١٩٣٩م أذن المسؤولون في مصر له بزيارتها ، فزارها وقضى فيها نحو أربعة أشهر ثم عاد إلى أوروبا وقد بلغ السبعين من العمر [٥] .

[١] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وأثاره ، ص ٩٢

[٢] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وأثاره ، ص ٩٥

[٣] أحمد الترباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة ، ص ٤٨

[٤] أحمد الترباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة ، ص ٥٣

[٥] أحمد الترباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة ، ص ٥٣

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ م خرجت فرنسا من سوريا ولبنان . وتحققت أكبر أمنية من أماني حياة شكيب وقد جلوز السادس والسبعين من العمر ، فعاد إلى وطنه فقيراً مريضاً بعد أن وهب كل ماله وكل نبض قلبه في سبيل أمنه ، ولكنك كان سعيداً يوم وصل بيروت في ٣٠ أكتوبر ١٩٤٦ م فاستقبلته لبنان عن بكرة أبيها ، وتتابعه عالمه الإسلامي باعجاب وإكبار ومحبة .

وفي يوم الإثنين ١٥ من المحرم سنة ١٣٦٦ الموافق ٩ من ديسمبر سنة ١٩٤٦ م لحق شكيب لرسلان بربه ، بعد حياة طويلة حافلة . وصلوا عليه في جامع العمرى ببيروت ثم نقلوا جثمانه إلى قريته " الشويفات " حيث دفن فيها بجوار أخيه عادل لرسلان [١] . وكان آخر مقالة للأستاذ عبد الله المشنوق ، حينما التقى به قبل موته بأيام : أحمد الله عز وجل الذي سهل لي أن أفارق الحياة على أرض هذا الوطن الذي أحبه ، وإنما سعيد أن أدفن في تربة طاهرة لائزف فرقها رالية أجنبية ، وإنما سعيد أن ألاقي وجه ربني الكريم ، فاعيد هذه الأمانة إلى بارئها بعد أن تحقق أحلام طفولتي في هذه الجامعة العربية حرسها الله . وسأخبر رفقي في الجهاد أن تصحياتهم لم تكن عبثاً . وتحدرت من عيني الأمير دمعتان ، ونهض واقفاً وجذب بد الأستاذ المشنوق وقال له : لي وصية واحدة أود أن أوصي بها فهل تدعني بأن تنقلها إلى العالم العربي بعد وفاتي ؟ ، قال : نعم ، وهنا طوفه شكيب بذراعيه المرتجفين وقال بصوت كادت تخنقه العبارات : لوصيكم بفلسطين [٢] .

[١] أحمد الشريachi ، شكيب لرسلان داعية العروبة (مرجع سابق) ، من ٥٥

[٢] لماذا تأخر المسلمون ؟ نظرة عامة عن أمير البيان ، من ١٩ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت

، عمر على الطاهر ، ذكرى الأمير شكيب لرسلان ، من ٥٠٥ - ٥٠٦ ، بيروت ١٩٧٧ م ط ٣ .

الأمير شكيب أرسلان

نسبة وأسرته

ينتسب الأمير شكيب إلى أسرة آل أرسلان، وهي أسرة عربية من سلالة القبائل العربية الذين عرموا في التاريخ بالمناذرة ملوك الحيرة، وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور قد طلب منهم أن تترجع بعض بطون قبائلهم إلى لبنان لحماية السواحل من بعثات الروم وتأمين الطرق من بعض السكان هناك الذين عرموا بالمردة، واعتذروا نهب القوافل والغارة على القرى والمدن ومساعدة الروم في حرب المسلمين، فقصد عثمان بن زعامة القبيلة هما الأمير المنذر بن مالك وأخوه الأمير أرسلان لطلب الخليفة ورحلة بجموعهما سنة ١٤٢هـ إلى جبال لبنان بعد أن أقاموا عدة أيام في وادي نيم حيث كان ينزل بنو عمومتهم، وتفرقت هذه الجموع العربية في جبال لبنان، وكانت لهم موقع مع المردة كان الانتصار فيها للعرب فذاع أمرهم وقوى شأنهم وأفقرهم الخلفاء العباسيون على إمارة هذه الأقاليم التي صارت إقطاعات لهم [١].

واستمرت هجرة القبائل العربية إلى لبنان وحواران ووادي البتم، واقتسم إمارة منطقة حواران بنو شهاب القرشيين والأمراء التتوخيون [٢].

وفي عام ٨٧٥هـ هزم الأمير النعمان بن عامر الأرسلاني جحافل المردة على نهر بيروت هزيمة منكرة جعلت الخليفة العباسي المتوكلا يكتب إليه يمدحه ويقرره على ولايته له ولذرته من بعده ويرسل إليه سيفاً ومنطقة وشاشاً أسود شعار العباسيين [٣].

دخول آل أرسلان في الدعوة الفاطمية

وفي سنة ٣٥٨هـ قامت جيوش العز الدين الله الفاطمي بقيادة جعفر بن فلاح لفتح بلاد الشام.

[١] د. محمد كامل حسين، طائفة الدروز، دار المعرفة، من ٨

[٢] المرجع السابق، من ٩

[٣] المرجع السابق، من ٢٣

وبعد أن استولى على الرملة وطبرية كتب إلى الأمير سيف الدولة المنذر بن النعمان عامر أمير بيروت يدعوه إلى بيعة المعز ، فاستشار سيف، الدولة عشيرته فأجمعوا على مصانعه حتى يروا ما يكون منه ، فلما استولى جعفر بن فلاج على دمشق سار إليه سيف الدولة وزعماء قومه وباليه للمعز لدين الله ، وبذلك دخلت هذه القبائل في الدعوه الفاطمية [١] .

وأقر الفاطميين الأمراء الأرسلانيين على سنجدهم من الولايات الإقطاعية وأصبحوا من شيعة الفاطميين - مع أن الأمير سيف الدين المتوفي سنة ٣٦٠ هـ كان من أعلم أهل زمانه بمذهب مالك وله في ذلك كتاب "يسير المسالك إلى مذهب مالك" كما كان على علم تام بأصول مذهب الأوزاعي وله في ذلك كتاب "الأقوال الصحيحة في أصول مذهب الأوزاعي" [٢] .

ثم أخذت الدعوة الفاطمية تنتشر في بلاد الشام بفضل الدعاية المنظمة التي وضع الفاطميون نسها ، وكانت قبائل تنوخ في بلاد المعرة وفي وادي القيم وجبل لبنان أسرع أهالي الشام قبولاً لها وبالرغم من وجود بعض حركات ثورية في الشام كان الغرض منها الرجوع إلى الدعوة العباسية فلن كل هذه الحركات باعت بالاخفاق إلى أن جاء الحكم بأمر الله الفاطمي وأعلن مذهبة الجديد ، فكان أهل وادي القيم وحوران وجبل لبنان هم الذين قبلوا هذه العقيدة وظلوا يحافظون عليها إلى الآن .

وعلى الرغم من تمسكهم أن أرسلان وأهل وادي القيم وحوران وجبل لبنان أو من اصطلح على تسميتهم (بالدروز) بهذه العقيدة إلا أن ذلك لم يحل دون قيامهم بأعمال بطولية مع إخوانهم المسلمين في الحروب الصليبية مما يذكر لهم في التاريخ في صفحات الفخر والاعتزاز . ففي سنة ١١٠٠ م حارب أهل وادي القيم جيوش (بلاطين) الفرنسي في مغارة نهر الكلب وفي السنة التي تلتها حاربوا جموع ريموند . وفي سنة ١١١٠ م حاول بلاطين فتح بيروت وحاصرها براً وبحراً ودافع عنها الأمير شجاع الدولة الأرسلاني ، فاضطرر بلاطين إلى أن يستعين بالمردة والإمارات الصليبية في شمال لبنان وفلسطين ، وتكللت جموع الصليبيين والرسلانيين بدفعون عن بلدهم دفاعاً مجيناً واستمر القتال زهاء شهرين

[١] طائفة الدروز ، مرجع سابق ، ص ٩

[٢] المرجع السابق ، ص ٤

إلى أن سقطت المدينة بعد أن قتل عدد كبير من الأمراء الأرسلانيين .

وفي سنة ١١٢٦ م بدأ الأمير مجد الدين بنظم صفوته (جموعه) وأخذ يهاجم بهم الصليبيين حتى قتل فتولي الإمارة بعده أبو العشار ناهض الدين بحتر بن عضد الدولة الذي سار سنة ١١٥١ م الواقع بالصليبيين هزيمة منكرة عند رأس التينة [١] .

وفي حروب التتار - وخاصة في موقعة عين جالوت - كان الأمير زين الدين صالح الأرسلاني يقود رجاله بجانب المماليك حتى تم الفوز للمسلمين .

وفي سنة ١٥١٦ م قام السلطان سليم الأول العثماني بغزو الشام ومصر ، وانضم إليه آل معن وأل أرسلان برجالهم من الدروز ؛ فأعترف العثمانيون لهم بالإمارة في لبنان وتولى الأمير جمال الدين الأرسلاني [٢] بلاد الغرب والمنزل والجرد ، ثم أصبح أميرا على جبل لبنان الجنوبي .

من هذه اللمحات التاريخية عن أسرة آل أرسلان العريقة ، تتضح سياستها - التي تمثل سياسة الدروز في كل العصور - وهي سياسة عربية إسلامية قبل كل شيء . كما يظهر نسبهم العربي الأصيل بخلاف من زعم غير ذلك ، وقد بلغ من حرصهم على ثبات نسبهم أن كل أمير منهم كان يذهب إلى النقائص من العلماء والشيوخ الأجلاء ليكتب له سجلاً بنسبه ، وقد نشر للمرحوم شبيب أرسلان هذا السجل في آخر ديوان شقيقه نسيب أرسلان وهو الديوان المعروف "بروض الشقيق في الجزل الرقيق" .

والحق أن الأمير جهد جهداً كبيراً في كتابة هذا النسب فعاد إلى مصادر التاريخ يتبعها ويناقشها ويعالج نصوصها على عادة القدماء لينتهي إلى مثل النقاوة في بيان تاريخه وتاريخ أهله وختم بقوله : "والقارئ يرى إننا تحرينا جهد الاستطاعة وعرضنا الروايات والأراء ، ولم يكن استقصاؤنا في هذا البحث إلا لأجل تحصين ناحية من نواحي التاريخ العربي هي أخبار عرب لبنان والسواحل الشامية من زمن التاريخ ، وكذلك جرياً على شنفشه العرب في حفظ أنسابهم والتقبّل عن أخبار أجدادهم ، والناس مأمونون على أنسابهم ، وفوق كل ذي علم عليهم " [٣] .

[١] طائفة الدروز ، مرجع سابق ، ص ١٠

[٢] بين الأمير سيب بنضمام قومه للسلطان سليم في مقدمة ابن خلدون ، ص ١٧٥

[٣] شبيب أرسلان ، روض الشقيق ، ص ٢٦٦

الفصل الثاني

طائفة الأمير شكيب أرسلان

مكانة آل أرسلان في المجتمع الدرزي

باسم الدروز كان - ولابزار - مثار مناقشات عديدة بين الكتب والمؤرخين ، فالمعروف أن هؤلاء الأقوام لا يحبون أن يلقبوا بهذا اللقب ويستنكرون أن ينسبهم أحد إلى الداعي نوشترين الدرزي - الداعي القاطمي - والذي يرمونه باللحاد والخروج عن دعوتهم وعقيدتهم ، ويطلقون على أنفسهم اسم (الموحدين) ، وهو الاسم الذي عرفوا به في كتبهم المقدسة^[١] . والدروز يتقسمون مدنياً إلى إمراء ومشايخ وعامة ، الأمراء هم آل أرسلان في لبنان ، وهم الذين يتولون الزعامة السياسية يشاركون فيها الجمبلاطية وهؤلاء من المشايخ ومن المشايخ أيضاً الزيكبية والشقراء في لبنان^[٢] .

اما الدروز بسوريا فيتولى الزعامة السياسية فيهم بيت الأطرش ويتوسطها الدينية بينما الهجرى والحلبي ، "وهم متبررون رسمياً من المسلمين" ولكن لاتسرى عليهم قوانين وأحكام المحاكم الشرعية بل لهم قاضي مذهب يفصل بينهم في أمورهم الشخصية^[٣] .

طبقات المجتمع الدرزي عند الدروز

هذا التقسيم الذي ذكرناه لمجتمع الدروز من الناحية المدنية ، أما من الناحية الدينية فهم ينقسمون إلى عقال لو اجاويد أي الذين لهم الحق في معرفة شيء من العقيدة السرية ، وهم ثلاثة أقسام رؤساء وعقلاء وأجاويد ، ويسمى رئيسهم للديني (شيخ العقل) ، هؤلاء (العقل) هم طبقة رجال الدين الدارسين له الحفاظ عليه ، وهم أهل الوعظ والإفتاء ويدهم رحمة الموتى أو تركهم خارجها^[٤] .

والعقل في المجتمع الدرزي يعرفون بعمائهم وليس القباء الأزرق الغامق ويطلقون لفظاً ، ولهم نفوذ كبير على الدروز ، وهم موضع الهيبة والخشية^[٥] .

[١] طائفة الدروز تاريخها و عقائدها ، د . محمد كامل حسین ، ص ٦

[٢] عبد الله الأمين ، دراسات في الفرق والذاهب القديمة المعاصرة ، ص ١٤٣

[٣] المرجع السابق ، ص ١٥٣

[٤] د . محمد كامل حسین ، طائفة الدروز (مراجعة سلیق) ص ٦٩

والقسم الثاني من طبقات المجتمع الدرزى وفي درجة دينية متواضعة عن طبقة العقال تأتى طبقة الجهل : أى عامة الناس ، وهؤلاء ليس لهم الحق في معرفة أسرار الدين " على أن طبقة الجهل يسمح لهم بأن ينتقلوا إلى طبقة العقال بعد امتحان عسير شاق يقوم على ترويض النفس وإخضاع شهواتها مدة طويلة "[١] . وبعد أن يعطى الدين يصبح من الأجاويد ويتحتم عليه عدم التغريط فيه أو التصرير به و يجب عليه كتمانه عن غير أهله .

والنساء في المجتمع الدرزى ينقسمن أيضاً إلى عاقلات وجاهلات مثل الرجال تماماً لافرق بين الرجل والمرأة ، والنساء العاقلات يلبسن النقاب وثوبًا اسمه (صالية) على أن الغالب على نساء الدروز هو الحجاب .

وأماكن العبادة عند الدروز تعرف بالخلوات (جمع خلوة) ويجتمع فيها العقال في مساء كل يوم جمعة لسماع ملئي عليهم من الكتاب المقدس ، " وبعد ثلاثة المقدمات يخرج من الخلوة طبقة الدنيا من العقال ، ثم بعد ثلاثة بعض الرسائل البسيطة التي ليس بها تأويلات تخرج الطبقة الثانية بحيث لا يبيت إلا رجال الدرجة الأولى الذين لهم وحدهم الحق في سماع الأسرار العليا للعقيدة ، أما الجهل فلا يسمح لهم بحضور هذه الخلوات أو بسماع شيء من الكتب المقدسة إلا في يوم عيدهم وهو يوافق عيد الأضحى عند المسلمين ! "[٢] .

سرية العقائد الدرزية

ومن الحديث عن العقال والجهل ونظام الخلوات السرى يتجلى لنا مدى حرص الدروز على سرية معلوماتهم الدينية وحرصهم على كتمانها وعدم التصرير بها ، لذلك فإن الدروز يصنفون ضمن الفرق الباطنية لإيمانهم بالحقيقة والقول بباطلها ، وبسرية العقائد . " فالعقيدة الدرزية تأخذ السرية على أنها مسلك ونهج أساسى وأصل من أصول عقيدتهم ، وليس تقىء فى المعنى والتقصد العادى الشائع وهو الخوف والاستثار من المكرور ، فهي كما يزعمون وقاية للحقيقة والمستضيقين بها ولمن لا يستطيعون ادراكها "[٣] . وقد نشأ عن هذه السرية

[١] المرجع السابق ، ص ١٥٣

[٢] د. محمد كامل حسین ، طلاقة الدروز ، مرجع سابق ، ص ٢٨ - ٢٩

[٣] الحركات الباطنية في العالم الإسلامي (د. محمد أحمد الخطيب ، ص ٢٩٥) - أصوات على مسلك التوحيد (د. سامي مكارم ، ص ٩٧) - وعقيدة الدروز (عرض ونقد د. محمد أحمد الخطيب)

التي تحيط مذهبهم كثير من الحدس والتخمين والإشاعات فيما يتصل بعقائدهم وعبادتهم ، يقول الشاعر خليل مردم بك رئيس المجمع العلمي " ومن الناس من جاوز مهيع البحث الى ترهات التأليف فتبع بتذوين الأفاسيس والتکانیب ... شأن بعض المستشرقين في كثير مما يكتبون عن الشرق و منهم من لجا الي الفربة فاختلق و افترى هشاشة . كل ذلك وينو معروف [١] معتصمون بالصمت ، كلهم يتآمرون من الاصفاح بشيء عن كنه مذهبهم " [٢] .

" أما القلة من بين الدروز التي ألمت بسر الدعوة وأحاطت بهكذا الرسالة فقد أثبتت عليها منزلتها الروحية ان تقضي بما تعلم الي غير المؤهلين المستكفيين و حجتها في ذلك أن باب الاستجابة للدعوة أغلق منذ قرابة ألف عام " [٣] .

كل ذلك جعل دراسة عقيدة الدروز أمراً صعباً لما يحيط بها من غموض ولخفائها عن أكثر الناس ولاسيما من بين الدروز أنفسهم ، حتى أن الدكتور محمد كامل حسين ، أستاذ الأدب في كلية الآداب جامعة القاهرة والذى عنى عناية كبيرة بالكتابة عن الشيعة والاسماعيلية خاصة يقول في مقدمة كتابه " طائفة الدروز - تاريخها وعقايدها " إن بعض أصدقائه سأله أن يضع كتاباً عن الدروز ويطلق على ذلك بقوله " وليس بعجب أن يكون هؤلاء الأصدقاء من الدروز أنفسهم الذين صرحو الى بأنهم لا يعرفون شيئاً عن عقيدتهم بالرغم مما هم عليه من تقالة واسعة أهلتهم أن يشغلوا مراكز هامة في المجتمع " [٤] .

" وما يذكر في هذا إيمال أن اعلاماً عديدة من الدروز طالبوا بشده مشيخة عقل الدروز بالإفراج والإعلان عن حقيقة العقيدة الدرزية ولكن مشيخة العقل لصمت لأنها عن كل هذه الأصوات وخاصة أصوات الدروز في المهجـر وفي مقدمتهم الدكتور نجيب العسراوى الذى ماقـتـه بطلبـ بذلك ، وعندما ينسـ من ذلك أصدر كتابـ عن هذه العقائد باللغـة البرتـغـالية حتى لا يقرأـ كل الناس " [٥] .

[١] يقصد الدروز الذين عرفوا بهذا الاسم، لاستهارهم ببساطة المعروف

[٢] مذهب الدروز والتوحيد ، عبد الله النجار ، من ٨ و ٩

[٣] مذهب الدروز والتوحيد ، عبد الله النجار ، من ٩

[٤] طائفة الدروز ، عرض ونقد / محمد كامل حسين ، من ٤

[٥] الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، د. محمد أحمد الخطيب ، من ٢٠٠

اما عبد الله النجار فقد كان اكثرا شجاعة وعملية إذ أصدر كتابه (مذهب الدروز والتوحيد) ويسلط فيه باللغة العربية وبأسلوب سهل مالطلع عليه - ودقق فيه كل التدقيق - من قواعد المذهب وفلاسفته محاولا بذلك كسر جدار السرية الذي أحاط به شيوخ الدرزية مذهبهم يقول عبد الله النجار في مقدمة كتابه " ومن أولى من أصحاب البيت بتلبية نداء العلم ، وفتح الأبواب علي مصراعيها ولو كره المطمئنون خلف جدرانه . ففي ذلك تحقيق لرغبة المستطعين ومعظمهم من أبناء المذهب نفسه " [١] .

وعلى الرغم من رغبة الاستاذ عبد الله النجار في تقديم خدمة لاخوانه في المذهب وغيرهم على السواء ، بل رغبته في تقديم محاولاته في نشر مذهبهم الى المكتبة العربية لسد فراغ فيها لاغنى لها عنه في تكاملها إلا أنه كان يتوقع أن تثور عليه ثورة الدروز ، وتتصب عليه نعمتهم ، حين بسط أمام الناس فلسفة هذا المذهب ، وأعلن أسراره .

وقد كان ما توقعه الاستاذ عبد الله النجار ، فقد حاكمه مقلتيخ الدروز لفضحه أسراره بيته ، وجمعوا نسخ الكتاب من الأسواق وأحرقوها وصدر بأمر من مشيخة العقل كتاب ألفه الدكتور سامي مكارم وقدم له الاستاذ كمال جنبلاط يرد فيه على كتاب الاستاذ النجار [٢] .

ويحدثنا الشيخ أحمد الشرباصي انه سمع من الاستاذ أنيس فريحة في أول يناير سنة ١٩٥٥ م أن له رسالة مخطوطة عن عقائد الدروز المعاصرين ولكنها لا يستطيع نشرها ، وسمعه يؤكد أن العباديه الدرزية القديمه مازالت موجودة وان كانت مستوره على سبيل التقىه [٣] .

[١] مذهب الدروز والتوحيد ، عبد الله النجار ، من ٩

[٢] الحركات الباطلية ، من ٢٩٩ (مرجع سابق).

[٣] أحمد الشرباصي ، شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام ، من ١٨

عقيدة الأمير شبيب أرسلان

هل كان الأمير شبيب أرسلان درزيًا في عقيلته كدرزيته في نسبه؟ . يؤكد الشيخ أحمد الشريachi أن الأمير بعد من الناحية الشكلية درزيًا ، ولكنه في الإعتقداد سنياً وكان يتبع على مذهب أهل السنة ، فهو بصوم ويصلى ويزكي ويحج كما يفعل جمهور المسلمين [١] .

ويشير الشيخ في موضع آخر إلى تأكيد زوجة الأمير أن زوجها سني المذهب وينقل عنها قولها أن الدروز يحرمون الزواج من سنية ولكن زوجي تتزوجني وأنا سنية مسلمة . ويتعلق الشيخ على ذلك التناقض بين نسب الأمير شبيب وعقيلته بقوله : وقد تسبب هذا الوضع في متابعة لشبيب ، فمن الدروز من لا يرون أنه درزيًا كاملاً ، ومن السنين من لا يرون أنه سنيًا كاملاً ، فضلاً عن حقه بين هؤلاء وهؤلاء [٢] .

ونحن أيضاً نتساءل : إذا كان الأمير شبيب سنيًا في عقيلته فلماذا كان يحرص على الدفاع عن عروبة الدروز وبسلامتهم وكرم أخلاقهم وتوكيد الدائم على أن فرقة الدروز فرقية إسلامية في كل شيءٍ كغيرها من الفرق الإسلامية التي لها تعاليمها الخاصة ومع ذلك لا يخرجون عن جملة المسلمين . ونحن لا نشك في نسبة الدروز العربية ، فهم يعتزون بعروبيتهم حتى أنهم غيروا باسم جبل الدروز إلى اسم "جبل العرب" بمعناها في عروبيتهم [٣] ولكننا لا نتفق مع الأمير شبيب أرسلان في قوله أن فرقة الدروز فرقية إسلامية في كل شيء ، وأن تعاليمها الخاصة لا تخرجها عن جملة المسلمين ، وسيأتي تفصيل ذلك عند

[١] أحمد الشريachi ، الأمير شبيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص ٤٤ .

[٢] أحمد الشريachi ، أمير البيان شبيب أرسلان ، ج ١ ص ٧٤ .

[٣] د. محمد كامل حسين ، ثلاثة الدروز ، ص ١٦٦ (مرجع سابق)

مناقشة موقف الأمير شكب أرسلان الكلامي من فرقة (الدروز) ، في باب الآراء الكلامية عند الأمير شكب أرسلان .

غير أنها نرى من خلال دراستنا لفكرة الأمير شكب أرسلان أنه كان - كما أكد الشيخ الشرباصي - سنياً في عقيدته ، وفي فهمه للإسلام ، وفي حرصه وغيرته على القرآن الكريم ، ونبي الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي دفاعه عن اللغة العربية لغة القرآن ، وفي إيمانه الراسخ بأن أسباب التقدّم والرقي في العالم الإسلامي كلها محصوره في التمسك بمبادئ الإسلام ، وإقامة شريعته ، وفي جمع كلمة الأمة الإسلامية .

يقول شكب أرسلان "إن أسباب الارتفاع كانت عائدته في مجملها إلى دينه الإسلامي ... فالقرآن قد أنشأ إذاً العرب نشأة مسأفة وخلقهم خلقاً جديداً وأخرجهم من جزيرتهم والسيف في إحدى الدين والكتاب في الأخرى يفتحون ويسيرون ، ويتمكنون في الأرض بطولها وعرضها" [١].

هذه هي منزلة القرآن في فكر الأمير شكب أرسلان وفي عقيدته وسنن ذلك نجده هو القاعدة التي ينطلق منها دائمًا في آرائه الكلامية والفلسفية وفي فكره السياسي .

ويتجلى فهم الأمير شكب أرسلان لعقيدته من خلال احتفاله بالدعوة (الوهابية) وتعريفه لها بأنها حركة إثابة إلى العقيدة الحق ، وذلك في تعليقاته على فصل البقطة الإسلامية في كتاب (حاضر العالم الإسلامي) ، يقول شكب "لainكر أن الوهابية هي نهضة في الإسلام عظيمة ممتدة في أكثر بلاد العرب وفي الهند ولكن المقرر أنها حركة إثابة إلى العقيدة الحق وهدى السلف الصالح وافتقاء أثر الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة ، ونبذ الخرافات والبدع ، ومحظر الاستغاثة بغير الله، ومنع التمسمح بالقبور والتبعيد عند مقامات الأولياء ، ولذلك يسمونها عقيدة السلف ، وبيلقب الوهابيون أنفسهم سلفيين بأكثر إعتمادهم في الاجتهاد على الإمام أحمد بن حنبل ، والإمام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية" [٢].

ولقد من بنا أن الدروز ينقسمون من الناحية الدينية إلى عقال وأنجاشود أو الذين لهم الحق في معرفة شيء من العقيدة السنية ، ويجعلون لرجال الدين زياً خاصاً بهم ، والقسم الثاني

[١] شكب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ص ٤١

[٢] شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، حـ ١ من ٢٦٤

هم الجهل الخ .

وشكيب أرسلان ينكر كل هذا ويرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم (صاحب الرسالة) " كره أن يعنى وظائف دينية يتولى القيام بها رجال مخصوصون ، فالإسلام من حيث الأصل لم تنص كتبه الشرعية من من المسلمين يتولى القيام بالوظائف الدينية ، على حدهما هو الأمر في النصرانية واليهودية والبرهمية وغيرها . فاي مسلم يستطيع أن يقوم في المسلمين إماما " [١] .

ويحذر الأمير من البدع وإن حسنت نية أصحابها ، ومن تقليد أتباع الأديان الأخرى في طقوسهم وأزيائهم التي تختلف روح الإسلام ن فيقول : >> كنت يوماً في المدينة المنورة فشاهدت فيها شيخ الحرم النبوى (وكان يومئذ زبورك مدير المذاهب في الأستانة سابقاً) وبعض خدمة الحرم في ساعة مخصوصة بعد العصر ، يدخلون الحجرة الشريفة لإيقاد الشموع والقيام ببعض الخدمات المرسومة ، وقبل دخولهم يلبسون جميعهم وشاحاً أبيض شفافاً ، وكلهم يرتدون بذلك زيادة التعظيم والتوقير ، فذكرني ذلك بالأوشحة التي هي من النوع نفسه يلبسها بعض رجال الأديان الأخرى التي فيها مالبس في الإسلام من الرتب الدينية والدرجات الكنسية ، وذلك عندما يدخلون إلى معلبهم ، وهم لا يلامون على ذلك لأن خدمة الدين طبقة مخصوصة عندهم بخلاف الإسلام "[٢] .

ويستطرد الأمير في بيان مأوقع في نفسه من إنكار هذه العادة، التي ينكرها من كان يفهم روح الإسلام جيداً [٣] ، ثم يستشهد بالحديث الشريف : " لتبعدن سنن من قبلكم شيئاً بشير وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه " [٤] .

والحق أن الدارس لفكرة الأمير من خلال مؤلفاته يلمس أن قلب الأمير شكيب قد وسع للعلم الإسلامي كله حباً وابكيلاً وتقديراً ، ويشعر في كتابه أن روحه الإسلامية العربية ، لا تفرق بين مذهب ومذهب ولا بين أمة وأمة ، لذلك فقد جهد الأمير جهداً كبيراً في دعوة المسلمين

[١] المراجع السابق ، ص ٢٧٠

[٢] ، [٣] ، [٤] المراجع السابق ص ٢٧٢ (هامش)

في الشرق الى الاتحاد والتضامن في مواجهة الغرب الارببي ، ويدعو المسلمين لنبذ اسباب الفرقه والتناحر التي زرعها الغرب فيما بينهم ، فيقول : " وبعد أن تقرر وجود هذا التضامن المبين بين جميع الأوروبيين في وجه الاسلام والشرق باسره ، لاعجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً، لاسيما أن بين هؤلاء رابطة دينية "[١]. ويقول أيضاً دفاعاً عن القضايا العربية الاسلامية : " اذا كان عمل فرنسة منذ اول احتلالهم لسوريا أى منذ ١٩١٨ الى ساعة تحرير الامير للسطور ، لم يفتروا يوماً واحداً عن تأريث الضغائن الدينية بين المسلمين والنصارى في سوريا ، وبين النصارى والدروز في لبنان بعد أن كانت هذه الضغائن والذحول قد سكتت وتلاشت تقريباً ، فتجد سوريا ولبنان اليوم في أسوء حال من هذه الجهة مما بذرته بد الاحلال ، التي ظلت أنها لا تمتد الا على بساط شقاق ، ولا تتمكن الا من خلال فتنة "[٢] .

من النصين السابقين يظهر مدى حرص الامير علي وحدة الصفة العربي الاسلامي وحرصه على حد الأمة على نبذ الخلافات والمنازعات المدسوسة بينهم ليقف المسلمون صفاً واحداً في مواجهة عدوهم جمِيعاً المتربص بهم . ومن هذا المنطلق دافع الامير عن عقيدة الدروز وارتباطها بالعقيدة الاسلامية لحفظ المسلمين ووحدتهم في مواجهة عدوهم المشترك . وهذا ما ثبته الامير في مقاله نفسه بقوله :

"ولهذا أنا لأنفهم : ماروجه الضرورة لفتح مسألة ديانة الدروز وما فيها من مخالفة الاسلام ، في وقت يسفك فيه الدروز دماءهم بسراقة في الدفاع عن حوزة تسعه أعشارها المسلمين ، لأن الدروز في سوريا ١٥٠ ألف نسمة ، والمسلمين يزيدون عن المليونين "[٣]. وهذه الفقرة الأخيرة تبين بجلاء السبب الأساسي الذي كتب من أجله مدافعاً عن الدروز ، بداع من حرصه على الا ينشغل المسلمون بمعارك جانبية فيما بينهم تزيد من ضعفهم في مواجهة الأعداء الحقيقيين الذين يسعون بكل طاقتهم لزرع الشقاق بين فرق المسلمين المختلفة

[١] حاضر العالم الاسلامي ج ٢ من ٣٢٨

[٢] المصدر نفسه ج ٢ من ٣٤٠

[٣] مجلة الشورى - عدد ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٥ .

لأنهم علموا أنهم لا يمكنون الامن خلال فتنة .

والدارم لمقالات الأمير وكتبه يجد أن الحرص على جمع فرق الاسلام جميعا تحت لواء واحد كان هدفه دائما مع اعترافه بوجود انحرافات شديدة عند بعض الفرق عن العقيدة الإسلامية الصحيحة ، ولم يكن يطبق هذا على الدروز وحدهم لأنهم قومه بل كان حريصا على اتباعه مع فرق وقبائل وشعوب إسلامية أخرى . فعندما ذكر ماقعده الفرنسيون في لبنان من بث الفرقه بين أبنائه ، تذكر ماقعده أيضا في الجزائر من زرع للشقاق بين العرب والبربر فقال " وليس بصحيح أنه لما دخل الفرنسيون الجزائر كان فيها ٨٠٠ ألف بربر غير مسلمين ، فالإسلام دين البربر قاطبة منذ أكثر من ألف سنة ، وللسان العربي هم يعرفونه جميعا إلا ماندر من جهلائهم . وقد اجتهد عمال فرنسا كثيرا في فتنتهم في دينهم ، ووقفوا إلى بعض ماقضوه وذلك بأن أدخلوا عليهم الشكوك في عقائدهم ، فأصبح بعضهم معتظين أو ملحدين ، ولكنهم لم يتمكنوا من نقلهم من الاسلام إلى النصرانية [١] .

وعندما يتحدث عن فتح الترك القسطنطينية ويصل به الحديث إلى (البردة التبوية الشريفة) التي أخذها السلطان سليم العثماني من آخر خلفاء بنى عباس ، وقد أعد لها لترك بناء خاصا بها ، وكان السلاطين يحتفلون بزياراتها في وسط رمضان احتفالا غربيا يصفه الأمير شكيب وقد حضره مرارا فيقول : " كان السلطان يجلس على دكة وأمامه الصندوق الذي فيه السفط الذي فيه البردة وهم يقولون لها " خرقت سعادت " . ثم يتقدم الرجال المدعون للحفلة واحدا بعد واحد بالترتيب بحسب برنامج معلوم ليرقى الواحد منهم درجة الدكة ويصير أمام الصندوق ، وينحنى ، ويقبل الصندوق من أعلىه " . ويستمر الأمير في وصف هذا الاحتلال الذي لم ينزل الله به من سلطان ثم يعلق على هذا بقوله :

" لعل أخواننا الواهليين يستهجنون هذه المراسم ولا يرون تقبيل الآثار التبوية أو الأصونة التي فيها مما يستحب شرعا الا أنه ليس شيء من هذه الامور منويا به غير مجرد

التذكرة والتبرك وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ملوى" [١].

ومن دفاع الأمير شكب عن البربر والترارك يتبع نزعة الأمير إلى الوحدة الإسلامية وحرصه على أن ينأى المسلمون بأنفسهم وبما خواطئهم في الدين عن رميهم بالكفر لأوهى الأسباب مع اعتقاده بوجود إتحرافات عن جوهر العقيدة الصافية وهو في موقفه هذا يقرر قول الشيخ محمد عبده أنه : " اذا صدر قول يحتفل كفر من مائة وجه ويحمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر" [٢].

ولقد حصر الأمير شكب أسباب ارتقاء المسلمين في الماضي في تمسكهم بالديانة الإسلامية التي جمعت العرب بعد فرقاً ، وبعدم عن الخلاف الذي عاد فدب بينهم في أواخر خلافة عثمان وفي خلافة على فعطل تقدمهم وأوقف فتوحاتهم .

يقول الأمير عن أسباب ارتقاء المسلمين في الماضي : " إن أسباب الارتقاء كانت عادة في مجلها إلى الديانة الإسلامية التي كانت قد ظهرت جديداً في الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب ، وتحولوا بهدايتها من الفرقة إلى الوحدة ، وهن الجاهيلية إلى المدنية ، ومن القسوة إلى الرحمة ، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد ، وتبدلوا بأحوالهم الأولى أزواجاً جديدة ، صيرتهم إلى ماصاروا إليه من عز ومنعة ، ومجد وعرفان وثروة ، وفتحوا نصف كره الأرض في نصف قرن ، ولو لا الخلاف الذي عاد فدب بينهم منذ أواخر خلافة عثمان وفي خلافة على رضى الله عنهم لكانوا أكملوا فتح العالم ولم يقف في وجههم واقف " [٣] .

وهكذا يرى الأمير في الخلاف بين المسلمين الأفة التي فرقت جمعهم ، وأوقفت تقدمهم في الماضي ، ويرى أن مستقبل العالم الإسلامي مرهون باتحاده اتحاداً تاماً ، حتى يمكنهم الدفاع عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء .

[١] حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٣١ ، مع ملاحظة أن هذا الاحتلال وإن كان ابتداعاً في الدين إلا أنه لابد من الكفر .

[٢] الإسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده ص ٥٧

[٣] شكيب لرسلان لماذا تأخر المسلمون ص ٤١

"جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامي يجب عليه أن يتحدى اتحادا دفاعيا تاما ، مستمسك بالأطراف ونهاية العرى ، يستطيع بذلك الزيادة عن كيانه ، ووقاية نفسه من الفناء المقبل " [١] فلا عجب أن نجده حريصا على أن يظل الدروز - وهو أهلة - متمسكين بانتظامهم الاسلامي ، وأن يظل المسلمون ينظرون إليهم على أنهم أخوان لهم في الدين والنسب والوطن فالجامعة الاسلامية من وجهة نظره تهدف إلى هدف سياسي إلى حد بعيد ، ولذلك فهي لاتتجه بالدعاء إلى الفرق الدينية الأخرى ، وإن خرجت من الاسلام ، وإنما إلى استعمار الفرنجة تحديدا . يقول الأمير "فالجامعة الاسلامية ليس معناها في نظرهم أن يقوم المسلمون في شرقي الأرض ومغاربها ليؤلفوا كثلاً واحداً ليقاتلوا كل من هو غير مسلم فالجامعة الاسلامية هي أكثر من ذلك ، فهي تجمع المسلمين التي غير المسلمين في إطار الغابات الواحدة هي تقدم للمشرقيين ، وليس للمسلمين فحسب ، يعتصمون بها فتفعدوا داهة توحد للشعوب المقهورة " [٢] .

هذه الأسباب السياسية والدينية التي دفعت الأمير إلى الحررص على الدفاع عن نسبة وأسرته وقومه والطائفة التي ينتمي إليها ، ولكن تبقى أسباب أخلاقية أخرى دفعت الأمير إلى الحررص على إثبات نسبة ونشره في سجل بعد توثيقه من الثقلات من العلماء والشيوخ ، بل ولم يدخل جهذا في تتبع مصادر التاريخ ومناقشتها لينتهي إلى مثل اللقة في بيان تاريخه وتاريخ أهله ، ثم ختمه بتأكيد اللقة فيما انتهي إليه أيام القارئ ، فقال : " والقاريء يرى أننا تحرينا جهد الاستطاعة ، وعرضتنا للروايات والأراء ، ولم يكن استقصاؤنا في هذا البحث إلا لأجل تمحيص ناحية من نواحي التاريخ العربي هي أخبار عرب لبنان والسوائل الشامية من زمان التاريخ وكذلك حرريا على شتشنة العرب في حفظ الأنساب والتقبيل عن أخبار أجدادهم والناس مأمونون على انسابهم ، وفوق كل ذى علم عليم " [٣] .

هكذا يحرص الأمير أشد الحررص على حفظ نسبة ولا يترك مناسبة إلا ويشير فيها إلى ماض أجداده في للتاريخ ومخاير أسرته كمثل قوله عند ذكره "للأمير جمال الدين الأرسلاني"

[١] شكيب أرسلان حاضر العالم الاسلامي من ٣٧ ج

[٢] شكيب أرسلان مقدمة الفكر السياسي للدكتور محمد شفيق من ١٦٣

[٣] شكيب أرسلان ، رسوم الشفيف في الجزل الرقيق ، ص ٢٦٦

- في تعليقاته على ابن خلدون وانحيازه مع أمراء لبنان إلى جانب السلطان سليم العثماني في حربه ضد الملك الأشرف فلنصلو الغوري ، " وهو جدنا على عمود النسب " [١] .
 رفي مقال للأمير عن الإمام الشيخ محمد عبده يعدد فيها مزايا الشيخ ورقة طبعه وتقرزه عن سماع الألفاظ النابية وأسماء العورات لاينسى أن يمتدح أخلاق الدروز وعفة ألسنتهم ، فقال متحدثا عن الشيخ : " وكان أحد أصدقائه الأجلاء من أعيان بيروت قد تعود أن يتلفظ بالسواءات كما هي ولا يذهب فيها مذاهب التورية فكانت أرى الشيخ يقتصر من سماع ذلك ومرارا صرخ أمامي بشتمنرازه من هذه العادة السيئة ، التي تغلب على بعض الألسنة .
 فكان في هذا الأمر كثير الاستحسان لطريقة الدروز الذين كان العلامة فنديك الامريكي الكبير يقول عنهم : تعاشر الواحد منهم خمسين سنة فلا تسمع منه ولا مرة لفظ سوءة ، ولا قصة فيها شيء من الخلاعة . وكان المرحوم الاستاذ ستحسن جدا هذه الميزة فيهم ، ويعجب بآدابهم في محاسهم حتى أداب العوام منهم " [٢] .
 والأمير شبيب لا يجد في كثرة حديثه عن أسرته ونسبها ومقارتها أي غضاضة ، لأن الاعتزاز بالأنساب وحفظها في رأيه ضرورة أخلاقية .

ويرى الأمير شبيب ارسلان أن حفظ الأنساب من الفضائل الاجتماعية التي لا يجوز أن تخلى منها هيئة بشرية راقية ، وهو ضروري لأجل الدول الراقية المهنية التي تزيد أن تعرف أصول الشعوب التي اشتغلت عليها ممالكها ، والخصائص التي عرف بها كل من هذه الشعوب بما يكون أعنون لها على تهذيبها وحسن إدارتها .

ويرى الأمير في الحرص على التمسك بتراث الخصال الحميدة والأخلاق الفاضلة " فمن الحقائق العلمية الثابتة المقررة عند الأطباء والحكماء ، كما هي مقررة عند الأدباء والشعراء أن الأخلاق والمويل والتزعزعات المختلفة تتواتر كما تتواتر الأمراض والأعراض الصحية ، والدماء الجاربة في العروق " [٣] .
 فكان لابد من معرفة الأنساب حتى يسعى كل فريق في إصلاح نوعه بطريق الترقية والتهذيب ضمن دائرة المدعوية بحسب إستعدادها الفطري ، وهذه الإستعدادات أحسن دليل عليها هو علم الأنساب " [٤] .

[١] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول من ١٧٥ المطبعة الرجمانية بمصر سنة ١٩٣٦ م

[٢] تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ من ٤٠٦

[٣] تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول من ٣

[٤] المصدر السابق من ٤

ولا ينسى الأمير أن يشير إلى الجانب السلبي من المبالغة والإفراط والغلو في اعتبار الأنساب والإعزاز بشرف الأحساب وما يثيره ذلك من فتن وانقسامات وعداوات بين أبناء الأمة الواحدة تتصدع وحذتهم وتفرق جمعهم كما تفعل العصبيات الموروثة بين العرب قبيل الإسلام وبعده ، "فكما أن الأنساب كانت تثير فيهم الحمية والتخوة ، وتبعد روح التنافس الحافز لهم على طلب المجد ؛ كانت تثير بينهم ليضاً المداوات والفتن التي تصدع وحذتهم وتخدم في النهاية جرائمهم ، فأضطرت من حيث نفعت . ولقد أجمع المؤرخون واتفق علماء الاجتماع ، أن سبب سقوط سلطنة العرب هو طبيعة هذه الأمة في الانقسام والانفراد ، وغرامها في مناقسة بعضها ببعضًا " [١] .

غير أن الأمير يعود فيقرر أن الاعتزاز بالنسبة إذا لم يؤد إلى الانقسام عمل كريم وسنة حميدة ، فيقول : "ولولا آفة الانقسام هذه لكان التمسك بالأنسب هو من الفضائل الاحكام عليه التي يتناهى بها ، ويتمكن بها المصلحون لحكوماتهم ولوطناتهم من ترقية أقوامهم بالبحث عن سلطائهم ، والاعتناء بحفظ أصالتها ، ومنع اختلاطها بغيرها مما يشوب نقاوتها " [٢] .

والامير في تقديره لمكانة النسب وأثره في توارث الفضائل يسير على نهج أستاذه الإمام محمد عبده الذي كان يؤكد أن الإسلام لم يحمل شأن النسب ، ولم يضع من شأن الأدب المكتسب ، بل طلب العدل في الأمرين ، (أن الإسلام جاء والعرب أشد الناس محافظة على أنسابهم وأشدهم حرضاً على معرفة ما كان لأسلافهم من مجد وحسب وكأنوا يبالغون في الاعتزاز بشرف الأحساب حتى كانوا لا يدعون من خلال الغير شيئاً يساوي شرف النسب . وهيئات أن يرتفع ذو لقب بأديبه إلى رتبة شريف بنسبه ، وإن كان خاماً في نفسه غير شيء في عمله) [٣] .

(فجاء الدين الإسلامي ينكر الإفراط والغلو في اعتبار الأنساب ، كما أنكر ذلك في كل شئ حتى في الدين نفسه وقال الترتيل (إن أكرمكم عند الله أتقنكم) ، وقال صلى الله عليه وسلم ((إتقوني بأعمالكم ولا تأثوني بآنسابكم)) ليدل على أن النسب وحده ليس بالشيء يرفع وبخوض ولكن المعمول عليه ، وما يصح أن يرجع الكرم إليه ، إنما هو ما يكون عليه المرء نفسه فإن وافق ذلك نسباً عالياً وحسباً تالداً كان أبلغ في الشرف وأعرق في الكرم وإلا فلن

[١] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول من ١٧

[٢] تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول لشكيب ارسلان من ١٧

[٣] تاريخ الأستاذ الإمام ، الجزء الأول من ١٧

يبخس العامل عمله ولن يحرم أولئك الذين فاض عليهم الفضل الإلهي فرفع أنفسهم بما كان وضعهم آباء لهم ، فجعلهم بذاته أصولاً لكرانم وأدوا حماً للهجد بما أودع فيهم من الغرائز الفاضلة ، ووقفهم للأعمال الصالحة ، فمنهم يبتدىء الحسب ، وإليهم في القرون المستقبلة يرجع النسب [١] .

ثم يقول الشيخ الإمام : (هذا ما أراده الإسلام وما دعا إليه ولكن مع ذلك أمر برعاية النسب إلى الآباء ونفي ما كان عند الجاهلية من عادة التبني والإلتحام بالأdeadies وفرض على المؤمنين أن يدعوه لأبنائهم ليعرفوا بهم لا بمن يندرجوا فيهم ، وجعل لقريش من الفضل على غيرها من القبائل ما يقتصر من بلوغه رواحد الأمال وأوصى على بن أبي طالب أن يعهد بخلاف الأعمال إلى أهل البيوتات الصالحة وذوي القدم السابقة وجاءت سنة السلف شاهدة بأن للأنساب وتوارث الأحساب مظاهرًا في أعمال الأشخاص وأشارًا في خصالهم ينبغي النظر إليها [٢] .

هذه مكانة الأنساب في الإسلام كما يقررها الشيخ الإمام وهي مكانة جليلة وسنة من سفن الله في خلقه وهي سنة توارث الأخلاق والغرائز ، غير أن المسلمين هم الذين أهملوا هذه السنة وقلدوا مقاصد الإسلام العالية فيها إلى أضدادها حتى سقطت منزلة النسب في نفوسهم ، وعادوا بذلك سنة من أعظم سفن الله في خلقه ، (وإن ما يكون في الآباء من أصول الملائكة يعني البناء لكتاب مثتها وما جاء مخالفًا لذلك فهو من مبتدعات القدرة الإلهية) [٣] .

وهذا مأكده الأمير شبيب أرسلان وحث على حفظ الأنساب في المجمعات الإسلامية للاتحقق أصلحها مكاسب مادية ، ولاليكتسبوا بها مكانة أدبية ، وإنما ليتحققوا بها هدفًا أعلى وأرقى من كل هذا هو توارث الأخلاق الفاضلة وترقية المجتمعات الإسلامية بحفظ أصالتها ، وهذا هو السبب الذي يرومته من دعوته لحفظ الأنساب كما ذكره بنفسه في قوله: "ونحن لو نظرنا إلى السبب في حفظ النسب لتجده منحصرًا في معرفة التاريخ ولaci الامتيازات المادية التي يحوزها أصحاب النسب في العادة ، ولكن هناك غرض آخر أعلى من ذا وذا ، وهو توارث الأخلاق التي تهتف بالفضائل" ، والاقفال المجيدة ، وتنزكي الأنفس .

[١] تاريخ ابن خالدون سلسلة الجزء الأول من ١٧

[٢] الشيخ محمد عبده ، تاريخ الأستاذ الإمام من ١٧

[٣] المرجع السابق من ١٨

فمن المعلوم أن أصل البيوتات الشريفة هو أن يبرع أحد الناس على أفرانه ، ويبيذ أبناء زمانه بطبيعة ممتازة في نفسه قد تكون أسبابها النفسية مجهلة ، وإنما تظهر آثارها في أفعاله فيمتاز بين قومه وتحصل له رئاسة وسؤدد ، ويُشيع ذكره ويرتفع شأنه ، وتمنى الحوامل أن تلد مثله ، وهذا ما يقال له المجد الطريف وبعد ذلك إذا أعقب نسلاً اجتهد نسله ان يقتدوا به بقدر الإمكان ، حتى يمتازوا بالأخلاق التي يمتاز بها أبوهم ، ويحوزوا مثلا حازه من الشرف والسؤدد ، وتعبر رهطهم في تقوية هذه الروح فيهم طمعاً في استبقاء هذه الغرائز التي أورثهم إياها سلفهم وهي التي تغريهم بالفضائل ، وتبعدهم عن الرذائل ، وترفع بهم عن سفلسف الأمور ويقال لهذا المجد التليد [١] .

أثر الوراثة في التربية

يبين الأمير أن صلاح النسب وأصالة أهل البيت تحمل أبناء الأسرة الكريمة على تجنب كل ما يشن حتى أن الناشيء من أهل تلك البيوتات للعربيفة في حسبها ونسبها يتتجنب بطبيعة كل عمل خسيس حتى لايسن إلى سمعة بيته وما كان لأسلافه من مجد وحسب ، فتكون نفسه بذلك مستعدة ومهيأة لتكوين الملكة الصالحة ، وإذا وجد التربية الحسنة أسرعت بتكوين تلك الملكة وتزكيتها ، لما من شذ عن هذه القاعدة فإن " أول ما يقع به الناس أحد أبناء البيوتات الكريمة إذا أقدم على عمل خسيس ، ويهببون به إلى التوبة منه ، أن يقول له : أفلست أنت ابن فلان ؟ أو من آل فلان ؟ ليجمل بك أن تتعل كل ما هو كذا وكذا !! فماذا تركت للسوقه والطغام ؟ ولتشبه هذه الأقوال التي تدل على دلاله واضحة على ان الأصالة مفروض فيها أن تقرن بالنبالة ، وبعبارة أخرى أن الأصيل في نسبة ينبغي أن يكون فاضلاً في عمله ، بارعاً بأبيه ، وما جاء على خلاف هذه القاعدة يعتبر شاذًا " [٢] . فالأصل الكريم قد يحمل الناشئ على اتباع الخلق القويم فإن وجد معه التربية الحسنة فإنها تمهد السبيل وتسرع بتكوين الملكة الصالحة في النفس المستعدة حتى يكون الشاب من أهل بيت صالح بمنزلة الشيخ من جاهد نفسه وأخذها بالرياضة على مكارم الأخلاق وليس له سلف فيها ، وإن كانت للتربية ردينة أماتت الاستعداد للخير ومحته من طبيعة النفس واجتاحت بذله بضده " [٣]

[١] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول لشکیب ارسلان ص ١٨

[٢] المرجع السابق ص ١٨

[٣] الشيخ محمد عبده عن تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الأول ص ١٨

ـ شأن التربية مع الاستعداد للرذائل ذلك الشأن بعينه فإنـ كانت صالحة أماتـ ذلك الاستعداد ولكن بعد عناء يستغرق السنين الطوال وإنـ كانت غير صالحة أسرعـتـ بتكوينـ الملاكتـ الخبيثـةـ في نفسـ الناشـئـ حتىـ يكونـ الفتـىـ منـ قومـ فاسـقـينـ قدـ بلـغـ مـبلغـ الشـيخـ منـ غيرـ هـمـ يـرمـيـهـ الـقـدرـ منـ أولـ نـشـائـهـ منـ قـسـيـ الـحـاجـةـ فـيـأـخـذـ يـكـلـفـ نـفـسـهـ مـالـيـسـ فـيـ اـسـتـعـادـهـ وـيـحـلـهـ عـلـىـ مـعـاـطـةـ مـلـايـطـيقـ مـنـ الـخـلـالـ مـنـ الـحـيـلـةـ وـالـمـكـرـ وـالـخـدـيـعـةـ مـثـالـاـ وـهـوـ لـيـسـ مـنـ أـهـلـهـ^[١].

ـ ثمـ يـعـودـ الـأـمـيرـ فـيـقـرـرـ مـؤـكـداـ عـلـىـ الـإـرـتـيـاطـ الـوـثـيقـ بـيـنـ حـفـظـ الـأـسـابـ وـالـأـخـلـاقـ فـيـقـرـرـ :

ـ قـبـلـاـ تـقـرـرـ عـنـنـاـ هـذـاـ ،ـ تـقـرـرـ أـنـ حـفـظـ الـأـسـابـ هوـ عـبـارـةـ عـنـ حـفـظـ الـفـضـلـ وـلـيـتـاعـ الـجـمـعـ بـهـاـ .ـ وـمـتـىـ كـثـرـتـ الـفـضـلـاتـ فـيـ الـمـجـتمـعـ تـرـقـتـ الـأـمـةـ وـعـرـجـتـ فـيـ سـلـمـ النـجـاحـ ،ـ وـأـصـبـحـتـ أـمـةـ عـزـيزـةـ غـالـيـةـ ،ـ لـانـ الـأـخـلـاقـ الـفـاضـلـةـ هـيـ الـأـسـابـ الـذـيـ يـبـنـيـ عـلـىـ كـيـانـ الـأـمـمـ^[٢]ـ .ـ

ـ وـبـالـاجـمـالـ إـصـلـاحـ الـأـجـنـاسـ بـالـتـزاـوجـ ،ـ وـبـالـتـرـبـيـةـ ،ـ وـبـالـتـغـذـيـةـ ،ـ سـوـاءـ كـانـ فـيـ الـأـدـمـيـنـ أوـ كـانـ فـيـ الـطـيـورـ الـدـاجـنـةـ ،ـ يـتـقـوـفـ عـلـىـ حـفـظـ الـأـسـابـ ،ـ وـالـعـنـيـةـ بـعـقـتهاـ .ـ وـلـاـيـزالـ الـحـدـيـثـ الـشـرـيفـ :ـ (ـاطـلـبـواـ كـرـامـ الـمـنـاكـحـ فـانـهـاـ مـارـجـ الـشـرـفـ)ـ مـنـ أـصـدـقـ الـقـوـاعـدـ الـعـلـمـيـةـ ،ـ وـالـحـقـائقـ الـعـالـمـيـةـ^[٣]ـ .ـ

ـ مـنـ أـجـلـ هـذـاـ وـشـيـرـهـ عـنـ شـكـيـبـ بـاطـلـةـ الـحـدـيـثـ عـنـ نـسـبـهـ وـلـسـرـتـهـ وـأـجـادـهـ ،ـ وـبـذـلـ جـهـداـ

ـ كـبـيرـاـ فـيـ تـحـقـيقـ هـذـاـ النـسـبـ وـبـلـازـ النـابـغـينـ وـالـأـبـطـالـ مـنـ جـدـوـهـ ،ـ وـمـنـ أـجـلـ هـذـاـ دـافـعـ عـنـ طـانـةـ الـدـرـزـيـةـ وـكـانـ يـحـتـلـ بـكـلـ مـدـحـ لـأـخـلـقـهـ وـبـرـزـهـ وـيـشـيرـ إـلـيـهـ كـاـحـتـالـهـ بـقـوـلـ شـوـقـىـ فـيـ

ـ الدـرـوزـ :

ـ وـمـاـ كـانـ الدـرـوزـ قـبـيلـ شـرـ	ـ وـإـنـ أـخـذـنـاـ بـمـاـ لـمـ يـسـتـحـقـواـ
ـ كـيـنـبـسـوـعـ الصـفـاـ خـشـنـواـ وـرـقـواـ	ـ وـلـكـنـ ذـلـكـ ،ـ وـقـرـاءـ ضـيـفـ
ـ مـوـارـدـ فـيـ السـحـابـ الـجـونـ بـلـقـ	ـ لـهـمـ جـبـلـ أـشـمـ لـهـ شـعـافـ
ـ نـضـالـ دـوـنـ غـلـيـتـهـ وـرـشـقـ	ـ لـكـلـ لـبـوـءـةـ وـلـكـلـ شـبـلـ
ـ فـكـلـ جـهـاتـهـ شـرـفـ وـخـلـقـ	ـ كـلـ مـنـ السـمـوـالـ فـيـ شـيـناـ

[١] الشـيـخـ مـحـمـدـ عـبـدـ ،ـ تـارـيـخـ الـأـسـنـادـ الـإـلـامـ -ـ الـجـزـءـ الـأـولـ /ـ مـحمدـ رـشـيدـ رـضاـ صـ ١٨

[٢] تـارـيـخـ بـنـ خـلـونـ -ـ مـلـحـقـ الـجـزـءـ الـأـولـ صـ ١٨

[٣] الـمـرـجـعـ السـابـقـ صـ ١٨

ويعلق شكيب على ذلك بقوله : قال شوقي هذه الأبيات ، وأحسن ما فيها أنه قال قولا
لم ينكره أحد عليه ، لأن الاجماع واقع على اتصاف بنى معرف [١] بهذه الخلال التي
عرفها شوقي فيهم ، إما من التاريخ ، وإما في أشياء قدماته إلى الشام وإما في الآتین
معاً [٢] .

[١] سأله سائل عن سبب تسمية الدروز بنى معرف فأجابه مجلة الهلال: عرفوا بهذا اللقب منذ القديم لمحض
انتهارهم بإسلام المعرف ، أى الجمول "مجلة الهلال أكتوبر ١٩١٥ من ٦٥

[٢] كتاب شوقي ، تأليف شكيب أرسلان من ٢٥٨

الفصل الثالث

لماذا نعتبره مفكراً إسلامياً

تمهيد :

في منتصف القرن التاسع عشر شهد العالم الإسلامي منطفأاً خطيراً في تاريخه ، فقد دب الضعف إلى الدولة العثمانية التي كانت حاجزاً منيعاً لفترة من الزمان لامام الأطماء الغربية ، وقد دام الصراع بين الترك والأوربيين فترة من الزمان حتى ضعف الإمبراطورية العثمانية [١] فاستطاع الغرب أن يتسلل من جديد إلى البلاد العربية [٢] حتىتمكن من طرد الأتراك من الولايات العديدة ، وفرض الاحتلال على الجزء الأكبر من العالم الإسلامي عامة والبلاد العربية خاصة . والحقيقة تؤكد أن الغرب كان يستعد عدة قرون بعد هزيمته في الحرب الصليبية وتأثيره بالحضارة العربية لبعث نهضة علمية حديثة في بلاده كي يتمكن من الانقضاض على الشرق الإسلامي انقضاضاً ساحقاً ، ولكن ظلت الذكريات الدائمة في مخيلة العسكريين عن التاريخ العسكري البطولي للإسلام " هي التي أبانت للغربيين حذرين من الهجوم - حتى القرن التاسع عشر - وأبانت المسلمين راضين مسرورين و التجربة التي بدأت تضعف هذا الرضى عند المسلمين كانت في تتبع الهزائم العسكرية للإمبراطورية العثمانية و القوى الإسلامية الأخرى على يد خصوم مسلحين بـالأسلحة الغربية و مزودة بالعلم و التقنية اللذين هما عصب الفن العربي عند الغرب " [٣] .

[١] بلغ مجموع مداخيل السلطنة سنة ١٨٧٥م ٣٨٠ مليون فرنك يتحتم عليها ان تدفع منها ٣٠٠ مليون فرنك لتسديد قروضها مما ترتب عليه ان يغلق الباب العائلي اقسامه في ٦ تشرين الاول . عن لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص ٣٧٦.

[٢] في سنة ١٨٦٧م مصدر قانون سمع بموجبه سلطان العثماني للأجانب بالملك لأول مرة بالسلطنة عن / ظبيب حسني ، لبنان في التاريخ ص ٥٤٠.

[٣] أرزوقد تويني ، الإسلام والغرب والمستقبل ص ١٩ عن : (فلسفة الاستشراق) د. أحمد سحابيوفتش طبعة دار المعرفة ص ١١٥

وأمام التراجع العثماني السياسي انفتح الطريق أمام الفزوة الأوروبية ، وما أن باشر الفزود الغربي سلطته في رقعة الشرق الإسلامي - منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر - حتى ابتدأ يعمل على تخلف المسلمين ، وعلى تنفس الحقد الصليبي [١] . وليس له هنا طريق آخر لتحقيق هذه الغلبة، سوى تناول (مادة التوجيه) المحليه وجعلها غير صالحة ... ولم يكن هناك في توجيه الشرق الإسلامي سوى : الإسلام ، والتراث الإسلامي الذي خلفه المسلمون في شرح إسلامهم [٢] .

وهكذا أصبحت سيطرة الغرب على الشرق الإسلامي قوة هادمة تستغل مكانا خطيراً في تطوره وتزرع في نفوس أبنائه بذور الشك في دينه والتذكر لقيمه ومثله الطيبا . لقد أدرك الغرب كمون القوة في الدين الإسلامي رغم الهزيمة السياسية والانحدار الحضاري ، وجمود الحركة في مجتمعاته ، وذلك لأن فرض الغلبة بما هي تعبير عن استقرار السيطرة وضمانها ، قد تطلب ليس فقط تصفية القوة الظاهرة ، وإنما أيضاً التوغل في عمق الإسلام لضرب القوة للكامنة ، واستلزم الأمر استحداث منهج جديد لا ينظر إلى الإسلام كماضٍ حضاري متوفٍ أو حاضر مهزوم ، بل كتهديد كامن لن يطمئن الغرب إلا بعد التخلص منه .

ولاتخذ الغرب الاستعماري وسائله في محاولة إضعاف المسلمين في إسلامهم ، وهذه الوسائل تحصر في توجيه الفكر الإسلامي نحو تحقيق هذه الغلبة . وقد بُرِزَ هذا التوجيه في صورتين تنم كلتاها عن هذه الغاية :

الصورة الأولى : قيام بعض مفكري المسلمين بحركة تقدمية في الإسلام : تبغي تحرير سلطة المستعمر وتشبيت ولابته على المسلمين من الوجهة الإسلامية . أو بعبارة أخرى تبغي عدم تحديه ومعارضته ، سواء في مباشرة سلطته على المسلمين ، أو في إدخاله ملسميه بنظم الإصلاح الحديثة بينهم [٣] . وهم يعبرون بذلك عن قبول تام بغلبة الغرب وينتعاملون معها كأمر واقع ومستقبل حتمي .

[١] د. محمد البهى ، الفكر الإسلامي الحديث من ١٧ مكتبة وهبة

[٢] د. محمد البهى ، الفكر الإسلامي الحديث من ٢٨

[٣] المرجع السابق ، من ٢٨

الصورة الثانية : قيام بعض الغربيين بابراز الخلافات المذهبية وتأكيد الفجوات والثغرات، بين طوائف المسلمين وشعوبهم، من الوجهة السعودية أو الجغرافية أو نظام الحكم ... مع سرح كثير من مبادئ الإسلام شرعاً يشهدها وينحرف بها عن أهدافها الأصلية [١] وذلك كله بالإضافة إلى تمجيد القيم المسيحية والحضارة الغربية ، وللنظام السياسي، والسلوك الفردي للشعوب الغربية [٢] .

حركة المقاومة للاستعمار الغربي في الفكر الإسلامي

وفي مقابل هاتين الصورتين : بُرُز اتجاه إسلامي فكري آخر وهو حركة المقاومة للاستعمار الغربي : سواء في ظهره السياسي أو فيما يستتبعه ويختفيه من الهجوم على الإسلام وأضعف المسلمين . وهذا اتجاه يعتبر كرد فعل مباشر لتوجيه الاستعمار الغربي للتفكير الإسلامي في صورتيه السابقتين [٣] .

وبعكس هذا الاتجاه مجاهدة دائمة رفضة لمضمون التغريب وكاشفة لاقعته، وهي حرب معلنة ضد عصبية الغرب (الغالب) المتجردة حيناً والمختبئة وراء لغة مهذبة أحياناً أخرى .

وبينما يساعد الاتجاه المتغرب على استمرار الغلبة للغرب بوصفه دعامة داخلية لها، انطلق أصحاب الاتجاه الفكري الإسلامي المقاوم للاستعمار الغربي في عمل دژوب وتعصب للإسلام كأصل لهويتهم، وعدم قبولهم بالأمر الواقع، ولم ينبهروا بالتقدم العلمي الغربي إلى درجة تدفعهم إلى التخلّى عن الغايات التي حددتها الإسلام للعلم والحضارة .

وتنتضح أبعاد هذا الموقف في ملاحظة الأفغاني لمعانى المدنية القائمة جوهرياً على علم متناقض مع الألوهية، فقد قال في خاطرته : "فلتأخذ من ذكرتم من الأمم المتقدمة، ومكتسباتهم العلمية، وما صنعواه، وعملوه، وكسبوه، وربحوه، وما ترتب على ذلك وما حاصل من المنافع والفوائد للبشر من وراء تلك المكتسبات، والمدنية، والثروة، ثم نعدد ما رأينا . هل رأينا غير مدن كبيرة، وأبنية شامخة، وقصور مزخرفة، ومعامل ينسج ويصنع فيها القطن والحرير واحتكار ثجارات أنت لهم بنثرات، وكنوز؟ .

[١] ، [٢] ، [٣] د . محمد البهري ، النحو الإنساني الحديث من ٢٨

ثم هل غير التفنن باختراع المدافع المريعة، والمدمرات، والقذائف وباقى المخربات القاتلات للإنسان، تتباهى تلك الأمم الراقية المتقدمة اليوم؟

ثم لو جمعنا كل ما في ذلك من المكتسبات العلمية، وما في مدنية تلك الأمم من خير، وضاعفناه، أضعافاً مضاعفة، ووضعناه في كفة ميزان ووضعنا في الكفة الأخرى الحروب وويلاتها هي التي تعلو، وتغور. فالرقي، والعلم، والتمدن على ذلك النحو وفي تلك النتيجة إن هو إلا جهل محض، وهمجية صرفة وإغاثة التوحش.^[١]

ويعبر الأمير شكيب أرسلان عن رفض أصحاب هذا الاتجاه (الفكري الإسلامي المقاوم للاستعمار الغربي) أن يكون الدين ثمناً للتقدم، ويتسائل عن أسباب التناقض المفتعل بين المدنية والإسلام فيقول: "أوري يا ترقـتـ هـذا التـرقـيـ المـادـيـ كـلـهـ وبـقـيـتـ مـتـمـسـكـةـ بـدـيـانـةـ أـقـدـمـ منـ الإـسـلـامـ بـأـكـثـرـ مـنـ سـتـعـانـةـ سـنـةـ .ـ وـكـذـلـكـ الـبـلـانـ تـرـقـتـ هـذا التـرقـيـ نـفـسـهـ وـهـيـ مـعـتـصـمـةـ أـشـدـ الـاعـتـصـامـ بـعـقـائـدـ وـتـقـالـيدـ هـيـ أـقـدـمـ عـهـدـاـ مـنـ الـدـيـانـةـ مـسـيـحـيـةـ نـفـسـهـ بـقـرـونـ .ـ فـيـالـيـتـ شـعـرـيـ ،ـ لـمـاـ الـمـسـلـمـونـ وـحـدـهـمـ هـمـ الـذـينـ لـاـ يـمـكـنـهـ الرـقـيـ إـلـاـ بـخـلـعـ الـدـيـنـ إـسـلـامـيـ ،ـ كـمـاـ يـزـعـمـ بـعـضـ اـعـدـاءـ هـذـاـ الـدـيـنـ؟ـ"^[٢].

وكان لأبد لهذا الاتجاه أن ينقد الاتجاه الآخر المقابل له - المتغرب والغربي - وينفذ عاصره الفكرية : سواء من الوجهة المنطقية الإنسانية ، أم من الوجهة الإسلامية. وفي الوقت الذي يقوم فيه بالنقد كان لزاماً عليه كذلك أن يعرض خطة عملية لمقاومته، ومقاومة الداعين له والمساعدين على الدعوة إليه^[٣]. ولذلك نرى هذا الاندماج في الدعوة إلى مقاومته : نرى نقداً نظرياً ، ومنهجاً عملياً^[٤].

عناصر هذا الاتجاه

ومن أبرز زعماء هذا الاتجاه الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الشيخ جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ - ١٨٩٧) الذي ترك أثراً عظيماً في وعي المتنورين وصياغة أفكارهم في أنحاء كثيرة من الشرق الإسلامي.

[١] خطرات جمال الدين الأفغاني، من ١٣٩ - ١٤٠، دار الحقيقة بيروت ١٩٨٠

[٢] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، مجل ٣ ٣٧٣ دار الفكر بيروت ١٩٧٣

[٣] [٤] د. محمد البهري، الفكر الإسلامي الحديث ص ٥٩

وعندما يصف جمال الدين الأفغاني المسلمين المتغربين يعتبرهم أكثر خطورة على الشرق الإسلامي من الغربيين أنفسهم، وقد ألهب في تفسير موقفهم وأثره الداخلي. فيقول في خاطراته إن ما هو "أشد وطأة على الشرق، وأدعى إلى تهمج أولى المطامع من الغربيين، وتذليل الصعاب لهم، وتشييـت أقدامهم، هـم أولئك الناشـة الذين بمجرد تعليمـهم لـغـةـ الـقـومـ، والتـلـابـ بـأسـفلـ آـدـابـهـمـ، يـعـتـقـدونـ أـنـ كـلـ الـكـمالـ إـنـماـ هوـ فـيـماـ تـعـلـمـونـهـ مـنـ الـلـسـانـ عـلـىـ بـسـاطـهـ وـفـيـماـ رـأـوهـ مـنـ بـهـرـجـ مـظـاـهـرـ الـحـالـاتـ وـقـرـاءـةـ السـيـرـ، وـمـسـيرـ مـنـ قـطـعـ مـراـحلـ مـنـ الـغـرـبـيـنـ فـيـ سـبـيلـ الـأـخـذـ فـيـ تـرـقـيـةـ أـمـتـهـ، بـدـونـ أـنـ يـسـيرـوـاـ فـيـ ذـلـكـ غـورـاـ أوـ يـفـهـمـوـ لـتـرـجـمـهـ مـعـنـىـ" . ويـعـتـقـدـ النـاشـيـ الشـرـقـيـ لـنـ كـلـ الرـذـالـلـ، وـنوـاعـيـ الـحـطـةـ وـمـقـومـاتـ الـتـقـدـمـ إـنـماـ هـىـ فـيـ قـوـمـهـ، فـيـجـرـىـ فـيـ تـيـارـ غـرـيبـ مـنـ اـمـتـهـانـ كـلـ عـادـةـ شـرـقـيـةـ، وـمـنـ كـلـ مـشـرـوـعـ وـطـنـيـ يـتـصـدـىـ لـهـ فـتـةـ مـنـ قـوـمـهـ، أـوـ أـصـلـ بـلـدـهـ، وـيـأـنـفـ مـنـ الـاشـتـرـاكـ فـيـ أـىـ عـمـلـ لـمـ يـشـارـكـ فـيـهـ الـأـجـنـبـيـ وـلـوـ أـسـمـاـ، وـيـسـارـعـ لـتـقـدـيسـ، وـتـصـوـيـبـ كـلـ خـطاـيـهـ لـلـغـرـبـ، وـيـسـهـلـ لـهـ كـلـ صـعـبـ فـيـ مـطـلـبـهـ، وـيـطـلـعـ عـلـىـ هـنـاتـ قـوـمـهـ وـزـلـهـمـ، وـمـوـقـعـ الـضـعـفـ مـنـهـمـ، وـبـالـاجـمـالـ يـكـونـ الـآـلـةـ الـقـاطـعـةـ الـفـاعـلـةـ لـلـغـرـبـ فـيـ جـسـ قـوـمـهـ، وـالـوـسـيـلـةـ الـمـمـكـنـةـ مـنـ الـاسـتـنـثـارـ فـيـ الـبـلـادـ، وـاـسـتـعـبـادـ الـعـبـادـ، بـدـونـ أـنـ يـشـعـرـ أـنـ سـيـلـاـقـيـ شـرـ مـاـ يـصـنـعـ قـبـلـ أـمـتـهـ، وـيـنـزـلـ فـيـ تـارـيـخـهـ مـعـ الـأـدـنـيـاءـ الـخـاتـمـيـنـ . وـإـذـاـ أـحـسـ الـبـعـضـ فـيـ شـنـيـعـ فـعلـهـ إـنـماـ يـؤـثـرـ مـصـلـحـتـهـ الـخـاصـهـ، وـفـقـعـهـ الـخـسيـنـ الـمـؤـقتـ عـلـىـ صـالـحـهـ الـعـامـ مـعـ مـجـمـوعـ مـنـ جـمـعـتـهـ وـلـيـاـمـ الـجـامـعـاتـ الـكـبـرـيـ" [١] .

وـقـدـ تـحدـثـ الشـيـخـ جـمـالـ الـدـينـ الـأـفـغـانـيـ عـنـ أـخـذـ مـاـ عـنـ الـغـرـبـ مـنـ حـضـارـةـ وـمـدـنـيـةـ وـعـلـمـ وـلـكـنـ عـلـىـ أـسـاسـ أـنـ يـكـونـ ذـلـكـ فـيـ تـلـازـمـ مـعـ الإـسـلـامـ، أـوـ لـأـنـ الإـسـلـامـ يـدـعـوـ إـلـيـهـ [٢] وـكـانـ يـقـولـ: "إـذـاـ لـمـ بـيـنـ تـقـدـمـنـاـ وـتـمـدـنـنـاـ عـلـىـ قـوـاعـدـ دـيـنـنـاـ وـقـرـآنـنـاـ فـلـاـ خـيـرـ لـنـاـ فـيـهـ وـلـاـ يـمـكـنـنـاـ اـنـ تـخـلـصـنـاـ مـنـ رـبـقـةـ الـانـحطـاطـ وـالـتـأـخـرـ" [٣] .

كـمـ حـارـبـ الـمـذـهـبـ الـطـبـيـعـيـ - الـدـهـرـيـ - الـذـيـ اـنـشـرـ فـيـ الـهـنـدـ ١٨٧٩ـ مـ ، وـلـنـقـدـهـ فـيـ كـتـابـهـ "الـرـدـ عـلـىـ الـدـهـرـيـنـ" وـكـانـ يـدـعـوـ إـلـيـ "وـحدـةـ الـمـسـلـمـينـ" وـإـلـيـ "الـاصـلـاحـ الـدـينـيـ" .

(١) خـاطـرـاتـ جـمـالـ الـدـينـ الـأـفـغـانـيـ ، صـ ٢٩٩ـ ـ ٣٠٠ـ ، دـارـ الـحـقـيـقـةـ بـبـرـوـتـ

(٢) دـ.مـحمدـ الـأـبـيـ ، الـفـكـرـ الـإـسـلـامـيـ الـجـدـيـدـ ، صـ ٢٨ـ

(٣) تـارـيـخـ الـإـسـلـامـ ، رـشـيدـ رـضاـ صـ ٨٢ـ حـ ١ـ

وقد تجلى ذلك في أفلامه ولا سيما (العروة الوثقى) [١] التي شتركت معه في تحريرها الإمام محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) [٢] (الذى سار في ذات الطريق الذى سلكه جمال الدين الأفغاني ، فكان واحداً من زعماء مقاومة الاستعمار الغربي ، ومعارضة النفوذ الأجنبى في دائرة العالم الإسلامي . وقد استلهم الإمام محمد عبده مبادئ الأفغاني العامة وتوسيع فى شرحتها وتحقق من مدلولاتها فى ما اختص بالدين والإصلاح الدينى . كما هاجم الاستشراق مما اضطره إلى الكتابة عن مزايا الإسلام بالنسبة للمسيحية . ووضع منهاجاً تربوياً لفهم إسلام القرآن والسنة الصحيحة " وتناول محمد عبده في جانب الاعتقاد موضوعين رئيسيين :

- تحرير المسلم من عقيدة الجبر مع البقاء على عقيدة القدر
- وإفهام المسلم بأن عقل الإنسان نعمة من الله يجب أن يتلامس ويسير جنباً إلى جنب مع دين الله، ورسالته للإنسان ، وأن إغفال العقل معناه الغض من هذه النعمة " [٣] .

وإذا كان التراجع العثماني السياسي قد فتح الباب أمام الغزو الأوروبي، إلا ان للغرب قد أثار العالم الإسلامي والعربي باحتلال أراضيه والسيطرة عليه فدفعه بذلك دفعاً قوياً للقيام براجعة داخلية تقديرية [٤] ، وبدأ يسائل نفسه عن ذاته ومكانته ومثله وقيمه ويبحث عن دوره من جديد، وهب المفكرون الإسلاميون للدفاع عن الفكر الإسلامي ويحاربون تلك الترهات التي ينثرها الغربيون في المحيط الإسلامي وبيان ما فيها من ضلال وما تهدف إليه من تحطيم الأمة العربية والقضاء على معنوياتها ومقاومتها .

[١] أنشئت جريدة العروة الوثقى في باريس وصدرت العدد الأول منها في ٥ جمادي الأولى سنة ١٣٠٠ الموافق ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ وبكان مدير سياستها فيلسوف العظيم السيد جمال الدين ورئيس تحريرها الأستاذ الإمام من ٢٨٩ - ١

[٢] يقول الأمير شيكيب أن الأكثار في العروة الوثقى السيد جمال الدين، والعبارة للإمام (تاريخ الأستاذ) - ١ ص ٢٨٩

[٣] محمد البهى للفكر الإسلامي الحديث... ص ١١٨ (مراجع سلق) .

[٤] الواقع يؤكد لنا أن البقعة الفكرية قد سبقت هذا الغزو الغربي بأمد طويلاً ، وبذلت بدعاً الشیخ محمد بن عبد الوهاب إلى تجديد الدين والعودة إلى بساطته الأولى ، وإذا كان ابن عبد الوهاب قد ولد سنة ١٧٠٣ وقام بدعوته وهو في سن الأربعين فإن بقعة الفكر العربي تكون قد بدأت قبل وصول الجمعيات التبشيرية الأوروبية بعشرة عام على الأقل . (د. أحمد سعيلوفقش - فلسفة الاستشراق - ص ١١٦ طبعة دار المعارف) (مراجع سابق)

العوامل المؤثرة في فكر الأمير شبيب أرسلان

في هذا الاطار التاريخي، وفي هذا العصر الحال بالاحداث والوقائع والصراعات السياسية والفكرية والحضارية، نشأ الأمير شبيب أرسلان وتدرجت أفكاره، فقد ولد الأمير في ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩ وتوفي في ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦. أى أنه شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، كما شهد النصف الأول من القرن العشرين .

العامل الأول : إتصاله بالإمام محمد عبده والشيخ الأفغاني وتلتمذه عليهما
 وكان للاتصال المبكر بين الأمير شبيب أرسلان والشيخ محمد عبده أثر هام في تشكيل فكر الأمير الشابمنذ أن كان الأمير طالباً في مدرسة الحكمة ببيروت، وكان عمر الأمير شبيب آنذاك ستة عشر عاماً، وألقى قصيدة طويلة في حفلة إقامتها المدرسة وحضرها الشيخ محمد عبده حياً فيها العرب وأمجادهم والإسلام ومفاخره فصنف له الشيخ الإمام واستبشر به خيراً، وهن اللقائه في مجلسه فانعقدت بين الفتى وبين الشيخ صدقة كبيرة .
 وتأثر شبيب بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ودرس عليه في "السلطانية"، وتوقفت عرى صدقة متينة بين الإمام وشبيب، فيسمع منه عندما كان متقياً إلى بيروت بعد قمع الحركة العربية سنة ١٨٨٢ ، وانضل به وتلقى عنه حينما عاد الشيخ إلى مصر [١] .

" وكان الشيخ يردد في مجالسه مانقنه على بد جمال الدين الأفغاني من سعي إلى الاصلاح وحب الإسلام، ونود عن كرامته، وتأليف فيه، وعمل له . وكان الإمام لا يفتر عن الحديث في رفع مستوى الأمة وتقويه أخلاقها والنهوض بها نهضة علمية اجتماعية عن سبيل الثقافة والعمل، في وعي صحيح وفهم عميق لايسير في تقليد الغرب تقليداً أعمى " .

والدلائل على قوة تأثير الإمام محمد عبده في تشكيل فكر الأمير كثيرة، فقد تعرف الأمير على فكر الأفغاني أولاً من خلال الشيخ الإمام فأعجب به ورددته في كتبه ومقالاته . وقد حدث الشيخ على احترام القانون وتحقيق العدالة والمساواة والعمل لاصلاح المسلمين، فعمل شبيب في نفس الاتجاه .

وتحدىت الشيخ الإمام عن ابن خلدون فأفاض في مقدمته وشهد بمالها من محاسن في

فهم الاجتماع والتاريخ، وذكر أنه كان يحاضر فيها بمدرسة دار العلوم بمصر سنة ١٨٧٨ فشرع شكيب يعني بابن خلدون وبقلده، ثم علق فيما بعد على تاريخه . والإمام كان وهو في بيروت يشرح الكتب القديمة أو يعلق عليها، وكذلك فعل شكيب، فنشر الدرة البتية لابن المقفع، ورسائل الصابي، وسيرة الأوزاعي، وغيرها . كما حبب الشيخ الإمام إلى اخوانه قراءة الكتب العربية والغربية المعربة في مختلف فروع الفلسفة والتصوف والتاريخ والاجتماع والسياسة .

ولاقت أفكار محمد عبده هوى في نفس الأمير، ورأى في فهمه للعقيدة الإسلامية الشكل الوحيد الذي يرجى أن ينهض بالاسلام بعد أن آل إلى حالة لا يرضها له أي مسلم مخلص لإسلامه . وقد عبر الأمير عن مبلغ تأثيره بالشيخ الإمام وتلقيه عنه فقال : "استأننا فريد عصره، ووحيد مجده، حجة الإسلام الشيخ محمد عبده ، أكرم الله مثواه ، تعرف إليه منحر هذه الحوائج في عهد الطلب، أيام كان هو منفيا في بيروت على أثر الحادثة العرابية وذلك سنة ١٨٨٦، ولا زنته وأخذته عنه واستنفدت منه بقدر ما وسع فنور خاطرها ، واستقضت من بحر حكمته ما أمكن أن يناله قصور عارضي، ووجدت فيه الضلة التي كنت أنشدها، والبغية التي كنت أبحث عنها ولا أجدها، ورأيت في فمه العقيدة الإسلامية الشكل الوحيد الذي يرجى أن ينهض بالاسلام بعد أن آل إلى هذه الحال، وإن يقبل عثاره بعد أن ظن ضعفاء العقول أن عثرته لاتقال . وما زلت بعد أن عاد إلى وطنه مصر إلى أن أدركته الوفاة رحمة الله أجاز به حبل المكاتب ، وأوقف على رأيه في أكثر الأمور جزنيها ، وكليتها ، وأستطلع منه طلع الأحوال ، وهو يبيث إلى مالا يبيثه إلى غيري من موائع فكره ، وذوات صدره "[١] . ولقد سعى الأمير شكيب أرسلان إلى الشيخ جمال الدين الأفغاني استاذة الإمام محمد عبده . كما عبر عن ذلك الأمير . وأجتمع به في الاستانة سنة ١٨٩٢ بعد أن تصلت بينه وبين شكيب مكاتبات ومراسلات . ويصف الأمير هذا اللقاء فيقول : "وكنت لما عدت من أوروبا إلى الاستانة سنة ١٨٩٢ ، ذهبت إليه (جمال الدين الأفغاني) في نهار وصولي ، فاستقبلني برأ وترحيباً وزنته تلك المدة إلى أن اضطررت إلى السفر إلى وطني سوريا ، ففارقته أسفًا وأنا أمنى نفسي بالعودـة إلى الاستانة المشاهـدة والاستفـادة منه "[٢] .

[١] شكيب أرسلان حاضر العالم ج ١ ص ٢٨٣

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ٢٩٨ مرجع سابق

وسألني مرة عما شاهدته في أوروبا وأى نتيجة استخلصتها من حال أولئك القوم، لأنه كان فيلسوفا تماما لا يرى الجزئيات إلا من خلال الكليات ، فلما أردت أن أبدي له ما يعن لي في هذا الباب ، و كنت يومذا في أول شبابي لم أجاور الثانية والعشرين من العمر ، غلبتني مهبة حكمته وخشيته أن لا أصيّب المحرّز ، فتحوطت لكلامي بشئ من انكار النفس واستكثار أن يكون مثلي من يجوز أن يتكلّم بحضوره مثله ؛ فما رأيته إلا نهض وأمسك بيدي وهتف قائلا : " أنا أهنى أرض الإسلام التي أنتبتك " [١] .

ويحدد الأمير موقع فكر جمال الأفغاني فيقول عنه : " هو الموقف الأعظم للشرق ، وأن طريقته سترداد انتشاراً ومبانه ستطيق في يوم من الأيام للشرق بأجمعه ، ومن غريب ضرائب البشر أنهم لا يحرصون على آثار عظمائهم في حياتهم معشار ما يحرصون عليها بعد ذهابهم " [٢] .

وقد جمع شكيب بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في مجال تأثيره البليغ بهما ، وكان يرى الأول أستاذًا للثاني ، فقال : " إتنا في حاضر العالم الإسلامي لم نعزم أحدًا في رجال الإسلام ماعظمنا المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني أستاذ الشرق عموماً ، وأستاذنا أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده " [٣] .

شكل الأفغاني ومحمد عبده إذا ، عاملاً واحداً من العوامل الأساسية التي أسهمت في تشكيل وصياغة أفكار الأمير حتى كان علماً من أعلام الإصلاح في الإسلام ، وكانتا مدافعاً عن حوزته في كل بقعة ومكان ، وحلقة أخرى من حلقات مدرسة أطلقها المصلح والفيلسوف جمال الدين الأفغاني .

العامل الثاني : دفاع الأمير عن الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي
أما العامل الثاني الذي أثر في توجهات فكر الأمير فهو مواجهة الفكر الغربي المتمثل في القضايا التي أثارها الاستشراق مما يهدّم جواماً على الإسلام والعرب وشخصياتهم ودينهم ولغتهم وفکرهم وثقافتهم وأدابهم .

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ٢ ص ٢٩٨ مرجع سابق

[٢] شكيب أرسلان - حاضر العالم الإسلامي ٢ ص ٢٠١

[٣] أحمد الشريachi - شكيب أرسلان داعيه العروبة والاسلام ص ٧٠

وقد ساهم الأمير شكيب في مواجهة هذا الهجوم الغربي إلى جانب عدد من العلماء المخلصين والمنفِّذين الوعيين الذين أسهموا بدورهم في الدفاع عما هو إسلامي وعربي حتى ليسن قادر على مواجهتهم خلال مواجهتهم لهذا الهجوم من حيث أسلوبه وغزارته وما فيه من فكر وعمق وثقافة ومنطق أروع ما كتب بالعربية في العصر الحديث.

الأمير شكيب أرسلان أحد رواد النهضة والإصلاح في العصر الحديث

وكان الأمير شكيب على اتصال دائم بالمخاصلين للعقيدة الإسلامية، والتراث، واللغة والفكر، والثقافة والآدب من معاصريه أمثال محمد رشيد رضا، ومحمد كرد على والشيخ مصطفى صبرى، ومصطفى صداق الرافعى وغيرهم من رجال وذمماء العالم الإسلامي من قبلاً مواجهة هذا التحدي الهدام، وجدوا في مقاومته وبيان مافيها من زيف وضلال، وما يهدف إليه من تحطيم الأمة الإسلامية والقضاء على معنوياتها ومقارماتها وتجر الإشارة إلى الصدقة التي جمعت بين الأمير شكيب ومحمد رشيد رضا فلتلقا على الهدف المشترك وهو الدفاع عن العرب والإسلام، والعمل من أجل عزة قومهما وتقديرهما وتوحدهم، واختلافاً في طريقة الدفاع وأسلوب العمل، ولم يمنعهما هذا الاختلاف من أن يجعلهما يديهما معاً في سبيل المصلحة العامة.

ويربط الأمير شكيب بين استاذ الشيخ محمد عبده وبين الشيخ رشيد رضا، ويرى أن رشيد من حسنت الأستاذ الإمام الكبير ويراه الأولى بأن يخلف الإمام في الإصلاح الديني يقول شكيب متحدثاً عن الشيخ محمد عبده "ومن حسناته الكبرى بولاديته التي ملأ بها طياب العالم الإسلامي براً، أخذه بيده الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا في نشر مجلة "المنار" التي هي لسان حال ذلك المصلح العظيم وترجمان أفكاره فهي والحق يقال أحسن مجلة ظهرت في باب الإصلاح الديني وتطهير الإسلام من شوائب البدع وإعلانه سيرته الأولى في عهد السلف. وتأليفه مع المدينة الحاضرة . كما أن الأستاذ السيد رشيد المشار إليه هو الأولى بسان يخلف الأستاذ الإمام الشیخ محمد عبده في مشروعه وفقه الله وسد خطاه "[١]" .

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ج ١ من ٢٨٣

والسيد رشيد رضا هو أول من أطلق على الأمير لقب "أمير البيان" وقدبلغ من تقديره لفكر شكيّب أن أرسل إليه أحد تلاميذه وهو الشيخ محمد بسيوني عمران يقترح فيها أن يكتب أمير البيان (العنار) مقالاً يقلّمه في أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر وأسباب قوّة غيرهم من الأقرنخ والبيان وعزّتهم بالملك والسيادة والقوّة والثروة ، وقدبني الشيخ بسيوني اقتراحه هذا على تلك الأسئلة التي صارت متار شبهة على الدين عند غير علمائه .

وبالفعل جاء جواب الأمير من خلال كتابه الشهير "لماذا تأخر المسلمين ، ولماذا تقدم غيرهم ؟" الذي يعتبر بحد ذاته ثورة في عالم الإسلام وثورة على الغرب نفسه ، وقد جمع الأمير فيه بين براعة المؤمن ومنهجية المؤرخ وحكمة الفيلسوف وحذافة السياسي ، ونشر الكتاب أولًا في "العنار" ثم طبع في كتاب أواخر سنة ١٩٣٠م بمطبعة العنار ، وفي أوله مقدمة السيد رشيد رضا يشير فيها إلى الظروف التي أحاطت بتأليف هذا الكتاب بقوله : "اقترحت هذا الاقتراح لحمل أخي ووليي الأمير شكيّب على كتابة شيء مثل هذا العنار ، وأنا الذي أنسّح له دائماً بتحفيظ أحمال الكتابة عن عاتقه لكتّبة لكثرة ما يكتب لصحف الشرق والغرب وللأصدقاء غيرهم ، فأرسلت إليه كتاب الشيخ محمد بسيوني عقب وصوله إلى ، فارجاً الجواب عنه لكتّرة الشواغل إلى أن عاد من رحلته الأخيرة إلى لشبانية وقد أثرت في نفسه مشاهد حضارة قومنا العرب في الأندلس والمغرب الأقصى ، وشاهدت تأثير محاولة فرنّسسة تصدير شعب البربر في المغرب تمهدًا لتنصير عرب لفريقيبة المرزوقيين باستعبادها لهم ، كما فعلت لشبانية في سلفهم في الأندلس - فكتب الجواب منفعلاً بهذه المؤثرات ، فكان آية من آيات بلاغته وحجة من حجج حكمته [١] .

ولقد كان إسهام الأمير شكيّب أرسلاً في مواجهة تلك التحدّيات استجابة لحاجة ملحة ، بعد أن تجسّدت أزمة المسلمين في تخلف ملدي وعلمي نفّاق شأنه في ذلك من بين المسلمين من دفعه اليأس وعدم الفهم الصحيح للإسلام إلى تصديق دعوى الاستعماريين في تعاملهم مع المسلمين والإسلام لتكريس وقع التابع والمتبع بعنطق "القدر التاريخي المتعالى الذي خص به الغرب" . لذلك بدأ الأمير شكيّب بتحديد أسباب ارتقاء المسلمين للماضي قبل أن يحدد أسباب انحطاطهم في الحاضر .

فرأى أن أسباب ارتقاء المسلمين الماضي كانت عادة في مجملها إلى الديانة الإسلامية ، وكان الإيمان العميق بالعقيدة ، الداعية إلى الوحدة لا إلى الانقسام والفرقـة ؛ والثانية على الجهل والجهالية في سبيل المدنية والمناهضة للظلم والقسوة وصولاً إلى الرحمة، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان من أجل عبادة الإله الواحد الأحد... كان كل ذلك بمثابة الدافع والمحرك في افتتاح العرب المسلمين لنصف الكـرة الأرضية في نصف قرن [١].

"فالقرآن قد أنشأ إذاً العرب نشأة مسائفة وخلقـهم خلقـاً جديداً وأخرجـهم من جـزيرـتهم والسيف في إحدـى الـدينـ والكتـابـ فـي الآخـرى يـفتحـونـ ويـسـودـونـ، ويـتـمـكـنـونـ فـي الـأـرـضـ بـطـولـهـاـ وـعـرـضـهـاـ" [٢].

فالدين الإسلامي هو السبب في إرتقاء المسلمين الماضي الذي نهضوا به وفتحوا وسادوا، فهل بقي هذا السبب في العرب وتـاخـروا بـرـغـمـ وجـوـدـهـ وتـأـخـرـ معـهـمـ تـالـمـيـذـهـمـ الـذـيـنـ هـمـ سـاتـرـ الـمـسـلـمـيـنـ، يـحـبـ الـأـمـيـرـ شـكـيبـ عـلـىـ ذـلـكـ فـيـؤـكـدـ أنـ الـمـسـلـمـيـنـ قـدـ فـقـدـواـ السـبـبـ الـذـيـ سـادـ بـهـ سـلـفـهـ وـأـنـ حـالـةـ التـخـلـفـ الـتـيـ وـصـلـوـاـ إـلـيـهـ نـاتـجـةـ عـنـ الـحـقـيـقـةـ التـالـيـةـ: " لم يـقـيـ منـ الـإـيمـانـ إـلـاـ بـهـ وـمـنـ الـإـسـلـامـ إـلـاـ رـسـمـهـ ، إـلـىـ غـيرـ ذـلـكـ مـاـ كـانـ فـيـ صـدـرـ الـمـلـةـ وـعـجـيـبـةـ الشـرـيعـةـ " [٣].

فالـأـمـيـرـ شـكـيبـ يـرـىـ أنـ وـعـدـ اللهـ تـعـالـىـ بـنـصـرـ الـمـسـلـمـيـنـ صـرـيـعـ وـبـاقـ ، وـلـلـهـ غـيرـ مـخـلفـ وـعـدـهـ ، وـالـقـرـآنـ لـمـ يـتـغـيرـ ، "إـنـمـاـ الـمـسـلـمـوـنـ هـمـ الـذـيـنـ تـغـيـرـوـاـ" فـقضـيـةـ إـنـخـطـاطـ الـمـسـلـمـيـنـ فـيـ الـعـصـرـ الـحـاضـرـ قضـيـةـ أـخـلـاـقـيـةـ فـيـ الـمـقـامـ الـأـوـلـ ، فـالـلـيـنـ لـمـ يـتـغـيـرـ إـنـمـاـ الـمـسـلـمـيـنـ هـمـ الـذـيـنـ غـيرـوـاـ مـاـ بـأـنـفـهـمـ فـكـانـ مـاـ عـجـبـ أـلـاـ يـغـيـرـ اللهـ مـاـ بـهـ .

"فـلـيـنـ حـالـةـ الـمـسـلـمـيـنـ الـيـوـمـ مـنـ سـلـفـهـمـ الـيـوـمـ كـانـوـاـ يـتـهـاـقـنـوـنـ عـلـىـ الـمـوـتـ الـأـحـمـ لـاحـرـازـ الشـهـادـةـ ، وـإـذـ فـاتـتـ فـارـسـهـمـ الشـهـادـةـ رـشـمـ حـرـصـهـ عـلـيـهـ عـادـ إـلـىـ قـوـمـهـ حـزـينـاـ كـنـيـباـ ، فـقـدـ الـمـسـلـمـيـنـ الـيـوـمـ أـوـ أـكـثـرـهـمـ هـذـهـ الـحـمـاسـةـ الـتـيـ كـانـتـ عـنـ آبـائـهـمـ ، إـنـمـاـ تـخـلـقـ بـهـاـ أـعـدـاءـ الـإـسـلـامـ الـذـيـنـ لـمـ يـوـصـمـ كـتـابـهـمـ بـهـ وـلـقـدـ جـدـ الـأـمـيـرـ فـيـ تـبـعـ الـعـلـلـ الـأـخـلـاـقـيـةـ الـتـيـ جـرـدتـ الـمـسـلـمـيـنـ مـنـ اسـبـابـ الرـقـىـ وـالـتـكـمـ وـأـسـلـمـهـمـ إـلـىـ حـالـةـ إـنـخـطـاطـ وـتـأـخـرـ فـيـرـىـ أنـ " مـنـ أـعـظـمـ أـسـبـابـ تـأـخـرـ الـمـسـلـمـيـنـ الـجـهـلـ ، الـذـيـ يـجـعـلـ فـيـهـمـ لـاـ يـمـيـزـ بـيـنـ الـخـمـرـ وـالـخـلـ ، فـيـتـقـبـلـ السـفـسـطـهـ قـضـيـةـ مـسـلـمـةـ وـلـاـ يـعـرـفـ أـنـ يـرـدـ عـلـيـهـاـ" [٤].

[١] ، [٢] ، [٣] ، [٤] شـكـيبـ أـرـسـلـانـ ، إـمـاـذاـ تـأـخـرـ الـمـسـلـمـيـنـ ؟ مـرـجـعـ سـابـقـ مـنـ ٤١ ، ٤٢ ، ٧٥ ، ٧٦

"من أعظم أسباب تأخر المسلمين العلم الناقص الذي هو أشد خطراً من الجهل البسيط..." [١]. ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين فساد الأخلاق، بفقد الفضائل التي حثّ عليها القرآن، والعزم التي حمل عليها سلف هذه الأمة وبها أدركوا ما أدركوه من الفلاح، والأخلاق في تكوين الأمم فوق المعارف..." [٢].

"من أكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص وظن هؤلاء - إلا من رحم ربك - أن الأمة خلقت لهم أن يغفلوا بها ما يشاؤون ..." [٣].

ويشير الأمير هنا إلى فقدان الأمة الإسلامية لعامل هام من عوامل استقامة الدولة على الصراط المستقيم فيرى أن فساد أخلاق الأمراء ناتج عن عدم قيام العلماء بدورهم الذي عهد إليهم الإسلام القيام به فالإسلام عهد إلى العلماء بتوقييم أود الأمراء" وكان قدّما في الدول الإسلامية الفاضلة بمثابة المجالس التنابية في هذا العصر، يسيطرون على الأمة، ويستدلون خطوات الملك، ويرفعون أصواتهم عند طغیان الدولة..." [٤].

وما كان بالخلاف والملوك ليرهباوا أولئك العلماء إلا لما كان عليه العلماء من أخلاق فاضلة، وتحليهم بالورع والذهد والتخلّى عن حظوظ الدنيا فلا يهمهم أخصب الملك الظالم الجبار أم رضى، "إلا أنه بمرور الأيام خلف من بعد هؤلاء خلف لاذدوا العلم منهنة للعيش، وجطوا الدين مصيدة الدنيا، فسوغوا لل Francois من الأمراء أشنع موبقاتهم، ولباحوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين هذا والعامنة المساكين مخدوعون بعظامه عاصم هؤلاء العلماء، وعلى مناصبهم، يظنون فتياهم صحيحة وأراءهم موافقة للشريعة، وللفساد بذلك يعظم، ومصالح الأمة تذهب والإسلام يتقهقر، والعدو يطأ ويتمر، وكل هذا أثمّه في رقاب هؤلاء العلماء" [٥].

والأمير لا يغفل المسلمين من مسؤولية التخلف فيستطرد في بحثه عن حقيقة الأسباب التي عملت على تخلف المسلمين وتاخرهم إلى قضيّا الاعتقاد، فيرى أن من أعظم عوامل تقهقر المسلمين الجبن والهلع بعد أن كانوا أشرف الأمم في الشجاعة واحتکار الموت... فقد انضم إلى الجبن والهلع الذين أصابوا المسلمين ، اليأس والقنوط من رحمة الله ، فمنهم قنات قد وقر في أنفسهم أن الأفرنج هم الأعلون على كل حال وأنه لا سبيل لمغالبتهم بوجه من الوجه، وأن كل مقاومة عبد".

[١] ، [٢] ، [٤] ، [٥] شکیب ارسلان ، لماذا تأخر المسلمين؟ مرجع سابق من ٧٥ ، ٧٦

وفي ختام كتابه خلص الأمير شكيب إلى دعوة المسلمين لنذ التسامم والإستذاء وإنقطاع الأمال، وأن يأخذوا بأسباب النهوض والرقي والتقدم التي أخذ بها غيرهم . وفي معرض رد الأمير على أذار المسلمين وحجتهم يناقش عقيدة"القضاء والقدر" - كما سيأتي موقفه منها بالتفصيل . فيبطل زعم الأفرنج الذين يقولون أن الإسلام جبرى لا يأمر بالعمل فيؤكد ويثبت أن الإسلام هو دين العمل لادين الكسل ولا هو دين الاتكار على القدر المجهول للبشر [١] . فمن أسباب تقهقر المسلمين فى العصور المتأخرة فقدانهم كل نقاء بأنفسهم رغم عن مقدرتهم على العمل ، واستشهد الأمير شكيب على هذه القدرة على العمل بمشروعى انشاء خط الحجاز الحديدى ونبوغ طلعت حرب بائنا فى تشيد بنك مصر والأخذ بمصانعه ومعامله الناجحة . كما استشهد بالأصلاحات التى تحققت فى البلاد المقدسة على عهد الملك عبد العزيز آل سعود فى وقت قصير ماؤلوجها إلا همة عالية وعزيمة صادقة وليمان بالله ونقاء بالنفس [٢] . والأمير شكيب لرسلان يؤمّن بأن العلم كفيل ببعث الأمة، العلم القائم على ركنتين : العلم الطبيعى وعلم الدين فيقول: "فلا بد لنا من تربية علمية ساترة جنبا إلى جنب مع تربية دينية، وهل يظن الناس عندنا فى الشرق أن نهضة من نهضات أوروبا جرت دون تربية دينية ؟ [٣]" .

ومحصلة نظرية الأمير فى نهضة الأمة الإسلامية أن الأمة لا يتم لها النهوض والغلبة إلا بالشخصية أو الجهاد بالعمال والنفس وهذا هو العلم الأعلى الذى يهتـف بالعلوم كلها فإذا تعلمت هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف [٤] ، وإن المضططعين بالإصلاح غير محتاجين إلى أن يكونوا من كبار العلماء فى العلوم والفنون بل يكفى إذا أتوا العقل للطريق والإرادة النافذة، والتوجه نحو الأعمال لا الاكتفاء بالمعنى والأمال [٥] .

[١] شكيب لرسلان ، لماذا تأخر المسلمون؟ مرجع سابق ص ١١٠ .

[٢] شكيب لرسلان ، لماذا تأخر المسلمون؟ مرجع سبق ص ١٥٦

[٣] شكيب لرسلان ، لماذا تأخر المسلمون؟ مرجع سابق ص ١٣٩

[٤] شكيب لرسلان ، لماذا تأخر المسلمون؟ مرجع سابق ص ١٦٤ ، ١٦٣

[٥] شكيب لرسلان ، لماذا تأخر المسلمون؟ مرجع سبق ص ١٦٤ ، ١٦٣

ويرى الشيخ أحمد الشريachi أن الأمير شبيب أرسلان كان مسبوقاً بالحديث عن انحطاط العالم الإسلامي في عصره، فقد سبقه عبد الرحمن الكواكبي في كتابه : "أم القرى" الصادر في مصر سنة ١٣١٦ هـ - ١٨٩٨ م حيث يتكلم المؤلف في كتابه هذا عن العوامل التي لدت إلى انحطاط العالم الإسلامي [١].

وبينتقد الشيخ جرم الرسالة الصغيرة، والإكثار فيها من وجوه المقارنات بين المسلمين بالأمس واليوم، وصياغتها بالأسلوب الصحافي والخطابي العاجل، كما يقول عن الرسالة - قوله حق - "أنها أثبتت بخطبة طويلة النفس فيها من الإثارة والتخييم أكثر مما فيها من البحث والإقامة" [٢].

والحق أن قيمة الرسالة الحقيقة تكمن في كونها جاءت استجابة لضرورة من ضرورات عصرها، فكانت بنت ساعتها ، ويظهر ذلك من استقبال العلم الإسلامي لها، فقد رحب بها العلماء وال العامة ولقوا الأنتظار إليها، وحضروا على نشرها وتعديمها يقول السيد رشيد رضا عن هذه الرسالة : "اضطربت بها بعض دول الإستعمار، وزلزلت زلزالاً شديداً حتى قيل لنا إنها أغرت حكومة سوريا بمنع نشرها فيها، وهي أحق بها وأهلها، فانفردت بهذه الدعاوة للإسلام دون من أغروها بها" [٣] . وكذلك منعت فرنسا دخول هذه الرسالة الجزائر حينئذ، وجعلت عقوبة لمن يطالعها [٤].

واقتراح الأستاذ محمد تقى الدين أستاذ اللغة العربية في كلية ندوة العلماء بالهند نشرها هذا الكتاب مصححا مضبوطا مشكولا ، ليستوري في مطالعته الخاصة وال العامة [٥] .

فشنآن بين كتاب هذا شأنه ، وكتاب نشر في عهد الخليفة ، زمن السلطان عبد الحميد يدعو إلى إقامة خلافة عربية من مكة المكرمة.

ومهما قيل في الرسالة فقد أيقظت الأمة ، وحركت العزائم نحو الإصلاح ودلت بصدق على كثير من مواطن الانحلال والضعف .

لما كون أسلوبها أسلوباً صحفياً خطلياً فالسبب أنه كتب لينشر في مجلة المنار ، وكتبه (شبيب) إجابة على سؤال فارئ .

[١] ، [٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] أحمد الشريachi - أمير البيان شبيب أرسلان ج ٤ من ٥١٧ ، ٥٢٠ ..

ولايقل لنقادها بكثرة الآيات القرآنية التي أشتملت عليها لأن القرآن دستور المسلمين والمصدر الأول من مصادر التشريع لديهم واللجوء إلى آياته وتبين تحزيراته ووصلياه في موضع معالجة أسباب تأخر المسلمين من اللوازم الأساسية والضرورات المنطقية لنجاح الموضوع [١].



[١] مقدمة كتاب "لماذا تأخر المسلمون؟" من ٢٢

الباب الثاني

الآراء الكلامية عند الأمير شبيب أرسلان

الفصل الأول

١ - قضية الخلافة الإسلامية

في فكر الأمير شبيب أرسلان

- تمهيد
- حكم الخليفة في الإسلام
- معنى الخليفة
- قضية فصل الدين عن السياسة
- دفاع الأمير شبيب أرسلان عن الشريعة الإسلامية
- رمي الشرع الإسلامي بالجهود لتعلقه بالمعاد والمعاشر
 - الاستشراق والشريعة
- حزب المتررجبين
- علاقة الدين بالسياسة في حضارة الغرب
- دفاع الأمير شبيب عن استقلال الشريعة الإسلامي وأصالة منبعه
- الإجتهاد لا ينفي الطابع الإسلامي للتشريع
- صلاحية الشرع الإسلامي لكل زمان ومكان وواجب علماء المسلمين
- اشتراط القرشية في الخليفة
- تعقيب

الفصل الأول

١ - قضية الخلافة الإسلامية في فكر الأمير شكيب أرسلان :

- تمهيد

إن أهم القضايا التي شغلت فكر الأمير شكيب أرسلان قضية الخلافة الإسلامية ، وعلى الرغم أن مسألة الإمامة أو الخلافة ليس من أصول علم الكلام وإنما هي من فروعه «ويتحدث عنها المتكلمون^(١) في علم خاص بهذه الأصول جريا على عادة المؤلفين في علم الكلام»^(٢) إلا أنها استحقت أن تقفز في العصر الحديث إلى صدر القضايا التي شغلت علماء الإسلام ومفكريه ، فقد «تمضيamburg الحرب العالمية الأولى وما ترتب عليها وتلاها من تقلبات عن أخطر ظاهرة في حياة الإسلام والمسلمين ، فللمرة الأولى في حياتهم سقطت الخلافة ، بعد أن اتصلت حلقاتها خلال ثلاثة عشر قرناً ونصف القرن . تنتقل مركز الخلافة فيها بين عواصم البلاد الإسلامية المختلفة ، ولكنه ظل في كل الأحوال رمزاً للرابطة التي تجمع بين المسلمين في شتى بقاع الأرض ، وظللت الدولة القائمة بأمير الخلافة مكلفة في نظر المسلمين برعاية شئونهم واسعاف منكوبיהם والأخذ بيد ضعيفهم وإقامة شريعة دينهم وشعائره»^(٣)

١ - تأول (الإمامية) علماء العقيدة على اعتبار أنها مبحث من مباحثها ، مثلما فعل القاضي أبو يكر محمد بن الباقلي (المتوفى عام ٣٤٠هـ) في كتابه «التمهيد في الرد على الملحدة المعنطة والخوارج والمحترنة» ، وأبو منصور عبد القاهر البخاري (المتوفى عام ٤٢٩هـ) في كتابه «أصول الدين» ، وأمام العرمي عبد الله الجوني (المتوفى عام ٥٧٨هـ) في كتابه «الإرشاد إلى قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد» ، وأبو حامد الغزالى (المتوفى عام ٥٥٥هـ) في كتابه «فضائح الباطنية» ، «الاقتصاد في الإيمان» وغيرها .. كما كتب الفقهاء كثيرا مفردة تعالج نظم الدولة الإسلامية منها «الأحكام السلطانية» للقاضي الشافعى وأبي الحسن السارودي (المتوفى سنة ٤٤٥هـ) وكتاب الإمام ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨هـ) «السياسة الشرعية» .. كذلك عن المؤرخون ينبع نظم الدولة الإسلامية على أرض الواقع التاريخي ، وقد جات مقدمة ابن خلدون (٨٠٨هـ) لجمع بين التأصيل الفقهي والتطبيق التاريخي في عرض نظم الدولة الإسلامية . (د. محمد فتحى عثمان ، من أصول الفكر السياسي الإسلامي ، ص ١٤/١٣).

٢ - د. حسن الشافعى ، لمحات من الفكر الكلامى ، دار الثقافة العربية ، ص ٣٥١.

٣ - د. محمد محمد حسين ، أزمة مصر ، دار عكاكب للطبع والنشر ، ص ٥٦ .

وكانت دولة الخلافة تقوم بواجهها كاملاً أو تغطّف فيه وتساهم في بعضه حسب الظروف والأحوال ، ولكن الدول الاستعمارية الغربية ظلت تحكم الضربات للخلافة في شكل موجات متتالية ، فرادى ومجتمعة منذ الحروب الصليبية التي اقترنت في الأذهان بالعقد والكراهية للإسلام وأهله إلى أن ألغت آخر أشكالها (الخلافة العثمانية) في مارس عام ١٩٢٤م^(١).

وقد يبدو الأمر غير خطير إلى حد الإزعاج في أعين أبناء هذا الجيل من لم يعرفوا الخلافة الإسلامية ، ومنم يتخيّلون أنها طرزاً من الأشكال التاريخية التي طواها الزمن ، ولكن شعور الذين عاصروا الخلافة الإسلامية ولدوا في ظلّها وعاشوا في دولتها كان مختلفاً جدّاً للخلاف ، فقد كانت في نظرهم دعاة للإسلام ، ورمزاً لوحدته ، وتحقيقاً لوجوده في الحياة^(٢).

وشكّب أرسلان كان واحداً من عاصروا (الخلافة العثمانية) عن قرب ، وعملوا على تثبيت أركانها والزود عن حياضها ، وكان يدرك أن إلغاء الخلافة ليس سوى مدخلاً إلى إنعام سبطة الاستعمار الغربي على الجماعة والشرع والأرض ، إذ بسقوط الخلافة تصبح المجالات مفتوحة أمام الغرب لكي يتحول أمّة المسلمين إلى وحدات سياسية مستقلة عن بعضها ، وتتصبح من خلالها مسألة عزل الشريعة قربة المنال ، وبنتيجة ذلك تصبح الجماعة كلها سهلة الإنقياد والخضوع للغرب .

«وتحققت توقعات المعارضين لقرار الإلغاء إذ استتبع ذلك خطوات متتالية في الاتجاه نحو الفصل بين الإسلام والحكم ، وتحول الدولة إلى علمانية لادينية ، فقد ألغت على إثر إلغاء الخلافة الشريعة الإسلامية من المحاكم ، ورفع التعليم الديني من الكتاتيب والمدارس ، وإجبار النساء على السفور وخلط الإناث والذكور في دور العلم وليس القبة والكتابة بالعرف اللاتينية ، كل ذلك بعد أن حذف من دستور تركيا المادة

١ - د. مصطفى حلمي ، نظام الخلافة في الفكر الإسلامي ، دار الاتصال ، ص ٥٣٨-٥٣٩.

٢ - د. محمد محمد حسين ، أزمة مصر (مرجع سابق) ص ٥٦.

التي فيها «إن الإسلام هو دين الجمهورية التركية»^(١) كما هاجمت على المسلمين ألوان من الفكر السياسي وتطبيقاته في نظم الحكم والإدارة فتن بها كثير من الناس فنشأ الخلاف حول تصور الأمة والدولة والوطن .

«وكان إلغاء الخلافة كان إشارة البدء لتحولات عميقة الجذور في كيان الأمة الإسلامية كلها ، إذ انتقلت العدو رويداً رويداً من تركها إلى سائر البلاد ، واقتصرت أثرها في معظم القرارات ، وإن لم تكن بقرارات رسمية ، فقد تمت عن طريق التقليد والمحاكاة»^(٢)

وساهم العنف السياسي (السيطرة الاستعمارية والتجزئة) والتغريب في تدعيم عزل عناصر الشريعة ، وقيام دول حديثة على جثة الخلافة ، تستلهم النمط الغربي وتناقض الشريعة ، وتسعى في استمرارها على مبدأ (القوة المادية التي هي معهود الغربيين)^(٣)

وأحسن الأمير شبيب بأن تفلغل الاستعمار الغربي في بلاد الإسلام لن يقف عند الاستعمار السياسي والنهب الاقتصادي بل سيتجاوز ذلك إلى محاولة هدم كل ما يميز هوية هذه الدول وبضمون بقائها تحت نير الإستعمار ، يقول الأمير متحدثاً عن الغربيين «أنهم غلباً على هذه المستعمرات واستعبدوا هذه الأمم ، فغيري دون أن يحتاطوا لأجل تأييد سلطانهم عليها بجميع الوسائل ، ولا يخفون عن شيء في سبيل إحكام سلاسل هذه العبودية ، ظانين أنهم يحفظونها راسفة في هذه الأصناد إلى الأبد ، فتراهم يفكرون في تهيئة الأساليب لاستئصال كل ما يخشون وقوفه في وجه مآرهم السيئة ، من دين ولسان ، وقومية ، ووطنية ..»^(٤)

لذلك حرص الأمير على وحدة المسلمين ، وسعى إلى معالجة دولة الإسلام لأنـه

١ - تعليقات الأمير شبيب أرسلان ، جـ٣ حاضر العالم الإسلامي ص ٢٥٣-٢٥١ .

٢ - د. مصطفى حلبي ، الخلافة (مراجع سابق) ص ٥٣٩ .

٣ - تعليقات الأمير شبيب أرسلان ، جـ٢ حاضر العالم الإسلامي (مراجع سابق) ص ٣٣٤ .

٤ - شبيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ٢ ص ٣٥١ .

رأى أن رد الفزوة الأوروبية أمر يتتجاوز طاقة شعب مسلم بمفردته ، فلما رأى الكماليين باعوا تركياً لمبادئ الغرب ، وانحازوا عن الشرق ليترموا في أحضان الحضارة الغربية ، ثار عليهم وأجهز على مصطفى كمال بورهطة فقال : «إن الذي قصده مصطفى كمال لم يكن سوى مجرد التفرنج ، وأن تفهم أوروبا أنهم هم نبذوا التقاليد الإسلامية ، ورموا بالشريعة القرآنية عرض الحائط ، وأقاموا مقامها قوانين أوروبية»^(١) ثم قال : «إن الهدف من الكتابة التركية بالحروف العربية هو إقصاء الترك عن العرب ، وإبطال قراءة القرآن تدريجياً»^(٢)

كما نصدى الأمير شكيب لقضية (فصل الدين عن الدولة) التي روج لها الغربيون في العالم الإسلامي وبين ما فيها زيف وضلal ، كما أثبت أن أوروبا لم تفصل بين الدين والسياسة كما يزعم المضللون ، ودافع الأمير عن الشريعة الإسلامية دفاعاً حاراً في مواجهة المستشرقين والمتفرنجين مؤكداً صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان ، وبين أن التعصب الإسلامي - في ما لو حدث - هو مجرد رد فعل لتعصب كانت الدول الأوروبية تبديه على الدوام ، لذلك قاوم الأمير البعثات التبشيرية لأنها رضبت أن تكون غطاء للأطماع الأوروبية .

«وكان الأمير يسعى إلى مزتارات المستشرقين ، ليناقش العلما ، عن الإسلام والشرق ، ويصحح آراؤهم»^(٣) كما كان يتبع كل ما يكتب الغربيون عن الإسلام فيرد عليهم ويعتقل بالأمين منهم ويبين ما في دعاوى المغرضين من طعن في الإسلام وإيذاء المسلمين .

وهكذا حلت مشكلات جديدة في الفكر الإسلامي نتيجة البحوث الفكرية التي خلفها الاستعمار لمعاونته في تشكين سلطنته في رفعة البلاد الإسلامية ، وأصبح من الضروري أن يجا بهما الفكر الإسلامي بطرق ملائمة لثقافة العصر وحضارته ، فانتقلب

١ - المصدر نفسه ، ج ٣ ص ٣٤٦ .

٢ - سامي الدهان ، شكب أرسلان (مراجع سابق) ص ٣٢٥ .

٣ - سامي الدهان ، شكب أرسلان ، ص ٣٢٥ .

العالم الإسلامي مدافعاً بعد أن كان ممسكاً بزمام الأمور مرهوب الجانب مسحوم الكلمة^(١)

وإذا كان علم الكلام كما يعرفه ابن خلدون : (علم يتضمن العجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الإعتقدات عن مذاهب السلف وأهل السنة)^(٢)

فإننا نعتبر جهود الأمير شكب أرسلان الفكرية في مواجهة الفكر الغربي الوافد داخلة في إطار (علم الكلام) كما اقتضتها ضرورات العصر لمواجهة خصوم الإسلام ، وأداً لواجب العلماء نحو دينهم وأمتهم .

وحدث الأمير شكب أرسلان عن الخلافة حديث متشعب ممتد الأطراف إلى قضايا مختلفة تتصل بالأصول الثابتة التي تناولها علماء العقيدة ، وتتفرع في مواجهة خصوم الإسلام والدفاع عن شريعته وعلاج أزمة الخلافة في العصر الحديث .

وقد بينا في هذا الفصل آراء ، الأمير شكب الكلامية عن القسم النظري في مسألة الخلافة ومكانتها من الشرع الإسلامي ، وحققتها ، وشروطها ، وأحكامها المختلفة . كما فصلنا القول في مواجهة الأمير شكب أرسلان للشبهات التي أحاطت بها في العصر الحديث واستهدفت نفي الخلافة من الزمن والقضاء على ما يجدد شرعيتها في التاريخ ، مثل قضية فصل الدين عن السياسة ، والطعن في التشريع الإسلامي وقدرته على مسيرة العصر .

كما عرضنا موقف الأمير شكب أرسلان من عقيدة القضاة ، والقدر التي حاول خصوم الإسلام أن يرجعوا إليها أسباب تخلف المسلمين ، وبيننا موقفه الذي يهدف إلى إظهار مسؤولية المسلمين عن واقعهم ، ونفي (عقيدة الجبر) التي تحبب الكسل

١ - د. مصطفى حلمي ، منهج علماء الحديث والسنّة ، ص. ٧١-٧ .

٢ - مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٨ ط: المكتبة التجارية الكبرى - مصر .

والتواكل إلى كثbir من المسلمين . وهي شبهة من بين الشبهات التي أراد المستشركون أن يلصقوها بالإسلام .

أما القسم العلمي التطبيقي الذي يمثل إجهادات الأمير شبيب أرسلان في علاج أزمة الخلافة الشاغرة بما يراه من نظام آخر يحقق وحدة المسلمين وفق روح العصر مع التمسك بالأصول والمبادئ التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية ، وتفردها بخصائصها التي تتميز بها عن سائر أنظمة الحكم الأخرى ، فسبعين ذلك في الفصل الذي يتناول الفكر السياسي عند الأمير شبيب أرسلان .

١- قضية الخلافة الإسلامية في فكر الأمير شكيب أرسلان

حكم الخلافة في الإسلام

إن العرب لم تجتمع كلتها إلا بدعوة دينية هي دعوة الإسلام ؛ فليس من عادة العرب قديماً ولا حديثاً التخاضع لملوكهم وأمرائهم كما تتخاضع لامرائها وملوكها سائر الأمم ؛ بل تراهم لا يخاطبون أمراءهم و مشايخهم بالألقاب الضخمة ؛ ولا بالنعوت التي يخاطب غير العرب بها ملوكهم .

· لذلك لما قال كسرى للنعمان بن المنذر إن الروم والفرس والهند .. إلخ لها ملوك تجتمع على طاعتها ؛ وإن العرب لا يزالون فرقاً و حزقاً ليس لهم أمر جميع ولا ملك ضخم ، أجابه النعمان : إن الأعاجم تطيع ملوكها من استخذاء نفوسها ولما العرب فباتها أعز نفوساً وأحمساً أنوفاً من ان تطيع ملكاً ، بل تجد العرب كلهم ملوكاً [١] وكما كان ذلك دليلاً على شم للعرب وعز نفوسها فلا ينكر أنه كان العلة الأصلية في تحاسد هذه الأمة وتتنافسها وحدة مناظرة بعضها البعض وضعف قوتها ، وقد خبرها الشاعر الجاهلي الأقوه الأودي فقال :

لایصلح الناس فوضى لاسرة لهم ولا سرة إذا جهالهم سلوا [٢]

وما ينطبق على العرب ينطبق على غيرهم ؛ فلولا الولاة لكان الناس فوضى مهملين وهجاً مضاعين، وقد أشار إلى هذا المعنى ابن خلدون فقال : ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم ، فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض ، لما في طبائعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليس آلة الصلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عليهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم ، فلا بد من شيء آخر يدفع عدوه عن بعضهم عن بعض .

[١] تعليقات الأمير شكيب أرسلان على حاضر العالم الإسلامي - ج ٤ ص ٦٩

[٢] الأحكام السلطانية، أبو الحسن الشاوري من

ولايكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدهما ، وهذا هو معنى الملك... [١].

لذلك رأى البعض أن الإمارة إنما وجبت بالعقل لما في طباع العقلاة من التسليم لزعم بعضهم من القظالم وبفصل بينهم في التنازع والتخاصم... وإلى هذا المعنى أشار ابن خلدون في مقدمته حيث قال : " وقد ذهب بعض الناس إلى أن مدرك وجوبه (نصب الإمام) العقل وأن الإجماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه " [٢].

غير أن الأجماع واقع على أن نصب الإمام واجب قد عُرف وجوبه في الشرع بجماع الصحابة والتابعين [٣] ؛ لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم . " وكذا في كل عصر من بعد ذلك . ولم تترك الناس فوضى في عصر من الأعصار . واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام " [٤].

وقد جمع شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية بين العقل والشرع فرأى أن وجوب الإمامة مشروع بالعقل المستند إلى النصوص الدينية فقدس وجوب رئاسة الدولة الإسلامية على وجوب تأمير ثلاثة أحدهم إذا خرجوا في سفر لما في الإمارة من مصلحة للمسافرين ناهيك عن الأمة ، فقال : " ولایة أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لاقيم للدين إلا بها فإن بنى آدم لاتتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولابد لهم عند الاجتماع من رئيس حتى قال انتبى صلى الله عليه وسلم " إذا خرج ثلاثة في سفر فليوزمروا أحدهم " [٥]. ومن النصوص التي يستند إليها قوله تعالى : (يائياها الذين آمنوا أطعوا الله وأطعموا الرسول وأولي الأمر منكم) يقول الماوردي : " ففرض علينا " [٦] ووجوب الطاعة يقضى وجوب المطاع .

[١] مقدمة ابن خلدون ، ح ١ ص ٧٢، ٧١

[٢] لمراجع السابق ح ١ ص ٣٤٠

[٣] الماوردي ، الأحكام السلطانية ص ٥ / مقدمة ابن خلدون ص ٣٣٩

[٤] مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٣٩

[٥] رواه أبو داود من حديث أبي هريرة عن السّاسة الشرعية ص ١٦١

[٦] الماوردي ، الأحكام السلطانية ص ٥ (٣) تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول الأمير شكب ص ٢٣

والأمير شكيب يرى أن وجوب الخلافة في الإسلام أمر مسلم به ، اتفق عليه المسلمون - إلا الخارج والمعتزلة - ويرى أن علماء الإسلام أمثال ابن خلدون والساوردي وغيرهم كلين تبيه قد وفوا البحث في هذا الأمر حقه وأثبتو وجوب نصب الإمام بكل ما يجب أن يقال [١] .

معنى الخلافة

يقول الأمير شكيب: "اتفق المسلمون - إلا الخارج والمعتزلة - على وجوب نصب الإمام لحراسة الدين والدنيا، فكان هذا المنصب جامعاً بين السلطة الروحية - لكن بدون العصمة التي يقول بها الكاثوليكين في البابا - وبين السلطة الدنيوية وهي ما يسميه النصارى بالسلطة الزمنية - لكن بدون الامتيازات التي تسجلها القوانين الأوروبية" [٢] . والأمير بتعريفه هذا للخلافة يتقييد بالتعريف المتفق عليه بين علماء المسلمين عند حديثهم عن الخلافة حيث يعرّفها أبو الحسن الماوردي في صدر كتابه الأحكام السلطانية والولايات الدينية بقوله : "الإمامية موضوعه لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا" [٣] .

[١] أـ. يقول ابن خلدون : " وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا التنصيب رأساً لإلأعقل ولا بالشرع : منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخارج وغيرهم : والواجب عند هؤلاء إنما هو إضفاء أحكام الشرع ، فإذا تواظلت الأمة على العدل وتنتفي أحكام الله تعالى لم يتحقق إلى إمام ولا يجب نصبه . وهؤلاء محجون بالإجماع ابن خلدون - المقلمة مع أط ٣٤٠ - ٣٤١

بـ - وفي العصر الحديث خرج الشيخ على عبد الرزاق ، أحد علماء الأزهر وأحد قيادة المحاكم الشرعية سنة ١٩٢٥م بكتابه "الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام" . وفيه يتابع الشيخ رأى القائلين بعدم وجوب الإمامة، ويعكس الكتاب نزعة "الدولة القومية للستورية العلمانية" أو البعيدة عن أي صبغة دينية . وهي نزعة مستوحاة من ميلانها في التاريخ الأوروبي الحديث، مع الفارق الضخم بين الخلافة في الإسلام والبابوية في المسيحية ..(دـ). محمد فتحي عثمان ، من أصول الفكر السياسي ، مؤسسة الرسالة ، من ٥٧) . وقد ورد عليه كثيرون منهم الشيخ محمد الخضرى حسين والشيخ محمد بخيت، والسيد محمد رشيد رضا صاحب المغار ، ورد عليه حيثاً الدكتور محمد البهى رئيس جامعة الأزهر فى كتابه "التفكير الإسلامي وصلته بالاستعمار للغربى" وفيه يصف الكتاب بأنه يحكي عن الغرب أكثر مما يتحدث من جوهر الإسلام ذاته (الذكر الإسلامي الحديث ، هاشم من ٢٠٧) وقد شك الأستاذ ضياء الدين الرئيس أن يكون عبد الرزاق مؤلف الكتاب في كتابه (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) ...

[٢] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الاول لشكيب ارسلان من ٢٣

[٣] الأحكام السلطانية من ٢

وكما عرفها ابن خلدون مبيناً حقيقة منصب الإمام بأنه "نوابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين، وسياسة الدنيا به ، تسمى خلافة وبامامة، والقائم به خليفة وباما". فاما تسميتها اماما فتشبيهها باسم الصلوة في اتباعه والاقتداء به؛ ولهذا يقال : الإمامة الكبرى. وأما تسميتها خليفة فلكونه يخلف النبي في أمرته، فيقال : خليفة باطلان... [١].

فالخلافة ابن نمط فريد من أنماط أنظمة الحكم، وإن اصطلاح على اطلاق لقب الخلافة على رئاسة الدولة الإسلامية، وأصبح الخليفة لقب لم يضطلع بولاية أمور المسلمين، غير أن "الخلافة لم تستتم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكا عوضيا قد يوجد فيه المستبد العامل والمستبد الغائم، وما تقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة، سواء كان من العرب أو من الترك، إلا خشبة الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج" [٢].

وقد فهم الأمير شبيب حقيقة الخلافة على أنها ليست عبارة عن صفة تميّز بها أحدى الحكومات الإسلامية بل هي "عبارة عن كون حكومة مائية مناب رسول الله صلى الله عليه وسلم في القيام بأحكام الشرع الإسلامي، فلها ركناً حكومة ونبيلاً" [٣].

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم مكانة خلفائه منه فقال : "كانت بني إسرائيل تسموهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وابنه لا يتبىء بعدي وستكون خلفاء فتكثرون..." [٤]. فخلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم بمنزلة أنبياء بنى إسرائيل من رسلهم حيث يحكمون بالتوراة التي أنزلها الله على موسى وهؤلاء يحكمون بالقرآن الذي أنزله لله على النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، غير أن هؤلاء الخلفاء أو الأئمة لا يوحى إليهم فهم ليسوا بأنبياء، وهم وبالتالي ليسوا بمعصومين إلا من عصم الله [٥].

[١] تاريخ ابن خلدون مع ١ طبع ١٩٨١ من ٣٣٩

[٢] حاضر العالم الإسلامي ص ٢٩٠ هامش لشکوب أرسلان

[٣] الشیخ مصطفی میری التکری على منکری التعمة من ١٤٥

[٤] حدیث مسلم في كتاب الإمارة .

[٥] محمود المرداوى - الخلافة بين التظير و التطبيق ص ١٦

والأمير يؤكد أن الإسلام وإن جمع لل الخليفة بين السلطتين الروحية والزمنية إلا أنه لم يعطة العصمة التي يقول بها الكاثوليكين في البلايا ولا الامتيازات التي تسجلها القوانين الأوروبية للملوك و كان الخلفاء يفهمون حقيقة منصبهم على هذا النحو كما بينه الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما يو碧ع وقام خطيباً فكان مما قال " كان رسول الله عبداً أكرم له بالروحى و عصمه به ، ألا وإنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم ، فراغوني فإذا رأيتمني استقمت فاتبعوني وإن رأيتمني زغت فقوموني " [١] .

و كان عامة المسلمين لا يرون في خلفائهم فضلاً ولا يقررون لهم بطاعة إلا بمقدار استقامتهم على الشرع ؛ و قيامهم بواجبات التبليبة ؛ و كانوا في العصر القديم يقولون لعمر بن الخطاب وهو يخطب " لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا " . و كان الأحنف يقول لمعاوية و الله يا معاوية بن السيف التي قاتلناك بها لهى في اخعادها " [٢] .

" وخطب أبو جعفر المنصور ولم يكن من الخلفاء الراشدين بل من الخلفاء القاسطين فقال ((ليها الناس انقوا الله)) فقام إليه رجل من عرض الناس فقال له ((اذرك الله الذي ذكرتبا به)) فأجابه الخليفة ((سمعاً سمعاً من ذكرنا بالله)) " [٣] .

و قد هاجم بعض أصحاب الفكر من الأوروبيين الإسلام ورموه بالجمود لأنه جمع بين السلطتين الدينية والدنيوية فكان هذا علقاً للمجتمع الإسلامي عن الترقى، وسيبا في تقهقر المسلمين، وقد وافق بعض المسلمين هؤلاء الطاعنين في الشريعة الإسلامية ودعوا إلى فصل الدين عن السياسة ونجحوا في ذلك في معظم أقطار الشرق الإسلامي، وكان في طبيعة هؤلاء المسلمين الجغرافيين كما يسميه الأمير شبيب - الترك الأثريون شيعة مصطفى كمال أناتورك ، وقد هاجم الأمير شبيب أرسلان الفريقيين وبين ما في قولهم من تحامل على الدين الإسلامي وأن في جملة " فصل الدين عن السياسة " من السفسطه التي لا تستند على شيء من الواقع، وهو قول مخالف لسنة الله في خلق، إذ أن الدين متصل بالدنيا في كل مجتمع بشرى، والدنيا ممتزجة بالدين بدون لفكاك ولا يتصور وجود أحدهما بدون الآخر [٤] .

[١] شبيب أرسلان التعليقات على تاريخ ابن خلدون من ٦٦

[٢] ، [٣] شبيب أرسلان حاضر العالم الإسلامي ج ٤ ص ٦٩

[٤] تعليقات الأمير شبيب على تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول من ٦٣

ومن مناقشة الأمير لخلط الأوروبيين في الشرع الإسلامي ومروجيه من المتنسبين إلى الإسلام يتجلّى لنا مذهب الأمير في الخلافة الإسلامية وما ينبغي أن تحيط به من أمور العرش والمعاد .

قضية فصل الدين عن السياسة

قضية فصل الدين عن الدولة مرتبطة بأزمة الخلافة في العصر الحديث، فمنذ العصور العباسية المتأخرة، تسلط على المسلمين حكام انحرفوا عن عدالة الإسلام وفيه وأحكامه، وإن انتسبوا إليه وحكموا باسمه وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية كانت تمثل درع الإسلام الحامي وتزمر لوحدة المسلمين حتى في أيام ضعفها، فإن معظم حكامها المتأخرين أصاروا كثيراً من أحقاد المسلمين داخل دولتهم وخارجها بسبب سوء سياستهم وأستبدادهم وغلظتهم وغشمهم [١]. ولكن ذلك لم يؤثر على مشاعر المسلمين الدينية من قبلية الخلافة وقد كلّ ولاء الجماعة المسلمة للدولة كمؤسسة سياسية في مرتبة ثانوية بالمقارنة مع ولاتها لمربحة الشرع وما تمثله الخلافة الدينية في نفوس الجماعة، بل كان تمسك الجماعة الإسلامية بالشرع هو سلاح الجماعة الأمضى في مواجهة هزّال الدولة والخوف من انهيارها. مما يعني أن تبعية المجتمع الفطية هي للدين وليس للسياسة، وعلى هذا يقوم الاتحاد بين الدين والسياسة في الإسلام مما يشير إلى استحالة الفصل بينهما حيث تستند قوّة الدعوة على القيم الإيجابية للأخوة والجماعة والوحدة . بسبب ذلك استنفر الغرب كل قواه لكي يلتفي خصوص السياسة للدين في الإسلام، فكان الاصرار الغربي على إلغاء الخلافة أولاً، وقيام الدولة العثمانية الحديثة المستهورة من الخارج ، ثانياً . ومنذ خلع الثوار العسكريون أصحاب جمعية الاتحاد والترقي السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨م ثم أعادوا خلمه مره أخرى نهائياً في العلم التالي وولوا غيره أصبحت الخلافة العثمانية مجرد شبح روحي هزيل إذ قبض الثارون العسكريون على السلطة الفعلية وهم وحدهم الذين يتحملون مسؤولية الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ ، إذ لم يكن للسلطان محمد رشاد الملقب بـ محمد الخامس الذي خلف عبد الحميد من السلطة إلا الاسم .

[١] د. محمد قصي عثمان / من أصول الفكر السياسي الإسلامي / من ٧

" وحين قام كمال انتورك يقاوم الحلفاء المنتصريين الذين أرادوا فرض شروطهم القاسية على العثمانيين المنهزمين أجبر الحلفاء الذين كانوا يحتلون الأستانة للسلطان محمد السادس الذي تولى وقتذاك وكان واقعا تحت تأثيرهم - أجبروه على استئثار مقاومة انتورك ".

" وحين انتصر انتورك سنة ١٩٢٤ بادر إلى إعلان الجمهورية وعزل الخليفة الأخير عبد المجيد الثاني وألغى الخليفة من بلاده، ليقيم دولة مستقلة محدودة على أساس القومية "[١] .

وبسقوط الخليفة أصبحت المجالات مفتوحة أمام الغرب لكي يحول أمم المسلمين إلى وحدات سياسية مستقلة عن بعضها ، وتصبح من خلالها مسألة عزل الشريعة قريبة العدل . ولم يكن القبول بالأمر الواقع ممكناً بالنسبة للمسلمين دون البحث عن مخرج، فالخلافة تراث تنظيمي ارتبط بمشاعر المسلمين طوال القرون، وكان رمزاً لوحدتهم ودرعاً لدينهم روكيتهم الدولي ، وكان لإلغاء الخليفة ردود فعل قوية بين المسلمين في عدد من الأقطار الإسلامية وفي مقدمتها الحجاز ومصر والهند [٢] .

هنا جاء دور الدعليات التي أخذت بينها أداء الإسلام ورواد الاستعمار الأوروبي ويدخلون بها على ناشئة المسلمين " بالشبه التي تكره إليهم الشرع الإسلامي وتحبب إليهم المرroc منه ، وهذا جعل ما تبنيه أوروبا من الدعالية في هذا العصر بين المسلمين لمعرفتها أنه مدام الشرع الحمدي هو مدار العمل عند المسلمين كان هؤلاء يرون خضوعهم للأجلاب ثنياً لا يغفره الله لهم إلا بالاستقلال التام وعارضوا عليهم لايرحضه ألا طرد الأجنبي المتغلب من المستعمرات التي تغلب فيها عليهم. ولية مصيبة على أوربة أعظم من هذا ! "[٣] .

ومن جملة هذه الدعليات والدسانس قضية " فصل الدين عن السياسة " وزعم الفئة الدسانسة من رواد الاستعمار وأداء الإسلام أن أوروبا قد فصلت الدين عن السياسة بتاتاً وطلقت هذه من هذا ثلاثة وأنه لم يبقى من يخالط الدين بالسياسة ويجعل للحكومة صبغة دينية إلا المسلمون الذين لم ينظروا إلى ما حولهم من المحدثات العصرية التي من جملتها جعل الدين في واد والسياسة في واد - "[٤] .

[١] [٢] من أصول الفكر السياسي الإسلامي / المرجع السابق / من ٤٩

[٣] شبيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ص ٣٥٠ ج ٢

[٤] حاضر العالم الإسلامي ، شبيب أرسلان ، ح ٣ ص ٣٥١

ولقد لاحظ الأمير شكب أرسلان خطر هذه القضية مبكراً، لذلك فهو يؤكد أن الداعين إلى فصل الدين عن السياسة لابد أن يكونوا عملاء للاستعمار الغربي وأعداء للإسلام لأن فصل الدين عن الدولة ليس مجرد بديل "غربي" عن الخلافة، بل محاولة مقصودة للخلولة دون عودة هذه الخلافة في يوم من الأيام، إذ لا يكفي نفي "الخلافة" من الزمن وإنما هم الغرب الأول القضاء على ما يجدد شرعيتها في التاريخ. وهذا ما يفسر تلازم سقوط الخلافة مع تغريب الشرع.

وهذا ما دفع الأمير إلى توجيهه كلمة إلى منتقى الدولة الحديثة من انتسبوا إلى الإسلام وتأثروا بالدعایات الغربية فدعوا إلى نهضة قومية في البلاد الإسلامية ترفض كون القرآن أصل تشريعى للسلطة السياسية لافتداء بأوربا التي نزعت من حكوماتها كل صفة مسيحية في نهضتها الحديثة فكتب الأمیر مخاطباً هؤلاء :

"يقول بعض الناس ما لنا وللرجوع إلى القرآن في ابتعاث هم المسلمين إلى التعليم فإن النهضة لاينبعى أن تكون دينيه بل وطنية قومية كما هي نهضة أهل أوربا ، ونجيبهم أن المقصود هو النهضة سواء كانت وطنية أم دينية على شرط أن تتوطن بها النقوس على الخبر في حلبة العلم، ولكننا نخشى إن جردنها من دعوة القرآن أن تقضى بنا إلى الإلحاد والإباحية وعبادة الأبدان واتباع الشهوات، مما ضرره يغوث نفسه، فلا بد لنا من تربية علمية سائرة جنبا إلى جنب مع تربية دينيه، وهل يظن الناس عندنا في الشرق أن نهضة من نهضات أوربا جرت دون تربية دينيه؟ وهل جرت نهضة اليابان دون تربية دينيه؟ [١] . ويستدل الأمیر على ارتباط أوربا بالدين المسيحي بكلمات لبعض ساسات أوربا الكبار، وبأن علم اللاهوت مازال يدرس في كل جامعات أوربا .

ثم يفسر الأمیر مراد الأوليون من قولهم : (نهضة وطنية) أو (نهضة قومية) أو جامعة وطنية أو قومية، لا يكون مرادهم بالوطن التراب والماء والشجر والحجر، ولا بالقوم السلالة التي تحدى كلها من دم واحد، وإنما الوطن والقوم عندهم لقطنان تدلان على وطن وأمة بما فيها من جغرافية وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق وعادة مجموعاً ذلك معاً، وهذا الذي يناضلون عنه ويستبسلون كل هذا الاستبسال من أجله [٢] .

[١] ، [٢] لعازماً تأخر المسلمين، شكب أرسلان، من ١٣٦

فالأمير لا يجد من عرض الشوادع والدلائل على كذب من زعم أن نهضة أوروبا مبنية على تقصيها من كل نزعات مسيحية وأنها لا تعرف شيئاً إلا الأنسانية العامة، وأن الدين المسيحي لأنهم به حكومة من حكومات أوروبا أكثر مما تهم بغيره من الأديان.

وكان الأمير من فهوموا فظاعة الفتنة اللا دينية في تركيا وترقعوا أنفراط عقد الإسلام عروة عروة" ولقد روج هذه الأغلوبة مصطفى كمال رئيس جمهورية أنقرة لغرض في نفسه من جهة سلخ الترك تدريجياً عن العقيدة الإسلامية وصرفهم عن اللغة العربية فسار بتركيا سيرة من يجعل الدين الإسلامي أجنبياً عن الحكومة التركية كما أن الدين المسيحي هو أجنبى عن الحكومات الأوروبية الراقية.. [١]

يرى الشيخ مصطفى صبرى أن المروجين لفصل الدين عن الدولة أحد أثنيين: إما مستطن للأخذ أو جاهل بمعنى مال يقول لأن تزويج الفكرة لا يتفق مع الإيمان بأن الدين متزل من عند الله عز وجل، وأن أحكامه المذكورة في الكتاب والسنة أحكام الله تعالى بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم [٢]. وبؤيد ما ذكره الشيخ مأذلت إليه الدولة في تركيا من الأحوال الادينية، فلم يكن فصل الدين عن الدولة إلا مقدمة لابقاء جميع ماتشتم منه رائحة الإسلام من أوضاع الحكومة التركية، وهو ما اعدده الأمير شكيك في حديثه عن ما أحدثه مصطفى كمال وحزبه المسمى "خلق فرقه سى" فقال عنهم أنهم أبطلوا المحاكم الشرعية بعد أن أبطلوا العمل بالشريعة وألغوا الوزارة التي كان اسمها "مشيخة الإسلام" وحرزوا من بستور تركيا المادة التي فيها "إن الإسلام هو دين الجمهورية التركية". وكانوا على مدة بضع سنوات أبطلوا أقامة مراسيم العيددين النحر والغطر [٣].

ولما الكتابة التركية بالحروف العربية: فقد كان تعليلها في ظاهر الحال تسهيل التعلم على النشء وتقسير المدة الازمة للقراءة ولكن التعرض الحقيقي منها أقمناء الترك عن العرب وإبطال قراءة القرآن تدريجياً وأهم من ذا وذا اقتناع أوروبا بأن تركيا قد تفرنgett تماماً وأنه صار من العدل أن تدخل في العائلة الأوروبية ولهذا الغرض الأخير نفسه حمل مصطفى

[١] حاضر العالم الإسلامي ، شكيك أرسلان، ج ٣ من ٣٥١

[٢] موقف العقل والعلم ، الشيخ مصطفى صبرى ج ٤ من ٢٩٤

[٣] حاضر العالم الإسلامي ، ج ٣ من ٣٥١

كمال الأتراك على ليس القبعة ليزدادوا إندماجاً في الأوربيين ”[١] .

ويدافع الأمير عن الشعب التركي المسلم فينفي عنه أن يكون الأتراك راضين مغبظين بالباء الشرعية الإسلامية من المحاكم ورفع التعليم الديني من الكتاتيب والمدارس وإجبار النساء على السفور وخلط الإناث والذكور في دور الطم وحمل الأوانس على الزفاف مع الشبان وليس القبعة والكتابة بالحروف اللاتينية إلى غير ذلك مما أحسته الحكومة التركية (الأنقريه) الكمالية ويؤكد الأمير أن العقيدة الإسلامية لم تزعزعها حتى الآن في تركيا هذه السياسة اللادينية ولا يزال الشعب التركي شديد الاعتصام بعروة الدين الوثقى تدل على ذلك مظاهره الدينيه في استبول وغيرها مما لم يخف على الأفرنج الذين أشاروا إليه في جرائدhem [٢] .

ولكن الأمير حذر من الخطير الذي يهدد استمرار نمسك الشعب التركي بعقيدته الإسلامية إن استمر الحكم اللاتيني مدة طوله ونشأة الأفواج الجديدة على ماهي عليه من فقد التعليم الديني [٣] .

ويرد الأمير زعم الأنقريين أن الحكومات الأوربية قد ألغت التعليم الديني من مدارسها، فالحكومات الكاثوليكية بأجمعها مرتبطة أشد الارتباط بالدين الكاثوليكي، بما في ذلك الحكومة الفرنسية التي لاتوجب التعليم الديني في المدارس الرسمية إلا أنها لاتعارضه في غير المدارس الرسمية بل التعليم الديني مالي فرنسا بواسطة المدارس الأهلية [٤] ، فالدول الأوربية وحكوماتها لم تقطع الصلة بالدين بل تحرص الحكومات الأوربية دائمًا أن تظهر في كل فرصة بمظهر ديني مسيحي، ويسوق الأمير من الشواهد الكثير ليدلل على ارتباط الحكومات الأوربية بالدين المسيحي وكثب الزاعمين بغير ذلك .

ويرى الأمير أن كل مافعلته لوريا من فصل الدين عن السياسة مجرد الفصل الإداري كما هناك فوascal في سائر فروع الإدارة بعضها عن بعض وأنه ليس من المعقول أن الدولة الراقية لا تكترث لأمور الدين وهو الذي يحيا ويموت السواد الأعظم من رعاياها، فالدولة التي

[١] المرجع السابق جـ ٣ ص ٣٥٢

[٢] . [٣] حاضر العالم الإسلامي ، جـ ٣ ص ٣٥٣

[٤] المرجع السابق ، جـ ٣ ص ٣٦٠

لاتهتم بأمور رعياتها الدينية تكون جاهلة معنى السياسة بالمرة [١] .

"ومما لامساحاً فيه أن بين الديانة والسياسة فصلاً ادارياً بحيث كل منها لها دائرة تختص بها . ولكن مرجع الجميع إلى الحكومة، والحال في بلاد الإسلام لاختلف عن ذلك . فمسيخة الإسلام منفصلة عن مائر النظارات المدنية " [٢] .

" وخلاصة القول أن فصل الدين عن السياسة لم يكن معناه في أوروبا والممالك المتعددة إهمال الدين ولا تجريد الحكومات من صبغته إذ أن الحكومات إنما هي ممثلة للشعب فكما تكون الشعوب تكون الحكومات وما دامت شعوب أوروبا وأمريكا مسيحية فحكومات هاتين القارتين مسيحية قولاً واحداً . ومدامت أمة اليابان طاوية فحكومتها طاوية وما دامت الصين بوذية فحكومتها بوذية ومدامت أهل صيام يعبدون الفيل الأبيض فحكومتهم تسجد للفيل الأبيض " [٣] .

إذا خرافة فصل الدين عن الدولة أو السياسة في أوروبا التي لايزال تصدق بها بعض المضللين في الشرق ليس لها أصل إلا بالمعنى الإداري الذي هو جار أيضاً في بلاد الإسلام [٤] .

ومن أهم الأدلة التي يستشهد بها الأمير وتدل دلالة صارخة على تعشك الأوروبيين بالديانة المسيحية بل وتعصبهم لها ؛ عضـدـ الدولة الأوروبـيـهـ للرسـالـاتـ للتبـشـيرـيـهـ بـالـدـينـ المسيـحيـ [٥]ـ ماـ دـفـعـ الـأـمـيـرـ إـلـىـ أـنـ يـتـسـاعـلـ "ـ فـإـنـ كـانـتـ الـأـدـيـانـ عـنـ الدـوـلـةـ الـأـفـرـنـصـيـهـ عـلـىـ حـدـ سـوـاءـ فـلـمـاـذـاـ هـذـاـ الـأـجـهـادـ فـيـ تـصـيـرـ الـرـبـرـ وـهـمـ سـلـمـونـ؟ـ وـلـمـاـذـاـ هـذـهـ الـمـسـاعـيـ الـحـثـيـهـ فـيـ تـصـيـرـ الـطـوـبـيـنـ سـكـانـ جـبـالـ الـلـانـقـيـهـ وـفـيـ فـصـلـهـمـ عـنـ الـوـحـدـةـ مـعـ سـوـرـيـاـ وـالـحـالـ أـنـ الـطـوـبـيـنـ هـمـ فـرـقـةـ مـنـ الـفـرـقـ الـإـسـلـامـيـهـ كـمـاـ لـايـخـفـيـ "ـ [٦]ـ .

[١] المرجع السابق ، جـ ٣ من ٣٥٧

[٢] حاضر العالم ، شكب أرسلان ، جـ ٣ من ٣٦٠

[٣] المرجع السابق ، جـ ٢ من ٣٥٨

[٤] يقول شكب : " وقد كان في الدولة العثمانية كما يعلم كل أحد . فالصدر الأعظم كان ينظر في الأمور السياسية والإدارية خاصة وشيخ الإسلام كان ينظر في الأمور الشرعية والدينية خاصة . وكل من المرجعيات كان يعود إلى السلطان) تعليقات الأمير على ابن خلدون من ٢٣

[٥] حاضر العالم ، شكب أرسلان ، جـ ٣ من ٣٥٧

[٦] لماذا تأخر المسلمون ؟ شكب أرسلان من ١٣٨

كما ينصح الأمير الأنجلزي بالعدول عن دعائهما الدينية في السودان والأوغاندي وينصح لهم لاتناده بترك دعائهما الدينية بين مسلمي أندونيسيا [١].

وهكذا يكتب الأمير إدعاءات المضللين وعلى رأسهم حكومة تركيا الكمالية في قوله أن الحكومات الأوروبيه لا سيما الراقية منها لاتعني بأمور الديانة المسيحيه، ويعلن الأمير ذلك صراحة فيقول : " وحكومة تركيا الكمالية لاتصدق رعيتها القول أصلاً عندما تقول لهم أن دول أوربا قد نبذت الديانة المسيحيه ظهرياً وأن رقيها المادي لم يتغير لها إلا بنبذ العقائد الدينية " [٢] . وبسخر الأمير من حكومة أنقره التي أعلنت كونها حكومة لا دينيه عملاً بمبدأ فصل الدين عن الساسه . ومعناه استقلال كل من الدين والحكومة عن الآخر ومساواتهما في هذا الاستقلال ، بآلا يتدخل كل منها في أمر الآخر وإن كانت هذه المساواه أيضاً مما لا يرضاه الإسلام الذي لا يرضى للكفر [٣] . وهي نفسها - اي الحكومة الأنقرية - لا تزال كل يوم تصدر أوامر وتسن قوانين متعلقة بأمور دينيه محضه من جملتها الصلاة باللغة التركيه التي من أجلها ثارت الأفكار في تركيا في هذه الأيام ورفض الأكثرون امتثال أوامر الحكومة بها وقلوا أنه لا يأس بان يلقى الخطيب خطبة الجمعة بالتركي فإن الصلاة نفسها بالتركي فهي مخالفة للسنة [٤] .

ويرى الأمير أن الحكومة التركية الكمالية تتراقص نفسها بنفسها عندما تدعى الافتداء بالحكومات الراقية في فصل الدين عن السياسة وهي تتدخل كل يوم في الأمور الدينية الصرفة، ويرى الأمير أنه كان من الأولى بهم انسجاماً مع مذهبهم أن يتركوا هذه الأمور لرؤساء الدين وحدهم . والحق أن تدخل الحكومة في أمر الدين لا يبعد تتراقصاً في نظر الآتيين لأنهم وضعوا الدين تحت أمر الحكومة، فمسألة الفصل بين الدين والسياسة ترمي إلى أكثر من مساواتهما في الاستقلال وأمر " لأن السياسة التي يتولاها جانب الحكومة ويتخل عنها جانب الدين عند الفصل والتي معناها السيادة والإشراف على كل من يدخل تحت سقف البلاد، لابد أن تضع الدين تحت أمر الحكومة ونهيها مع كل ما يدخل تحت ذلك

[١] لماذا تأخر المسلمون ؟ شكب ارسلان ص ١٣٨

[٢] حاضر العالم ، شكب ارسلان ج ٣ ص ٣٥٩

[٣] الشيخ مصطفى صبرى، موقف العقل ج ٤ ص ٢٩٣

[٤] حاضر العالم . ج ٣ ص ٣٥٩

السقف ومجرد هذا الوضع ينافي عزة الإسلام الذي يطعو ولا يعلى عليه كل المنافاه ويوجب الكفر، حتى ولو فرض أن الحكومة تحترم دين الأئمه دائمًا وتخدمه ولاتمسه بشيء من الإضطهاد مع كونها قاتلة عليه، من حيث أن سياسة البلاد بيدها لا يهدى الدين” [١].

ويقرر الأمير أنه يوجد في أوروبا أقوام يجاهرون بعدم الاعتقاد ويناصبون الأديان وبخاصة الديانة المسيحية. ولكن هذا الجنس من الأوربيين لا يزال قليلاً بالنسبة إلى السود الأعظم، والأوربيون يعلّون بأجمعهم أن تقافتهم هي التقافة المسيحية وأن مدنיהם هى المدنية المسيحية وأن حكومتهم هي الحكومات التي يتّلّف منها ما يقال له “العالم المسيحي” [٢]. ثم يؤكد الأمير أنه ليس في الدنيا سوى ثلاثة حكومات تناهض الدين باطننا وظاهرنا، وهي الجمهورية الحمراء الروسية والجمهورية الكمالية الأنقرية وحكومة المكسيك [٣]. وينظر الأمير الأسباب التي دعت الحكومات الثلاث إلى نبذ الديانة وأقامة الدول اللادينية وهي أسباب استبداديه ليس للأديان دخل فيها” وقد يكون فصل الدين عن الدولة أضر بالإسلام من غيره من الأديان لكون الإسلام لا ينحصر في العبادات بل يعم نظره المعاملات والعقوبات وكل ما يدخل في اختصاص المحاكم والوزارات ومجالس التواب والشيوخ فهو عبادة وشريعة وتنفيذ ودفاع، ويكون عموم نظر الإسلام هذا لكل شأن من شؤون الدولة معه عليه في زعم المروجيين لفصل الدين عن الدولة، ومعه تزكى لزوم الفصل؛ في حين أن ذلك مزية للإسلام تتصعد إلى سماء الرجحان بالنسبة إلى سائر الأديان، وتكون أمنع منع مانع لمبدأ الفصل [٤]. وبعد أن يعدد الأمير مواقف الدول الكاثوليكية بزياره الدين المسيحي ويثبت أنها بأجمعها على أشد ما يكون من الاعتماد به ، يقيم الأدلة من أقوال المصلح المسيحي الأشهر ”كلفين“ على تلازم السلطة السياسية مع السلطة الروحية لتحقيق العدالة وتنفيذ إرادة الله [٥]. لأن الحكومة العاملة بالقوانين الشرعية الإلهية تكون هي التي تراعي العدالة في تطبيق القوانين أيضاً والتي ترى نفسها تحت مراقبة ولازع من مخافة الله ، لا

[١] موقف العقل والعلم ج ٤ ص ٢٩٣

[٢] [٣] حاضر العالم ، ج ٣ من ٣٥٨ - ٣٥٩.

[٤] موقف العقل والعلم ، ج ٤ ص ٢٤٥

[٥] يقول الأمير : ”هي سنة الله في أرضه، ومدامت الأمم لاستغنى عن الأديان ، فلوكها وحكوماتها لاستغنى

عن الجمع بين الدين والسياسة ” . ملحق ابن خلدون ص ٤

الحكومة التي لا تؤمن بالله ولا بقوانين، يقول (كلفين) : "إن الملك الذي لا ينشد مجد الله فليس بالداري يقيم مملكة وإنما هو يقيم لصوصيه . وعلى الحاكم أن يقبل مراقبة رعاية الدين ويوطد بالاتفاق معهم نظام الدولة لا النظام العدنى فقط بل النظام الدينى أيضا والنظام الأكاديمى والاجتماعى، وعليه أن يعقب للصوص وللفساق....أى ". [١].

ومن الملاحظ هنا أن الأمير يكثر من الاستشهاد بكلام علماء وساسة الغرب، وذلك لأنَّه يخاطب النساءِ الجديدَ الذي أغرتَه دعاؤى المترنجين حتى أن بعض النساءِ الجديد لا يعتقدون بشيءٍ ولا يحتفلون بأمرٍ مالم ي BRO لهم فيه كلاماً عن فيلسوف أوربي عظيم... [٢] لذلك فالامير يقيم الأدلة " من قوله العلماء الأوليين الذين ليسوا بمسلمين ليقال فيما أنهم قالوا ما قالوه متأثرين بعقيدتهم التي نشأوا عليها وإنما هم من العلماء المنصفين الذين نشدوا الحق " [٣] . وهذه الطريقة سمة من سمات عصر أزمة الخلافة الذي أصبح الإعجاب فيه بكلِّ واحدٍ من الغرب وهو مسلطٌ على الناس ، حتى احتاج الداعون بدعة الإسلام إلى أن يصرِّبوا للناس الأمثالَ بزعماء الغرب وفلاسفته ومن يحترمون بينهم .

[١] حاضر العالم ، ح ٢ ص ٢٦٤

[٤٢] المراجع السابق ، ج ١ ص ٤٢

[٣] المِرْجُمُ الْعَابِقُ ج ١ ص ٣٧

دَفَاعُ الْأَمِيرِ شَكِيبِ أَرْسَلَانَ عَنِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

- رَمِيُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْجَمْودِ لِتَعْلِقِهِ بِالْمَغَادِرِ وَالْمَعَاشِ

وَهَذِهِ شَبَهَةٌ جَلَاهَا الْأَمِيرُ شَكِيبُ أَرْسَلَانَ فِيمَا جَلَا مِنْ شَبَهَاتٍ عَلِقَتْ لَوْهَامَهَا بِعَقُولِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ وَهِيَ مِنْ جَمْلَةِ الدَّعَلِيَّاتِ الَّتِي يَسْتَهَا أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَرُوَادُ الْأَسْتِعْمَارِ الْغَرْبِيِّ لِصَرْفِ نَاسَتَهُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِلَ تَكُرُّهٗ إِلَيْهِمْ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ وَتَحْبَبُ إِلَيْهِمُ الْمَرْوَقُ مِنْهُ . وَنَحْنُ نَعْرِضُ آرَاءَ الْأَمِيرِ شَكِيبٍ فِي مَنْاقِشَتِهِ لِارْتِنَاطِ هَذِهِ الْآرَاءِ بِمَذْهَبِهِ فِي الْخَلَافَةِ مِنْ حِلْبَةِ يَعْمَانِهِ بِأَنَّهَا جَمَعَتْ بَيْنِ السُّلْطَنِيَّنِ الْمَلَدِيَّةِ وَالرُّوْحِيَّةِ دُونَ أَنْ يَكُونَ فِي الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا أَىٰ عَانِقٌ لِتَقْدِيمِ الْأَمْمَةِ وَعِزَّتِهَا . يَقُولُ الْأَمِيرُ " قَرَأْنَا وَقَرَأْنَا غَيْرَنَا وَمَا زَلَّنَا نَقْرَأُ عَنِ الْخَرَافَةِ الَّتِي مَعَنَاهَا أَنْ سَبِبَ تَقْهِيرَ الْمُسْلِمِينَ هُوَ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِسَبِبِ كُونَهَا أَحْلَاطَتْ بِأَهْمَرِ الْمَغَادِرِ وَالْمَعَاشِ مَعًا وَجَاءَتْ بِأَحْكَامِ سُرْمَدِيهِ لَا تَغْيِيرٌ وَلَا تَبْدِيلٌ وَقَضَتْ بِتَطْبِيقِهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ بَدْوَنِ نَظَرٍ إِلَى أَخْتِلَافِ الْأَزْمَنَةِ وَالْأَمَكَنَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَكْلَوِيلِ الَّتِي مِنْهُمْ مَنْ يَلْقَهَا مِنْ دُونِ رَؤْيَا وَلَا اتَّعِمَ نَظَرٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُ سِرًا لِمَسَأَةٍ لَكُنَّهُ يَتَجَاهَلُ ذَلِكَ عَمَدًا كَرَاهِيَّةً مِنْهُ لِلْإِسْلَامِ وَعَمَلاً لِهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْوِيَهُ كَحْكَايَةً حَالٌ وَيُظَنُّ أَنْ لِهِذَا الْأَمْرِ بَعْضُ التَّأْثِيرِ فِي الْحَالَةِ الَّتِي آتَى إِلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ [١] .

[١] تَعْلِيقَاتُ الْأَمِيرِ عَلَى حَاضِرِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ جِ ٢ صِ ٣٤٣

الاستشراق والشريعة

«إن أهم أسباب الجفا، بين الغربيين والشرقيين هو كون الإسلام جاً لهداية البشر كافة ، بحيث أتى على الوثنية في البلاد التي انتشر سلطانه فيها ، ودخل فيه من الصراحة والبعاقبة والسيطرة والسلطة والمجوس واليهود وغيرهم جمهر كبير ، فخافت أوروبا النصرانية من سيطرته على ريوغها واتفاق ملوكها وساستها ورها بها على حرب الإسلام وبدأت الحروب الصليبية التي دامت أكثر من قرنين ويهدي بعد هذه الأحداث والشعوب والسكاكي التي طالت لياليها السود وخاصة بعد أن هددت الدولة العثمانية أرجاءً أوروبا زمناً طويلاً حتى دب الهرم فيها ، إلى أن يقول الخصم ما قد يخط من قدر خصمه ويصفه من أمره ، ويشكك في تراه»^(١) ، هذا هو ما فعله الغرب مع العرب محققاً خطته من خلال الاستشراق وغيره .

وهكذا بدأ التشكيك في مسيرةه محاولاً أن يجتاز كل ما هو إسلامي فبدأ (رينان) يشكك في الإسلام مدعياً أنه عدو العلم والحضارة العقل ، وأخذ (كرورم) يشكك أيضاً في الإسلام معلناً بأنه دين مناف للحداثة تماماً وأنه لا يصلح للأعصر الحديثة مطلقاً فدعا المصريين إلى التحرر من القرآن والشريعة والدين واللغة والأدب ، وذهب (ليوتني) يشير الخصومة بين العرب والبرير ويشكك في القرآن واللغة والأحكام ، وينهي محاكم البرير العربية محل محاكم الشريعة الإسلامية ، واتجه (لا فيجري) بقيم المدارس التبشيرية وبحارب العربية ويدعو المغرب العربي إلى التمسك بحياته التي كان عليها قبل إسلامه ، وجاء (هانوتور) فانقض على الحضارة العربية الإسلامية ، وادعى أن الإسلام دين بشري يقود الإنسان إلى التسكم والكسل والتواكل ، وذهب في تشكيكه إلى أبعد ما يمكن أن يتصوره العقل البشري فدعا أوروبا إلى القبضا على القرآن وأتباعه ، وظهر (زويمر) فهاجم الفكر العربي الإسلامي بكل ما أوتي له من وسيلة .. ، وأخذ (مرجوليوس) يخطط للتشكيك في النبوة المحمدية والتراث والثقافة الإسلامية ،

وأتجه (الامانس) إلى التشكيك في التراث العربي بأسره وكرس حياته كلها من أجل أن ينال من قدر العرب واللغة والقرآن ، وتخصص في دراسة صدر الإسلام لغرض هدمه ... ، وقام (جولوزيه) بجهد جبار من أجل التشكيك في التراث العربي ، وأتجه إلى التشكيك في الرسالة الإسلامية والفقه والأحاديث النبوية علاوة على تشكيكه في قيم التراث الأخرى .^(١)

ولم يقف المستشركون عند حد ، «فهم حريصون على تجريد المسلمين والعقلية الإسلامية والفكر الإسلامي بصفة عامة من كل القيم الإنسانية والحضارية والابتكارات العلمية»^(٢) ، فالتشكيك في التراث العربي الإسلامي لم يكن إلا هجوماً صارحاً على كل ما هو عربي إسلامي ظهر فيه الاتجاه العقائدي للاستشراق في أجل صوره التي نشرها ، مؤثراً بذلك كله في الفكر العربي الحديث وعلمائه حتى اشترك كثيرون من (المستغربين) من العرب والمسلمين في الخوض في تاريخ الإسلام وتشريعه كذباً وافتراء عن سوء فهم أو سوء تفسير ، وأداروا ظهورهم لمصادر الثقافة الإسلامية وهي القرآن الكريم والحديث النبوي والتاريخ الإسلامي وولوا وجههم وأفندتهم شطر المصادر الغربية لحضارة الإسلام بدرسونها وصدقونها ويتأثرون بها ثم يزعمون زعمها ويفترون افتراضاتها .

وهكذا اختلف الشرقيون في موقفهم من المستشرقين ، فمنهم من يعتد بهم ، ويشتفيهم ، ويرى أن لابد من الانتفاع بآثارهم ، ومنهم من يحمل عليهم أشد حملة ، ويعنف من يتأثرون بهم أو يأخذون عنهم أشد تعنيف .

وبعد (الأمير شبيب أرسلان) من زعماً الاتجاه الثاني^(٣) المناهض للتفكير الغربي (الاستشراقي) فهو يقول : «وعلى كل الأحوال لا يقدر أحد أن يقول إن الشرقيين

١ - د. أحمد سباعلوغتش ، رسالة دكتوراه نوقشت بالأزهر في ١٩٧٤/٩/٩ ، بعنوان (فلسفة الاستشراق) ص ٦٨٢-٦٨٣ .

٢ - د. محمد حمدي زقوقي ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع العصاري ، ص ٦٠ .

٣ - نجيب العقيقي ، المستشرقون ، ج ٣ ص ٦٠-٦١ ، غز الدين الأمين (نشأة النقد الأدبي الحديث بمصر) ص ١٠٣ .

ليسوا أدرى من الغربيين بآداب الشرقيين ولغات الشرقيين ، ولا يقدر أحد أن يدعى أن مرغليوس وغيره من المستشرقين يستطيعون أن يفهموا الكلام العربي أكثر من علماء العرب أهل اللسان الذي نشأوا فيه ، وأن من أحمق الحمق أن يظن أن مرغليوث لكونه أفرنجياً صار يميز الشعر المصنوع على لسان العاهلي من الشعر العاهلي الأصلي ، وأنه صار يظهر له فيما ما يخفى على مثل سيبويه والخليل والفرا ، والأخفش والمبرد وابن دريد وأبي علي الفارسي وابن جني والزمخشي وأقرانهم^(١)

ويقول الأمير شكيب : «إتنا عرفنا كثيراً من هؤلا ، المستشرقين بالذات حادثاهم ونفضنا ما عندهم من علوم واسعة وآراء صائبة ونظارات دقيقة ولمحات عامة وطرق في البحث جليلة . وأن منهم مؤلفين عظاماً ومنقبين دهاء ، ولكننا لا تتردد في القول إتنا لم نجد منهم واحداً - إذا رجمت المسألة إلى العربية - نقدر أن نعده عالماً وأن يقرنه إلى علماء هذه الأمة الحاضرين فضلاً عن الغابرين . وأذكر أني لقيت أشهرهم وسمعت منهم الخطأ في العربي ولكننا نظراً لكونهم أجانب عن اللسان نرى قليلهم كثيراً ونغضي على ضعفهم بما يعجبنا من عناياتهم بلساننا وأدابنا»^(٢)

ويعرض الأمير منهج الأوروبيين في الدراسات الشرقية فيقول : «إنهم يبالغون في القليل ويريدون أن يجدوا لكل حادثة أسباباً غربية وعللاً لا تخطر على البال .. ولا يزالون يغرسون في إبراد الأسباب ويتنوعون في التخرصات والتكتنفات ما شاءت خيالاتهم وما طالت تصوراتهم .. فإذا عثروا على حكاية شاردة أو نكتة فاردة في زاوية كتاب قد يكون سحرفاً سقطوا عليها تهافت الذباب على العطاوى ، وجعلوها معياراً ومقياساً ، بل صبروها محكماً يعرضون عليها سائز الحوادث ويغفلون أو يتغافلون عن الأحوال الخاصة والأسباب المستثناء واقتضاها الزمان والمكان»^(٣)

«وتري الأفرنجي مع ذلك لا ينظر إلى نزورة معلوماته في الموضوع الذي يطبع أن يعرره ولا إلى قلة بضاعته منه بل يهجم عليه هجوم من قتله علماً وبقره اطلاعاً ، وتراه

١- شكب أرسلان ، مقدمة النقد التعليمي لكتاب في الأدب العاهلي لـ محمد أحمد الغمراوي . ص ٦ - .

٢/٢ - شكب أرسلان ، المرجع السابق . ص ٢ - .

لا يروى خبراً إلا جعل له توجيهها زعم أنه الواقع»^(١)

ويرد الأمير كل هذا التهور فيتناول الدراسات الشرقية عند الغربيين إلى عداوة الشرقي للشرقي «ويرجع كل هذا التهور إلى قلة الاطلاع من الأصل وهذا إذا لم يشب ذلك سو، فقصد لأن الغربي لم يبرح عدواً للشرقي ورقبأً له»^(٢)

ويرى شكيب أن أمثلة ذلك من كتابات المستشرقين أكثر من أن تحصى «فلا يكاد يوجد منها كتاب إلا وهو مشحون خلطًا وخطأً ، مهما يكن من رفعة قدر مؤلفه ومن شهرته في العلم ، وأن الصحيح النادر منها هو الذي خلطه قليل بالقياس إلى غيره»^(٣)

«حتى أن (رنان) نفسه وهو من أكبر فلاسفتهم ومن أعلمهم بعلوم الشرق وبلغات الشرق وبفلسفة الشرق ، وقد زار بنفسه الشرق وأقام بسورية مدة طويلة تجد له خلطًا عجيبًا عن الشرق وأحكاماً خالية ، وقد وجد من رد عليه وأثبت خلطه ونشر رده باللغة الأفريقية ، ولكن شهرة رنان العظيمة غطت على تلك الفضائح»^(٤)

ويؤكد الأمير شكيب أن من الغربيين من لم يتمتع العربية إلا على أمل أن يتبع العورات ويحفظ المثالب ويتحذذ من أعمالنا حجة علينا مثل الأب (لامنس) البوسي ، ومثله الدكتور (هارتمان) الألماني ، وقد عرفهما الأمير شكيب ورأى أن مثل هؤلاء لا ينبغي أن يسمع كلامهم في تاريخ العرب والعربية فضلًا عن أن يؤخذ به حجة.^(٥)

ويحدد الأمير أسباب أزمة المسلمين فieri أنها ناتجة عن العرض الذي أصابهم : مرض نلقى أقوال الأوروبيين قضايا مسلمة حتى فيما يهرون فيه بدون معرفة ، ومن هنا نشأ التخبط الذي نتخبطه لأن حقائقنا انقلبت ضلالات بلا سؤال، وضلالات الأفترج

١ - شكب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

٢ - شكب أرسلان ، المرجع السابق .

٣ - شكب أرسلان ، المرجع السابق .

تلقيت حقائق بلا جدال .^(١)

كما نبه شكب أرسلان العلماء والمفكرين من أهل الإسلام لمقاومة دسائس الجمعيات التبشيرية المنبثة في جميع الأنطوار الإسلامية تحت أشكال متنوعة ، وكتب يفتقد مزاعم المستشرق (زويسر) الذي كان من رأيه في طريقة التبشير عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية - حيث يعلم أن قلعتهم ثمة منيعة - بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم فقال : «ونحن نجاوب المستر (زويسر) وأمثاله من فيهم من هو مقتنع بعمله مبتغ وجه الله في جهده ، إنه إذا كان المقصود دعوة الإسلام إلى الإنجيل فالMuslimون يؤذنون بالإنجيل الشريف ويرسلة المسيح صلوات الله عليه وسلم ، وإن كانت الدعوة إلى الإنجيل في الظاهر والسيطرة الأوروبية في الباطن فهذا حلم من أحلام المبشرين ، إذ لا بد للإسلام أن يستعصم على هذه الدعوة ويقف في وجهها سداً منيعاً ، وإن كان مقصد هؤلاء المبشرين هو خلاص النفوس والاشفاق من هويها في النار العاطمة ، والعياذ بالله .

فال الأولى بهم أن يذهبوا إلى الوثنيين الذين هم أكثر من المسلمين عدداً في الدنيا ، وأخرجوا إلى الإرشاد ، بل أن يهدوا الملائكة العديدة من أنفس المسيحيين الذين نبذوا الدين ظهرياً ودانوا بالتعطيل والإلحاد وأخذوا يمارتون الكتبة »^(٢)

ويختم شكب رده على المستشرق (زويسر) المشهور بعاداته للإسلام ، بقوله : «فعلى الإنسان أن يدير بيته قبل أن يمد يده لتدبير بيت جاره ، أما المسلمين فلا حاجة إلى تبشيرهم لأنهم يعبدون الإله الحق ولا يشركون به أحداً ، وأن شريعتهم ملائى بالفضائل والأداب ومكارم الأخلاق وإقامة ميزان (العدل) حتى مع العدو ، وتحث على العلم والإنسانية والحضارة وإغاثة الملهوف وحب القريب ، وعند اللزوم تذرف الدموع أيضاً على البائسين»^(٣)

١ - شكب أرسلان ، المرجع السابق .

٢/٢ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ٢٨٢ .

ولما كانت الشريعة الإسلامية هي الغاية الكبرى من الإسلام فقد كان لابد للاستشراق من توجيه الشبهات إليها ، ومحاولة البحث عن تناقضات يستطيع من خلالها أن يصل إلى هواه ، وهو محاربة الشريعة الإسلامية التي تزرع في قلوب المسلمين روح الاستقلال»^(١)

«وقد وضع حقد المستشرقين على الشريعة الإسلامية فيما كتبه كوفن وزينان وجولد زيهير ومرجليوش ولامنس ، وقد حاولوا إيهام المسلمين بأن الشريعة الإسلامية سبب تأخرهم وأنها عائق في سبيل تقدمهم ونهوضهم ، وأثاروا الشبهات حول نصوصها وعرضوا لها أسموه (تطور الشريعة) بتطور العصر وغير ذلك من المحاولات الباطلة التي عرفت عن الشرائع الوضعية التي تحتاج في كل عصر إلى تغيير مع روح العصر بينما الشريعة الإسلامية شريعة ربانية منزلة قد وضعها الشارع الأكبر محققة لقيام مجتمع الأمن والسكينة ، وجعلها ذات إطار واسعة وافية وقدرة على تقبل تغيرات العصور والبيئات ، وهي من أجل ذلك لا تحتاج إلى تطور لأن أسمها الثابتة راسخة البيان ثم هي راسخة قادرة بعد ذلك على تقبل المتغيرات»^(٢)

وقد من بنا كيف تصدى شكيب أرسلان لشبهة الفصل بين الدين والدولة ، وهي من الدعاوى التي أثارها الاستشراق لمحاولة تصوير الإسلام على هيئة المسيحية الغربية دين عبادي لا صلة له بنظم المجتمع ، وقد كانت محاولة فصل الدين عن الدولة هي إحدى محاولات النفوذ الغربي الذي فرض على المجتمعات الإسلامية استعمال القانون الوضعي .

ويرى شكيب أن أوروبا تعرف أنه مادام الشرع المحمدي هو مدار العمل عند المسلمين كان هؤلاً يرون خصوصهم للأجانب ذنبًا لا يغفره الله لهم إلا بالاستقلال التام وعارًا لا يدحضه إلا طرد الأجنبي المستغلب من المستعمرات التي غالب عليها ، وأية

١ - شكب أرسلان ، المرجع السابق ج ٢ ص ٣٣٩ .

٢ - أمور الجندي ، محاولة لينا ، منهج إسلامي متكامل ، مع ٦ ص ١٩ .

مصيبة على أوروبة أعظم من هذه .^(١)

لذلك حاول الإستشراق رمي الشرع الإسلامي بالجمود لجمعه بين السلطتين الصادية والدينية ، وبعدم قدرته على مسايرة العصر ، وكانت من أخطر مجادلاتهم الإدعا ، بأن الشريعة الإسلامية مأخوذة من القانون الروماني .

ولقد تصدى الأمير شكب أرسلان لكل هذه التغزيرات وبين بطلانها وكذب ما ذهب إليه المستشرقون ومن تأثر بهم وأيدهم من المتفرنجين .

١ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مراجع سابق) ج ٢ ص ٣٥ .

حزب المترنجين

ويقصد بهم أولئك (المسلمين الجفريين) الذين وافقوا الأوروبيين على مزاعمهم - وفي طليعتهم الأتراك الأنقراليون شيعة مصطفى كمال ومقلدوهم من أهل مصر - "فذهيوا إلى أن تأخر الملك الإسلامي وتتأخر تركيا إنما جاء عن اختلاط أمور الدين بالدنيا وعن عمل المسلمين بشرع سماوى أرالوا أن ينفعوه مفردا وأن يجعلوه سردا وأن يردوا إليه كل شيء ولهذا كان لامندوح للأمم الإسلامية بزعمهم إذا أرادت الرقي في معارج الفلاح من أن تتبدّل هذه الشريعة القديمة البالية التي أصبحت لاتصلح لعصر كعصرنا هذا ولا مفر لها من الأخذ بشرع وقوانين إنما صلحت لهذا العصر لكونها وضعت بهذا العصر "[١] . ثم يسخر الأمير شكيب من كلمة هؤلاء المترنجين : "نعم لا نريد شرعا فيه قال وقالوا ولكن شرعا فيه قلنا ونقول "[٢] . ويبين فساد هذا القول وبعده عن حقائق الأمور لأنه "ليس في الدنيا شرع ولا قانون يخلو من "قال" و "قالوا" ولا يستنقى في منابعه إلى قواعد وأوضاع وأقوال سبقت منه مئين من وربما من ألف من السنين "[٣] . ويقرر الأمير أن الهدف الحقيقي الذي سعى إليه هؤلاء المنتسبون إلى الإسلام لم يكن في مساواة العصر . الحالى كما زعموا بل "ما أرادوا إلا "التفرنج" لاغير" "[٤] . ويقارن الأمير شكيب بين حال تركيا الإسلامية عندما كانت تعمل بمجلة الأحكام العلية في المعاملات المدنية "[٥] ، وحال الأتراك عندما أخذوا بقانون سويسرا المدنى وقانون الجزاء الإيطالى البعيد عن عقليتهم وذوقهم ومنازعاتهم ومشاربهم ولم يستنقوا من هذه القوانين شيئاً إلا التحيز في القضاء والصعوبة في التطبيق حتى أضطروا فيما بعد لتعديلات كثيرة في هذه القوانين؛ مما يثبت أن الذى قصده مصطفى كمال ورمه له لم يكن سوى مجرد التفرنج وأن تفهم أوروبا انهم هم نبذوا التقليد الإسلامية ورموا بالشريعة القرانية عرض الحاطن وأقاموا مقامها قوانين أوربية .

[١] ، [٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] تعليقات الأمير على حاضر تعلم الإسلامي ، ج ٣ ص ٣٤٣ وما بعدها

[٥] أواخر القرن الهجري الثالث عشر جمعت الحكومة العثمانية طائفة من كبار علمائها (مكتباً بالاصلن والصحيف الثالث عشر) وكلفthem وضع قانون في المعاملات المدنية تكون مأجده الفقه الإسلامي ولو من غير المذاهب المعروفة حتى كان الحكم المأمور يتبعه روح العصر . وقد اجتمع هؤلاء العلماء وسنوا القانون الذي سمي (مجلة الأحكام العدلية) في سنة ١٢٨١هـ وصدر الأمر بالعمل به في سنة ١٢٩٢هـ . عن (خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي) عبد

وليس أدل على هذا من أن القانون المدني السويسري الذي اتخذته تركيا لنفسها يتضمن أصولا وقواعد ترجع إلى التشريع الروماني القديم فهي أقدم عهدا من الفقه الإسلامي الذي يزعم مصطفى كمال أنه ألغاه بسبب توغله في القديم . "أما قانون العقوبات الإيطالي الذي اتخذته تركيا لنفسها أيضا فهو قانون روماني مسيحي وإيطالي كاثوليكي وفيه من الأوضاع الالاتينية القيمة والأعراف المسيحية الموروثة مالا ينكره إلا المكابر" [١] . وهكذا يخلص الأمير شكيب إلى الحقيقة التي ينبغي أن تراعى عند اختيار القوانين وهي ألا تكون موافقة للزمان فقط بل للمكان أيضا .

علاقة الدين بالسياسة في حضارة الغرب

ليس في أوروبا قانون غير متأثر بالتعليم المسيحي والتشريع الروماني وعليه يكون من الخطأ بين الأعتقد بأن القوانين الأوروبية هي كلها من باب التشريع الإنساني الصرف وأنه لا يدخل فيها للعبادي الديني ويكون تحكماً القول بأن الشريعة الإسلامية وحدها هي التي جمعت بين أحكام الدنيا والآخرة [٢] . وهذه حقيقة يقررها الأمير وهي أن جميع الشرائع الإنسانية راجعة إلى أصول دينيه وليس الشرع الإسلامي وحده بداعاً في ذلك أما الإضافات والزيادات التي وضعها البشر في اتجهادات معلقة على الأصول الدينية، ويستوى في هذه الحقيقة اتباع الأديان السماوية وغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى كديانة سبوا التي هي عقيدة أهل الهند وديانة بوذا التي هي عقيدة أهل الصين : يقول الأمير " ومن طالع الشرائع الإنسانية عرف أنها بأجمعها سماوية بشريره أى أنها راجفة إلى أصول دينية و اتجهادات بشرية معلقة عليها " [٣] وهذه الأصول الدينية هي التي تكسب الشرائع قدسيتها واحترامها من قبل الناس ؛ وهو ما أشار إليه ابن خلدون نقاً عن أحد الفلاسفة بأنه لابد للبشر من الحكم

[١] [٢] ، [٣] تعلقات الأمير على حاضر العالم الإسلامي ، ج ٣ من ٣٤٥ ، ٣٤٦

الحكم الوازع؛ وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر؛ وآئه لا بد أن يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه؛ حتى يتم الحكم فيه وعليهم من غير انكار ولا تزيف .. [١].

ومن الشبهات التي يردها الأمير أن الإنجيل لم يتعرض لأمور الدنيا فيثبت أنها دعوة غير صحيحة فالأنجيل "ليس كتاب تسريع وإنما هو كتاب مواعظ وأداب أراد بها السيد المسيح صلوات الله عليه تهذيب النفوس ونطهير الأخلاق وإعادة الخلق إلى روح الشريعة الموسوية فلم يرد الآتيان بشرع جديد لكنه نبه على وجوب اتباع الشرع القديم فالعهد الجديد إكمال للعهد القديم لافتض له كما صرخ بذلك المسيح نفسه، فيكون الأنجليل أيضاً لم يخرج عن الشرع السماوي" [٢].

وهكذا يخرج الأمير بحقيقة مؤكدة أن "الشرع كلها راجعة إلى أصل سماوى ولكن قد فرع الناس منها بقدر الاستطاعة وبحسب احتياجهم وبعد التجارب المتعددة ومع مراعاة الأزمنة والأمكنة وأخذ بعض الناس في هذا عن بعض فكل قبيل قد قبيل فيما هو موافق لحاله ونبذ ما هو غير موافق لحاله وجميع المشترين إنما يقصدون الرفق بالعباد وحياة الحق ما أمكن ويرمون إلى عرض واحد هو مصلحة الأمة" [٣].

[١] (٣) مقدمة ابن خلدون، معج ١ من ٧٢

[٢] كما ذكر ابن خلدون ج ١ من ٣٤٥ ، وليقلاتي رأى آخر ذكره في كتب (التمهيد) يرى فيه أن الخلاة لاتصح إلا في قريش - نظام الخلافة ، د. مصطفى حلمى من ٤٧٠

[٣] رواه أحمد ٢٧٣/٤ وذكره ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ١ من ٨

دَفَاعُ الْأَمِيرِ شَكِيبٍ عَنِ اسْتِقْلَالِ الشَّرْعِ الْإِسْلَامِيِّ وَأَصَالَةِ مَنْبِعِهِ

عمل بعض المستشرقين على التشكيك بقيمة التشريع الإسلامي ، ذلك التشريع الهائل الذي لم يجتمع مثله لجميع الأمم في جميع العصور ، لقد سقط في أيديهم حين إطلاعهم على عظمته وهم لا يؤمنون بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فزعموا أن فقهها ، الإسلام بلغوا من الإحاطة بالتوالذ البشرية وتبين وجوه أحكامها ما بلغوه بما أخذوه عن الفقه الروماني ، وقد بين الأمير شكب أرسلان تهافت هذه الدعوى ، وقال : إن كل من زعم أن الفقه الإسلامي مأخذ من الفقه الروماني لا يكون أطلق على شيء ، من تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ولا التابعين .^(١)

ومن بين الغربيين الذين أكدوا هذا الزعم المسيرو «غودفروادوموبين» صاحب «تاريخ العالم» الذي يقول في موضوع ثورة الصجم على العرب بعد استقرار الإسلام والقائد بجرانه على بلاد الأعاجم : «إن العرب كانوا برونو أنفسهم أعلى درجة من الأمم التي دانت بدمائهم ، ولذلك نجد الإسلام نفسه ميز المسلم في القصاص على الذمي . كما كان الشأن في رومة بالنسبة للبرابرة ، وأما في التضايا المدنية ، فقد كانت أمور أهل الذمة عائنة للقضاء الذين يوليهم الخلفا ، وهكذا دخلت أمور أهل الذمة في المحاكم الإسلامية ومن هنا كان تأثير القانون الروماني في التشريع الإسلامي دخل شيئاً فشيئاً»^(٢)

ويعلق الأمير شكب أرسلان على هذا النص بقوله : «إن هذه المسألة مما وهم فيه «دوموبين» كفيرة من مؤلفي الأرجون الذين لم يقدروا أن يتبعوا سير التشريع الإسلامي وكيفية استنباط الفقه ، للأحكام من الكتاب والسنة ، والإجماع والقياس ، فظنوا خطأ أن مأخذ التشريع الإسلامي من القانون الروماني»^(٣)

١ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٣٤٦-٣٤٨ .

٢ - المرجع السابق ج ١ ص ١٧١ .

٣ - المرجع السابق نفسه .

وستشهد الأمير شكيب في إبطال هذا الادعاء، بشهادة أخصائي (مسيحي) هو (صاوا باشا) الرومي من علما، الحقوق في أيام الدولة العثمانية ، والذي ألف كتابا بالافرنسيّة سماه : «نظريّة الحقوق في الإسلام»^(١) تناول فيه بالبحث مسألة أخذ التشريع الإسلامي من القانون الروماني ، وينقل «شكيب» عن المزلف - أعني صاوا باشا - «أنه كان يعتقد هذا الاعتقاد نظير غيره ، وبين ذلك على ما يعرف من كونبني أمينة ليشوا في الشام مدة طويلة يعملون بالأحكام التي كانت باقية من أيام الرومانيين ، فلا عجب في أن يكون هو وغيره قد توهموا أخذ قسم المعاملات في الشريعة الإسلامية من القانون الروماني الذي كان به العمل في سوريا . إلا أنه أحب أن يدرس هذا الموضوع دراسة دقيقاً ، ويتعرف كيفية نشوء التشريع في الإسلام فاستجده بعض علماء، أصول الفقه من الآتراك وقرأ الفقه العنفي جيداً وذكر الكتب التي راجعها أو طالعها ، وتجرد لمعرفة الأمر مدة طويلة ، فوجد هذا الذي معناه أن التشريع الإسلامي مأخوذ من القانون الروماني رأيا ضعيفاً أشبه بأن يكون خيالاً من أن يكون حقيقة»^(٢)

ويعرض (صاوا باشا) في كتابه المقدمات التي بني عليها العلما، الأوربيون اعتقادهم بأن تشريع فقهنا، الإسلام الذين بدأوا التشريع في أيام الخلفاء، العباسيين الأولئ إنما هو مجموعة أحكام تصاهي ما كان جاريا به العمل في سوريا قبل الفتاح الإسلامي ، ويرى أن الأسباب التي حملت على هذا الظن معقوله إلا أن الحقيقة هي غير ما فكروا به في أوروبا .

ويكفي أن بنظر الإنسان إلى هذه المسألة نظر المدقق ويتبع سير الشريعة الإسلامية في تقدمها وفي أطوارها حتى يعلم (استقلال الشرع الإسلامي وأصله منبعه) وأن هذا ليس من ذاك .^(٣)

«ولاشك أن لكل تشريع منبعاً مختلفاً عن الآخر ، ففقه (بوليسيانوس) ^(٤) هو

٢/٢ - حاضر العالم الإسلامي (مراجع سابق) ج ١ ص ١٧١-١٧٣ .

٤ - نسبة إلى الإمبراطور الروماني (بوليسيانوس) .

عمل مبني على العقل السليم البشري ، وقد اصطبغ بالصبغة المسيحية ، وأما فقه الإمام الأعظم فهو مبني على كتاب الله (القرآن) وسنة الرسول ، ولن ترى في الفقه الإسلامي حكماً واحداً غير مدعم على هذا أو هذه . فاختلاف المتبعين لا يرب فيه يظهر لكل من درس تاريخ فقه يوسفانيوس وفقه أبي حنيفة»^(١)

ولم يكتفى هذا المؤلف المدقق - أعني صاروا باشا الرومي - بهذا بل دخل الموضوع كما قال الأمير شبيب أرسلان : «أورد خلاصة اجتهاد الإمام أبي حنيفة وأصحابه أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وزف ثم من بعدهم من الأئمة والخص تارياً التشريع الإسلامي . وبين ما آخذه كلها ، وأثبتت فلسفة الفقه الإسلامي المعبر عنه بعلم الأصول وقال إني أدعو من بهمه هذا الموضوع أن لا يحكم فيه قبل أن يطالع هذا التاريخ المتسلسل للفقه الإسلامي مطالعة كافية»^(٢)

ويعلق الأمير شبيب أرسلان على كتاب (نظريّة الحقائق في الإسلام) هذا فيقول :

«وكتاب (صاروا باشا) هو أحسن كتاب قرأته بلغة أوروبية في هذا الموضوع ، والفرق بينه وبين غيره من المؤلفين أنه يبني حكمه على أدلة وبراهين ووثائق ونصوص وحقائق تاريخية وأن أولئك يبنون على ظنون وتخمينات ، وعلى نظر من جهة واحدة ، وعلى قولهم : لابد أن يكون كذا ، وهناك أسباب تدعو إلى الظن بأنه كذا وكذا ، ومن يدرى فقد يكون كذا وكذا ، وهذه أشياء لا تصح أن تكون مداراً للأحكام ، ولا يقال لها (تمحيص) وإنما يقال لها (تخمين) . وما أصدق الآية الكريمة : «إن الظن لا يغني من الحق شيئاً»^(٣)»^(٤)

١ - المرجع السابق ص ١٧٣ .

٢ - المرجع السابق نفسه ، ويقول الشيخ مصطفى صوري نقى تعليقه على شهادة (صاروا باشا) هذه : «ولعل احتفاظ صاروا باشا الرومي بيدهه وقع احتفاظاً من الله بقيمة شهادته الفالية للتشريع الإسلامي . وهو مع هذا أقرب إلى الإسلام بكثير من المسلمين الذين تلذوا بالأزيفين في إثارة الشبهة ضد هذا التشريع باحتساب كونه متأخراً من القانون الروماني . والله لا يضيع أجر المحتنين» (مرفق المقلل والعلم والعالم من رب العالمين ، ج ٢ ص ٢٩٩ (عاشر)) .

٣ - سورة يونس ، آية ٣٦ .

٤ - شبيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مراجعة سابق) ج ١ ص ١٧٣ .

وهكذا يرى الأمير شكب أرسلان في شهادة هذا الباحث المسيحي المدقق (صاوا باشا) شهادة قيمة وعبرة عظيمة لأولى الأ بصار ، وضرورة قاضية على المرجفين في هذه المسألة من لا خبرة لهم بعلمي الفقه وأصول الفقه الإسلاميين ، ومن العجب أن الذين كتبوا فيها من المسلمين تقليداً للأوربيين ما قرأوا الفقه ولا أصول الفقه بقدر ما قرأ صاوا باشا المسيحي العثماني^(١) ، ولعل فيما تردد مؤتمر القانون المقارن المنعقد في لاهي من أن الفقه الإسلامي فقه مستقل بذاته ، وليس مستمدأ من أي فقه آخر^(٢) وفي اعتراف المؤتمر الدولي للقانون المقارن بنفاسة الشرع الإسلامي وغزاره ثروة مذاهبه القانونية ، وتلبيتها حاجات العصر ، وتوضيحة المؤتمر بعدد حلقة للشرع الإسلامي في كل سنة ، وتأليف لجنة لوضع معجم له ييسر تصنيف دائرة معارف فيه (باريس ، يوليو ١٩٥١)^(٣) ، ما يفهم المتعنتين منهم ، ويقنع المنصفين الذين لا يبغون غير الحق سبيلاً .

ويرى (شكب أرسلان) أن الشرع الإسلامي هو شرع ساوي باعتبار الأصل وتشريع إنساني باعتبار الإجتهاد والتفرع^(٤) ، وأنة الإسلام إنما فرعوا على أصلين هنا القرآن والحديث ولكنهم أضافوا إليهما الإجماع والقياس فتوسعوا في الفقه بما ندر أن يكون تيسر لغيرهم^(٥) ، وبعذر الأمبر شكب أرسلان من الخلط في هذه المسألة فما يسميه المسلمين (بالإجتهاد) - والذي بلغوا فيه ما لم تبلغه أمم قبلهم ولا بعدهم^(٦) - لا يشكك في مدى نسبة التشريع الإسلامي إلى الإسلام الأصيل كدين مرجعه القرآن والسنة .

١ - الشیخ مصطفی صبری ، موقف المقل ، (مرجع سابق) ج٦ ص . ٣٠ .

٢ - د. مصطفی السامي ، الاستشراق والاستشراقيون ما لهم وما عليهم ، ص ٢٢ .

٣ - نجيب العتيقي ، المستشرقون ، ج ٣ ص ٥٦ .

٤ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٣ ص ٣٤٣-٣٤٨ .

- الإجتهاد لا ينفي الطابع الإسلامي للتشريع

يقول الامير : " لم يكن الدين الاسلامي وحده هو الذي يرجع إلى وحي سماوي بل جميع الشرائع قد بنيت على أصول دينية أو تأثرت بها ". وقد فرق الامير هذه الأصول الدينية إلى قسمين عادات ومعاملات " فقسم العادات متعلق بالباليارى تعالى الأزلى الأبدى الذى لا يتغير فلم يكن من شأن عبادته أن تتغير ولا كان دين من الأديان ولا الدين المسيحى مما جرت العادة أن تتغير أصوله بحسب المكان والزمان " [١] .

" وأما قسم المعاملات فهو وإن كانت له أصول من القرآن والسنة فقد كان فيه مجال الإجتهاد واسعا وكانت مصلحة الأمة هي المعاور الذى يدور عليه ذلك الإجتهاد . وأنتما تكون المصلحتان قائمتان بين الله " [٢] .

وهذا القسم الثاني يشمل نظام الإدارة والقضاء والسياسة والجباية وتذليل الحرب مما دخل للتبعد والزلفى إلى الله فى فروعه بعد حسن النية فيه — فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى زمانه مشترطا فيه باجتهاده مأمورا من الله بمشاورة الأمة فيه [٣] .

ثم يفصل الأمير القول فى مسألة الإجتهاد ، فيبين أن الإجتهاد لا يكون مع وجود النص من الكتاب والسنة ، فإن لم يجد المسلمون النص من الكتاب والسنة ، عملوا بالقياس مع اشتراط بلوغ المجتهد مرتبة فى العلم يصح معها اعطاء الرأى " وهذا لا يقدر أحد أن يقول فيه شيئا لأن الإجتهاد له شروط لا يصح بدونها . وليس لكل إنسان أن يجتهد وأن يست竑ط أحكاما شرعية . وهذه رتبة عالية جدا لا يرقاها إلا من أحاطوا بالكتاب والسنة ووصلوا إلى الأدب الأقصى من البراءة والدراء ثم عرفا من أحوال المجتمع البشري ماتجلى لهم به وجه المصالح ويظهر مكان سد الذريعة " [٤] .

وقد يزعم الطاعون فى الشرع الاسلامى أن الشروط التى وضعها علماء الإسلام ليصح الإجتهاد شروط دققة ومبالغ فيها مما يقف فى وجه حرية الرأى والعمل به وينزد الأمير

[١] [٢] شكب ارسلان . حاضر العالم الاسلامى ج ٣ من ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩

[٣] الخلافة ، الشيخ محمد رشيد رضا ، من ١٠٣

[٤] حاضر العالم الاسلامى ج ٣ مج ٢ من ٣٤٩

الأمير هذا لزعم فعلماء الإسلام لم يمنعوا العمل بالرأي لأفى القديم ولا في الحديث ؛ وغایة ما في الأمر أنهم اشترطوا في الرأي بلوغ مرتبة من العلم يصح بها اعطاء الرأي " وأما الرأي في نفسه فمن قدر عليه فلم يمنعه أحد وكل رأي اتفقت عليه الأمة أجازوه وقالوا إن الأمة لا تتفق إلا على صواب واستدلوا على جواز العمل برأي الأمة بقوله تعالى : 'أمرهم شورى بينهم ' [١] .

صلاحيّة الشرع الإسلامي لكل زمان و مكان و واجب علماء المسلمين

يرى الأمير شكيب أن هجوم أعداء الإسلام على الشريعة الإسلامية ، واتهامهم لها بالجمود وبأنها لا تنلوي مع الوقت وبأنها لا تسع جميع الحوادث وبأنها قد تختلف المصلحة وقد يضطر المسلمين إلى ترك المصلحة من أجلها وغير ذلك مما ترمي به الشريعة ظلماً وعدواناً [٢] ؛ إنما يعود كل هذا الهجوم لسبعين أساسين : أولهما : الجهل بالشرع الإسلامي ومرادونته التي تجعله مناسباً لجميع الأمكنة والأزمنة ، سواء أكان الجهل ناتجاً عن عدم إدراك الطاعنين لجوهر الإسلام أو كان ناتجاً عن عدم رغبتهم في الإدراك وتعنتهم . والسبب الثاني يرجع لتصصير علماء المسلمين في بيان حقيقة الإسلام وجمودهم وعدم قدرتهم على الدفاع عنه بما تقتضيه حالة هذا العصر .

" فمن نظر إلى الكليات الفقهية مثل قولهم : العرف باقى والعادة محكمة ولا ينكر تبدل الأحكام بتبدل الأزمان والضرورات تبيح المحظورات ، وإذا صار الأمر اتسع ومارأه المسلمون حسناً فهو حسن وعلم أن المذاهب الأربعية الحنفي والشافعى والمالكى والحنفى قد أجازت العمل بالمصلحة المرسلة أدرك من مرونة الشرع الإسلامي ومن سعة مذاهبه ومن تنزله على كل الحوادث ومن مناسبته لجميع الأمكنة والأزمنة ما لا يدركه الجاهل ولا يريد أن يدركه المتعنت " [٣] .

[١] المرجع السابق ج ٢ مج ٢ من ٣٤٩

[٢] حاضر العالم الإسلامي ج ٣ مج ٢ من ٣٤٨

[٣] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ج ٣ مج ٢ من ٣٤٨ ، ٣٥٠

ولاشك أن جمود بعض فقهاء شرع الإسلام وشدة تصرّفهم لكل شيء قد سبق العمل به وشدة نفورهم من كل أمر يحدث ولو لم يكن فيه منفأة للشرع وعدم اجازتهم العمل إلا بما علموه ولو كانت المصلحة المتعينة تقضي خلافه وتهافتهم على الحرم بحرمة مالم تثبت حرمتها برغم ماؤرد من التشديد والتدمير على كل من يقول بالحلال والحرام بغیر علم كل هذا قد اتخذه أعداء الإسلام حجة على الشريعة الإسلامية^[١].

ثم يرد الأمير حجج الطاعنين في الإسلام مؤكداً حقيقة (إن الشريعة الإسلامية لا يمكن أن تختلف المصلحة) [٢] وذلك لأن الشريعة جاءت لمصالح العباد والله لا يشرع لهم إلا ما ييسر أمورهم ولا يجعل عليهم في الدين من حرج ، هذا إذا كانت المصلحة حقيقة لا يمكن أن تختلف الشريعة وما يقال أنه مخالف منها للشريعة فغير معترف بكونه مصلحة ، "فإن تعين المصلحة ليس بالأمر السهل وقد يظن بعضهم المصلحة في شيء يظن غيرهم أنها في خلافه لاختلاف الذوق وقد يجمع أكثر الأمم على اصطلاحات وعادات هي في الواقع مخالفة للمصلحة مثل اجتماعهم على الربا الذي مهما يكن من عمل العالم المتعدد به فليس هو من المصلحة الحقيقة فلا يجوز أن يقال إن تحريم الشرع إيه مخالف للمصلحة وأما المصلحة الحقيقة فلا يمكن أن يأتي للشرع بضدتها" [٣] .

وبناء على القاعدة السابقة ينطلق الأمير في رده على من قد يقول إن حرية الرأى في الفقه الإسلامي مقيدة بالكتاب والسنة ، بمعنى أن الرأى لا يصح إلا إذا كان ضمن دائرة الإسلام ولم يصادم الكتاب والسنة ، ويجبب الأمير ممن يقول مثل هذا لأن قائله يفترض أن القضاء لا يكون موافقاً للمدنية العصرية إلا إذا كان غير مقيد بالكتاب والسنة والأمير يرى أن هذا الإفلات ليس بضروري أصلاً إذا كان الكتاب و السنة لا يأمران إلا بما فيه المصلحة ولا يحملان الناس على ماقبة ضرر لهم [٤] .

[١] ، [٢] ، [٣] ، [٤] : شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ج ٢ مع ٢ من ٣٤٨ ، ٣٥٠

تعليق :

الدين الإسلامي هو الرسالة الخاتمة ، ولقد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بشرعيات ربانية واجب كل الوجوب التحاكم إليها كما بين الله تعالى في القرآن الكريم المهمة الشرعية للكتب السماوية وعلاقتها ببعضها ووجوب الحكم بما فيها وعوقب الإعراض عنها وهيمنة القرآن عليها . قال تعالى في سورة المائدة :

" إِنَّا أَنْزَلْنَا التُّورَاهُ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ لِتَنْبِئُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْجَارُ بِمَا أَسْتَحْفَظُوْا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَلَّوْا عَلَيْهِ شَهَادَةً فَلَا تَخْشُوا النَّاسَ وَاحْشُونَ وَلَا تَسْتَرُوا بِآيَاتِنِي ثُمَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ، وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنْ بِالسِّنِ وَالْجَرْحُ قَصَاصٌ فَمَنْ تَصْدِقُ بِهِ فَهُوَ كُفَّارٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، وَقَنَبَنَا عَلَى آثَارِهِمْ بَعِيسَى بْنُ مَرِيمَ مَصْدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدِيهِ مِنَ التُّورَاهُ وَلَبَنَاهُ الْأَجْبَلُ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ مَصْدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدِيهِ مِنَ التُّورَاهُ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُنْتَهَى، وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مَصْدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدِيهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمَهِينَةً عَلَيْهِ فَلَا حُكْمَ بِيَنْهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَبْغُ أَهْوَاءُهُمْ عَمَّا جَاءَكُمْ فَإِنَّا كُنَّا فَاسِقِينَ الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيَنْبَيِّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ، وَأَنْ احْكُمْ بِيَنْهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَنْتَعِ أَهْوَاءُهُمْ وَاحذِرُهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكُمْ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ فَإِنْ تُولُوا فَاعْلَمُ أَنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصَبِّبَهُمْ بِبَعْضِ ذَنْبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ، أَفَحُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقَنُونَ " [١] .

[١] الآيات من (٤٠-٤٤) من سورة المائدة

اشتراط القرشية في الخلافة

اجتهد فقهاء السياسة الشرعية في وضع مواصفات ينبغي أن يتصف بها الأمير بناءً على حقوقه وواجباته، ذكرها الماوردي في الأحكام السلطانية فقال : وأما أهل الإمامة فالشروط المعتبرة فيها سبعه : أحدها العدالة على شروطها الجامحة والثانية العلم المؤذن إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام الثالثة سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصبح معها مبشرة ما يدرك بها الرابعة سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض الخامسة الرأى المفضى إلى سياسة الرعية وتبصير المصالح والسادسة الشجاعة والنجدية المؤدية إلى حملة البيضة وجهاد العدو والسابعة النسب وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقد الإجماع عليه [١] .

وعلى الرغم من وقوع الإجماع على اشتراط القرشية في الخلافة ، وورود كثير من الأحاديث الصحيحة تشير إلى شرط النسب في الإمام ، إلا أنها لا نعلم خلافاً على شرط من شروط الإمام وصفاته مما لم يرد فيه نص ، كالخلاف حول هذا الشرط الذي وردت نصوص كثيرة فيه [٢] .

والحق أن أسباب اختلاف الفقهاء حول هذا الشرط ترجع إلى أسباب كثيرة منها اختلافهم في صحة الأحاديث بسبب تعدد الدلالات أو تناولت مدارك الناظرين فيها، ومنها تعدد الروايات وتعارضها أحيلها وموقف العلماء من هذا التعارض بالتأويل والتوفيق أو القول بالنسخ أو بترجيح رواية على أخرى .

وقد أشار ابن خلدون إلى خلاف العلماء حول شرط النسب فقال : "ومن القائلين يبني اشتراط القرشية القاضي أبو بكر الباقلي لما ادرك عليه عصبية قريش في التلاشي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فأسقط شرط القرشية وإن كان موافقاً لرأي الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لعهده. وبقي الجمهور على القول باشتراط وصحبة

[١] الأحكام السلطانية ص ٦

[٢] محمود المرداوى ، الخلافة بين التنظير والتطبيق ص ١٠١

الإمامية للفرشى ولو كان عاجزاً على القيام بأمور المسلمين ، ورد عليهم سقوط شرط الكفاية التي يقوى بها على أمره . لأنه ذهبت الشوكة بذهاب العصبية فقد ذهبت الكفاية وإذا وقع الإخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك أيضاً إلى العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الإجماع " [١] .

والأمير شكيب أرسلان يرى أن روح الإسلام الحقيقي هي مراعاة الكفاية والأهلية دون أي اعتبار آخر ولهذا فإن الأمير لا يذهب إلى مذهب إليه الجمهور من اشتراط الفرضية في الخلافة لأنه يرى : "أن حصر الإمامة في أسرة أو عائلة أو عشيرة لainطيق على هدى الخلفاء الراشدين الذين كان يمكن كلاً منهم أن يعهد بالأمر لولده، والحال أنهم لم يفعلوا ذلك " [٢] .

" فلا أبو بكر فكر في العهد لمحمد بن أبي بكر ، ولا عمر فكر في العهد لعبد الله بن عمر ، ولو لا خروج معاوية على لكان على أيضاً اقتدى بهم في اختيار من هو الأصلح لأمر الأمة " [٣] .

ويستشهدالأمير شكيب أرسلان على أن حصر الخلافة في قريش ليس أمراً محضاً بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لو أدركني أحد رجلين فجعلت هذا الأمر إليه لو تقت بـه ، سالم مولى أبي حزيفة ولبي عبيدة بن الجراح " ويعلق الأمير بن سالم كان من الأعاجم كما لا يخفى ! " [٤] .

ولقد ذكر ابن خلدون لن قول عمر هذا لاتهوم به حجة لأن مذهب الصحابي ليس بحججاً، وأيضاً فمولي القوم منهم ، وعصبية الولاء حاصلة لسالم في قريش، وهي الفائدة في اشتراط النسب على مذهب إليه ابن خلدون - ، ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروط كأنها مفقودة في ظنه ، عدل إلى سالم لتتوفر شروط الخلافة عنده فيه، حتى من النسب المفید للعصبية كما نذكر، ولم يبق إلا صراحة النسب فرأء غير محتاج إليه ، إذ الفائدۃ في النسب إنما هي العصبية وهي حاصلة من الولاء فكان ذلك حرصاً من عمر رضي الله عنه على النظر للمسلمين وتقليل امرهم لمن لا تلحظه فيه لاتمة ولا عليه فيه عهده " [٥] .

[١] مقدمة ابن خلدون مج ٢ ص ٦٩ ط ٢ لجنة البيان العربي

[٢] ، [٤] تعليقات الأمير على مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٢٦ ، ٢٧

[٥] تعليقات الأمير على ابن خلدون ج ١ ص ٢٧

وقد رد الأمير شبيب على هذا بأن عمر بن الخطاب وإن لم يكن معصوماً فهو الذي روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في حقه "لو كان ذبي بعدي لكان عمر" . فهو صاحبى ولكن ليس كفراً من الصدابة وقد عانى عمر المتنة واحتاج عمله الفقهاء من أهل السنة . وعلى كل حال لم يكن عمر بالذى يرضى عليه حكم الشريع فى مسألة هى أجل المسائل [١] .

ومن أشهر الأدلة التى يتمسك بها المسترطون للنسب القرشى لمنصب الخليفة هو إجماع الصحابة على ذلك يوم السقيفة وأن قريش احتجت على الانصار لما هموا يومئذ ببيعه سعد بن عبدة وقالوا : "منا أمير ومنكم أمير" بقوله صلى الله عليه وسلم "الائمة من قريش" ؛ وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم ونجاوز عن مسيئكم ، ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم فخجوا الانصار ، ورجعوا عن قولهم منا أمير ومنكم أمير ، وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك [٢] .

ولكن الأمير شبيب لرسلان يرى في هذه الرواية أيضاً ما يدعو إلى تأييد رأيه بعدم اشتراط القرشية لأن سعد بن عبدة ورهره من الانصار لم يكونوا بالذين يمارون قريشاً في أمر الائمة لو كانوا يعلمون أنها لا يجوز أن تتعذر قريشاً [٣] .

أما الحديث الشريف الذى يستند عليه من يقولون بحصر الخلافة في قريش "الائمة في قريش" فيرى الأمير أن هذا جاء في زمن كانت الرئاسة فيه لقريش فكانت أولى بهذا الأمر من غيرها ، وكانت العرب في قريش في مصدر الإسلام تعطيها ما لاتعطي سواها . ولا ينبغي من ذلك أن هذا الأمر يجب أن يكون أبداً سرداً في قريش فهما تقلب الأحوال وتبدل الأطوار ، وما دامت تطلع الشمس ، وما بل بحر صوفة [٤] .

ولا يكتفى الأمير شبيب برد الاستشهاد بهذا الحديث على أنه لا يحمل الأمر بالوجوب وعليه ما في الأمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان "يقيم" حال العرب ومكانة قريش فيهم في الجاهلية والإسلام، بل يذهب الأمير إلى اتهام الفقهاء المتبين للنسب القرشى

[١] تاريخ العلامة ابن خلدون - دار الكتاب اللبناني ج ١ ص ٣٤٤-٣٤٥

[٢] ابن خلدون (المرجع السابق) ج ١ ص ٣٤٣

[٣] تعليلات الأمير على ابن خلدون ج ١ ص ٢٧

[٤] تعليلات الأمير على ابن خلدون ج ١ ص ٢٧

بناء على هذا الحديث باجتزاء جزء من الحديث وإهمال جزء فيقول :
 " وما بالهم لا يذكرون أنه جاء في رواية هذا الحديث : " الأئمة من قريش ما أقاموا الدين " وجاء هذا الحديث في بعض المسند الذي يحول عليها مثل صحيح مسلم . فإن كان حصر هذا الأمر في قريش معلقاً بهذا الشرط ، فيكون قد أنحل الإشكال " [١] .

فالامير شبيب أرسلن لينازع في كون قريش الأولى بالإمامية من غيرها من عرب وعجم وإنما ينazuع في حصر الخلافة في قريش الإسلامية في القرشي مع ضعفه وإقصاء غير القرشي عنها مع كفایته ورجحانه ، ولذلك فهو يرى في اشتراط إقامة الدين والقدرة على ذلك حلاً للإشكال ، فإن تحقق هذا الشرط في القرشي فهو أولاً بمكانه من قرابة الرسول عليه السلام ، ومن رئاسته القديمة ..

والحق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقر الإمامة لقريش في حديثين شريفين ، وأمر بعدم معادتهم ومنازع عنهم ، وشرط عليهم شروطاً أحد هذين الحديثين رواه البخاري في صحيحه قال : " حدثنا أبو ليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال كان محمد بن جبیر بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية وهو عنده وقد من قريش أن عبد الله بن عمر يحدث أنه سيكون ملك من قحطان فغضب فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : " أما بعد فإنه بلغني أن رجالاً منكم يدھتون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولئك جهالكم فلياكم والأمانى التي تضل أهلها فإن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن هذا الأمر في قريش لا يدعيم أحداً إلا كبه الله على وجه ما أقاموا الدين " [٢] . والثانى : مارواه أحمد بن حمبل في مسنده : " الأئمة في قريش ما حکموا فعدوا ووعدوا فوفوا وأسترحموا فرحموا " [٣] .

والحديثان يشيران إلى أن هذا الأمر أى الإمامة والخلافة باقية في قريش في نازعهم عليه منازع قهر وفشل وخذله الله ولكن ذلك بشرط هى في حديث البخاري ما أقاموا الدين . وهى في حديث أحمد ما حکموا فعلوا ووعدوا فوفوا وأسترحموا فرحموا . وبهذه الشروط التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستمرار الخلافة في قريش

[١] تثنيات الأمير على ابن خلدون ج ١ من ٢٧

[٢] صحيح البخاري ج ٩ كتاب الأحكام ص ٧٨

[٣] مسنـد أـحمد ٤٢٤/٤ ، ٢٧٠/٢

ينحل الإشكال . كما قال الأمير شكيب . فلتن كان الشرط في حديث البخاري " إقامة الدين " شرط استمرار الخلافة فيهم ، فإن الشروط في حديث أحمد أو صاف لحالهم عندما لا يقيمون الدين فـما يلزم عدم إقامة الدين في الحكم أنتقاء العدل في الحكم وعدم الوفاء بالوعود ، والقصوة والبطش وعدم الرحمة للمسترحم .

و هذا يتلائم مع روح الإسلام التي حرث الأمير شكيب أن يبينها فقال إن روح الإسلام المبني على قاعدة (إن أكركم عند الله أتقاكم) وعلى قاعدة (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) فليس في الإسلام طبقات كما هي عند البراهمة ؛ الدين في هذه الطبقة والحكم في تلك الطبقة ، والصناعة في هاتيك الطبقة .. الخ ، وليس الإسلام في شيء من مشابهة اليهودية في أن الملك في السبط الفلاسي ، وأن الكهنوت هو في المبط الفلاسي .. الخ فكل هذه الأوضاع لا يأثرها الإسلام ، ولا يعرف إلا عمل الإنسان نفسه [١] .

ويستشهد الأمير بقول عمر رضي الله عنه : " لو جاءت الأعاجم بالأعمال وجتنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيمة ، فلا ينظر رجل إلى القرابة ، وليعمل لما عند الله ، فمن قصر به عمله لا يسرع به نسبة " [٢] .

ويستذكر الأمير شكيب بعد قول عمر هذا أن تكون الشريعة التي يقول عمر فيها مثل هذا القول هي الشريعة التي تجعل الإمامة أرثاً خاصاً بعشيرة خاصة إلى أبد الدهر ، مهما كان في الخارج عنها من كفايتها ، وقدرة على حفظ بيضة الإسلام ترجم على ذرتها [٣] .

فالإمامية في قريش خاصّة لتو اميس الكون التي جعلها الله في مخلوقاته ، فالله ينفع على المخلوق بنعمه حتى إذا فسد وطغى وظلم وعصى أخذه الله ، وقد روى أحمد في مسند قوله الرسول صلى الله عليه وسلم " أما بعد يا معاشر قريش فإنكم أهل هذا الأمر ما لم تعصوا الله ، فإذا عصيتموه بعثت إليكم من يلحاكم كما يلحي هذا القضيب لقضيب في يده ثم لحم قضيبه فإذا هو أليض يصلد " [٤] ، ولعل في مدلول هذا الحديث أن الله سبحانه جعل الإمامة في قريش لتأخذها بحقها وإلا عاقبها ببعث من يلحاها أو يزيلها كما يلحي أو يزال قشر القضيب ، على أن هذه الأحاديث تدل فيما تدل عليه أن الخلافة ستستقر في قريش ما اتصف

[١] [٢] ، [٣] تعليقات الأمير على ابن خلدون ج ١ ص ٢٨

[٤] مسند أحمد ج ٦ روایه رقم ٤٣٨٠

بصفات واتسمت بسمات منها إقامة الدين، ومنها طاعة الله وعدم عصيانه ومنها العدل في الحكم والوفاء والرحمة، فإن سقطت تلك الصفات من قريش نزع الملك منها وما عادت الخلافة فيها .

وهذا ما ذهب إليه الأمير شكيب في قوله: "ولوأن الذين أشترطوا القرشيي في الخلافة استدركوا الأمر بتولهم: أنه إذا تساوى القرشي وغير القرشي في الاستئتم على شروط الخلافة فالقرشي بعكانه من قرابة الرسول عليه السلام ، ومن رئاسته القيمة؛ أولى من غير القرشي لهان الخطب ، ولكن مقتضى كلامهم أن القرشي يسلطان ذلك الحديث المتعلق بقريش في عهد كانت فيه هي الأول - مهما بلغ من الضعف ومن عدم الكفاية . فإنه أولى من غير القرشي مهما بلغ من القوة على حفظ حوزة الإسلام، ومهما بلغ من الضلالة والكفاية. فهذا الذي نراه مخالفًا لروح الشرع، ولما يتجلى من جميع أحكام الكتاب والسنة " [١] .

ولنن كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "الائمة من قريش" قد يفهم منه الأمر وقد يفهم منه مجرد الإخبار فلن قرئه "ما" الظرفية في قوله صلى الله عليه وسلم: "ما أقاموا الدين" و "ما حكموا فعدوا ووعدوا فوفوا واسترحموا فرحموا" ترجع المفهوم الثاني أي مجرد الإخبار والتبيير إذ تنتهي الإمامة من قريش بانتقاء شرطها منها فكان ذلك الحديث لو صح على مارووه وارتقت فيه كل شبهة مطابقاً لحالة قريش في أيام تقدمها ، فاما من بعد أن غلت الأعاجم ، وقام فيها من رجع ميزانه على قريش في القوة والمنعنة رجحاناً محسوساً لا يمتزى فيه عاقل ، فقد أصبح من العيب أن يجعل المرجوح أولى من الراجع [٢] . وهكذا يذهب الأمير شكيب إلى سقوط شرط القرشيية في الخلافة بسقوط صفات الأهلية من قريش ووجوب جوازها في غيرهم إذا وجد من المسلمين من هو أجرد منهم على إقامة الدين .

ويستند الأمير على قاعدة ابن خلدون في العصبية لتأييد ما ذهب إليه، ويرى أن ابن خلدون قد جمع فلوعي في هذه المسألة وجاء فيها بالقول الذي لا يحسن معه الميراء عندما قال في مقدمة: "إذا ثبت أن اشتراك القرشي إنما هو لدفع النزاع بما كان لهم من العصبية والغلب ، وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا ملة؛ علمنا أن ذلك إنما هو

[١] تعليقات على ابن خلدون ، (المراجع السابق) ج ١ ص ٢٨

[٢] المراجع السابق عن ابن خلدون ج ١ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧

من الكفاية فرددنا إليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود الغصبية فأشرطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبة على من معها في عصرها ليستبعوا من سوادهم ، وتحجّم الكلمة على حسن الحمالة ولا يعلم بذلك في الأقطار والأفاق كما كان في القرشية إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة، وعصبية العرب كانت رافقة، فغلبوا سائر الأمم، وإنما يخص لها هذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية غالبة ” [١] .

” وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا، لأن سبطاته إنما جعل الخليفة ناتباً عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ، ويردهم عن مضارهم، وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه . ثم إن الوجود شاهد بذلك ، فإنه لا يقوم بأمر أمة لو جيل إلا من غالب عليهم، وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفًا للأمر الوجودي ” [٢] .

وبناءً على قاعدة ابن خلدون في العصبية يطمئن الأمير شبيب إلى أنه وصل إلى القول الفصل في مسألة اشتراط النسب في الخلافة بأن هذا الدين لم يقم بالأسرار غير المفهومة، ولم يعترض أتباعه بما تعني به العقول ولا بما لاظهر في وجهه المصالح، فكل معتنك هذه المسألة من وجهة نظر الأمير ” هي القدرة على حماية الإسلام وإقامة الشريعة على وجهها ، فمن كان أضلّع بهذا الأمر من غيره بين المسلمين فهو الذي يرده الله ورسولهقياساً على ما لدينا من قواعد الشرع الأخرى التي هي ومبادئ العقل توأمان متلازمان ” [٣] .

[١] ، [٢] المرجع الأسليق عن ابن خلدون ج ١ من ٣٤٦ ، ٣٤٧

[٣] تعليقات الأمير شبيب على ابن خلدون ج ١ من ٢٩

تعقيب

ويجدر بنا أن نتساءل هل كان الأمير شبيب بموقفه من اشتراط النسب يهدف إلى تصحيح خلافة بنى عثمان انطلاقاً من نزاعه العثماني المعروفة عنه ؟ .

وما نراه حقاً أن العصر الذي عاش الأمير فيه هو الذي دفعه إلى الإجتهاد في فهم الحديث أو بترجمح روايه على اخرى، فقد شهد الأمير لقطعان ملك قريش بعد أن صار الأمر إلى سلاطين العثمانيين وأصبحت الدعوة إلى رد الأمر إلى قريش أو الخروج على العثمانيين تهدى الأمة في وحنتها وتعين المستنصر الأجنبي على هدم دولة الإسلام وهى أحوال قريبة الشبه بالأحوال التي دفعت القاضى أبو بكر البقالن إلى نفي اشتراط القرشى لما أدرك عليه عصبية قريش من التلاشى والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فسقط شرط القرشى وإن كان موافقاً لرأى الخوارج لما رأى عليه حال للخلفاء لعهده [١] .

والأمير لم يكن ليكتم شرط القرشى أو يمارى فيه إذا ثبت عنده بما لا يقبل الشك أن الأمر فيه كان الوجوب، بل مازال الأمير متسلكاً في الرواية متولاً للمعنى مستنداً إلى اراء علماء سبقين لهم مكانتهم وإحترامهم في الفكر الإسلامي .

وأخيراً فإن الأمير لا يقطع بأن أمر الخلافة لن يعود لقريش بل يرى أن القرشى أولى من غيره إن صارت قريش قادرة على إقامة الدين، ولابد أن يختتم الله لهذه الأمة بالخلافة على منهاج النبوة كما فتح لها بالنبوة كما بين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف " تكون النبوة فيكم ما شاء الله لها أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ف تكون مشاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً عاصياً ف تكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً جباراً ف تكون مشاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت " [٢] .

[١] كما نكر ابن خدون ج ١ من ٣٤٥ ، وتلقيانى رأى آخر ذكرة في كتاب (التمهيد) يرى فيه أن الخلافة لا تصح إلا في قريش - نظام الخلافة ، د. مصطفى حسني ص ٤٧٠ .

[٢] رواة أحمد ٤/ ٢٧٣ وذكرة ناصر الدين الألبانى في سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ١ ص ٨ .

الباب الثاني

الآراء الكلامية عند الأمير شكيب أرسلان

الفصل الأول

٢ - موقف الأمير شكيب أرسلان من عقيدة القضاء والقدر

يناقش الأمير عقيدة "القضاء والقدر" التي يرجع إليها "الجامدون" [١] أسباب تخلف المسلمين وتقدم الكافرين عليهم . فيرى أن تفسير القدر بالجبر تفسير فاسد حب الكسل إلى كثير من المسلمين وجعلهم أعضاء مشلولة في جسم المجتمع الإسلامي ، وهو الخلق الذي جعل (الأفرنج) يقولون أن الإسلام جبرى لا يأمر بالعمل لأن ما هو كائن هو كائن ، عمل المخلوق أم لم يفعل [٢] .

ويسوق الأمير طائفة من الآيات القرآنية التي تربط الشواب والعقوبات والفوز والفشل بالعمل الذي يعمله المكلف ويرى فيها الدليل الواضح على إبطال تفسير القدر بالجبر .

والأمير شكيب يهدف من مناقشته لعقيدة القدر أن يحافظ على إظهار مسؤولية المسلمين الخلقيه والاجتماعية والدينية والسياسية عن واقعهم ، وفي نفس الوقت ينفي عن الإسلام اتهام الغربيين له بالجمود والتفريط والتسليم فيبين أن التسليم لله إذا كان مفروضاً بالعمل فإنه يكون أفعى في الدنيا والآخرة ، "والذى يريده الإسلام إنما هو أن يعقل الإنسان ويتوكل وإن يدبر لنفسه بهدافة عقله الذي جعله الله مرشدًا ، ويعلم مع ذلك أن ليس كل الأمر بيده ، وأن من الأقدار ما لا تدركه الأفكار وهذا صحيح" [٣] ويستشهد الأمير بأن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر القدر سأله بعض أصحابه ألا تتكل ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له .

(١) الجامدون : هم العاجزون عن الإجتهد في المسائل الشرعية بما يتحقق واحتاجات المتجددة للمسلمين . عن (د) مصطفى حلمي - الخلافة ص ٥٢٢

(٢) لماذا تأخر المسلمون / شكيب أرسلان ص ١٠٤

(٣) المرجع السابق ص ١١٠

وشكيب في موقفه من القدر متأثر بastaذه الإمام محمد عبد الذى كان يفرق بين مذاهب (الجبر) وبين معنى القدر، فكتب بحضور شبيه من سوى بينهما، وبين ما كان للإيمان بالقضاء والقدر من التأثير العظيم في رفعة المسلمين، ويقول الإمام : "اعتقد الأقرنچ انه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبريين، القائلين بأن الإنسان مجبور محض في جميع أفعاله وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كآلريشة معلقة في الهواء تطلبها الرياح كيفما تميل، ومنى رسم في نفوس قوم أنه لا خيار لهم في قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون، وأنما جميع ذلك بقدرة جابرة ، وقدرة قاصرة، فلا رب تتغطى قوام ، ويفقدون نعمة ما وبهم الله من المدارك والقوى، وتمهي من خواطرهم داعية السعي والكسب، وأجر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم" [١] وهكذا ظلت طائفة من الفرنجيه، وذهب مذهبها كثيرون من ضعاف العقول في المشرق ولست أخشى أن أقول : كذب الظان ، وأخطأ الواهم ، وبطل الزاعم وافتروا على الله وال المسلمين كذبا . لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سنى وشيعي وزيدى وأسماعيلي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزاء اختياريا في أعمالهم ويسمى بالكسب، وهو مناط الشواب والعقاب عند جميعهم، وأنهم محاسبون بما وبهم الله من هذا الجزاء الاختياري ، ومطلوبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية، والتواهي الربانية، الداعية إلى كل خير، الهدية إلى كل فلاح، وأن هذا النوع من الاختيار وهو مورد التكلف الشرعي، وبه تتم الحكمة والعدل " [٢] . وبين الإمام الآخر الطيب الذي يتركه الإيمان بالقضاء في نفوس المسلمين المؤمنين به من على الهمة، وبث روح الشجاعة في نفوسهم على نحو تصغر عندها النظام، وتنهون عليها مصارعة الشداد فيقول الإمام :

"الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد من شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والإقدام وخلق الشجاعة والبسالة ويبعد على اقتحام المهالك التي ترجم لها قلوب الأسود هذا الانطباع يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأحوال، ويحللها بحلى الجود . والاسخاء ويدعوها إلى الخروج من كل مأزع عليها، بل يحملها على بذلك الأرواح والتخلص عن

[١] ، [٢] تاريخ الاستاذ الإمام ، ح - ٢، من ٤٦٣ ، ٤٦١

نظرة الحياة ، كل ذلك في سبيل الحق الذي دعاها إلى الاعتقاد بهذه العقيدة ” [١] . والذى يعتقد بأن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته، أو ملته، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك، وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية، وأصول الاجتماعات البشرية ” [٢] . ثم يقول الإمام : ” بهذا الاعتقاد لمعت سيرتهم بالشرق وانقضت شهيتها على العيارى في هبات الحروب من أهل المغرب، وهو الذى حملهم على بذل أنوالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم لا يخشون فقر ولا يخافون فاقة ” [٣] . والإمام يؤكد أن الله أ茅ح المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضله في قول الحق (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوه ، فزادهم إيمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم) [٤] . وهذه الآية الكريمة تشير إلى موقف المسلمين في غزوة أحد و هي نفس الغزوة التي استشهد الأمير شبيب ارسلان بما كان من المسلمين فيها ؛ و ما أصلهم نتيجة مخالفتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم للرماة لتأكيد ما ذهب إليه بن الإسلام هو دين العمل لا دين الكسل ولا هو دين الاتكال على القدر المجهول للبشر : فقال الأمير مشيرا إلى تفسير قول الله تعالى (أولئك أصابكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلت لئن هذا ؟ قل هو من عند نفسك) [٥] . إن صاحب السؤال يعلم وأكثر المسلمين لا يعلمون أن هذه الآية خاطب الله تعالى بها أكمل هذه الأمة ليهانا وإسلاما وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ تعجبوا من ظهور المشركين عليهم في غزوة أحد فرد الله عليهم ببيان السبب وهو مخالفتهم أمره صلى الله عليه وسلم للرماة الذين يحمون ظهور المقاتلة بألا يربخون أماكنهم سواء كان الغلب للمسلمين أو عليهم ، فلما انهزم المشركون خالفوا الأمر لمشاركة المقاتلين في الغنيمة ، فكر عليهم المشركون حتى شج رأس

[١] تاريخ الاستاذ الإمام ، ح ٢٠ من ٢٦٣ ، ٢٦١

[٢] ، [٣] تاريخ الاستاذ الإمام ، ح ٢ من ٢٦١ ، ٢٦٣

[٤] سورة آل عمران من الآية ١٧٤-١٧٣

[٥] آل عمران من الآية ١٦٥

النبي صلى الله عليه وسلم إلخ .. [١]. فالأمير كاستاذه يرى أن عقيدة القضاء والقدر ليست لها علاقة بعقيدة الجنر، ولو كان في هذه الدعوى ذرة ما من الصحة لما نهض الصدابة أخير الناس بالاسلام وفتحوا نصف كره الأرض في خمسين سنة [٢]. ثم يختتم الأمير حديثه حول هذه المسألة بقوله : " وحقيقة الأمر أن كل ما هو وارد في القرآن من آيات القضاء والقدر إنما كان مقصوداً به سبق علم للله بكل ما يقع ولم يكن مقصوداً به نفي الاختيار والتزهيد في الكسب " [٣].

والحق أن الامير شكيب قد تتبه وفي وقت مبكر إلى الأضرار الاجتماعية والخلقية التي تصيب المجتمع بالأمراض فتفتك بالألم و تهدى من كيانها إذا جعلت القدر حجة للكل أحد ، لاسيما عندما ينسحب الاحتجاج بالقدر من موقف الإنسان الفرد إلى موقف الجماعة ف تكون المعصية أكبر و البليو طامة حين تقاد الشعوب إلى ارتياهات الخلقية المضللة فتصاب بعمى الرؤية للمستقبل وتكون فريسة للأمراض الاجتماعية والانحرافات الخلقية حتى إذا حققت عليها سنة الله في كونه فلا تجد على لوحجة تعذر بها إلا أنه (لا حذر يغنى عن قدر) [٤].

لذلك كان يحذر من الجمود ويرى أن خطر الجامدين الذين يعتقدون أن الإسلام دين تسليم دون أن يكون هذا التسليم مقروراً بالعمل وبالسعى وبالكبح، لا يقل عن خطر الجاحدين الذين يريدون أن يفرنجوا المسلمين ويخرجوهم عن جميع مقوماتهم ومشخصاتهم، يقول شكيب : " فقد أضاع الإسلام، جاحد وجامد " [٥]. فالمسلم الجامد هو الذي طرق لأعداء الإسلام على الإسلام، وأوجد لهم السبيل إلى القالة بحقه، حتى قالوا إنه دين لا يألف مع الرقى العصرى ، وإنه دين حائل دون العدنية ".

" والحقيقة أن هؤلاء الجامدين هم الذين لا يختلف عقائدتهم مع المدنية، وهم الذين يحاولون دون الرقى العصرى والإسلام براء من جماداتهم هذه " [٦].

[١] [٢] لماذا تأخر المسلمون ، مرجع سابق ص ١٠٩ ، ١١٠ .

[٣] المراجع السابق ص ١١١

[٤] قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي ، د. محمد الصيد الجليلي ص ١٣٤ .

[٥] لماذا تأخر المسلمون ، ص ٨٨

[٦] لماذا تأخر المسلمون ، ص ١١٦

الفصل الثاني

- موقف الأمير من الدروز
- علاقة الدروز بالإسماعيلية الفاطمية
- الجانب الباطني في عقيدة الدروز فيما يتعلق بـ:
 - * الألوهية
 - * يوم القيمة و الثواب و العقاب
 - * تأویل آی القرآن الكريم
- الدرزية كمذهب ينتمي للإسلام
 - * موقفهم من أركان الإسلام
 - * موقفهم من رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)
 - * موقفهم من القرآن الكريم
- حكم علماء الإسلام في الدروز
- نقد موقف الأمير من الدروز

موقف الأمير شبيب أرسلان من (الدروز)

إن ما كشف حديثاً ونشر عن مذهب (الدروز) خاصة بعد أن كلفت مشيخة العقل سامي مكارم بتأليف (أضواء على مسلك التوحيد) للرد على كتاب عبد الله النجار (مذهب الدروز والتوحيد) وبعد إكتشاف الكثير من مخطوطاتهم وكتبهم المقدسة ولاسيما كتابهم (مصحف المنفرد بدأته) يجعلنا نؤكد أن الإسلام الذي نفهمه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع السلفين ولاسيما في القرون الأولى قبل وجود الحاكم بأمر الله الفاطمي لا يتفق مع الإسلام الذي يعنيه الدروز في شيء . فهل تغيرت عقيدة الدروز بما كانت عليه عندما كتب الأمير شبيب أرسلان مقالاً [١] يقر فيه ، أن الدروز فرقة إسلامية جعل عنوانه (ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) وفيه يقول : (الدروز فرقة من الفرق الإسلامية ، أصلهم من الشيعة الإمامية الفاطمية و الشيعة الإمامية الفاطمية أصلها من الشيعة السبعية ، القائلين بالأئمة السبعة ، وهؤلاء هم من جملة المسلمين كما لا يخفى .

فإذا قيل أن الدروز هم من الفرق الباطنية التي لا يحكم لها بالإسلام ، فالجواب : إن الدروز يقولون إنهم مسلمون ويقيمون جميع شعائر المسلمين ويتوافقون بعوافقة الإسلام وال المسلمين في السراء والضراء ويقولون أن كل من خرج عن ذلك فليس بمسلم . ولهذا أصبح من الصعب على المسلم الذي فهم الإسلام كما فهمه السلف الصالح . والذي سمع حديث (فهلا شفقت عن قلبه) أن يخرج الدروز من الإسلام ، وفي الشرع المحمدى قاعدة نحن لنا الظاهر والله يتولى السرائر ، وقد قال الله تعالى " ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تتبعون عرض الحياة الدنيا "[٢]" وهؤلاء لا يلقون السلام فقط ، بل يلقون السلام ويقولون أنهم مسلمون ويحفظون القرآن ويلقنون ملتهم الميت : (ولذا جاءتك منكر ونكير وسألاك مادينك ، ومن نبيك ، وما كتابك ، ومن إخوانك وما قبلتك ، فقل لهم : الإسلام ديني ومحمد نبى ، والقرآن كتابى ، وللحجۃ قبلتى ، والمسلمون إخوتى) وليس من شعائر الإسلام شيء لا يقيمها الدروز وإذا قيل أنه مع كل هذه المظاهر تحتوى

[١] شبيب أرسلان ، جريدة الشورى ، بتاريخ ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤ هـ

[٢] سورة النساء ، آية ٩٤

عقيتهم الباطنية التي تعرفها طبقة العقال على ما يصادم أركان عقيدة السنة والجماعة ولا يتفق معها في شيء ، فالجواب : لقد وجد في الإسلام آئمة كبار يترضى عنهم عند ذكرهم ، ولهم قباب تزار وتعلق فيها القناديل ، وكانوا يقولون بوحدة الوجود ، فهل وحدة الوجود مما يطريق السنة ؟ كلا ، فهل آخر جهولة الآئمة من الإسلام ؟ كلا .

أما تجسد الآلهة فليس من عقيدة الدروز كما يفهمهم بعضهم ، والتجسد شيء والترانى شيء آخر ، وأما تأويل آى القرآن الكريم بحسب زعمهم ، فكم من فرقة فى الإسلام لغيرت تأويل للآيات الكريمة [١] .

ويستمر الأمير شبيب لرسلان في دفاعه عن إسلام الدروز ، إلا أننا نجد في مقاله هذا
ثلاثة مسائل ينفي الوقوف عدتها ودرستها :

الأولى : علاقة الدروز بالإسماعيلية الفاطمية ، وكيف تطورت عقيدتهم عن عقيدة الإسماعيلية الشيعية .

الثانية : الجانب الباطنى فى عقائد الدروز ، وخاصة فيما يتعلق بالألوهية ، والشواب والعقاب ، وتلوريل آى القرآن الكريم .

الثالثة : الدرزية كمذهب إسلامي ، ومما يفهم من أركان الإسلام الخمسة ، ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم ، ومدى حرص البروز في يوم على إظهار شعائر الإسلام والإرتباط بال المسلمين .

علاقة الدروز بالإسماعيلية الفاطمية

الإسماعيلية ، فرقة من فرق الشيعة سميت بهذا الاسم نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق الذى لم تعرف الشيعة الإثنا عشرية بإمامته ، بينما وقف الإسماعيليون عند إمامته فسموا لذلك بالسبعينية . وإسماعيل هو الإبن الأكبر للإمام جعفر الصادق والذي توفي فى حياة والده سنة ١٤٣هـ وأراد جعفر أن يؤكد وفاة ابنه بآقوال شهود عديدين فكتب محضرا بذلك وأشهد عليه والى المدينة [٢] . وقد ينقسم أتباعه بعد ذلك إلى ثلاثة فرق :

الأولى : قالت بإمامه موسى الكاظم وعرفوا بالإلئى عشرية .
الثانية : قالت أنها منتظرة لإسماعيل لأن إسماعيل لم يمت ولكنه أظهر موته نقية من خلفاء

[١] أحمد الشريامي ، الأمير شبيب لرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ص ٢١-٢٠

[٤] الفصل في الملل والاهواء والنحل ، الشهرين الثاني وثالث من ١٩٥٥

بني العباس .

الثالثة : قالت أن جعفرأ نصب لبني إسماعيل للإمامية بعده فلما مات إسماعيل في حياة أبيه علمنا أنه إنما نصب إسماعيل للدلالة على إمامية ابنه محمد ابن إسماعيل وهؤلاء يقال لهم المباركية [١] .

وبينقسمت المباركية إلى قسمين : قسم وقف عند إمامية محمد المكتوم وقال برجعته وأنه المهدى المنتظر وهؤلاء هم القرامطة ، وقسم قال باستمرار الإمامة في لائمة مستورن حتى اللحظة التي حكمت فيها الدعوة الإسماعيلية حيث أسس الإمام الشرعي عبد الله المهدى الدولة الفاطمية في المغرب [٢] .

ومن أشهر دعاة المذهب الإسماعيلي (ميمون القداح) الذي وضع أسس المذهب .
ومما يذكر في هذا المجال أن مؤرخى الإسماعيلية يحول لهم دائمًا أن يتحدثوا عن هذه الفترة من تاريخ لائهم وهى الفترة التي تعرف عندهم (بدور الستر) - ليتداء من محمد بن إسماعيل وإنتهاء بعبد الله ، فكل مؤرخ من مؤرخى الإسماعيلية تناول الحديث عن هذه الفترة بما يبدو له ، بحيث جاء حديثهم مضطرباً أشد الاضطراب مختللاً أشد الاختلاف فهم مختلفون في عدد لائمة هذه الفترة ، وهم مختلفون أيضاً في أسماء هؤلاء الأئمة [٣] .

ويطلق الدكتور محمد أحمد الخطيب على هذا الإضطراب التارىخي عند الإسماعيلية باعتقاده أن هذا الإضطراب يضاف إلى جملة الشبهات المحيطة في نسب العبيدين إلى فاطمة الزهراء من ذرية جعفر الصادق ويزوكرد ما رواه المقريزى أن عبيد الله الملقب بالمهدى ما هو إلا سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح الذى إدعى أنه خرج من سترة وأعلن إمامته ودعوته بعد أن كانت فى ستر وخفاء .

وبذلك دخل تاريخ الإسماعيلية في دور جديد عرف (بدور الظهور) بعدما أعلن عبيد الله قيام الدولة العبيدية سنة ٢٩٧ هـ وقد استطاعت الدولة العبيدية أن تفتح مصر على يد أحد قواها وهو جوهر الصقلى عام ٣٥٨ هـ في عهد المعز لدين الله الفاطمى الذى نقل

[١] د. أحمد محمد الخطيب ، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، ص ٥٧-٥٨

[٢] عبد الله الأمين ، دراسات في الفرق والمناهج (مراجع سابق) ص ٥٩

[٣] د. أحمد محمد الخطيب ، الحركات الباطنية (مراجع سابق)، ص ٦٤

بعد ذلك عاصمة ملوكه من المغرب إلى مصر حيث بني القاهرة وخلف المعز ولده العزيز بالله ثم تولى الحكم بعد وفاته ولده أبو على المنصور الذي لقب بالحاكم بأمر الله الذي ناصر مذهبًا انشق عن الإسماعيلية سنة ٤٠٨ هـ عرف بالدرزية أطلقه دعوة الإسماعيليين الفرس الذين نادوا باللوهية الحاكم بأمر الله^[١]. وهنا نقف عند شخصية الحاكم بأمر الله الذي هو محور الحديث عن نشأة الدروز وتاريخهم لأن عقيدة طائفة الدروز تقوم على تاليه الحاكم وعبادته .

أسس الحاكم بأمر الله مركزاً لإعداد وتجهيز دعاة الإسماعيلية (أسماء دار الحكمة) وللهذه التسمية مغزى يدل على الاتجاه الفلسفى الذى أريد أن يتخده هذا المعهد والذي يعتبر محور العقائد الإسماعيلية ، لذلك فقد استقطب هذا المركز الدعاة الإسماعيليين من كل مكان^[٢] . وقد احتشد في دار الحكمة طائفة من دعاة الإسماعيلية الملاحدة فالتقوا حول الحاكم بأمر الله وزينوا له فكرة (اللوهية) ، مما جعله وراء هذه الدعوة يرعاها ويشجع دعاتها^[٣] . ويسوق المؤرخون الذين تناولوا حياة الحاكم بأمر الله الكثير من الأخبار والتصرفات الشاذة والمتناقضه المنسوبة إليه ويؤكد بعضهم أن الحاكم كان يرمي بتصرفاته الشاذة هذه التمهيد لإدعائه الألوهية ولقد أصبحت هذه الأفعال والتناقضات عند الدروز أموراً تدل على لوهيته لأن لها ظاهراً وباطناً ، والمعروف للإنسان العادى هو الظاهر فقط من تلك الأفعال ، أما باطنها فهو من اختصاص الدروز وحدهم . لقد بدلت الدعوة الجهرية لدعوة الحاكم عام ٤٠٨ هـ على يد ثلاثة من دعاة الإسماعيلية هم : حمزه بن على الزوزنى ومحمد بن إسماعيل الدرزى المعروف بنشتكين والحسن بن حيدرة الفرغتى المعروف بالأخرم أو الأجدع . هذه الإعتقادات ظهرت فى ظل أجواء ومعتقدات العقيدة الإسماعيلية ، وهو ما يؤكده الأمير شكب أرسلان بقوله إن أصل الدروز من الشيعة الإسماعيلية الفاطمية ، والحق أن نسبة الدروز إلى الإسماعيلية الفاطمية لا تقرب بالدرزية إلى العقيدة الإسلامية بل تباعد بين الإسماعيلية والعقيدة الإسلامية الصحيحة ولقد ذهب بعض الباحثين إلى القول : " إن عقيدة الدروز لم تخرج في جوهرها عن جوهر المذهب الإسماعيلي الذي لم يكن مكتشفاً

[١] المرجع السابق ص ٦٩ - ٧٠

[٢] محمد عبد الله عنان ، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ص ١٦٤[٣] الحركات الباطنية من ٢٠٢

لامة الناس ، ولعل الحكم حينما أعلن مذهبه كان يرى أن الوقت قد حان للكشف عن بعض العقائد البالغة السرية ، على حين خالقه في ذلك معظم الدعاة والسلطات الفاطمية الرسمية [١] . وبناءً على ذلك فإن إعلان الحكم الربوبي لم يكن خروجاً عن المذهب الإسماعيلي ، وإنما كان مساساً بباطنية المذهب . ويؤيد هذا أن دروز اليوم يعتقدون بوجود التقاء بين الإسماعيلية والدروز في العقائد حتى أن الدروز يعتقدون أن الإسماعيليين إخوانهم ، ولكنهم يسمونهم بالتفصير [٢] .

والأمير شبيب أرسلان يذكر على من يقول أن الدروز من الفرق الباطنية التي لا يحكم لها بالإسلام مؤكداً أن الدروز يقولون أنهم مسلمون ويقيمون جميع شعائر المسلمين . ومع إقرار الأمير شبيب (الضموني) - كما أفهم - بل عقيدة الدروز التي تعرفها طبقة العقال تحتوى على ما يصادم لarkan عقيدة السنة والجماعة ولا يتفق معها في شيء إلا أنه يرى أن هذه الخلافات لا تخرج الدروز من الإسلام ثم ينفي أن يكون تجسده الإله من عقيدتهم ، وأنهم في تأويلهم لأيات القرآن الكريم لا ينفردون بذلك عن الفرق الإسلامية الأخرى .

و قبل أن ننهي حديثنا عن تطور العقيدة الدرزية عن الإسماعيلية نقدم ملخصاً لأصول العقيدة الدرزية وقواعدها لنتطبع أن نتطرق من خلالها بالتفصيل للجانب الباطني في هذا المذهب . فالدروز يعتقدون بلوهية الحكم بأمر الله ، وفي رجعته آخر الزمان ، وينكرون الأنبياء والرسل جميعاً ، ولا يأخذون بشيء من أحكام وعبادات الإسلام بل ينكرون لarkan الإسلام جميعها ، وقد جعل الدروز بدل لarkan الإسلام ، سبعة خصل توحيدية ، وهو يعتقدون بتسلسخ الأرواح وانتقالها إلى الأجساد الإنسانية ، ولهذا فهم لا يعتقدون بالجنة والنار ، والثواب والعقاب ، فالثواب يكون بانتقال الروح إلى منزلة أرفع حينما تنتقل من جسد إلى جسد ويكون العقاب بتدني منزلتها ، أما القرآن الكريم فبائهم يقولون أنه من صنع سلمان الفارسي ، والذي هو حمزه في عصر الحكم .

[١] محمد العزاوي ، فرقـة النـازـارـيـة عـنـ الحـركـاتـ الـبـاطـنـيـة ، ص ٢١٢

[٢] عبد الله النجار ، مذهبـ الدـرـوزـ وـ التـوـحـيدـ ، ص ٣٨

الجاتب الباطني في عقائد الدروز

الألوهية

سبق أن ذكرنا أن الدروز يطلقون على مذهبهم اسم (مذهب التوحيد) ويررون أن مذهبهم التوحيدى هذا قائم على الإسلام ، غير أنه يفسر آيات التنزيل تفسيراً باطرياً خاصاً ، يخرجه عن باطن التأويل ، كما يرون أن مذهبهم يخالف أهل التنزيل (ويقصدون بهم المسلمين) في أنه ينظر نظرة خاصة فيما تنطوى عليه الألفاظ من معانٍ ودلائل روحانية ، ويختلف أهل التأويل (ويسموهم أهل الباطن) ويقصدون بهذه التسمية الإسماعيلية ، أقرب المذاهب لمذهبهم في تفهم رموزها الخفية [١] .

وفلسفة التوحيد عند الدروز تقوم على نفي الصفات والآسماء والحالات والجهات والقدم والتسبيه عن الله ، (يعنى أن الله هو الجمال لا الجميل ، والقدرة لا القدير والحياة لا الحي ، والعلم لا العليم .. الخ فان الجميل لا يستغني عن الجمال والقادر تلزم له القدرة ، والحي تلزمه الحياة والعالم بالشيء لا غنى له عنه ، كائناً هذه جميعاً أمور أو اجزاء منفصلة عنه متبرعة له أو كائناً غير ذاته [٢] .

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن ما ذكر عن التوحيد في رسائل الدروز ، وحديثهم عن لا هوية المعبود ، يتفق تماماً الاتفاق مع ما ورد في كتب الدعوة الإسماعيلية عن الله سبحانه وتعالى ففي كتاب ((راحة العقل)) لأحمد حميد الكرماني ، الذي كان معاصرأ لمحزه بن علي ، نجد سورة كاملاً ذا سبعة مشارع عن التوحيد والقدس ، وحديثه في ذلك كله هو حيث رسائل الدروز فقد جعل الكرماني المشرع الأول : في بطلان كونه تعالى ليساً والمشرع الثاني في بطلان كونه تعالى أبداً والمشرع الثالث في أنه تعالى لا ينال بصفة من الصفات ، أنه لا يجسم ولا في جسم ، ولا يعقل ذاته عاقل ... ثم ختم المشرع السابع بأن أصدق قول في التوحيد والتسبيح والتمجيد والآيات ما يكون من قبيل نفي الصفات الموجودة في الموجودات وسلبها عنه تعالى [٣] .

[١] مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٣

[٢] مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٣

[٣] طائفة الدروز (محمد كامل حسين ، ص ١٠٤ - ١٠٥) . الحركات الباطنية (ص ٢٢٤)

ثم أن الدروز يأخذون هذه الآراء مجتمعة و يجعلونها في لاهوت معبودهم الحاكم بأمر الله ، فهم يعتقدون أن له حقيقة لا هو تدرك بالحواس ولا بالأوهام ، ولا تعرف بالرأي والباطلقياس كما تقول الرسالة ١٣ : ((إن المولى سبحانه ، لاقديم ولا أزل لأن القديم والأزر مخلوقان . هو خالقهما ... حقيقة لا هو تدرك بالأوهام والحواس . ولا تعرف بالرأي والباطلقياس ... ليس له مكان معروف ، فيكون محصوراً فيه ، وتخلو بقية الأماكن منه . ولا يخلو منه مكان فيكون عاجزاً لقدرة . ولا هو بأول ، فيحتاج إلى آخر . ولا بآخر فيكون له أول . ولا بظاهر فيحتاج إلى باطن . ولا بباطن فيكون مستتراً بظاهر)) [١] . والدروز لا يعتقدون أن الله دخل في جسم - تعالى الله عن ذلك - ولكنهم يعتقدون أنه سبحانه اتخذ له جلباً وصورة ناسوتية ، احتجب بها أمام الناس [٢] . ومعنى هذا كله أن الإمام الفاطمي المعروف (بالحاكم بأمر الله) هو عند الدروز بشر في الأعين المجردة ويعيش بين الناس كما يعيش غيره من البشر وذلك عند الذين لا يعرون حقيقته ، أما الدروز الذين عرفوا حقيقته فيذهبون إلى أنه الإله المعبود اتخذ لنفسه صورة ننسية سماها الناس (الحاكم بأمر الله) . يقول عبد الله النجار تحت عنوان : (التجلي) ، أما التجلي فيقول المذهب مناقشاً : أنه سبحانه أظهر لنا حجابه ومقامه رحمة منه ورافة (الرسالة ١٣) ((فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ كَيْفَ يُجُوزُ أَنْ تَسْمَعَ كَلَامَ الْبَلَرِيِّ سَبَّابَةَ مِنْ بَشَرٍ أَوْ نَرْأِيْ حَقِيقَتَهُ فِي الصُّورِ؟ قَلَّا : إِنَّمَا تَعْتَدُونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَاطَبَ مُوسَى مِنْ شَجَرَةٍ وَمِنْ جِبَلٍ وَسَمِيمَتُوهُ كَلِيمَ اللَّهِ ، فَإِنْ كَانَتِ الشَّجَرَةُ " حَجَابَهُ " ، فَإِنْ مَنْ يَعْقُلُ وَيَفْهُمُ أَنَّكَوْنَ حَجَابَ اللَّهِ مَا لَا يَعْقُلُ وَلَا يَفْهُمُ كَيْفَ يُجُوزُ للبلاري سبّابه أن " يتحجب " في شجرة يخاطب كليمه منها ، ثم تحرق الشجرة وينلاشى حجابه ؟)) [٣] . وهذا الذي يذكره الأستاذ عبد الله النجار منقول مما كتبه حمزة في " الرسالة الموسومة لكشف الحقائق " . ويواصل الاستاذ عبد الله النجار عرضه لرأى المذهب في مسألة التجلي وكيفية اتخاذ المعبود لمقامات ناسوتية فيقول متحدثاً عن الإله - تعالى الله عما يصفون - نقلأً عن الرسالة ٣٦ أنه : (تقرّب إلينا بنا . وأنس عقولنا بصورنا وظهر لنا بجميع افعالنا . لتفقهه بفهمنا . فلا نقول أن هذه الصورة المرئية هي هو ،

[١] مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٤[٢] الحركات الباطنية ، ص ٢٢٤[٣] مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٧

فنجعله محصوراً محدوداً . بل نقول هو هي ، بستاراً وتقرباً وتأسياً ، بغير حد ولا شبه ولا مثل .

أو كما نطق القرآن (الآية ٣٩ من سورة النور) " كسراب بقعة يحسبه الظمان ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده ...) كمثل الناظر في جوهر المرأة فهو يرى نظير صورته بغير لمس ولا إدراك كيفية ولا تحديد ماهية (إن الله لو كان موجوداً على صورة مختلفة لبريته . وظهر له بمعنى يليق لعظمة ولو هيته لم يشك أحد من البرية ، وارتفاع القاولات والتفاصل ، وسقوط الثواب والعقاب) (الرسالة ٦٩) ولذلك : (ظهر في حد الطفولة ثم الكمال ثم احتل في ظاهر الأمر . ثلا يكون عاجزاً عن ذلك (عن الإعتلا) . فلن العجز (إزادة العجز والقدرة عليه) من القادر قدرة) (الرسالة ٦٧) .

ويسعى الأستاذ عبد الله النجار إلى ربط ماورد في رسائل حمزة بالنظريات الفلسفية ، فينقل عن (الرسالة ٩) القول : (إن الروح لا تدرك إلا بالجسم) ثم يعلق على ذلك بقوله : فما أقرب هذا القول إلى نظرية (باروخ اسبينوزا) ومؤداتها أن الوجود يتالف من الطاقة العقلية والطاقة المادية أو المادة والوعي وإندماهما بالجسد والروح في الإنسان إنما هو حالة طرائفه من حالات الله في الوجود .

ثم ينقل عن (الرسالة ٦٧) هذا القول في بيان وتبرير اعتقاد الدروز بتجلی المعبد في صورة نسلوتية : (فأى عدل يقتضي أن يكون فوق سبع سمولت . علي كرسى . فوق السماء السابعة وقد كلفنا ، مع هذا ، عبادته ومعرفته ؟ . والمرء ليس في وسعه أن يعرف ما خلف الجدار القريب إن لم يكشف عنه . فإن ظهور الله نفس العدل . فلما صلح أن ابن آدم أفضل المخلوقات ، وجب أن يختحب للبارى في لشرف المخلوقات) .

وكذلك الرسالة ٧٠ تردد (أن فيتاغورث كان يعتقد أن البارى موجود نور محض . وأنه لا يس جسداً ما ، يستتر به ثلا يراه إلا من استأهل ذلك واستحقه وقام في عبادته .. وهكذا يقول أفلاطون معلم أرسطو طاليس ومن تبعه) .

{ إن البارى سبحانه لاتخلوا الدار من وجوده طرفة عين ولو خلت الأرض منه لزالت الحجة على الخلق في تلك اللحظة) (الرسالة ٧٥) .

(ظهر بالشكل البشري لأن حكمته قضت بذلك بشفاقاً على جهل العالم المتمسك بالمحسوسات . وإمتحاناً لهم . لتكميل عليهم الحجة) (الرسالة ٤٤) . فظهوره (أنسية لعقولنا . وشفقة منه علينا) (الرسالة ٢٤) . ثم يختتم الأستاذ عبد الله النجار ببيان أن هذا

الظهور لم يكن ظهوراً حسياً مستشهدأ بما جاء في الرسالة ١٩ من أن الحكم بأمر الله حين كان يركب للخروج في النهار (كان للأثان ظل ، ولا ظل للراكب ... لاهوته المحجوب عنه . وناسوته المظهر لنا) [١] .

سبع مقامات

المقامات، عند الدروز والإسماعيلية ، هي الظاهرات أو التجليات وهي في نفس الوقت إمامات . والدروز يعتقدون أن الصورة الناسوتية للآله المعبود ظهرت في الأدوار الماضية ، ويعتقدون أنها سبعة أدوار والأله المعبود أظهر ناسوته في هذه الأدوار عشر مرات أو مقامات فهو في نظرهم واحد لا يتغير في كل دور أو مقام ، وفي رسالة الصيرة المستقمة حيث طريل عن الأدوار التي أظهر فيها المعبود ناسوته لأن المعبود بن لم يظهر ناسوته من حين لآخر لكن الناس يعيدون العدم [٢] . أما المقامت الناسوتية للتي يعتقد الدروز أن المعبود ظهر فيها فيرتبونها كما يلى :

١- الطي .

٢- البار .

٣- أبو زكريا : ظهر في وقت السماء الثالثة سنة ٢٢٠ هـ .

٤- عليا : ظهر في وقت السماء الرابعة .

٥- المعل : ظهر في وقت السماء الخامسة .

٦- القائم : كان طفلاً استودعه مع سر إمامته أبوه المعل برعاية سعيد المهدى الملقب (عبد الله) سنة ٢٨٠ هـ ، وهو مؤسس الدولة الفاطمية . تلاه المنصور من سنة ٣٣٤ هـ إلى سنة ٣٤١ هـ ثم المعز من سنة ٣٤١ هـ إلى سنة ٣٦٥ هـ ، وهما مع القائم يعتبرون في المذهب الدرزي ذاتاً واحداً .

٧- العزيز من سنة ٣٦٥ هـ إلى سنة ٣٨٦ هـ . وأخيراً الحاكم (المنصور) وهم في حساب المذهب واحد كقول الإنجيل : (أنا وألاب واحد) [٣] .

هذا هو الترتيب الذي ذكره عبد الله النجار في كتابه مذهب الدروز والتوحيد ، ونقله عنه الدكتور محمد أحمد الخطيب في كتابه للحركات الباطنية ، ولكن الدكتور محمد كامل

[١] عبد الله النجار ، مذهب الدروز والتوحيد ، من ٨٦ - ٨٧

[٢] طائفة الدروز ، من ١٠٧

[٣] مذهب الدروز والتوحيد ، عبد الله النجار ، من ٩٥

حسين ينقل عن رسالة السيرة المستقيمة ترتيباً آخرأ للإدوار التي أظهر فيها المعبود ناسوته جعل ترتيب ظهور المعبود في صورة القائم قبل ظهوره في صورة أبي زكريا القرمطي . ثم يعلق على كل ذلك الدكتور محمد كامل حسين بقوله : (وليس لنا أن نناقش هذه العقيدة ، إلا أنها نحب أن تسجل أن ظهور أبي زكريا القرمطي كان أسبق من ظهور القائم بأمر الله ، ثم قوله أن القائم كان بمصر وبنى بها باباً يسمى الرشيدية - كل ذلك بعيد عن الحقيقة التاريخية ، حقيقة حاول القائم بأمر الله فتح مصر أكثر من مرة ولكنه لم يوفق ، فكيف أقام بها وشيد بها باباً؟ [١]) .

هذه هي عقيدة الدروز في التوحيد كما نقلها الباحثون عن رسول الدروز من وجهات نظر متعددة ، وبأقلام متعددة وكلها تؤكد إيمان الدروز باللوهية الحاكم ، ويؤيد ذلك ما كتبه الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه إسلام بلا مذاهب وهو الذي عاشر الدروز سنوات ، وعقد صلات طيبة مع زعمائهم وكتابهم ، واطلع على الكتب المعاصرة بأقلام الأساتذة الدروز نفسها ، وقد تعرض في كتابه لما جاء في الكتب الحديثة عن الدروز بأقلامهم « مثل كتاب (مذهب الدروز والتوحيد) للأستاذ عبد الله التجار - الذي نقلنا عنه وللملحوظات التي أبدت عليه من الدروز أنفسهم ، في كتاب (أضواء على مسلك التوحيد) الذي قدم له الأستاذ كمال جنبلاط بمقديمة طويلة ثم كانت له توطئة بقلم (بليازيد) وبحث موضوعي للدكتور سامي مكارم يقرر فيه اعتقاد مهم يجب على الدرزي أن يؤمن به ، وهو أن الناسوت لا ينفصل عن الالهوت ، ذلك أن الحجاب هو المحجوب ، والمحجوب هو الحجاب ، فالناسوت في الالهوت مثل الخط من المعنى ، فيقول : (ويمكننا أن نقول : أن الناسوت من الالهوت كالخلط من المعنى ، وكما أن فكر الإنسان المحدود بالكيفية والإضافة والزمان . وما شابه ذلك لا يستطيع أن يدرك المعاني مجرد الخط أو الصورة أو الصوت كذلك لا يمكن أن يدرك الالهوت وجه من الوجه وإنما يتجلّى الله في الناسوت ، ويكون هذا الناسوت قد ترّزه عن كل ماليس هو في حققه وشموله فأصْحَى سُخْيَا للإنسان الكامل ، أى ناسوتاً مجرداً منظهراً مثالياً متزلاً ب مجرد الباقي السرمدي فيه عن التوهّم . وهذا هو التأسيس بالنسبة للآخرين) [٢] .

[١] طائفة الدروز ، ص ١٠٧

[٢] أضواء على مسلك التوحيد / سامي مكارم ، ص ١٢٨

" هذه هي نظرتهم لللاهوت والناسوت ، تظهر لنا بجلاء أن الدروز يؤمنون بظهور الله في شخص إنسان ، لأن الإنسان في نظرهم هو الأولى باحتياج الله في صورته ، بصفته أفضـل المخلوقات . وأن ظهـور الله - سبحانه وتعـالى عـما يقولـون - بصـورة نـاسـوتـية سـبـبه - كما يـزـعـمـون - رـحـمة الله لـلـنـاسـ وـعـدـلـاـ مـنـهـ لـهـمـ فـيـ مـشـاهـدـتـهـ لـيـأـمـنـواـ بـهـ وـبـوـجـودـهـ " [١] .

" وبـماـ أـنـ الـحـاـكـمـ بـأـمـرـ اللهـ هـيـ الصـورـةـ النـاسـوـتـيـةـ الـأـخـيـرـةـ لـهـ ..ـ كـماـ يـزـعـمـونـ لـهـذاـ يـعـدـوـنـهـ وـيـقـدـسـونـهـ ،ـ وـيـنـتـظـرـونـ ظـهـورـهـ بـعـدـ غـيـرـهــ وـهـذـاـ المـعـنـدـ هـوـ الـمـرـتـكـزـ الرـئـيـسـيـ

عـنـ الدـرـوزـ [٢] .ـ وـسـوـاءـ سـمـيـ هـذـاـ المـعـنـدـ تـجـسـدـ ..ـ وـهـوـ مـاـيـنـفـيـهـ الـأـمـيرـ شـكـيـرـ أـرـسـلـانـ

يـقـولـهـ (ـوـأـمـاـ تـجـمـدـ إـلـهـ فـلـيـنـ مـنـ عـقـيـدـتـهـ كـمـاـ يـتـهـمـ بـعـضـهـ ،ـ وـلـتـجـسـدـ شـنـيـ شـنـيـ

أـخـرـ [٣] ..ـ لـوـ سـمـيـ تـرـانـيـ أوـ حـلـولـ أوـ تـجـلـيـ لـوـ ظـهـورـ لـوـ حـلـولـ الـلـاهـوـتـ فـيـ النـاسـوـتـ فـلـيـ

ذـلـكـ لـنـ يـغـيـرـ شـيـئـاـ فـيـ حـكـمـ الـإـسـلـامـ بـيـطـلـانـ هـذـاـ المـعـنـدـ وـالـحـكـمـ عـلـىـ مـعـنـدـهـ بـالـكـفـرـ الـصـرـيـعـ ،ـ

كـمـاـ يـقـولـ شـيـخـ الـإـسـلـامـ اـبـنـ تـيمـيـةـ :ـ "ـ وـلـارـيـبـ أـنـ هـذـاـ القـوـلـ -ـ الـحـلـولـ وـالـتـجـسـيدـ -ـ كـفـرـ

صـرـيـعـ بـاـتـاقـ الـمـسـلـمـينـ ،ـ فـقـدـ ثـبـتـ فـيـ صـحـيـعـ مـسـلـمـ ،ـ أـنـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ قـالـ :

(ـإـعـلـمـواـ لـنـ أـحـدـاـ مـنـكـمـ لـنـ يـرـىـ رـبـهـ حـتـىـ يـمـوـتـ) [٤] .ـ فـيـذـاـ قـيـلـ :ـ ظـهـرـ فـيـ صـورـةـ إـنـسـانـ

وـتـجـلـيـ فـيـهـ فـيـ الـلـفـظـ بـصـيـرـ مـشـترـكـاـ بـيـنـ لـنـ تـكـونـ ذـاـهـ فـيـهـ ،ـ وـأـنـ تـكـونـ قـدـ صـارـتـ بـعـنـزـلـةـ

الـمـرـأـةـ الـتـيـ يـظـهـرـ فـيـهـ ،ـ وـكـلـاـهـاـ بـاطـلـ ،ـ فـلـيـذـلـكـ اللـهـ لـيـسـ فـيـ الـمـخـلـوقـاتـ وـلـاـنـيـ نـفـسـ ذـاـهـ

تـرـىـ الـمـخـلـوقـاتـ كـمـاـ يـرـىـ الـمـرـنـيـ فـيـ الـمـرـأـةـ) [٥] .ـ

وـيـؤـكـدـ شـيـخـ الـإـسـلـامـ اـبـنـ تـيمـيـةـ فـيـ مـوـضـعـ آخـرـ إـمـتـنـاعـ الـإـتـحـادـ بـيـنـ الـخـالـقـ وـالـمـخـلـوقـ فـيـقـولـ :

(ـإـنـ الـإـتـحـادـ بـيـنـ الـخـالـقـ وـالـمـخـلـوقـ مـمـتـعـ ،ـ لـأـنـ الـخـالـقـ وـالـمـخـلـوقـ إـذـاـ إـتـحـداـ ،ـ فـيـمـاـ أـنـ يـكـوـنـاـ

بـعـدـ الـإـتـحـادـ إـثـنـيـنـ كـمـاـ كـانـ قـبـلـهـ ،ـ وـهـذـاـ تـعـدـ وـلـيـسـ بـإـتـحـادـ ،ـ وـإـمـاـ أـنـ يـكـوـنـ الـخـالـقـ قـدـ بـسـتـحـالـ

وـتـبـلـتـ حـقـيـقـتـهـ كـسـافـرـ مـاـيـتـحـدـ مـعـ غـيـرـهـ ،ـ وـهـذـاـ مـمـتـعـ عـلـىـ اللـهـ ،ـ إـذـاـ إـسـتـحـالـةـ تـقـضـىـ عـدـمـ ماـ

كـانـ مـوـجـودـاـ وـالـلـهـ تـعـالـىـ وـاجـبـ الـوـجـودـ بـذـاـهـ وـصـفـاتـهـ الـمـلـازـمـةـ لـهـ وـالـتـيـ هـيـ الـكـمـالـ ،ـ وـالـتـيـ

إـذـاـ عـدـمـتـ كـانـ ذـلـكـ نـقـصـاـ يـتـزـهـ اللـهـ تـعـالـىـ عـنـهـ) [٦] .ـ

[١] ، [٢] العـرـكـاتـ الـبـاطـلـيـةـ ،ـ مـنـ ٢٢٨ـ

[٣] مـقـالـ الـأـمـيرـ مـحـمـدـ الـدرـاسـةـ

[٤] روـاهـ مـسـلـمـ فـيـ كـتـابـ الـقـنـ وـرـوـاهـ التـرمـذـيـ فـيـ كـتـابـ الـقـنـ

[٥] ابنـ تـيمـيـةـ :ـ مـجـمـعـ قـلـاوـيـ شـيـخـ الـإـسـلـامـ ،ـ مجلـدـ ٢ـ ،ـ مـصـ ١٧٩ـ -ـ ١٨٠ـ

[٦] أنـورـ الجنـديـ /ـ الـمـؤـامـرـةـ عـلـىـ الـإـسـلـامـ ،ـ مـصـ ٥٤ـ ،ـ عـنـ عـقـدـةـ الدـرـوزـ مـنـ ٢٠١ـ

وبينقل الأستاذ أنور الجندي عن أبي حامد الغزالى قوله عن فكرة الإتحاد بين الله والإنسان : (أن قول القائل : أن العبد صار هو الرب كلام ينافق نفسه ، بل ينبغي أن يتنتزه الرب سبحانه عن أن يجري اللسان في حقه بأمثال هذه المحاولات . وطريقة البرهنة على فساد ذلك عند الغزالى ، هي أن يورد ثلاثة إحتمالات لمثل هذا الإتحاد المزعوم :

١- إنما أن تظل كل ذات من الذاتين موجودة .

٢- وإنما أن تفني إحداهما وتبقى الأخرى .

٣- وإنما أن تفنيا معاً .

في الحالة الأولى : لا يكون هناك إتحاد وفي الثانية : كيف يمكن الرعم بأن هناك إتحاد بين موجود ومعدوم ؟ وفي الثالثة : لا يكون هناك محل للحديث عن الإتحاد ، بل الأولى أن نتكلم عن الإنعدام والتناقض واضح في جميع هذه الإحتمالات . والعقل هو الذي يقرر وجود هذا التناقض ، بعد أن جاء الشرع ببين فساد فكرة الإتحاد عند النصارى [١] .

نستنتج مما تقدم أن فكرة تجسد الإله في صورة إنسانية هو إجتراء على الله الذي (ليس كمثله شيء وهو السميع العليم) ، وهي فكرة جاء الإسلام لمحوها من عقول الناس ، لأنها مستفأة من مذاهب وفلسفات تقوم على الشرك والوثنية ، لذلك جاعت آيات كثيرة تكشف كفر اليهود والنصارى لقولهم وإعتقادهم في حول الله بيسان . يقول الله تعالى : (وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهنون قول الذين كفروا من قيل ، قاتلهم الله ألم يوفكون . اتخذوا أخبارهم ورعباهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهواحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) [٢] .

وارسل الرسل والأنبياء من قبل الله تعالى ، يدحض كل مزاعم بالحلول والإتحاد ، إذ بظهوره وحلوله أو بتحاده في الإنسان ، ما كانت هناك حاجة للرسل والأنبياء . كما نستنتج من ذلك أن فكرة الطول والإتحاد لا يمكن أن تتفق مع التوحيد الذي هو عقيدة المسلم كما نفهمه من القرآن والسنة ، وكما نفهمه من أول كلمة ينطق بها الإنسان ليكون مسلما هو شهادة أن (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

[١] ثور الجندي / الموامرة على الإسلام ، ص ٥٥

[٢] سورة التوبة ، آية ٣٠ ، ٣١

ولو أن هؤلاء الذين يعتقدون بآلهة الحاكم وماز الواه في الضلالات والمعاهدات التي وضعها حمزه بن علي ، أصغوا إلى نداء عقولهم ما بقى واحد منهم على هذا الاعتقاد الواهى الذى لا يصدقه عقل ، ولا تستسيغه نفس ، ولا يتفق مع الإسم الذى يرضونه لمذهبهم وهو باسم (مذهب التوحيد) ولا نجد مجالاً للاعتراض بأن دروز اليوم ينفون تأليه الحاكم بأمر الله عن معتقدهم بعد مانكره الأستاذ عبد الله النجار في كتاب (مذهب الدروز والتوحيد) أشاء حديثه عن الحاكم بأمر الله ، الذى يقول فيه : (وابي لذكر عتاب كبير الشياخ للقات لأنى ذكرت في أحد الكتب المطبوعة أن أم الحاكم كانت صقلبية . إذ قال لي أن الحاكم لا أم له ، مردداً ماجاء في الرسالة ٢٦ : (حاشا مولانا جلى ذكره من الآب والإبن وللعم والحال . لم بلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) !! [١] .

يوم القيمة والثواب والعقاب

يعتقد الدروز أن الحاكم أظهر لاهوته سنة ٤٠٠ هـ ، وكان يتظاهر أنه من الخلفاء الفاطميين لستر لوهيته لقلة المؤمنين به ، واستمر يظهر لاهوته حيناً وبخفية حيناً آخرأ إلى أن أخفاه في السنة الثانية عشرة (أي سنة ٤١١ هـ) ولا يظهر لاهوت آخر مرة أخرى إلا يوم الدين . فمعنى سيكون هذا اليوم ؟

لم يحدد الدروز تاريخ هذا اليوم ، فرسائلهم تقول إن ذلك أمر مجهول ولكن سيكون ذلك في شهر جمادى ثان في شهر رجب ، ولهذا اليوم علامات محددة عندهم [٢] . وقد اختلفت رسائل الدروز في مكان ظهور الحاكم (بناسوته) في هذا اليوم الآخر ، فبعضها وخاصة كتابات حمزه تذهب إلى أن ظهوره سيكون بمصر ، أما رسالة الأسرار ففيها تصريح بأن العبود سيكون في بلاد الصين يخرج من سد الصين العظيم وحوله شعب ياجوج وماجوج وهم قوم يؤمنون بمذهب التوحيد [٣] ، ويكونون مليونين ونصف من العساكر مقسمة إلى خمسة أقسام ، كل قسم منها يترأس عليها أحد الحدود فيدخلون مكة المكرمة [٤] .

[١] مذهب الدروز والتوحيد / عبد الله النجار ، ص ١٠٥ - ١٠٦

[٢] طلاقة الدروز / محمد كامل حسين ، ص ١٢٤

[٣] طلاقة الدروز / ص ١٢٥

[٤] العركات الباطنية / ص ٢٤٨

ثم يتجلى لهم المعبود في صورة الحكم بأمر الله من الركن اليماني وفي يده السيف فيقدمه إلى حمزة الذي يهدى بسيف الحكم مخالفي العقيدة ويعطي الحكم للموحدين [١].
ويعتقد الدروز أن الناس سينقسمون في يوم البعث إلى أربع فرق هم :

- أولاً : الموحدون (وهم عقال الدروز) ، وهم الوزراء والحكام والسلطانين .
- ثانياً : أهل الظاهر ، وهم المسلمين واليهود .
- ثالثاً : أهل الباطن ، وهم النصارى والشيعة .
- رابعاً : المرتلون ، وهم جهال الدروز [٢] .

ويجعل حمزة لكل طائفة غير أصحاب سيمة في جبينه أو يده ، وعداها يتاذى به ، وجزية يؤديها كل عام ، ونحو ذلك من الهوان [٣] (عن مخطوطه في تقسيم جبل لبنان والممؤلف مجاهول) .

أما عقيدة الدروز فيما يتعلق بالثواب والعقاب فمرتبطة بإعتقاد آخر يؤمن به الدروز وهو إيمانهم بالتتاسخ والتعمص أي بانتقال النفس من جسم بشري إلى جسم بشري آخر ، فالآرواح - كما يزعمون - لا تموت لتبعث ، ولا تمام لتوقيط ، بل أن يوم الحساب - في نظرهم - نهاية مراحل الآرواح وتطويرها في الأجساد ، إذ يبلغ في هذا الوقت (التوحيد) غايتها من الإنتمار على العقائد الشركية ، وينتهي الإنثال والمرور في الأقمة المختلفة [٤]. فالدروز يعتقدون أن المعبود ظهر في صورة ناسوتية حوالي سبعمائة مرة [٥] ، وأن حمزة بن على (العقل الكلي أو قائم الزمان) قد ظهر بأسماء مختلفة في كل دور من الأدوار التي ظهر فيها إليهم .

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن كتابات الدروز متاقضة في مسألة التتاسخ ، فكتابات حمزة بن على مؤسس المذهب بها تهكم بمن قال بالتتاسخ شأنه في ذلك شأن

[١] طائفة الدروز / ص ١٢٥

[٢] دراسات في الفرق والمذاهب / عبد الله الأمين ، ص ١٤٩

[٣] انحرافات الباطنية / ص ٢٤٩

[٤] مذهب الدروز والتوحيد / عبد الله النجار ، ص ٨١

[٥] طائفة الدروز / ص ١٠٩

دعاة الفاطميين ، مع اعتزافه بظهور المعبد في صور ناسوتية ، قوله ايضاً بأنه هو نفسه (أى حمزة بن على) ظهر في صور مختلفة في الادوار المختلفة ، مما يدل على أن مفهوم التناسخ أو الحلول عند الفلسفة هو غيره عند حمزه . اما في كتابات الدعاة الآخرين الذين جاءوا بعد حمزة ، فمذهب التناسخ واضح اشد الوضوح ، فنجد في رسالة (الاسرار ومجالس للرحمة للأولياء الأبرار) أن الجسد لا يرجع بعد الموت ولكن النفس تحل في جسد آخر ، فنفس الموحد تنتقل إلى موحد والمشرك إلى مشرك ، ولاتغير الأنفس ولكنها تغير قمقانها (أى الجسد) [١] . ولذلك فهم يزعمون أن عددهم لابزيد ولا ينقص ، لأن التقمص عملية دائمة متواصلة بين أرواحهم . وفي هذا المعنى يقول (بهاء) في أحد رسائله : (ليس قد صع عند كل ذي عقل ومعرفة بالحقيقة والفضل ، أن هذه الاشخاص ، أعني عالم السواد الأعظم لم يتلاصموا ولم يتزايدوا ، بل هي اشخاص معدودة من أول الادوار الى انتقاماء العالم والرجوع الى دار القرار.. ليس لو زاد العالم في كل ألف سنة شخصا واحدا لضافت بهم الارض . ثم لو أنه نفس في كل ألف سنة شخص واحد لم يبق منهم أحد ، فصح عند كل ذي عقل راجح أن الاشخاص لم تتلاصص ولم تتزايد ، بل تظهر بظاهرات مختلفة الصور على مقدار اكتسابها من خير وشر [٢] . ومن هنا كان اعتقاد الدروز الآن بالتناسخ ، فالذى يموت من البشر تنتقل روحه إلى جسد يولد جديدا ، ويكون عدد الموتى مساوبا لعدد المواليد حتى يظل عدد سكان العالم دون زيادة أو نقصان [٣] . وبناء على اعتقادهم هذا بالتقensus ، فإنهم يؤمنون أن العذاب الواقع للإنسان يكون بنقلته من درجة عاليه إلى درجة دونها من درجات الدين وقلة معيشته وعمى قلبه في دينه ودنياه ، ويستمر تنقله من جسد إلى جسد بتناصخ روحه في الأجساد وهو كلما تنتقل روحه من جسد إلى جسد تقل منزلته الدينية . أما اللئام عندهم فيكون بتنقله بين الأجساد وارتفاعه في العلوم الدينية من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ درجة حد "المكاسب" وهو حد من حدود الدين فيزيد في مالها التي أن يبلغ إلى ارقي حد من حدود الدين [٤] . .

ويحلول الدروز أن يخطوا من آيات القرآن الكريم التي تدل على البعث والنشور ، دليلاً على اعتقادهم بالتقensus ، فهذا أحد كتاباتهم المعاصرین الاستاذ فؤاد الاطرش يأتي بهذه آيات

[١] طائفة الدروز / ص ١٠٩

[٢] رسالة "من دون دائم الزمان والهادي إلى طاعة الرحمن" عن الحركات الباطلية ، ص ٢٤٠

[٣] طائفة الدروز ص ١٢٥ ، ١١٢

[٤] طائفة الدروز / ص ١٠٩

يزعم انها تدل على التناسخ والتقمص ، ومن هذه الآيات قول الله تعالى ، " كلما نضجت جلودهم ، بدلناهم جلودا غيرها " [١] ، " كيف تكفرون (بنعمة) الله ، وكنتم اموانا فاحبواكم ثم يمكتم ثم يحببكم ثم الميت من الحي ، ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخزجون " [٢] . ويزعم الاطرش بعد مجتبه بالآيات بقوله : ان تسبيه النفس بالارض اثبات مادى على التقمص لا يقبل الجدل ، فلتنتمل في ادوار الارض ومواسمها وموتها ثم حياتها . ويعلق الدكتور محمد احمد الخطيب على هذا بان الاستدلال بشيء لا يعني ابدا صحة هذا الاستدلال [٣] . والحقيقة أن مذهب التناسخ كان معروفا في الديانة اليونانية والديانة الهندوسية ، كما عرف ايضا أن اليونانيين القدماء تحدث عنهم الفلاسفة وقسموه بين نسخ وفسخ ومسخ ورسخ [٤] الا ان هذا المذهب دخل على الاسلام ، بحكم الاسلام انه عقيدة باطلة تؤدي الى الكفر ، لأن الاخبار اليقينية التي جاءت عن طريق القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم بينت بطلان هذا الاعتقاد ، وأن الانسان بعد موته يسأل في القبر . فقد ثبت في السنة سؤال الملائكة بعد الموت ، وفي القبر ، وهذا يدل بوضوح على بطلان ما يتوهم به البعض من أن الروح تظل متعلقة بين الأجسام ، كلما انتسخ وجود واحدة منها في جسدها التي هي فيه وانتقلت منه الى جسد آخر ، وهذا نواليك [٥] .

والامير شبيب ارسلان يحاول أن ينفي عن الدروز اعتقادهم بتلمس الأرواح في مقاله السبق ذكره فيقول متحدثا عن الدروز انهم يحفظون القرآن الكريم ويلقنون ملتقهم الميت ، وإذا جاءك منكرا ونكيرا وسائلك ، ما دينك ، ومن نبيك ، وما كتابك ، ومن اخوانك ، وما قبلتك ؟ فقل لهم الاسلام ديني ، و Mohammad صلى الله عليه وسلمنبيي ، و القرآن كتابي ، والكعبة قبلتي ، والمسلمون اخوتي .
يروى الامير هذا ليؤكد ايمان الدروز بسؤال الملائكة ، بعد الموت وهو الامر الثابت في

[١] سورة النساء ، آية ٥٦

[٢] سورة البقرة ، آية ٢٨ ، وقدوردت الآية هكذا بالكتاب والصحيف " كيف تكفرون بالله ... "

[٣] سورة الروم ، آية ١٩

[٤] الحركات الباطنية ، ص ٢٤٣

[٥] طائفة الدروز ، ص ١٠٩

[٦] الحركات الباطنية ، ص ٢٤٤

القرآن والسنة مما يدل على أن الروح مشغولة بصحابها محبوسة له أو عليه .

غير أن الثابت من كتاب الدروز بعد حمزة بن علي ، ومما كتب عنهم من علماء متخصصين اطلعوا على رسائلهم وكتبهم القديمة والمعاصرة ، يؤكّد إيمان الدروز بالتمكّن على النحو الذي بينا . ويؤيّد هذا ما كتبه الدكتور سامي مكارم - والذي ينطق باسم مشيخة عقل الدروز - في كتابه (أضواء على مسلك التوحيد) حيث يقول " إن الذين تقبلوا الدعوة وتعرضوا إلى الحقيقة في الماضي لا يزالون يوكلون من تقبل الدعوة . كذلك فإن التمكّن في معتقد التوحيد ليس تطوراً للروح في هذا الدور ، بل هو تقلب الروح في شتى الأحوال ، لكي يتّسنى لها أن تختبر هذه الأحوال " [١] .

فمن لم يتقبل نداء الحق ، حسب معتقد التوحيد ، لا يمكنه إلا أن يحصل نتيجة أعماله في حياته التالية ، وكذلك الحال بالنسبة لمن تقبل هذه النداء وتعرف إلى الحقيقة [٢] .

وفي موضع آخر من كتابه يرد على الاستاذ النجار الذي كذب في كتابه (مذهب الدروز والتوحيد) ، أن يذكر انسان ما جرى في حياته السابقة وهو ما يُعرف عند الدروز (بالنطق) فيقول في معرض رده : " ويمكننا القول أن منطق عملية التمكّن لا يتعارض مع تذكر الماضي ، خاصة عندما تدرك أن نزعات الفكر اللطيفة ، حسب عقيدة التوحيد ، تتّطوى عند الموت ، في أعمق النفس المتنقلة من جسد إلى جسد . وهذه النزعات والافتكار اللطيفة ، كثيرون إنطلاقاً الحياة التالية ، هي التي تحدد وضع التمكّن المُقبل ، فلا بد لبعض الذهن لذا . صادفت بعض الحالات المناسبة ، أن تذكر الماضي المباشر الذي كانت تعيش فيه " [٣] .

كل هذا لا يدع مجالاً للشك في اعتقاد الدروز الآن بالتناسخ أو التمكّن على ما يشتمل عليه ذلك من مخالفة للأدلة الشرعية الصريحة من القرآن الكريم والسنة .

ومن الآيات القرآنية التي تبطل هذا المعتقد ، قول الله تعالى مخبراً عن حياة البرزخ : " فلو لا إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تظرون ، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ، فلو لا إن كنتم غير مدینين ترجعونها أن كنتم صادقين ، فاما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضاللين فنزل من حميم وتصليه جحيم " [٤] .

[١] [٢] [٣] أضواء على مسلك التوحيد / سامي مكارم من ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٧ .

[٤] سورة الواقعة ، آية ٣٨ . الحر كات الباطنية من ٢٤٤

وَقَالَ تَعَالَى " وَاعْبُدْ رِبَكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ " وَالْيَقِينُ مَا يَبْعَدُ الْمَوْتَ ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَمَا عَثْمَانَ بْنَ مَظْعُونَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ [١] " . وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِّيفَتِينَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَا أَنْتَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الْقَلْبِ نَادَاهُمْ : " يَا قَلَّانَ ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدْ رَبَّكُمْ حَقًا ، فَقَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدْنِي رَبِّي حَقًا " وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى وَجُودِهِمْ وَسَمَاعِهِمْ ، وَأَئْنَمُ وَجَدُوا مَا وَعْدُوهُ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنَ الْعَذَابِ [٢] . وَقَدْ أَخْبَرَنَا تَعَالَى بِإِنَّهُمْ إِلَّا بَشَّارٌ لِمَنْ يَرَوْنَ فِيهَا إِرْوَاحًا سَتَّهُدُ عَلَيْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا أَعْلَمْتُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : " وَيَوْمَ يَحْسَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهُ شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ سَمَعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْنَا عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقُكُمْ أُولَئِكُمْ مَرَةٌ وَاللَّهُ تَرْجُمُونَ ، وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُّونَ لَنْ يَشَهِدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكُمْ ظَنْنُتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كُثُرًا مَا تَعْمَلُونَ " [٣] .

مَا نَقْدَمُ مِنَ الْأَدَلَّةِ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْأَيَّاتِ وَالْأَحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى بَطْلَانِ التَّنَاسُخِ . وَمَنْ تَعْرِضُوا لِمَسَأَلَةِ التَّنَاسُخِ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلْفِ إِنْ حَزَمَ الظَّاهِرِيَّ رَحْمَهُ اللَّهُ ، الَّذِي يَقُولُ عَنْ عِقِيدَةِ التَّنَاسُخِ أَنَّهُ اعْتَقَادٌ لَا يَقُومُ عَلَى بَرْهَانٍ حَسِيٍّ أَوْ عَقْلِيٍّ ، وَقَدْ قَامَتِ الْأَدَلَّةُ عَلَى حَدُوثِ الْعَالَمِ ، وَمَا كَانَ حَادِثٌ فَلَا يَبْدِلُهُ مِنْ نَهَايَةٍ [٤] . وَيَنْقُلُ إِنْ حَزَمُ عَنِ الْفَائِلِيْنَ بِالتَّنَاسُخِ قَوْلَهُ : " إِلَى أَنَّ التَّنَاسُخَ هُوَ عَلَى سَبِيلِ الْجَزَاءِ ، ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَدْلٌ حَكِيمٌ رَحِيمٌ كَرِيمٌ بِإِنَّهَا هُوَ كُلُّكُمْ فَمُحَالٌ أَنْ يَعْذَبَ مِنْ لَا ذَنْبٌ لَهُمْ بِالْجَدْرِيِّ وَالْقَرْوَحِ ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ إِلَّا وَقَدْ كَانَتِ الْأَرْوَاحُ عَصَمَةً مُسْتَحْقَةً لِلْعَذَابِ بِكَسْبِهِ هَذِهِ الْأَجْسَادِ لِتَعْذَبَ فِيهَا " [٥] .

وَيَشَبَّهُ هَذَا اعْتِقَادُ الدَّرُوزِ أَنَّ مَنْ ذُوِّيَ الْعَاهَاتِ وَالْمُصَابِيْنَ كَالْأَعْمَى وَالْأَعْرَجِ وَالْفَقِيرِ وَالْجَاهِلِ ، كَانَ مَصَابِهِمْ هُوَ قَصَاصٌ مِنْ ذُنُوبِهِمْ فِي مَدَّةِ حَيَاتِهِمُ الْسَّلِيْقَةِ [٦] .

[١] سورة الحجرات آية ٩٩ - الحركات الباطنية من ٢٤٥

[٢] رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد (عن الحركات الباطنية من ٢٤٥)

[٣] سورة نحل آية ٢٢-١٩ (عن الحركات الباطنية من ٢٤٥)

[٤] المرجع السالق من ٢٤٦

[٥] المرجع السالق من ٢٤٦

[٦] الدروز والثورة السورية / كريم ثابت س ٤٨

ويرد ابن حزم هذا الزعم بقوله : "ويكفي بطلان هذا الأصل الفاسد أن يقال له أن الحكيم العدل الرحيم على أصلكم لا يخلق من يعرضه للمعصية حتى يحتاج إلى إفساده بالعذاب بعد إصلاحه ولقد كان قادراً على أن يظهر كل نفس خلقها ولا يعرضها للفتن ويلطف بها إلطفاً فيصلحها بها حتى تستحق كلها إحسانه والخلود في النعيم ، وما كان ذلك ينقص شيئاً من ملكه " [١] .

وبناءً على هذا فإن اعتقاد التناسخ باطل من الوجه الشرعي العقلية ، والأصل في الشريعة أن كل قول لم يأت عن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم فهو كذب وفروي ، ومفاده لم يأت عن أحد من الأنبياء عليهم السلام القول بكل هذه المزاعم فقد أصبح قول الدروز فيها باطلاً.

تأويل آى القرآن الكريم

التأويل هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به ، فإذا لم يكن اللفظ محتملاً للمعنى الذي حمل عليه ولم يبين المتأول الدليل الذي حمله على ذلك كان تأليلاً فاسداً بل تلاغياً بالنصوص [٢] .

وقد اتّخذ الغلة في الإسلام التأويل وسيلة لجعل عقائدهم شرعية وصحيحة ، فكان التأويل أداة لإيهام الناس أن رأيهم ستفقة مع نصوص القرآن الكريم . وبجمع أهل السنة على تسمية هؤلاء الغلة بالباطنية لأنهم جعلوا للقرآن ظاهراً وباطناً ، أما الظاهر فهو دلالات ألفاظه العربية حقيقة أو مجازاً ، وأما الباطن فهو ما وراء هذا الظاهر أو هذه الدلالات .

وهكذا أتّخذ الغلة من الباطنية يحرفون اللفظ القرآني عن معناه الذي سيق له إلى معانٍ تتفق مع عقidiتهم وتتسجم مع أهوائهم ، حتى صارت تلك الفرق الباطنية تجري في التحوير للمعنى الظاهري المسير الوحيد لنفهم القرآن ، وبين تلك التفسير الصحيح ، بل صارت لحكام القرآن في رأى تبع تلك الفرق غير واجبة الإتباع .

[١] الحركات الباطنية من ٢٤٦

[٢] التفسير والمفسرون / د. الذهبي عن الفرق والمذاهب من ٤٧

يقول الإمام أبو حامد الغزالى ، فى كتابه فضائح الباطنية ، «فَبِمَا لَقُبْوَا بِهَا (أى الباطنية) لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواسطه ، تجربى فى الظواهر مجرى الله من التصور ، وأنها (أى الظواهر) بصورها ، توهم عند الجهل الأغبياء صوراً» جلية ، وهى عند الأذكياء العقلاء رموز وإشارات إلى حقائق معينة ، وبين من تقاعد عقله عن الفحص على الخطايا والأسرار ، وللبواسطه والأغوار ، وقمع بظاهرها ، مسارعاً إلى الإغترار كان تحت الأوصىر والأغلال ، معنى (أى متقدلاً) بالأوزار والانتقال ولرادوا بالأغلال : التكليفات الشرعية ، فإن من ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف ، واستراح من أعباته ، وهم المرادون بقول الله تعالى : ((ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم)) أى يضع الله التكاليف عن الذين علموا الباطن^[١] . والباطنيون بتاویلهم أى القرآن الكريم تأویلاً باطنياً ينهجون نهج اليهود الذين وضعوا كتاباً للتأویل الخفى للتوراء وأهم مسائله زبة التعليم وإمكان فك رموز التوراة ، وكذلك رمزية الأعداد والحراف ، وسموا كتابهم هذا (القبالة) وإليه تنسب طائفة (القبالية) عند اليهود^[٢] . وكان تاویل ابن سينا لقوله تعالى ((إن للذى فرض عليك القرآن لرائك إلى معناد)) و قوله : إنى لأعجب من يقول برجمة عيسى ولا يقول برجمة محمد (ص) ، أول تاویل لمعنى القرآن الكريم ، فوضع بذلك هذا المذهب الباطنى بما فيه من قول بالرجعة ، والذى نشا عليه مذهب التتساخ وقالت به حركات الغلو الأخرى^[٣] .

طائفة الدروز كثيرها من الفرق الباطنية تزول أى القرآن الكريم تأویلاً يتفق مع عقائدهم وإن خالف تاویلهم ظاهر النص وإجماع المفسرين . وقد مر بنا كيف أدى أحد كتابهم المعاصرين وهو الأستاذ فؤاد الأطرش بعدة آيات وزعم أنها تدل على التتساخ والتقمص لا على البعث والنشور كما أجمع المفسرون ومنها قول الله تعالى ((كلما نضجت جلودهم بذنابهم جلوداً غيرها))^[٤] ، و قوله عز وجل ((يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرون))^[٥] .

[١] عن الشيعة - المهدى الدروزى / د. عبد المنعم النمر ، من ١٢١

[٢] دراسات في الفرق والمذاهب من ٤٨ عن المعجم الفلسفى / د. جميل صليبا ج ٢

[٣] الحركات الباطنية من ٣٢

[٤] سورة النساء آية ٥٦

[٥] سورة الروم آية ١٩

ويزعم الأطروش بعد مجئه بالأيات بقوله: إن تشبيه النفس بالأرض إثبات مادى على التمثيل لا يقبل الجدل ، فلتتأمل في أدوار الأرض ومواسمها وموتها وحياتها [١] .

ومن النماذج البارزة لتلاؤيل الدروز لآيات القرآن الكريم إثباتاً لمعتقداتهم ما ذكره حمزة في رسالته (الموسومة بكتف الحقائق) ، وفيها يفسر آيات من سورة الحاقة لإثبات صحة ما ذهب إليه في حدود الدين فيقول : "قهزاد الحدود السبعون الذين ذكرناهم ، هم أثر العسلة الذي قال في القرآن [٢] : "خذوه فغلوه" ، أي ضد الإمام إذا بلغ غلنته وتنت نظرته ، خذوه بالحجج العقلية وغلوه بالعهد وهو الذبح الذي قالوا بأن القائم يذبح إيليس الأراسة ، ثم للجحيم صلوة" ، أي عوامض علوم قائم الزمان الذي يتحتم للعلماء والفهماء عند علمه ، أي يسمعوا ويختبروا ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه" أي مثاق قائم الزمان الذي هو سلسلة بعضها في بعض ، وهم سبعون رجلاً في دعوة التوحيد .

" وبعد هذا التفسير العجيب للغريب لآيات الله نجد حمزة في هذه الرسالة يعيّب على المسلمين الذين يفسرون هذه الآيات بأنها تهديد لأهل النار ويقول: "قهذه السلسلة الحقيقة ومعانيها ، لا كما ذكره الجهاز الحشوية ، فإن قالوا : بل الله أراد بالسلسلة تهديد أهل النار والتغريم عليهم فقد بطلت حجتهم هاهنا لأنه قال سبعون ذراعاً ، ولو كان بسبب التعظيم لكن يجب أن يكون ألف ذراع ، فلما لم يذكر غير سبعين ذراعاً ، أعلمنا أنه أراد بذلك اشخاصاً معروفة ببنية توحيدية لا يجوز لأحد أن يتتجاوز حدده ولا يزيد ولا ينقص" [٣] .

وتلاؤيل حمزة هذا لآيات سورة الحاقة يحاول به إثبات مبدأ أساسى في العقيدة الدرزية ، وهو أن معبدتهم ظهر من نوره حدوداً خمسة ، ظهروا مع هذا المعبد في جميع ظهوراته ، ورد ترتيبهم في رسالة معرفة الإمام إلى :

أولاً : العقل الكلى وهو الحد الأول الذي أبدعه المعبد من نوره ، ويطلقون عليه أيضاً ذوعمه ، وعلة العلل والأمر قائم الزمان ، والإرادة ، والأمام الأعظم ، وهادى المستحبين وهو حمزة بن علي بن احمد .

[١] الحركات الباطنية من ٤٤

[٢] يقول الدكتور محمد أحمد الخطيب : "هذه عادة حمزة ودعاته حينما يستشهدون بالقرآن . لا يذكرون من القائل لأنهم لا يعترفون بأنه من عند الله سبحانه"

[٣] الحركات الباطنية من ٢٥٨

ثانياً : النفس وهو الحد الثاني الذي توجده العقل الكلى ويطلقون عليه أيضاً ذر مصمة ، والمشينة ، وإدريس زمانه ، وأحنون أوانه ، وهرمس الهرامسة ، والحجفة الصافية الرضية ، والشيخ المجتني ، وهو أبو إبراهيم اسماعيل بن محمد بن حامد التميمي ، صهر حمزة بن على .

ثالثاً : الكلمة وهو الحد الثالث ويطلقون عليه أيضاً سفير القدرة ، وفخر الموحدين ، وبشير المؤمنين ، وعماد المستجيبين ، والشيخ الرضي ، وهو أبو عبد الله محمد بن وهب الفرشى .

رابعاً : السائق وهو الحد الرابع ويطلقون عليه الجناح الأيمن ، ونظام المستجيبين ، وعز للموحدين وهو أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السمرى .

خامساً : التالي وهو الحد الخامس والأخير ويطلقون عليه أيضاً : الجناح الأيسر ، ولسان المؤمنين ، وسند الموحدين ، ومعدن العلوم ، والذي يقول بالأفعال الصحيحة المعلومة ، والناصح لكافةخلق أجمعين ، وهو الشيخ المقتنى بهاء الدين أبو الحسن على بن أحمد السموقى المعروف (بالضيف) [١] .

وقد جعل حمزة لمرتبة العقل سبعين حجة (أو درجة) هم حدود الإمامة والتوحيد ، وهم سبعون درجة موزعين ومنظمين حسب الشكل التالي :

١- النفس الكلية وله اثنا عشر حجة في الجزائر ، وسبعة دعاء للأقاليم .

٢- الكلمة وله اثنا عشر حجة وسبعة دعاء .

٣- السائق وله اثنا عشر حجة فقط .

٤- التالي وله اثنا عشر حجة فقط .

٥- الداعي المطلق وله مائون واحد ومكالبان (أو مكالسان) .

وعن هؤلاء الحدود السبعين تفرعت الحدود جميعاً بين دعاء ومائذن ومحاسرين .

وجميع الحدود الحرم منهم (الحرم هم الأربعه الذين يتلون العقل الكلى) وغير الحرم كلهم من قبل العقل الكلى يسقط منهم من يزيد ويرفع درجة من يشاء .

والحدود السبعون هم الذين ذكروا في القرآن الكريم على ما أوله حمزة بن على بالإية الكريمة السابقة ذكرها من سورة الحاقة ((ثم في سلسلة ذر عها سبعون ذرا عا فاسلكوه)) أى ان ميتانق قائم الزمان حمزة بن على الذى هو سلسلة بعضها في بعض وهم سبعون رجلا في دعوة التوحيد فمثل حمزة حدوده بالسلسلة لأن دعوته منتظمة بعضها ببعض [١] .

كما يتلو الدروز ((بسم الله الرحمن الرحيم)) تأويلاً هو نفس تأويل الفاطميين تقريباً ، فقالوا إن ((بسم الله)) سبعة أحرف دليل على سبعة دعاء أصحاب الأقاليم السبعة ، و ((الرحمن الرحيم)) اثنا عشر حرفا دليلا على اثنى عشر دعاء الجزران [٢] .

وهذا التأويل مرتبط بتقسيم الإسماعيلية الأرض إلى عدة جزر ، وكل جزيرة تحتوى عدة أقاليم ، فاللحجة مستنول عن الجزيرة ، والداعية عن الإقليم ، وقد أخذ حمزة ذلك عن الإسماعيليين .

ويعتقد الدروز أن حمزة ظهر في الأنوار الكبرى والأنوار الصغرى بأسماء مختلفة فهو شطين في دور آدم ، وفيثاغورث في دور نوح ، واليعازر في دور عيسى ، وأنه أى حمزة هو المسيح الحقيقي الحى الأبدى . والنظيرية "التوحيدية" المتعلقة بدور عيسى يقول إن "المد" لعيسى هو يسوع ، إذ أن لكل ناطق مبدأ .

ويُسَوِّعُ هو السيد الإمام العظيم ، صاحب البرهان والمعاجز الذي أشارت إليه الرسل . وهو الذى تبعه الحراريون إخوته الأكرمون ، صلى الله عليه وسلم ، فلما صلب عيسى ودفن اجتمع يسوع بتلاميذه ... ((وما قتلوه وما صلبوه . ولكن شباه لهم)) وهذا تردید للأية ١٥٧ من سورة النساء وتمامها ((وإن الذين اختلفوا فيه لفني شاك منه ، مالهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قاتلوا يقينا . بل رفعه الله إليه)) [٣] . وهكذا يتلو الدروز ما ورد في القرآن الكريم عن الأنبياء بتؤوليات خاصة لإثبات عقائدهم .

وإذا تتبعنا تأوليات الدروز لأيات القرآن الكريم لصعب علينا حصرها لكثرتها وغرايتها ، وقد مر بنا تأولاتهم لقول الله تعالى ((فضرب بينهم سور له باب باطنها فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب)) [٤] .

[١] محمد كامل حسين ، طائفة الدروز ، ص ١١٤

[٢] محمد كامل حسين ، طائفة الدروز ، ص ١١٥

[٣] عبد الله النجار ، مذهب الدروز والتوحيد ، ص ١٢٩

[٤] سورة الحديد ، جزء من الآية ١٣

تقول الرسالة ٣٦ ابن الدين "الظاهر من قبله العذاب" والباطن (أى التأويل) فيه الرحمة (أى فيه مذهب التوحيد) ولم يقل هو الرحمة . وفى الشيء ما أودع فيه ، وليس هو الشيء بعينه . فدل بأن الباطل (أى التأويل) يدل على الرحمة (أى التوحيد) [١] . وفسرت الرسالة ٣٨ هذه الآية بقولها : ((السور الشريعة والباب الأساس كما قال الناطق : أنا مدينة العلم وعلى باليها . الباطن (أى التأويل وهو باطن التنزيل) فيه الرحمة (أى "حكمة التوحيد) دليل على أن الرحمة غير الباطن (أى أن "الحكمة" غير التأويل) ... والقائم (أى العقل) صاحب الرحمة" [٢] .

وبهذا يتحول كتاب الله إلى رموز وألغاز لا يمكن أن يفهمها أو يفسرها أحد المؤمنين إلا من خلال تأويلات حمزة بن علي ، فهل يمكن لمثل هذه التأويلات أن تمت إلى الإسلام بصلة ، يقول الله تعالى : ((هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ألم الكتاب وأخر متقابلهات فأما الذين في قلوبهم زيف فيتبعون ما تشابه منه لابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومليعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الأbab ، ربنا لا تزع قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)) [٣] .

فأهل الضلال هم الذين ياخذون من كتاب الله بالمعتسابه الذي يمكنهم أن يعرفوه إلى مقاصدهم وينزلوه عليهم لابتغاء الفتنة لإضلال أتباعهم ليهلاهم لهم أنهم يحتاجون على بدعتهم بالقرآن .

ولقد نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين عندهم الآية الكريمة : ((فاما الذين في قلوبهم زيف فيتبعون ما تشابه منه)) - يعني آيات القرآن الكريم - ((ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)) ... إلخ ، فيما رواه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنه قال : "فإذا رأيت الذين يجادلون فيه ، فهم الذين عنى الله فاحذروهم" وهي روایة البخاري [٤] ، فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فلو انك الذين سمي الله فاحذروهم [٥] .

[١] عبد الله النجار ، مذهب البروز والتوحيد ، من ٤٠

[٢] المرجع السابق

[٣] سورة آل عمران آية ٨ ، ٧

[٤] صحيح البخاري ج ٨ ص ٢٤٣ كتاب التصوير

[٥] تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤ - ٦

فإِلَّا سُهْلٌ وَاضْعَفْ لاغْمُوضْ فِيهِ وَلَا تَعْقِيدْ وَلَارْمُوزْ ، وَقَدْ احْتَجَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى
الْعَرَبِ ، بَأْنَ الْقُرْآنَ عَرَبِيًّا ، وَمَفْهُومُ لَهُمْ ((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِعَلَمْ تَعْقِلُونَ)) . فِي أَوَّلِ
سُورَةِ يُوسُفَ وَ((إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِعَلَمْ تَعْقِلُونَ)) . فِي أَوَّلِ الزَّخْرُوفِ كَمَا أَفَادَ ذَلِكَ فِي
عَدَةِ مَوَاضِعٍ ، وَاحْتَاجَ عَلَى الْعَرَبِ بَأْنَهُ عَرَبِيًّا مَفْهُومٌ لِلْجَمِيعِ ، وَلَيْسَ بِأَعْجَمِيِّ .
وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَرَكَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُحْجَةِ الْوَاسِعَةِ ، لِيُنَهَا
كَهَارَاهَا ، فَكُلُّ مَنْ حَادَ عَنْ هَذِهِ السَّبِيلِ ، فَبَيْنَمَا أَعْرَضَ عَنِ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَتَفَرَّقَتْ بِهِ
السَّبِيلُ ، حَتَّى خَرَجَ بِعِصْبِهِمْ عَنِ طَرِيقِ الْإِسْلَامِ .

وَنَصْوصُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَقْهِمُ طَبِيقًا لِتَوَاعِدِ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ غَيْرِ تَعْسِفَ وَلَا تَكْلِفَ وَوْقَفَ
مَا فِيهَا صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلِنَقُولُ هُؤُلَاءِ أَوْ غَيْرُهُمْ : إِنَّ هَذِهِ
الْمَعْانِي الظَّاهِرَةُ إِنَّمَا هِيَ لِلْعَوْمَ الْجَهْلَةِ مِنْ أَهْلِ السَّنَةِ ، فَهُمْ لَا يَقْصِدُونَ إِلَّا التَّهَرُّبُ مِنِ
الْاِحْكَامِ لِلْقُرْآنِ .

وَقَدْ رَدَ بَعْضُ الْمُؤْرِخِينَ فَكِرَةَ التَّأْوِيلِ الْبَاطِنِيِّ لِلْقُرْآنِ الَّذِي لَا يَطْعَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا الإِمامُ ،
إِلَى أَصْلِهَا الْمَجْوِسِيُّ الْفَارِسِيُّ لَأَنَّ الْفَرَسَ اعْتَقَدُوا أَنَّ مَلَوِّكَهُمْ مُنْهَدِرِينَ مِنْ أَصْلَابِ الْآلهَةِ
وَأَنَّ الشَّاهِنَشَاهَ إِنَّمَا هُوَ تَجْسِيدُ الْآلهَةِ ، فَلَيَبْتَدِعَ الْغَلَةُ فَكِرَةُ التَّأْوِيلِ وَجَعَلُوهَا خَاصَّةً بِالْإِمَامِ الَّذِي
تَجَبُ طَاعَتَهُ وَبِالْوَحْيِ مِنْ بَعْدِهِ وَلَوْ كَانَ فَارِسِيَا بِهِدْفِ تَقْرِيبِ الْإِسْلَامِ مِنِ الْمَجْوِسِيَّةِ [١] .

الدرزية كمذهب ينتمي إلى الإسلام

الأمير شكيب لرسلان ثبّت أن فرقة الدروز فرقة إسلامية - كما مر بنا - في كل شيء وهى أشبه بالفرق الصوفية التي لها تعاليمها الخاصة ولها تأويلاً لها الخاصة . والدروز يعتقدون أنهم في طبيعة المسلمين الأولين ، يقول عبد الله النجار : "إن هذا المذهب متفرع من الإسلام ، والإسلام من حيث انحصره في القرآن ، وعدم خروجه عنه ، هو مدار المذهب الذي يفسر آياته على طريقته الخاصة . فهو ليس ديانة ، وكتبه تسمى الحكمة ، مما يدل على مصدرها الفلسفى . الحال بالفقد والتفسير والتحليل والدحض والإثبات والتلويل" [١] . ويؤكد الأستاذ عبد الله النجار أن الدروز مسلمون لأنهم يتمسكون (بتلورجy) الذي هو صلب الإسلام ، وهو أيضاً صلب جميع فرقه ، أما الاختلافات فى أشكال العبادة ، وفى قيمها وتفسيرها ، وألوان ممارستها فهذا لا يخرج الفرقة من الدين ، لأن الانتقال من دين إلى آخر لا يكون إلا بالانتقال من اعتقاد إلى اعتقاد آخر في جوهر المعبود كالانتقال عن عبادة الأصنام ، إلى عبادة آلهة عديدة إلى إله مركب ، إلى إله واحد ، وهو التوحيد [٢] . والباحث المدقق يظهر له بجلاء أن الدروز وإن قالوا أن عقيدتهم تقوم على التوحيد ، فإنما يعنون توحيداً خاصاً بمذهبهم ، وإن قالوا أنهم يتوجهون إلى إله واحد فأنهم يعنون رباً آخرًا غير رب العالمين الذي يتوجه نحوه المسلمون بالتَّوحيد . أما قولهم أن مذهبهم منحصر في القرآن ، وعدم الخروج عليه والمذهب يفسر آيات القرآن تفسيراً باطنياً خاصاً ، فقد رأينا كيف يذهب هذا التفسير الباطني بالمعنى بعيداً عما يؤمن به غالبية المسلمين . ولكن مadam الدروز حريصين على الإنتماء إلى الإسلام فقد يكون مطلوب منهم أن يوضحوا موقفهم من شريعة الإسلام وأركانه ، ولما كان القرآن - الذي يعتبرونه مدار مذهبهم - قد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو رسول الله ، فقد يكون مطلوب منهم أيضاً أن يوضحوا صلة مذهبهم بالرسول الكريم .

وعلى الصفحات التالية نتعرض للبحث عن موقف الدروز من أركان الإسلام وكتبهم المقدسة ، وموقفهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من خلال ما كتبه الدروز وما كتب عنهم قديماً وحديثاً ، وذلك لبيان مقدار ارتباط المذهب بالإسلام .

موقف الدروز من أركان الإسلام

لقد فرض حمزة على أتباعه سبع فرائض توحيدية ، تُغنى عن الصلاة والصوم والزكاة والحج و الجهاد . يقول حمزة في أحد رسالته : "... إن مولانا جل ذكره قد أسقط عنهم السبع دعائم التكليفية الناموسية ، وفرض عليهم سبع خصال توحيدية بعينها [١] أولها : وأعظمها سدق [٢] اللسان .

وثانيها : حفظ الإخوان .

وثالثها : ترك عبادة العدم والبهتان .

ورابعها : البراءة من الأ Biasة والطغيان .

وخامسها : توحيد المولى جل ذكره في كل عصر وزمان .

وسادسها : الرضى بفعله كيفما كان .

وسابعها : التسليم لأمره في السر والحدثان " [٣] .

وهذه الفرائض السبع التي فرضها حمزة هي عوض عن لarkan الإسلام الخمسة بالإضافة إلى إلى الجهاد والولاية [٤] .

وفي رسالة لحمزة بعنوان (الكتاب المعروف بالتفخيم) يحاول فيها حمزة أن أعمال الحاكم قد بينت وأنظهرت نسخ الشريعة وأركان الإسلام ، وفيها يحاول أن يهدم الشهادتين وهما أول أركان الإسلام (لا إله إلا الله محمد رسول الله) حيث يبين أن الجملتين دليل على السالق والتالي ، ثم يزعم أن هذا الركن ليس كما يفهمه المسلمون ويؤمنون به [٥] .

وبلخص الدكتور محمد أحمد الخطيب ما ورد في رسالة حمزة بما يلى :

١- الشهادتان بدلان على عبادة الحاكم ، وعلى حدود الدروز ولاتدلان على ما يقصده أهل السنة ، ولا الإمامية .

٢- وأن الصلاة هي صلة القلوب بعبادة الحاكم .

[١] الحركات الباطنية من ٢٧٦

[٢] الدروز لا ينطقون كلمة الصدق بالصاد لحساب الجمل ...

[٣] مذهب الدروز والتوحيد من ١٤٨

[٤] هي من فرائض الشيعة ويقصدون بها ولاية الإمام

[٥] الحركات الباطنية من ٢٧٨

- ٣- وأما الزكاه فهي عبادة الحاكم ، وتركية النفس .
- ٤- والصوم صيانة قلوبهم بتوحيد مولاهم .
- ٥- والحج هو توحيد الحاكم .
- ٦- والجهاد هو السعي في توحيد الحاكم ومعرفته [١] .

ويؤكد الأستاذ عبد الله التجار (إن مذهب التوحيد يوصى بممارسة الفرائض القرآنية) .
وابناتا لقوله يقتطف من الرسالة ١٥ مابلي : «ليس كل من عرف باطن شئ وجب عليه ترك ظاهره وفي الاشياء ما لا يحب ترك ظاهره . ولو علم تأويله على مسبعين وجها . منها الطهارة وباطنها البراءة من الابالسة ، وطهارة القلوب من محبتهم . فلا يجوز لأحد ، ولا يستحسن العقل إذا عرف باطن الطهارة ، لأن يدخل الخلاء ويخرج ولا يغسل ، ويقول أنه قد عرف . فإذا ترك ظاهرها يتوضأ ، ويقع عليه اسم النجاسة ، بل يجب على من عرف الباطن أن يزيد في طهره ونظافة بدنـه [٢] . كما يؤكد الأستاذ عبد الله التجار أن حمزة كلن يوصى اتباعه بالتجاوب مع أهل السنة في اقامة الفرائض الدينية فينقل عن الرسالة ٣١ قول حمزة : "... واجمع شمل الموحدين ، وكن لهم في نفاسهم ، وأعراسهم ، وجنـارـهم ، على السنة ". كما ينقل عنه قوله في الرسالة ٣٣ ((صونوا الحكمة عن غير أهلها ... واستروا بالمالوف عند أهله .. فلائمـتـمـ تروـنـهـمـ منـ حيثـ لاـ يـرـونـكـ ... إلـخـ ". كل هذه الشواهد يسوقها الأستاذ التجار ليرد بها على مكري المذهب ، وفي معرض دفاعه عن تأويلات الدروز للقرآن الكريم يستشهد بكلام الإمام الشيخ محمد عده : "إذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما دل عليه العقل ، وبقى في النقل طريقـانـ : طريقـ التسلـيمـ بصحةـ المنقولـ معـ الإعـترـافـ بـالـعـجزـ عـنـ فـهـمـهـ ، وـتـقوـيـضـ الـأـمـزـ لـلـهـ فـيـ عـلـمـهـ . وـالـطـرـيقـ الثـانـيـ تـأـوـيلـ النـقـلـ ، معـ الـمـحـافـظـةـ عـلـىـ قـوـلـيـنـ اللـغـةـ ، حتـىـ يـتـقـنـ معـنـاهـ مـعـ مـاـيـثـيـهـ العـقـلـ ... وـإـذـ صـدـرـ قولـ يـحـتـمـ الـكـفـرـ مـنـ مـائـةـ وـجـهـ ، وـيـحـتـمـ الإـيمـانـ مـنـ وـجـهـ وـاحـدـ حـمـلـ عـلـىـ الإـيمـانـ ، وـلـاـ يـجـوزـ حـمـلـهـ عـلـىـ الـكـفـرـ". ثم يغلق على هذا النص قوله إن في هذا القول المبين إيماء إلى رحابة الإسلام وتسامحه ، الذين انطلقت منها التأويلات الباطنية ، ونظريات غلاة الصوفية وتعددت المذاهب الإسلامية ، ومنها مذهب الموحدين [٢] .

[١] الحركـاتـ الـبـاطـنـيـةـ صـ ٢٨٠

[٢] مذهب الدروز والتوجه صـ ١٤٨ ، ١٥٠

وعلى الرغم مما ذكره الأستاذ النجار من وصايا حمزة لأنباعه باقامة الشريعة مع أهلها ، (واللطف بهم) ، على سبيل التقية ، إلا أن الدكتور مصطفى الشكعة يذكر في كتابه إسلام بلا مذاهب أنه لما قامت الفتنة الكبرى في لبنان بين الدروز والموارنة سنة ١٨٦١م ، بدأت آخر دلالة شعائرية بالإفراط ، وتعنى بها شعائر الصلاة في المساجد للكثيرة التي كانت منتشرة في القرى الدرزية ، ولجا الدروز ، بعد ذلك إلى الخلوات يقرؤن بها رسائلهم وتركتوا المساجد نهائياً [١] . وقد اعترف شيخ عقل الدروز الشيخ محمد أبو شقرا أخيراً في حديث شخصي للدكتور مصطفى الشكعة بأن صلاة الدروز تختلف عن صلاة جمهور المسلمين ، فالفرض وإن كانت خمسة ، إلا أن عدد الركعات في كل صلاة يختلف عن عدد الركعات المعروفة ، وربما طريقة الصلاة نفسها. هذا والوضوء ليس ضروريًا مادام المصلى نظيفاً... .

ويستمر الشيخ في حديثه للدكتور مصطفى فيقرر : "الصوم معناه الامتناع عن الرفت . ويجوز فيه الأكل والشرب ، وهو عشرة أيام من ذى الحجة ، تنتهي بالعيد !! ، والزكاء معلطة ولاحدود لها . وهي لست فريضة والحج لا يعتبر فرضاً ، ولا يؤمنون بعناسك الحج بل ويسيرونها ، ويرون فيها مظاهر وثنية . مصدر التشريع عندهم القرآن وحده ليس غير !! وأحياناً بعض الإجهادات . أما الحديث فمعطل ولا يؤمنون بعناسك ولا يأخذ به !! ولا يجوز زواج الدرزية من غير الدرزي ، ولا زواج الدرزي من غير الدرزية ، وإلا كان باطلاً ، ولا يجوز تعدد الزوجات" [٢] .

وهكذا فإن شريعة الدروز قدماً وحديثاً تتلخص في إسقاط الفرائض الدينية التكاليفية وعدم إقامة الفرائض الإسلامية ، والإعتراف بالخusal التوحيدية فمن إعترف بها فهو من "الموحدين".

موقف الدروز من رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم
 يقول الأمير شبيب أن الدروز يلتقطون موتاهم أن نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم ،
 فما مكانة محمد صلى الله عليه وسلم في العقيدة الدرزية ؟ ، وهل هي نفس المكانة التي
 يرفعه إليها سائر المسلمين ؟ .

[١] مصطفى الشكعة ، إسلام بلا مذاهب . ص ٢٠٨

[٢] تشيعية - المهدىي الدروز / د. عبد المنعم النمر ص ٢٥٦

في كتاب (إسلام بلا مذاهب) ومن خلال جوهر مع الزعيم السياسي الدرزي كمال جنبلاط ، ذكر الدكتور مصطفى الشكعة على لسان الزعيم الدرزي قوله: "محمد له مكانة محددة" وهو ليس إلا واسطة الرسالة [١] . وكلام جنبلاط عن "محمد" صلى الله عليه وسلم ومكانته المحددة في شريعتهم ، يعني تأثره بما جاء في احدى رسائل حمزة التي ينتقص فيها من رسالة "محمد" ، ويثبت لنفسه رسالة تفوقها فيقول: "ولنتم تعلمون أنَّ محمدَ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعَعَانَةَ سَنَةَ وَعَشْرَ سَنَنَ (لَا كَانَ حَمْزَةً مُوجُودًا) ، لَمْ يَظْهُرْ دِينُهُ عَلَى الْأَدِيَانِ كُلَّهَا ، وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَكْثَرُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْهَنْدُ وَالسَّنَدُ وَالزَّنجُ أَكْثَرُهُمْ مِنْهُمْ" . فلو كان الرسول محمد له أديان هؤلاء (النطقاء) لكان يجب أن يكون المسلمين أكثر العالمين وأغلبهم في الأولين والآخرين ، فلم يصح لل المسلمين ذلك علمنا بأن الرسول الحقيقي ، هو عبد مولانا جل ذكره ، وهاديا إليه ، وإماما على أمره تعبيده" [٢] .

والملاحظ أن حمزة يشير إلى الأنبياء بكلمة (النطقاء) وهو مصطلح شيعي ، فالناطقون به كل نبي والأساس الوصي . أما عند الدروز فالناطق والأساس هما إيليس والشيطان ، قال الأول - أى إيليس - ظهر في جسم آدم ثم انتقل إلى نوح ، ثم إلى إبراهيم ، ثم إلى موسى ، ثم إلى عيسى ، ثم إلى محمد ، ثم إلى سعيد ! وأما الثاني - الشيطان - فظهر أولا في جسم شيت بن آدم ثم في سام ، ثم في اسماعيل ، ثم في يسوع بن نون بعدها هارون ، ثم شمعون الصفا ، ثم في على بن أبي طالب ، ثم في قدادح" [٣] .

ويعتقد الدروز أيضا ، أن القرآن قد أوحى حقيقة إلى سلمان الفارسي - أى حمزة بن علي ، لأنهم يعتقدون أن حمزة ظهر بالتتابع بعد ظهورات منها بصورة سلمان الفارسي - وأنه كلامه ، وأنه محدداً أخذه وتلقاه عنه ، ثم هم يزعمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم طمس الرسالة ولم يبلغها ، حتى زعموا أن خطاب لقمان الذي خطبه به ولده : "يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر" [٤] هو خطاب سلمان لمحمد صلى الله عليه وسلم . [٥]

[١] إسلام بلا مذاهب ص ٢٨٨

[٢] الشيعة - المهدى الدروز / د. عبد المنعم التمر ص ٢٥٩

[٣] الحركات الباطنية ص ٣٠٢

[٤] سورة لقمان آية ١٧

[٥] الحركات الباطنية ص ٣٠٣

وبعد هذا التصوير الذى لا يرضاه أى مسلم ، مهما كان انتقامه المذهبى للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، نجد الدروز يتجاوزون ذلك إلى صحبة الرسول أيضاً فيطلقون عليهم أشنع الأوصاف القبيحة والشتائم ، فيصفون أبا بكر وعمر بأنهما الفحشاء والمنكر ويذللون الآية الكريمة " إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان " بأن المراد بها الخلفاء الراشدين الأربع ، لأنهم من عمل محمد بن عبد الله [١] .

موقف الدروز من القرآن الكريم

على الرغم من تأكيدات شيوخ وعلماء الدروز أن للقرآن وحده هو مصدر التشريع عندهم (حسب تأويلهم) إلا أن للدروز كتاباً آخر مسمى سرية تعد هي المصدر الرئيسي لمذهب الدروز . وقد ظهر حيثاً أن للدروز مصحفاً يسمونه: (مصحف المنفرد بذلك) . يقول الدكتور محمد أحمد الخطيب عنه : [٢] " يعتقد أن كتبه هو الأستاذ كمال جنبلاط الزعيم اللبناني المعروف والذي أغتيل قبل عدة سنوات ، ويقال أنه تعاون في وضعه ووضع رسائل أخرى ، مع عاطف العمى ، وبخط الشيخ عبد الخالق أبي صالح " ثم قال : " ويتألف هذا المصحف من أربعة وأربعين عرفاً ، يحاكي فيه كاتبه القرآن الكريم بتزديداً ما في رسائل الدروز القديمة ؛ فيحاول أن يقلد لأسلوب القرآن الكريم ويقتبس منه ثارة ويضمن كلامه بعض آيات القرآن الكريم ثارة أخرى ، خاصة آيات النعيم والعذاب ، حيث جعلها خاصة بمن يعبد الإله المعبود عندهم - الحكم - فمن عده فله النعيم ، ومن كفر به فقد حق عليه العذاب ، ويتعلق أحد كبارهم (عاطف العمى) على هذا المصحف بقوله : " يكاد يفوق القرآن بلاغة " [٣] . وبينما يزدك شيوخ الدروز (ومنهم شيخ العقل للشيخ محمد أبو شقرا) أن الشريعة مستمدّة من القرآن .. نرى مصطفهم المنفرد بذلك ينكر القرآن ويعتبره فرية فيقول: " لقد ضل الدين جحدوا الحكمة واتبعوا فرية صحف اكتبوها فهي قبلة آبائهم ، يظلونها بكرة وعشيا ، وقالوا هذامن عند الله المعبود " وفيه: " إن ما في أيديكم ليباطل وبهتان عظيم لفترتموه أنتم وآباؤكم " [٤] .

[١] مخطوطه في تقسيم جبل لبنان عن الحركات الباطنية من ٣٠٤

[٢] ص ٣١٤ / الحركات الباطنية / د. الخطيب نقلًا عن كتاب " إليها الدليل " في عودة إلى عرينك - من ٩
 المؤلف مجہول

[٣] المصدر السابق من ٥٢

[٤] (عرف عاصية المكذبين) من ٢٤٢ ، ٢٤

وفي هذا المصحف المنفرد بذاته ، وصف المسلمين بالضلاله والشرك: "لقد ضل قوم اتجهوا بأجسادهم الى بيت حجارة قلوبهم ، وغلوا في كفرهم ، فأليس عليهم كل يوم خمس صلوات وضلوا عن نهج صاحب البيت ، جل ذكره ، وهو معهم ... بلغ" [١] .

وقد ضمن الدكتور عبد المنعم النمر كتابه (الشيعة - المهدى - الدروز - حقائق ووثائق) بعض صور الأصل من هذا المصحف وفهرسا لما جاء فيه من (أعراف) . ومن الكتب التي وضعها جنبلاط مع العجمي هذا أيضا ، رسائل بعنوان (الصحف الموسومة بالشريعة الروحانية في علوم البسيط والكثيف) وهي تشبه المصحف المنفرد بذاته ويكونون من خمسة رسائل [٢] . ويبدو أن العقيدة الدرزية ظلت جامدة على أصولها التي وضعها حمزة وبهاء الدين إلى أن ظهر الزعيم الدرزي كمال جنبلاط والذي حاول أن يطور دينه بكافة الطرق ، فحاول أن يرجع أصول مذهبة إلى مسالك الحكمة في التاريخ القديم من الفلسفه اليونانيه وخاصة الأفلاطونية للقيمة ، والمسيحية ، واليهودية ، والفرعونية ، والهندية ، والفارسية ، واليهودية ، إلى جانب الإسلام. لأن الحكمة في نظره لا تختلف في جوهرها ، لهذا قام بكتابه مصحفه المنفرد بذاته ليعزز وجهه نظره . ويكون مصحف المنفرد بذاته من مائتين وست وسبعين صفحة بالبيانات التي ذكرت في آخره بعد صفحة ٢١٩ ... يشتمل على ثلاثة وأربعين عرفا - باعتبار عرف العهد والميثاق عرفا واحدا - أولها عرف الفتح ، وأخراها بلاغ العرمات . وعرف مسك الختام [٣] . والأعراف كلها تدور حول الدعوة للإيمان بالحاكم ، وتدعيم النظرية إليه ، كله معبود ، يتصرف في الخلق كما شاء ، فيغدق التعيم على المؤمنين به ، ويعذب الذين لا يؤمنون ! وقد اقتبس - كاته - كثيرا من آيات القرآن ، بما بنصها أو بتغيير فيها حسب مزاجه ، لتنصب على الذين لا يؤمنون بالحاكم معبودا لهم ، لو يؤمنون به [٤] .

وما يهمنا من (مصحف المنفرد بذاته) هذا أنه يظهر بوضوح موقف الدروز المعاصرين من القرآن الكريم ومن المسلمين أجمعين ، فيدمغهم جميعا بأنهم عاكفون على عبادة الأصنام وضالون ، ويستذكر عليهم تصديقهم للقرآن الكريم وما جاء فيه من وعد للمؤمنين بانتعيم ، ووصف لهذا التعيم .

جاء في عرف اسحق ص ٧٩ : " ضل الذين قالوا : إنا إلى ربنا متّابون ، وسيذخروا الجنة التي وعْدنا فيها ما لعِين رأى ، ولأنَّ سمعت ، ولا يُخْطِر على قلب بشر ، وسيُطْوِف فيها علينا ولدان مخدلون ، بأكواب وأبارق ، وكاس من معين ، لانتصدُع عنها ، ولا نحن بنزفين ، ولحم طير مما يشتهون ثم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ولا تريده أن نعيده عليك يا أبا اسحق قال لهم ، وما في أنفسهم من هذه الأئمة التي أوصلتهم بحيل آدمهم " ثم يقول بعد هذا مباشرة " قُتل هؤلاء ما أصبرهم على نار جهنم ، وجحيم كبرياتهم " [١] .

والواضح بعد هذا أن عقلاه الدروز ومشايخهم قد حرصوا دائمًا على صرف الدروز - وبخاصة عامتهم وجهاتهم - عن فهم القرآن الكريم فيما صحيحاً ، وعملوا على حجبهم عن أحكامه ، وقد سلكوا البلوغ شاليتهم هذه مسلكين : المسلك الأول هو تأويل النصوص القرآنية تأويلاً ياطنياً خاصاً يخرجه من باطن التأويل ، وهذا مسلك حمزة بن علي وبهاء الدين ومن تبعهم . أما المسلك الثاني فهو ما سلكه جنبلاط ومن معه بوضعهم كتاباً يبطل العمل بالقرآن الكريم ، بل ينكره ويعتبره فرية وبهتان عظيم . والهدف من الأسلوبين واحد ، وهو الإبتعاد بأنباع مذهبهم عن المصدر الرئيسي والأساسي الذي يقوم عليه بناء الإسلام الحق ، وهو القرآن الكريم .

حكم علماء الإسلام في الدروز

وبعد البحث في مرفق الدروز من أركان الإسلام ، ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتابه القرآن الكريم ، يخرج البحث بنتيجة لا فرق من اقرارها وهي أن هذا المذهب لاصلة له بالاسلام وال المسلمين ، وهي نتيجة معروفة لدى علماء الاسلام قديماً وحديثاً ، وان غابت عن عامة المسلمين .

ولقد ذكرهم شيخ الاسلام ابن تيمية هم والنصرية في جواب سائل سالم : "والدرزية هم أتباع هشتنكين الدرزي ، وكان من موالي الحاكم أرسله إلى أهل وادي تيم الله بن نعلبة ، فدعاهم إلى إلاهية الحاكم ويسمونه الباري العلام ، ويظفرون به ، وهم من الاسماعيلية القاتلين بأن محمد بن اسماعيل نسخ شريعة محمد بن عبد الله ، وهم أعظم كفراً من الفالية ، يقولون بقدم العالم ، وانكار المعاد ، وانكار واجبات الاسلام ومحرماته ، وهم من القرامطة الباطنية الذين هم أكفر من اليهود والنصارى ومسركى العرب ، وغایتهم أن يكونوا فلاسفة على مذهب أرسطو وأمثاله ، أو مجوساً . وقولهم مركب من قول الفلاسفة والمجوس . ويظهرون التشيع نفاقاً ، والله أعلم" [١] . "فقال شيخ الاسلام رداً عليه : كفر هؤلاء مملاً يختلف فيه المسلمين ، بل من شك في كفرهم فهو كافر متهم لا هم بمنزلة أهل الكتاب ولا المشركين ، بل هم الكفارة لضالون فلا يباح أكل طعامهم ، وتسبي نساوهم ، وتؤخذ أموالهم فإنهم زنادقة مرتدين لا تقبل توبتهم ، بل يقتلون إنما تلقوا ويلعنون كما وصفوا ، ولا يجوز استخدامهم للحراسة والبوابة والحفظ . ويجب قتل علمائهم وصلحائهم ثلاثة يضلوا غيرهم ، ويحرم النسوم معهم في بيوتهم ، ورفقهم ، والمشي معهم ، وتشييع جنازتهم إذا علم موتها . ويحرم على ولادة أمور المسلمين إضاعة مأمور الله من إقامة الحدود عليهم بأى شئ يراه العقيم ولا المقام عليه" [٢] .

ويضيف رحمة الله قائلاً : ((ولا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين ، ولا يصلى على من مات منهم . أما استخدام مثل هؤلاء في تغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فإنه من الكبائر ، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعي الغنم .

[١] الشيعة والتشيع / احسان الهي ظهير من ٢٣٨

[٢] المرجع السابق عن فتاوى شيخ الاسلام ج ٣٥ ص ١٦١ - ١٦٢

وإذا أظهروا للتوبة ففي قبولها منهم نزاع بين العلماء فمن قبل توبتهم اذا التزموا بشرعية الاسلام اقر أموالهم عليهم ومن لم يقبلها لم تنتقل الي ورثتهم من جنسهم ، فان مالهم يكون فيينا لبيت المال ، لكن هؤلاء اذا أخذوا فانهم يظهرون للتوبة ، لأن أصل مذهبهم التقية وكتمان أمرهم ، وفيهم من يعرف ، وفيهم من قد لا يعرف ، فالطريق في ذلك ان يحتاط في أمرهم ، فلا يتركون مجتمعين ولا يمكنون من حمل السلاح ، ولا ان يكونوا من العقالة ويلزمون في شرائع الاسلام ويجب على كل مسلم ان يقوم في ذلك بحسب ما يقدر عليه من الواجب ، فلا يحل لأحد ان يكتم ما يعرفه من اخبارهم ، بل يفشيها ويطهرها ليعرف المسلمين حقيقة حالهم

والمعاون في كف شرهم وهدائهم بحسب الامكان له من الأجر والشواب ما لا يعلمه الا الله تعالى ، فان المقصود بالقصد الاول هو هدائهم) [١] .

بمعنى أن نقول أن دروز اليوم ثلاثة أصناف :

١- قسم الزعماء السياسيين والروحانيين : هؤلاء متسلكون بدياناتهم تمسكهم بمصالحهم فكلما تمكن أفراد الطائفة من دينهم ، دلوا بألواء والطاعة العميماء لرؤسائهم فهم يحافظون على الدين حفاظا على مراكزهم ومكاسبهم .

٢- وعامة الطائفة وجدوا آباءهم على ملة وهم على آثارهم مقتدون فهم عناصر طيبة بيد الرؤساء لا يعملون فكرهم في صلاح عقidiتهم او سلامتهم بل يأخذون من شيخ العقل الذى أخذ عن أسيادهم المعصومين .

٣- أما القسم الثالث وهم المتفقون : جلهم لا يؤمنون بعقائد الطائفة لأنها مرفوضة بمنطق العقل السليم لذلك نراهم يبعدون عنها دون أن يتعرضوا لها بسوء حفاظا على ترابط أفراد الطائفة وقد التزم الكثيرون منهم الأحزاب القومية والسياسية) [٢] .

وعلى عائق هذا القسم الثالث من المتفقين تقع مسؤولية اعادة نشر الاسلام بين صفوف الدروز . كما ينبغي أن يحال بين العوام منهم ، وبين مشايخهم الذين مازوا يصررون على تلك الفضلات المهينة للعقل الانساني ، وهذا ما طالب به الشيخ محمد رشيد رضا في أحد فتاويه التي سئل عنها) [٣] .

[١] الحركات الباطنية ص ٣١٦ عن فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ج ٢٥ ص ١٥٥ - ١٦٢

[٢] دراسات في الفرق والمذاهب ص ١١٢ / عبد الله الأمين

[٣] فتاوى الإمام محمد رشيد رضا ج ١ ص ٢٧٦

نقد موقف الأمير شبيب أرسلان من الدروز

إن القارئ له الحق في الاعتراض على موقف الأمير شبيب أرسلان من الدروز وللذى جعل عنوانه : ((ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً)) يشعر أن الأمير ينطلق في دفاعه عن إسلام الدروز إنطلاقاً عاطفياً ، وهذه النظرة العاطفية التي تناول بها الأمير موضوع مقاله غابت على النظرة العلمية الموضوعية التي كان ينبغي عليه أن يتلزمها في مناقشة رأى القائلين بـ كفر الدروز وخروجهم عن جملة المسلمين .

فمع تأكيد الأمير أن الدروز يقولون عن أنفسهم أنهم مسلمون ويؤدون شعائر الإسلام لم يأت بدليل واحد يزيد به صحة قوله ، فالمعروف عن الدروز أنهم هجروا المساجد ولجأوا إلى الخلوات .

ثم يقول أن الدروز يلقنون موتاهم (ولذا جاء منكر ونكير وسائلك : مادينك ، ومن نبيك ، وما كتلتك ، ومن أخوانك ، وما قاتلتك ؟ فقل لها : الاسلام ديني ، وحمدنبي ، والقرآن كتابي ، والکعبۃ قبلتي ، والمسلمون اخوتي .

والملاحظ على النص السابق أن الأمير لم يشر فيه إلى السؤال الأهم وهو من ربك ، فان أجاب المسؤول ربي الله الذي لا اله الا هو ، فهو في جملة المسلمين حقا ، أما ان أجاب بأن ربه الحاكم بأمر الله فهو خارج من الاسلام باجماع المسلمين مما صلي وصام وزعم أنه من المسلمين .

أما قول الأمير شبيب ردا على من قال أن عقائد الدروز السرية الباطنية التي تعرفها طبقة العقال تحتوى على ملخص أركان عقيدة أهل السنة والجماعة ولا يتفق معها في شيء بقوله : قد وجد في الاسلام أنه كبار يترضي عند ذكرهم ، ولهم قباب تزار وتنطق فيها القناديل ، وكانتوا يقولون بوحدة الوجود ، ثم يبين أن قولهم هذا مع مخالفته لمذهب السنة لم يخرجهم المسلمين من الاسلام ، ففي هذا القول اعتراف بأن عقائد الدروز الباطنية تحتوى على مخالف عقيدة أهل السنة " ولا يتفق معها في شيء " ، وإن اعترض الأمير أن ينربط على ذلك الحكم على الدروز بالخروج من الاسلام !

فالامير شبيب أرسلان يريد أن يثبت أن فرقة الدروز فرقة اسلامية وهي أشبه بالفرق الصوفية التي لها تعاليمها الخاصة ولها تأثيراتها الخاصة وبحسب هذا فهي من جملة المسلمين .

ولقد كان الأمير شكيب - رحمة الله - من أعظم رجال العرب والمسلمين ، دفاعاً عن العروبة والاسلام ، وحرصاً على تمسك الأمة فلا غرابة من حماسه في الدفاع عن الدروز ، وحرصه على أن يظلو عرباً مسلمين ، وهم قومه الذين يفخر بانتسابه اليهم لانتسابهم إلى قبائل عربية عظيمة ، ولنتاريخهم الحال في مناصرة الاسلام والمسلمين .

والامير شكيب يرى في التمسك بالأنساب أمراً محموداً ، فهو ضروري لأجل الدول الراقية المهدية التي تزيد أن تعرف أصول الشعوب التي اشتغلت عليها ممالكها ، والشخصيات التي عرف بها كل من هذه الشعوب بما يكون أعنون لها على تهذيبها وحسن لادارتها [١] .

ويرى الأمير شكيب أن حفظ الانساب أمر ضروري لمن يسعى في اصلاح قومه أو نوعه بطريق التربية والتهدیب لأن الأخلاق والقبول والتزيات المختلفة تتوارث كما تتوارث الأمراض والأعراض الصحبية ، والسماء الجارية [٢] .

ويتحدث عن تمسك العرب بالأنساب في تعليقاته على كتاب تاريخ ابن خلدون فيرى أن تمسكهم بأنسابهم كان يثير فيهم حمية ونخوة وتتفق على المجد من جهة ، وفتنه وعذابات تتصدّع وحدتهم من جهة أخرى ، ويقرر أن الاعتزاز بالنسب اذا لم يؤدّ الي الانقسام عمل كريم وسنة حميدة [٣] .

ولقد عنى شكيب في كتاب (روض الشقيق) وغيره بالحديث عن أسرته ونسبها ومفاخرها ، فليس غريباً أن يقف مدافعاً عن نسبتها العربية ، وعن بقائها في الاسلام . ومن أهم ما يحمد في مقال الأمير حرصه الشديد على إسلام قومه ، وعدم رضاه بغيره بديلاً ، وقوله أن الدروز فرقـة إسلامية قبل كل شيء وهو في ذلك مثل الأمير عبد الله التوخي الملقب بالسيد المتوفـي سنة ٨٨٤ هـ بمدينة عـبيـة ، وكان من الذين عملوا على العودة بالدروز إلى مذهب أهل الجماعة والسنـة [٤] ومثل عـادـل بك النـكـدـيـ الذي قال في خطبة له حينما حاول الفرنسيـون التـفـرـيقـ بينـ الدـرـوزـ وـالـمـسـلـمـينـ : " انـ الدـرـوزـ مـسـلـمـونـ كانواـ وـلـايـزـ الـوـنـ وـأـنـهـ لـوـلـمـ يـكـوـنـواـ كـذـلـكـ لـصـيـرـتـهـمـ عـرـبـيـتـهـمـ مـسـلـمـينـ " .

[١] تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول من ٣

[٢] نفسه من ٤-٣

[٣] شـكـيـبـ اـرـسـلـانـ دـاعـيـةـ الـعـرـوـبـ ،ـ أـمـهـ الـشـرـبـاـصـيـ صـ ١٥

[٤] طـافـةـ الدـرـوزـ ،ـ مـهـمـ كـاـمـلـ حـسـيـنـ صـ ١٢٧

ولكن يبدوا أن جهود الأمير شبيب لرسلان وغيره من حرموا على الا يقطع الدروز صلتهم بأخواتهم المسلمين وحلوا أن يدفعوا عن الدروز تهمة الانسلاخ من الاسلام يبدوا أن جهودهم هذه قد تبدلت بعدما ظهر في العصر الحديث من بين الدروز زعماء ابتدوا بالفكر الدرزي عن الاسلام بعدها شاسعا ، فهذا الزعيم الدرزي كمال جنبلاط (وله احترامه واجتهاده بين رجال الدين وأراوه مسموعة بينهم) يقول في حديث مع الدكتور مصطفى الشكعة وهو مدون في كتاب (اسلام بلا مذاهب) : ان الدروز اعتنقا الاسلام في مرحلة من مراحل عقيدتهم ولما كانت العقيدة متطرفة عندهم فقد تحولوا عن الاسلام الى دين آخر مستقل هو (الدين الدرزي) [١] .

[١] الشيعة ، المهدى ، الدروز ، عبد المنعم النمر من ٢٨٣-٢٨٤ .

موقف الأمير من المعتزلة والأشاعرة

١- فرقة المعتزلة

يعرض الأمير شبيب في تعليقاته على كتاب حاضر العالم الإسلامي ، للمستشرق ستودارد ، مذهب فرقة المعتزلة ، وهي الفرقة التي يرى فيها علماء أوروبا دائمًا طبقة تمثل الفكر الحر المطلق ، وتريد أن تخلص من قيود التقليد ال باعث إلى الجمود الذي رسا عليه المجتمع الإسلامي [١] .

وفي البداية يروى الأمير ما قبل في سبب تسميتهم بالمعتزلة أن أحد أئمتهم وأصل بن عطاء كان يقرأ على الحسن البصري ، ثم امتهن لمسئلة خالقه فيها ، أما المعتزلة فيطلقون على أنفسهم "أهل التوحيد والعدل" ثم يفصل ذلك فيقول: "أما التوحيد فلأنهم نفوا عن الله تعالى الصفات التقديمة كالحياة ، والعلم ، والإرادة ، والقدرة ، ثم قالوا إنه حي بذاته ، عالم بعلم ، قادر بقدرة ، مريد ببرادة ، بحيث أن الصفة هي غير الموصوف" [٢] .

"أما العدل فلكونهم يقولون إن العبد إنما يثاب ويُعاقب على طاعته وعصيته ، لأنه هو الخالق لأفعال نفسه [٣] دون الله تعالى الذي ينزعه عن أن يضاف إليه خلق الشر" [٤] .
"وإذا كان العبد بحسب قولهم هو الخالق لأفعال نفسه ، فليس يلزم أن يكون هناك قدر سابق ، بل الأمر أنسف ، يعني مستألف . ولهذا سماهم الناس (القدرية)" [٥] .

والأمير في موقفه هذا يعبر عنما كتبه خصوم المعتزلة عنهم ، أما المعتزلة أنفسهم "فلم ينكروا قضاء الله السابق بالمعنى الذي عبر عنه القرآن بقوله: ((وكل شيء أحصيناه في إمام مبين)) ، ولكن جميعهم انكر أن يكون قضاء الله بهذا المعنى يحمل معنى الجبر أو

[١] شبيب لأرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج٤ ص ٣٢٣

[٢] المرجع السابق ج٤ ص ٣٢٣

[٣] إن المعتزلة إذا قالوا إن الإنسان خالق أفعاله فالإغتنون بالخلق هنا معنى الإبداع من العدم ، لأن ذلك لله وحده ،

وهم قد فصلوا بين خلق الجوهر فجعلوه لله ، وبين خلق العرض فجعلوه من مقرر الإنسان ... د. محمد السيد

الجليني ، قضية الخير والشر ، ص ٢٨٧

[٤] شبيب لأرسلان ، حاضر العالم الإسلامي "مرجع سابق" ص ٣٢٣

[٥] شبيب لأرسلان ، المرجع السابق ج٤ ص ٣٢٣

الإكراه فقد فهموا القضاء الإلهي على معنى تزييه على برفعه عن مباشرة القبائح أو التعلق بها ، لأنَّه تعالى بيده الخير^[١] . وهذا يجب التفرق بين نوعين من القضاء الإلهي :

النوع الأول : قضاء كوني قدرى ضروري الواقع تعبيراً عن مشيئة الله النافذة في ملكه التي لا تخلو من الحكم والغالية ، ونفذ القضاء الكوني في ملك الله لايحسب عليه الإنسان ثواباً أو عقباً^[٢] .

النوع الثاني : قضاء ديني تكليفي شرعاً مبني على الاختيار وإرادة الإنسان وهو يتعلق بالشريعة أهراً ونهراً ، وهو مناط الثواب والعقاب في الآخرة^[٣] .

والمعتزلة فهموا أن القضاء لا يكون إلا دينياً فقط وأهملوا القضاء الكوني ، مع أن العادات إذا وقعت فعلاً كانت بقضاء الله ديناً وكوناً ، والمعصية إذا وقعت كانت بقضاء الله كوننا لا ديناً ، والمزمون مطلوب منه أن يؤمن بالنوعين من القضاء^[٤] . كما أخطأ المعتزلة حين ظنوا أنه يجوز للمؤمن أن يحتاج بقضاء الله على المعصية لأن الواجب في ذلك أن يؤمن بالقضاء ولا يحتاج به لأن الله قد أبطل هذا الاحتياج بالقضاء والقدر حين لجا بعض الناس إلى ذلك فأخبر الله أن : "... حجتهم داحضة عند ربهم عليهم غضب ولهم عذاب عظيم" لأن الإيمان بالقضاء واجب والإحتياج به مرفوض وباطل^[٥] .

ويضرب الأمير مثلاً يوضح به الفرق بين مذهب السنة ومذهب الإعتزال فيقول: "كان مرة أحد آئمة المعتزلة ، يباحث أحد آئمه أهل السنة ، فقال المعتزلي : "الحمد لله الذي تنزه عن لفحشاء" .. فقال السنى : "الحمد لله الذي لا يقع في ملكه إلا ما يشاء" .. فقال المعتزلي : "أ يريد ربك أن يعصى؟" .. فقال السنى : "ليعصى ربك جبراً؟"^[٦] .

والخطأ هنا أن المعتزلة خلطوا بين الإرادة الذاتية والكونية ، كما لم يفرقوا بين القضاء الدينى والقضاء الكونى فأنكروا أن تكون المعصية مراده لله ، كما أنكروا أيضاً أن تكون بقضاء الله^[٧] .

[١] [٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] د. محمد السيد الجليلـ ، قضية الخير والشر ص ٨٧ ، ٨٦ ، ٧

[٦] نجيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ص ٣٢٣

[٧] د. محمد السيد الجليلـ ، قضية الخير والشر ، مرجع سابق ص ٨٨

والأمير شبيب أرسلان يرى "أن جمهور أهل السنة فرقوا بين الکسب وبين خلق الأفعال ، وجعلوا للإنسان جزءاً اختيارياً هو مناط الشّواب والعقاب ، وشبيهوا العبد الذي يعصي بعامل أمره السلطان بأن يكون عاملاً على بلد كذا وأنصاه بالعدل والتقوى ، فذهب إلى عمله وظلم الرعية وارتكب المعاشي ، فالسلطان من جهة لم يأمره بالظلم ولا يأبه له تلك الأعمال الموبقة ، ومن جهة أخرى هو السبب في وصول لذى ذلك العامل إلى الرعية لأنه لو لا تولية السلطان إيه ما تمكن من ظلمهم" [١] .

والأمير شبيب في موقفه هذا متاثر بما ذكره أستاذ الإمام الشيخ محمد عبد الذى قال : أن كل الطوائف الإسلامية في هذا الوقت "يعتقدون بأن لهم جزءاً اختيارياً في أعمالهم ، ويسمى الکسب ، وهو مناط الشّواب والعقاب عند جميعهم ، وانهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الإختياري ... وهو مورد التكليف الشرعي وبه تتم الحكمة والعدل" [٢] . وموقف الأمير هنا متاثر أيضاً بنظرية (الکسب) عند الأشاعرة ، "ففقد ذهب أبو الحسن الأشعري في تحديد علاقة الإنسان بفعله إلى أن قدرة الإنسان لا تأثر لها في خلق الفعل أو إحداثه ولا في صفة من صفات الفعل وإنما تتطرق بالفعل على وجه آخر يسمى (کسباً) فال فعل مخلوق لله مكسوب للعبد في وقت واحد ، وأن الله تعالى يحاسب العبد في الآخرة ليس لكونه خالقاً لل فعل أو فاعلاً له وإنما لكونه محلّاً لل فعل وكسباً له" [٣] .

" والموقف الحق في ذلك هو ما كان عليه سلف الأمة ولئنتها حيث أثبتوا قدرة الإنسان وقالوا أنه قادر لفعله حقيقة لامجازاً ، والله خالق فعله حقيقة لامجازاً . فقدرة الله تتطرق بالفعل من جهة الخلق من العدم ، وقدرة الإنسان تتطرق به من جهة فعله وإحداثه" [٤] .

[١] شبيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، من ٣٢٤

[٢] رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ٢ ص ٢٦١

[٣] د . محمد السيد الجليلي ، قضية الخير والشر ، من ٣٠٢

[٤] د . محمد السيد الجليلي ، قضية الخير والشر ، مرجع سابق من ٣١٧

٤ - الأشاعرة

يروى الأمير شكيب أن أبو الحسن الأشعري المولود بالبصرة (سنة ٢٦٠) المتوفى ببغداد (سنة ٣٢٤)، قد بقى إلى الأربعين من عمره ملزماً لأبي على الجبائى حامل لواء الاعتزال في عصره والمتوفى (سنة ٣٠٣)، أخذًا برأيه، إلا أنه لحظ في آخر الأمر أن كثيراً من أقوال المعتزلة لا تتناسب مع روح الشرع، ففارتهم وأخذ يرد عليهم، وكتب كتابة كثيرة قيل بلغت ٣٠٠ مصنف [١].

وقد رأينا الأمير يذكر رأى الأشاعرة في صفات الله تعالى عندما عرض مذهب المعتزلة في التوحيد، كما وجدناه متاثراً بنظرية (الكسب) الأشعرية عند مناقشته لمسؤولية الإنسان عن أفعاله والعدل عند المعتزلة. والأمير لا يخفى إعجابه بالأشعرى، وينقل عن دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية قولها: "إنه يعود إليه الفضل باستعمال المنطق والجدل في العقيدة، خلافاً لعلماء الإسلام الأولين، وأنه بذلك تمكن من مناظرة المعتزلة، وسائر البدع، فهو بالفعل واضح للفلسفة العقلية الإسلامية أى علم الكلام" [٢].

ويقول الأمير شكيب أن الأشعرى بعد أن اعتزل الاعتزال، صار ناصراً للسنة حتى صار نصف المسلمين تقريباً أو أكثر أشعرية في علم الكلام، ويستشهد بما ذكره عبد الوهاب السبكى في (طبقات الشافعية) أن المالكية بأجمعهم وأكثر الشافعية هم أشاعرة، أما الحنفية فيرجحون مذهب المترىدى، وهو يتفق في الأساس مع الأشعرى، ويبليه في نقاط ثانوية.

أما الحنابلة فيرون كلام الأشعرى ويأخذون العقيدة بمثل ما اخذها السلف أى بدون فلسفة، وقد يفرط بعضهم برفض التأويل فيرميهم الأشاعرة بالتجسيم، ومن رد على الأشاعرة ابن حزم الظاهري [٣].

[١] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، من ٣٢٤

[٢] . [٣] المرجع السابق من ٣٢٥

ثم يعلق الأمير على ذلك بتأكيد اعجابه بشیوخ الأشاعرة ومتكلميهم فيقول : "ومما لا مشاهة فيه أن أعظم متكلمي الإسلام وسيوف السنن ، هم من الأشاعرة وتلك مثل : الباقلاني ، والقشيري ، وأمام الحرمين أبي المعالى الجويني ، ولو لم يكن منهم إلا حجة الإسلام الغزالى لكتفى" [١] .



[١] شکیب ارسلان ، حاضر العالم الاسلامی ، ص ٣٤٥

(١٦٥)

موقف الأمير شبيب أرسلان من الخوارج

- نشأة الخوارج

- فرق الخوارج وعقائدهم :

الفرقة الأولى : المحكمة

الفرقة الثانية : الأزارقة

الفرقة الثالثة : التجادات

الفرقة الرابعة : العيجاردة

الفرقة الخامسة : الشعالية

الفرقة السادسة : الصفرية

الفرقة السابعة : الأباذية

موقف الأمير شكيب أرسلان من :

الخوارج

نشأة الخوارج :

نشأت فرقة الخوارج فور إعلان نتيجة (التحكيم) بين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص ، وذلك عندما طال النزاع بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، واشتدت الحرب (في صفين) واتسع الخرق ، ومل كثيرون من المسلمين القتال ، وتذاكروا فيما بينهم في طريقة ترفع الخلاف بدون استمرار على سفك الدماء ، فكانت هذه الطريقة هي (التحكيم) «^(١)

ويرى أن معاوية رضي الله عنه حينما رأى بودار انهزام جيشه استشار صاحبه عمرو بن العاص رضي الله عنه في حيلة تباعد بينه وبين عار المهزومة فأشار عليه عمرو بن العاص برفع المصاحف على أسنة الرماح والمطالبة بتحكيم كتاب الله بين الفريقين وقد أثرت هذه الحيلة في صفوف جيش الخليفة الراشد رضي الله عنه حتى قال له الأشعث بن قبس الكندي وجماعة معه «وكان أميراً لعثمان على أذربيجان» القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف فقال لهم على رضي الله عنه : أنا أعلم بكتاب الله وأشار رضي الله عنه إلى أن هذه حيلة ثم دعا رجاله إلى الاستمرار في القتال فأصر الأشعث ورفاقه على إيقاف الحرب وقالوا لعلي رضي الله عنه لترجعن الأشتر عن قتال المسلمين وإلا فعلنا بك كما فعلنا بعثمان واضطرك على رضي الله عنه إلى أن يأمر الأشتر التخمي بوقف القتال .^(٢)

فهذه الفتنة التي سنت الحرب ، حملت علياً رضي الله عنه على قبول (التحكيم) بينه وبين معاوية ، وهي التي أشارت بإقامة أبي موسى الأشعري حكماً عنه ، ويرى

١ - شكب أرسلان حاضر العالم الإسلامي ، جـ٦ ص٣٢٦ .

٤ - د. عبد القادر شيبة الحمد ، الأديان والفرق والمناهج المعاصرة ، ص٤٠٠-٤٠١ .

الأمير (شكيب أرسلان) أن طريقة التحكيم في حد ذاتها كواستة في حل المنازعات بين المتخاصلين سواءً أكانوا دولًا أو فرقًا هي طريقة فدنة سبق بها المسلمين عصرهم ، وهي التي يجاهد كثيرون من عقلاً، الأوربيين اليوم في جعلها هي المرجع الأول في فض المنازعات بين الدول بالطرق السلمية ، غير أن القصة المشهورة عن سير التحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما تبين سبب تفجر قيام الخوارج في العالى «إذ تعالت الهنافات من معسرك علي : كفر الحكمين (لا حكم إلا لله) وانقلب المزبدون أعداء، وأصبعوا أكثر خطراً على علي من جيش معاوية»^(١)

ويروي الأمير شكب أرسلان تلك القصة المشهورة عن خدعة عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري «بأن اتفق معه على أن يخلعوا عليناً ومعاوية جمباً ، ويرجحا المسلمون من هذه العرب الطاحنة ، وأنهم بعد ذلك يقيمون لهم خليفة يختارونه ، ولما كان أبو موسى أكبر سنًا من عمرو ، كان التقدم له في الكلام ، فقام وأشهد أنه خلعهما ، وجاء الدور إلى عمرو ، فقام وأشهد على أنه خلع عليناً دون معاوية ، وكانت لهذه الخدعة رنة في الإسلام لا تزال الناس تتذاكّرها إلى اليوم ، وبطّل ذلك التحكيم ، واستمر القتال بين الفريقين»^(٢)

وهذه الرواية على النحو الذي ذكره (شكيب) محل شك إذ برجع الدكتور الريس رواية المسعودي لأنها تتفق مع العقل وстиلاً مع شخصية أبي موسى الأشعري الصحابي الجليل ، لأن هذه الرواية تبني حدوث الخدعة ، وقد أخذ بالنص المروي عنها حيث قال فيه (ووُجِدَتْ فِي وَجْهِ آخَرَ مِنَ الْرَوَايَاتِ أَنَّهَا اتَّفَقَا عَلَى خَلْعِ عَلَى وَمَعَاوِيَةِ ، وَأَنْ يَجْعَلَا الْأَمْرَ بَعْدَ ذَلِكَ شُورِيًّا ، يَخْتَارُ إِنَاسًا رَجُلًا يَصْلُحُ لَهَا) ، وبذلك أصبحت النتيجة الأخيرة للتحكيم ، رد الأمر إلى الأمة .^(٣)

كما يرى الدكتور عبد القادر شيبة العمد مسألة التحكيم بطريقة مختلفة فيقول :

١ - د. مصطفى حلمي . نظام الغلابة ، ص ١٥٤ .

٢ - شكب أرسلان . حاضر العالم الإسلامي . (مراجع سابق) ص ٣٢٦ .

٣ - د. محمد ضياء الريس . النظريات السياسية الإسلامية . ص ٤٨ ط ٤٩٥ م .

«.. ولما حان موعد التحكيم واجتمع الحكمان في دومة الجندي لم يجد اجتماعهما للاتفاق على كلمة سوا ، بل أعلن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه لا يوافق أبو موسى في خلع على معاوية وترك الأمر شورى ، وإنما يخلع عليه وبثت معاوية»^(١)

وأيا كانت الطريقة التي تم بها التحكيم ، فالثابت أنها أفرخت أول حزب سياسي في الإسلام هو الخوارج^(٢) ، فخرجت تلك الفتنة من طاعة علي ومعاوية معاً ، وانفرد برأي غير رأي الجماعة ، وهو أنه لا حكم إلا لله ورسوله رأساً بدون خلافة ، فسماه الناس من أجل ذلك خوارج.^(٣)

فرق الخوارج وعقائدهم :

الخوارج فرق متعددة جمعهم الإمام أبو الحسن الأشعري في أربعة فقط ، وهم : الأزارقة والأباضية ، والصفوية ، والنجدية ، واعتبر أن كل الأصناف سوى هذه الفرق تفرعوا من الصفوية.^(٤)

وقد ذكر الأمير شبيب أرسلان من فرق الخوارج تسع فرق ، وهم :

الحكمة ، والأزارقة ، والنجذات ، والبيهية (*) والمعباردة ، والبيهونية والأباضية ، والشعالية ، والصفوية ، وقال إن هذه أشهر فرق الخوارج ، ويقال لهم أيضا الشرة لقولهم إننا شربنا أنفسنا في طاعة الله أي بعندها بالجنة حين خرجنا على الآنسة العجاثة .^(٥)

١ - د. عبد القادر شيبة الحمد ، الأديان والفرق والsects المعاصرة ، (مراجعة سابقة) .

٢ - د. مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص ١٥٥ (مراجعة سابقة) .

٣ - شبيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مراجعة سابقة) .

٤ - د. مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص ١٦٢ (مراجعة سابقة) .

٥ - شبيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مراجعة سابقة) ج ٤ ص ٣٣٦ وما بعدها .

(*) وقد عد الأمير شبيب أرسلان فرقة «البيهية» على أنها فرقه رئيسية من فرق الخوارج ، ولكن الشهور عن أهل العلم أنها تابعة للأباضية ، وـ (البيهية) هي أصحاب أبي بيه البهصم بن حابر - الذي خرج أيام الرlide وهؤلاء يرون أنه لا حرام إلا ما وقع عليه النص بقوله تعالى «فَلْ لَا يُحِنَّ إِلَيْهِ بِرِسَادِ الْأَيَّةِ ، وَيَكْتُرُونَ الرُّعْبَةَ بِكُفْرِ الْإِيمَانِ» . شبيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ص ٣٢٧ (مراجعة سابقة) .

ويرى الأمير شكيب أن عمود مذهب الخوارج إنكار الغلافة ، وأن الحكم يستمد من القرآن رأساً فلما حاجة إلى الخليفة ، وأنهم يمنعون التأويل فيه ، وبعضهم ينكر كون سورة يوسف من القرآن ، ويقولون هي قصة من القصص ، وبعضهم يكفر بالكتاب ، ومنهم من يكفر بالإصرار على الصفائر ، ومنهم من يصوب فعلة عبد الرحمن بن ملجم ذلك الشقي الذي قتل عليا .. ومنهم من يجوز نصب الإمام ولكن لا يشترطون فيه النسب القرشي .^(١)

الفرقة الأولى : المحكمة

وهم الذين يمنعون التحكيم ويقولون (لا حكم إلا الله) ، وهم في دفاعهم عن هذا الببدأ يعتقدون أنه لا تحكيم في دين الله لأحد من الناس إلا بالله ، ولهذا لا يحكون بينهم حكماً ، فلما حكم أبو موسى الأشعري بين علي ومعاوية ، ثم قام بخلع علي ، كفروه لأنهم حسب إعتقادهم جعلوا الحكم لأنبياء موسى الأشعري ، وينفي ألا يكون هناك حكم إلا لله تعالى ^(٢) ، ثم ذهبوا إلى النهروان وعسكروا هناك ، وكانتوا على ما يروى أربعة آلاف مقاتل ، فقصد إليهم علي وما زال يقاتلهم ويستأصلهم اتقا ، الفتنة وانتشار نظام الأمة ، إلى أن أثناهم على بكرة أبيهم ، ولم يفلت منهم سوى تسعة نفر ، قبل ذهب منهم اثنان إلى عمان ، واثنان إلى كرمان ، واثنان إلى سجستان ، واثنان إلى الجزيرة ، وواحد إلى اليمن .^(٣)

ويرى أن علياً رضي الله عنه سألهم قبل بد القتال : مَاذَا نقتسم منى ، قالوا نقتسم منك أنا قاتلنا بين يديك يوم الجمل فلما انهزم أصحاب الجمل أباحت لنا ما وجدنا في معسكرهم من المال ومنعتنا من سبي نسائهم وذرارتهم فكيف استحللت مالهم دون النساء والذرية ، فقال رضي الله عنه إنما أباحت لكم أموالهم بدلأ عما كانوا أغروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدمي عليهم أما النساء والذرية فلم يقاتلنا وكان لهم حكم

١ - المرجع السابق نفسه .

٢ - د. مصطفى حلبي ، نظام الخلقة ، ص ١٥٨ (المرجع سابق) .

٣ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ح١ ص ٣٢ (المرجع سابق) .

الإسلام بحكم دار الإسلام ثم لو أبحت لكم النساء ، أبكم كان يأخذ عائشة في سهمه فخجل القوم .^(١)

ومن شبيههم التي تقروا على علي رضي الله عنه فيها بزعمهم أنه محا إسمه من إمرة المؤمنين يوم كتب إلى معاذية ، ولم يضرهم - أي الخوارج - بالسيف حين نكوصهم عنه يوم صفين وكان واجبه أن يفعل ذلك ليرجعوا إلى الله ، وحكم الحكيمين ، وزعم أنه وصى فضيع الوصية .

ورد عليهم علي رضي الله عنه مدافعاً عن نفسه في كل ما وجه إليه ، ودحض شبيههم الباطلة بالحججة البالغة معتمداً على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .^(٢)

أما نزع إسمه من إمرة المؤمنين فكان لرسول الله صلوات الله عليه أسوة حسنة لأنه قبل أن يتخل عن (محمد رسول الله) إلى (محمد بن عبد الله) لأن المشركين في صلح الحديبية لم يقبلوا إلا هذا واحتجتهم في رفضهم أنهم لو آمنوا أنه رسول الله ما حاربوه ، وقبل النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال : «إن اسمى وأاسم أبي لا يذهبان بنيوتني وأمري» .^(٣)

ورد على دعواهم بامتناعه عن قتلهم يوم صفين ، فاحتاج بالأية الكريمة : «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» فعزف عن معارضتهم لكثرتهم عددهم ولقلة أعوانه .

وتحكيم الرجال أيضاً له من آيات الله أسانيد ، فإن الله حكم في أربب بياع بربع درهم بقوله «يحكم به ذوا عدل منكم» ، فلو استرشد الحكمان بما جاء بكتاب الله (الما وسعني الخروج عن حكمهما)^(٤)

وقد أثر بيان علي رضي الله عنه فيهم فقال أكثرهم صدق والله وأعلن التوبة

١ - د. عبد القادر شيبة العبد ، الأدبان والفرق والمذاهب المعاصرة ، ص ١٠٧-١٠٨ (مراجع سابق) .

٢ - د. مصطفى حلبي ، نظام الغلافة ، ص ١٦٤-١٦٥ (مراجع سابق) .

٣ - د. مصطفى حلبي ، نظام الغلافة ، ص ١٦٤-١٦٥ (مراجع سابق) .

وانحاز إليه منهم ثمانية آلاف مقاتل وأصر أربعة آلاف على القتال بقيادة عبد الله بن وهب الراسبي ، فكانت موقعة النهروان في يوم ٩ صفر سنة ٣٣ هـ .

الفرقة الثانية : الأزرقة

وهم أتباع نافع بن الأزرق ، وهم الذين خرجوا بفارس وكرمان أيام ابن الزبير ، وقاتلهم المهلب بن أبي صفرة .^(١)

وخلاصة مذهبهم أنهم يحكمون على مخالفتهم من هذه الأمة بأنهم مشركون وكانت المحكمة الأولى تقول لهم كفار لا مشركون .^(٢)

وهم يكفرون علياً مع جمع من الصحابة ، ويصوبون فعل ابن ملجم ، ويكتفرون القاعدين عن القتال مع الإمام ولو قاتل أهل دينه ، ويبخرون قتل أطفال المخالفين ونسائهم ، ويستقطون الرجم عن الزاني الممحض وحد القذف عن قاذف الممحض دون المحسنة ، ويكتفرون بالكبائر ويقولون إن التقبة غير جائزة .^(٣)

الفرقة الثالثة : النجادات

وهم أصحاب نجدة بن عامر ، وهؤلاً يكفرون بالإصرار على الصفات دون فعل الكبائر - فالإصرار على الصغيرة شرك في زعمهم وارتكاب الزنا والسرقة وشرب الخمر دون إصرار ليس بشرك إذا كان المرتكب من موافقهم ، ويستحلون دماء أهل العهد والذمة وأموالهم .^(٤)

ومن مذهبهم إكفار من أكفر القعدة منهم عن الهجرة إليهم ، وإكفار من قال بإمامامة نافع بن الأزرق ، وأن الناس ليسوا بحاجة إلى إمام قط (وهو قول المحكمة) ، وجواز التقبة .^(٥)

١ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مراجعة سابق) ص ٣٢٧ .

٢ - د. عبد القادر شيبة الحمد ، الأديان والفرق (مراجعة سابق) ص ١١٢ .

٣ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مراجعة السابق) .

٤ - د. عبد القادر شيبة الحمد ، الأديان والفرق (مراجعة السابق) ص ١١٨ .

٥ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مراجعة السابق) .

الفرقة الرابعة : العجارة

وهم أتباع عبد الكري姆 بن عجرد من أهل فارس ، وهو في أصل مذهبة من النجدات ، ونسبة ابن حزم إلى الصفرية ، وأشار الشهريستاني إلى أنه كان في الأصل من أصحاب أبي بيهس الآتي ذكره إن شاء الله .

ولما شاع ذكر عبد الكريم هذا ودخل في فتنته كثير من الناس أخذه خالد بن عبد الله البجلي القسري وحبسه ، فلما جلس أفترق أتباعه على شان فرق موالية لعبد الكريم وإن كان بعضها يكفر بعضا ، ومن هذه الفرق (الميمونية) وهم أتباع ميمون بن خالد ، وقد ذهب ميمون إلى إنكار عموم قدر الله ومشيئته وزعم أنه ليس لله تعالى في أعمال العباد مشيئة وليست أعمال العباد مخلوقة لله تعالى (وأن الله تعالى مرید الخير دون الشر) ^(١) ، وقال : إن أطفال المشركين في الجنة وأن أصحاب الذنوب كفار وأنه يجب قتال السلطان ومن رضي بحكمه ، وأما غير السلطان فلا يجب قتاله إلا إذا أغارت عليهم أو طعن في دينهم أو كان دليلاً للسلطان .

كما أنكر الميمونية أن تكون سورة يوسف من القرآن الكريم وقد نسب هذا القول إلى عبد الكريم بن عجرد .

«ويقال إنهم يجوزون نكاح بنات البنات ، وبنات أولاد الإخوة والأخوات ، ورد ذلك في بعض الكتب ومن جملتها (صبح الأعشى) ويضعف الأمير شكب الروايات التي ينقلها (صبح الأعشى) عن كتب زعم أصحابها استباحة ذات المحارم عند بعض الفرق المخالف لأهل السنة ، ويعلى على ذلك بقوله : «إن اختلاف العقبدة بورث من التباغض والتناقر ما ينتهي بوضع أخبار كثيرة لا صحة لها ويسترويجها بين الناس حتى تغير قضية مسلمة» ^(٢) .

ولكن الميمونة لا يختلف الناس في كفرهم لأنهم أنكروا ما علم من دين الإسلام

١ - المرجع السابق نفسه .

٢ - عبد القادر شيبة العميد ، الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة . (ص ١٣٣-١٣٤) (مرجع سابق) - (١١٩) .

بالضرورة كإنكارهم (سورة يوسف) وإياواعتهم بنات أولاد الإبن وبنات أولاد البت وبنات أولاد الإخوة وبنات أولاد الأخوات .

الفرقة الخامسة : الشعالية

هم أتباع ثعلبة بن مشكان أو ابن عامر وقد كان مع عبد الكريم بن عجرة حتى اختلفا في شأن الطفل فكفر كل واحد منهما صاحبه .^(١)

وهم يرون الولاية على الصغير إلى أن يظهر عليه إنكار الحق فيعتبرون منه .^(٢)

الفرقة السادسة : الصفرية

وهم أتباع المهلب بن أبي صفرة ، ويرجع الشيخ الكوثري تصحيح الاسم إلى زياد بن الأصفر ، وقبل بل سموا صفرية بسبب صفة ألوانهم من شدة العبادة وال Saher .^(٣)

ومن رأيهم أن التكبير يقع فيما ليس فيه حد ، كترك الصلاة ، أما ما كان من الكبائر فيه حد الزنا ، فيكفي فيه الحد ولا يجب فيه التكبير .^(٤)

الفرقة السابعة : الأباضية

وهؤلاء ينتسبون إلى عبد الله بن إياض^(٥) ، يكسر الهمزة وقد تلفظ بالفتح ، وكان أول خروج الأباضية في زمان مروان الثاني الأموي ، وكان يقودهم حبنتذ عبد الله بن يحيى وأبي حمزة (٦).

١ - عبد القادر شيبة العمد ، الأديان والفرق والسنن المعاصرة . (ص ١٣٣-١٣٤) (مراجع سابق) - ١١٩ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ٣٢٩ (مراجع سابق) .

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (المراجع السابق) ج ٤ ص ٣٢٩ .

٥ - شكيب أرسلان (المراجع السابق نفسه) ، (ومن الفرقـ، أن ابن حزم رحمة الله ذكر أن عبد الله بن إياض رفع عن قوله إلى قول الشعالية ، ثم قال : قبرى منه أصحابه فهو لا يعنونه البريم - دـ. عبد القادر شيبة العمد ، الأديان والفرق (مراجع سابق) ص ١٣٩ - وينذكر السلطني في التبيه والرد على أهل الأهواء ، أن الأباضية أصحاب إياض بن عمرو الذين خرجوا من الكفرة) عن دـ. مصطفى حلبي - نظام الخلافة (مراجع سابق) ص ١٥٩ .

وقد تناول الأمير شبيب أرسلان فرقة الإباضية بتفصيل أكبر بكثير من تناوله لفرق الخوارج الأخرى ، كما فصل تاريخهم السياسي منذ نشأتهم حتى عصره ، وذلك لأن الإباضية أكثر فرق الخوارج انتشاراً ، وكانت لهم بلدان ودول وحكومات كسائر فرق الإسلام الكبرى .^(١)

خلاصة مذهب الإباضية كما بينها شبيب أرسلان أنهم « يرون أن مرتكب الكبيرة كافر للنعممة ، لا كافر بالله ، ويرون أن دار مخالفتهم من الإسلام دار توحيد ، ولكن دار السلطان منهم دار بغي ، وهم يحتجون على كل من يتهمهم بمخالفنة السنة ، ويقولون أنهم هم وحدهم الذين لم يجحدوا عن السنة ، ويقال أنهم يزعمون كونهم هم وحدهم الفرقة الناجية من أصل الثلاث والسبعين فرقة ، وهم لا يذكرون بعد الرسول صلى الله عليه وسلم من الخلفاء ، إلا أبي بكر وعمر ، وأما عثمان وعلى فلا يعجبانهم إذ قد خالفا نهج الرسول والصحابيين بزعمهم »^(٢)

« ويقولون بوجوب نصب الإمام بين المسلمين إذا توفرت القوة والعلم لنصبه ، وأن القرشية ليست بشرط في الخلافة ، بل يكفي أن يكون الخليفة متصفاً بالفضيلة والتقوى ، سائراً بمحاجة الكتاب والسنّة لتصح خلافته ، فإن انحرف عنهما وجب خلعه».

« ويقولون إن القرآن هو كلام الله خلقه الله تعالى ، وهو كقول المأمون العباسي ، وأنه تعالى لا يرى بالأيصار في الجنة ، وأن الشواب والعقارب أبديان ولا فنا ، للتعيم ولا الجحيم ، وأن الله يغفر الصغائر ولكنه لا يغفر الكبائر إلا بالترىء»^(٣)

« وهم يرجعون إلى الكتاب والسنّة فقط ولا يعملون بالإجماع والقياس ، بل عندهم محلهما الرأي »^(٤)

« وهم يقولون : إن كل مسلم مكلف أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وأن على كل مسلم واجبات مفروضة نحو أخيه المسلم ، فمن لم يقم بما فرض عليه من هذا

١ - المرجع السابق نفسه .

٢ - تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ص ٣٢٨-٣٤٦ .

التضامن الديني خسر حقه في خنو إخوانه المسلمين عليه ، ووجبت معاملته نظربر عدو إلى أن يترب وينبب^(١)

ومما ذكره الأمير شبيب أرسلان عن تاريخ (الأباضية) السياسي ، أن هذا «المذهب الأباضي» وجد في بلاد عمان بانفرادها ، وشحط مزاراها ، وحبلولة الفلوتوس من جهة ، والبحار من جهة أخرى ، بينها وبين سائر الأقطار أندوحة اتسع بها ، وسط جناحه بدون زعج في قاصيتها ، وما زال ينتشر هناك حتى صار هو المذهب الغالب في بلاد عمان ومنها امتد إلى زنجبار . أما في شمال أفريقيا فإن مذهب الأباضية ظهر في أواسط القرن الثاني للهجرة ، هو ومذهب الصفرية ، كلاهما من الخوارج ، وقد انتشرا كثيراً بين البربر الذين خرجوا مراراً على الدول العربية ، وكان أول دعاتهم في شالي أفريقية أبو الخطاب عبد الأعلى بن السماح المعاافري الحميري اليماني ، خرج في جبل نفوسه ، وهو أول إمام للأباضية في تلك الأقطار ، ويقولون أنه أحد الدعاة الخمسة الذين يسمّهم الأباضية «حملة العلم»^(٢)

ونشير هنا إلى إحدى تعليقات الأمير شبيب أرسلان على تاريخ الأباضية السياسي ، لأهمية هذه الجملة في بيان عقيدة الأمير ، وتبقيه في فمه لأهداف أعداء الإسلام ، ففي أثنا ، حديث الأمير عن العركات السياسية والنزاع على السلطة في عمان في العصر الحديث ذكر شبيب أن (عزان بن قيس) ثار على (توني بن السيد سعيد) حاكم عمان ، وأعلن الطاعة لابن سعود سنة ١٨٦٤ م.

يقول شبيب : «ولما كان الإنكليز يعلمون أن الوهابية دعوة وأن الدعوات الدينية لا سيما إلى مبادئ السلف من الإسلام يخشى منها ، اهتموا بتصدهم عن بلاد عمان ، وأمدوا توني بالمدافع والأعتاد ، وأشاروا إلى رؤساً، البلاد بأن ينضروا تحت لواء السيد تونيني»^(٣)

موقف الأمير شكيب أرسلان من

البابية واليهانية

١ - البابية :

البابية من الفرق الباطنية ، وتسمى البابية نسبة إلى رجل كان يقال له ميرزا محمد على الشيرازي ولد بایران في غرة محرم سنة ١٢٣٦هـ أو ٢٦ مارس سنة ١٨٢١م ، « وهو الذي سمي نفسه (الباب) بمعنى الوسيلة الموصولة إلى معرفة الحقيقة الإلهية ، وتبعه أناس تلقوا من أجله بالبابية »^(١)

وفرقة (البابية) ظهرت في بلاد العجم ، وهي من أشهر الفرق الإسلامية التي ظهرت في العصر الأخير ، وتميزت بكون أنصارها لم ينحصروا في الشرق والعالم الإسلامي ، بل وجد منهم في أوروبا وأمريكا أيضا .^(٢)

وقد كان السيد محمد علي الشيرازي من الشيعة الإثنى عشرية ولكنه بدأ يجمع إلى مذهب إيمانه مذهب إسماعيلية ، واشتغل بالدراسات الفلسفية^(٣) ، « وكان مفروماً منذ نعومة أظافره بالبحث في الأمور الإعتقادية ، نازعاً إلى النسك ، حتى قيل أنه حمل نفسه على التشقف والتعبد الشاق ، بحيث كان يقعد الساعات الطوال في عين الشمس حاسراً عن رأسه »^(٤)

ويروي الأمير شكيب أرسلان أن الباب « زار كربلا ، وأخذ عن رجل يقال له الشيخ البحريني ، ولما عاد إلى شيراز شرع يقرأ في المساجد ، ويحمل في الجدال على رجال الدين ، فمال كثيرون إلى مذهبـه .. ثم ذهب إلى الحج واثناـ، رحلته ألف بعض الرسائل يقال أن أنصارـه يعتقدون ما فيها وحيـا وإلهاماً »^(٥)

١ - تعلقيات الأمير شكيب على حاضر العالم الإسلامي . جـ٤ ص ٣٥١ وما بعدها (المرجع سابق) .

٢ - عبد القادر شيبة الحمد ، الأدبان والفرق والمناهج المعاصرة ، ص ٩٤-٩٣ (المرجع سابق) .

٣ - تعلقيات الأمير شكيب على حاضر العالم الإسلامي ، (المرجع السابق نفسه) .

ومن جملة ما ينسب إليه أنه قال أن علياً هو قبل نبييل ، ونبييل هو عندهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم ^(١) ، وأنه خرج على الناس بفكرة أنه هو وحده الناطق بعلم الإمام المستور وأنه الباب إليه ، ثم ادعى أنه المهدى المنتظر . ثم ادعى أن الله قد حل فيه وأنه هو الذي به يظهر الله لخلقه وأنه هو السبيل لإظهار موسى عيسى في آخر الزمان ، ثم أعلن عدم إيمانه باليوم الآخر وأنكر الجنة والنار ، وذكر أنها رموز لحياة روحية متتجدة ، ونحو منحى البراهمة والبوديبيين ^(٢) .

ثم زعم أنه يجمع بين اليهودية والنصرانية والإسلام وأنه لا فرق بينها ، ثم أنكر أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين ، وأنكر كثيراً من الأحكام الإسلامية المعلومة من الدين بالضرورة ، وقد اطلع الأمير شبيب أرسلان على مؤلف له بالعربية يقول فيه : «إن الأنبياء، أولى العزم كلما انقضت شريعة واحد منهم قامت قيامته ، وانتهى دوره ، وجاء دور الآخر كلما انقضت شريعة واحد منهم قامت قيامته ، وانتهى دوره ، وجاء دور الآخر وهكذا جاء آدم ، وبعد آدم نوح ، وبعد نوح إبراهيم ، وبعد إبراهيم موسى ، وبعد موسى عيسى ، وبعد عيسى محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، وبعد محمد الباب مؤسس هذه التحفة المسماة بـ『بابية』» ^(٣)

ويرى أنه ألف كتاباً سماه البيان وزعم أنه كالقرآن ^(٤) ، ومن قبلوا هذه الدعوة في طهران الأخوان «ميرزا يحيى نوري» الملقب بعد ذلك «بصريح أزل» و«ميرزا حسين علي نوري» ، الملقب فيما بعد «ببيها، الله» ، وكذلك خاتون اسمها «زرين تاج» ولقبها «قرة العين» كريمة الملا صالح الباراكاني من قزوين ^(٥) .

ولما استفحلا شأن الباب وكثير أتباعه أجمعوا الحكومة الفارسية على استئصال

١ - تعليلات الأمير شبيب على حاضر العالم الإسلامي ، (المرجع السابق نفسه) .

٢ - عبد القادر شيبة الحمد ، الأديان والفرق (المرجع السابق نفسه) .

٣ - تعليلات الأمير على حاضر العالم الإسلامي ، (المرجع السابق نفسه) .

٤ - وهذا الكتاب بالعربي والفارسي ، ولو أبعنا كتاب (بين الحرمي) واتفق بر سورة يوسف (المرجع السابق) .

٥ - تعليلات الأمير (المرجع السابق) .

شأفتهم ، فقبضت على الباب واعتقلته في قلعة (ماكور) باذربجان ، وأخرجوا (صبع أزرل) وأخاه (بها ، الله) إلى بغداد ، ثم أرسلوا إلى أذرنة بالاتفاق بين الدولتين العثمانية والفارسية ، ثم وقع الخلف بين الأخرين ، فأرسلت الدولة بها ، الله إلى قلعة (عكا) ، وصبح أزرل إلى جزيرة قبرص . وأما (قرة العين) فإنهم أخرجوها لعهد الباب نفسه إلى بغداد ، وأنزلوها في بيت الآلوسي مفتى بغداد .^(١)

وينفي الأمير شكب أرسلان ما قيل في شأن (قرة العين) هذه ، وقال إن الآلوسي قال عنها فيما بلغ (شكيب) ، (ما عهدها عليها من سوء) ، وقال أنها كانت تناظر المفتى الآلوسي وتباحثه وتدافع عن مذهبها ، ويروي عن (عباس أفندي) الملقب بعد البهاء ابن بها ، الله إمام البابية ، وابن إمامها ، أن قرة العين بما أوتيت من الذكاء والفضل ، وسرعة الخاطر ، كانت تعجز المفتى الآلوسي على غزارة علمه ، وزخور بحر فضله .^(٢)

وقد أعدم الباب في تبريز في ٢٧ شعبان سنة ١٢٩٦ هـ وفق ٨ تصوّز سنة

^(٣) ١٨٥.

٢ - البهائية :

ينقل الأمير شكب أرسلان في تعليقاته على حاضر العالم الإسلامي عن المسبو (هوارت Huart) المستشرق الفرنسي في فصل له على البابية في الإنسيكلوبديه الإسلامية الفرنساوية ما أخذه عن (بيان) الباب من تعاليم البابية دون أن يتعرض لهذا الموضوع بجرح ولا تعديل تاركاً عهده على رواته ، ثم ينقل عنه أيضاً ترجمته (البهاء الله ميرزا حسين على نوري) الذي نسب المذهب إليه فيما بعد فقبل (البهائية) فقال :

«إنه ولد في نور من بلاد السازندران في ١٢ نوفمبر سنة ١٨١٧ م ، ولما بلغ الثلاثين من العمر اتبع طريقة الباب ، وكان آخره من أمه ميرزا بحبي الملقب بصبع أزرل

قد أخذ بهذه العقيدة من قبل ، ولم يشاهد بها ، الله الباب بذلك لكنه أحبه بالغيب وصار أعظم مرتبة بل سبق الجميع في هذه العقيدة ، وشحط الأولين والآخرين في هذه الطريقة الجديدة ، حتى صار عند جمهور البابية هو خليفة الباب ، والمصلى بعد الإمام في المحراب ، وفي سنة ١٨٥٢م أبعدته الحكومة الفارسية إلى بغداد على أثر محاولة أحد البابيين قتل الشاه وتعاظم الفتنة ، فأقام بنواحي السليمانية معتلاً معتكفاً مشيراً إلى أنه هو الرجل الذي يشر بمجيئه الباب في قوله «من يظهره الله» ووضع هناك قواعد الدعوة التي تصدّعها ديانة عامة ثم نقل إلى أدرنة سنة ١٨٦٤م ، ثم إلى قلعة عكا في شهر أغسطس سنة ١٨٦٨م ، حيث أدركته المنية في ٢٩ مايو (أيار) سنة ١٨٩٢م ، تاركاً خلافته الروحية إلى ولده الأكبر عباس أفندي الملقب عبد البهاء»^(١)

«وأما عقيدته فاقامة بأن لا يُؤذى الإنسان أحداً ، وأن يحب الخلق بعضهم بعضاً ، ويتحملوا الظلم بدون مقابلته بالمثل ، ولا يستغلوا إلا بالخير ، وأن يوطّنوا أكتافهم ويعتنوا بأمر العرض»^(٢)

«والغاية من هذه الحياة هي السلام العام بواسطة هذا المذهب المجرد من الرهابانية والشعائر (التي يقال لها عند النصارى الطقوس) بل كل مدينة يلزم أن توسم لها معهداً للإجتماع تجلس فيه لجنة مديرية مكونة من تسعة أعضاء ، يقال لها «بيت العدل» ويكون دخل هذا البيت من التركات التي لا يوجد لها وارث ، ومن متاحصل الغرامات ، ورسم ١٩ في المائة على رأس المال ، ي يؤدي مرة واحدة لغيره»^(٣)

«ومنبع في مذهب التشفّف والتّبَيِّن ، لأن الله خلق الإنسان وأحل له الطيبات من الرزق»^(٤)

«وللبه ، تأليف أهلهما «الكتاب المقدس» (طبع في بمباي وبطربورغ) وكتاب

٣/٢/١ - تعليلات الأمير على حاضر العالم الإسلامي (المراجع السابق) جـ١ ص٣٥٥-٣٥٨ .

٤ - المراجع السابق ، وقد نقلنا هذا النص لظهور جهود المستشرقين في إبراز هذا المذهب وعناوينهم بترجمته وعرضه على أوسع نطاق .

«الإيقان» (ترجمة دريفوس وحبيب الله الشبرازى في باريس سنة ١٩٠٤) وطرازات كلمات فردوسية وإشارات وتجليلات (ترجمت في قواعد البهائية سنة ١٩٦٦م) «وكلمات مكتنون» (مطبوع بباريس سنة ١٩٥٥) و«دروس عكا» التي جمعتها ما دام كلبيفورد بارنادي ... و«النور الإلهي» (مطبوع بلندن سنة ١٩٠٨) ترجمة عن الأصل الفارسي المسمى دريفوس ...»

«ولدى فوس المذكور كتاب على البهائية وتاريخها وأثرها الاجتماعي وقد ذكرها (برandon) في كتابه «سنة بين العجم»

ويعلق شكيب أرسلان على النصوص السابقة بأنه نقلها عن المستشرق هوارت بدون زيادة ولا نقصان، والعهدة في كل ذلك عليه وعلى من نقل عنهم^(١).

ولكن الأمير يعود فيقرر «أن البهاء وأولاده بمقامهم هذه المدة الطويلة بعكا أصبحوا بأشخاصهم معروفين لدى أهالي بلادنا المعرفة التامة ، بحيث صفا جوهرهم عن أن تعتبره الجهة ، وامتنعت حقيقتهم عن أن تتلاعب بها حصاد الألسنة»^(٢)

ويؤكد الأمير شكيب أن البهاء في فترة إقامته (بعكا) كان يقضى وقته معتزلاً معتكفاً ، وأنه ما اطلع له أحد على سوء ، ولا مدعاة شبهة في أحواله الشخصية كلها ، ويروي (شكيب) أنه عرضت خصومة بين ولد البهاء ، (عباس أفندي) وبعض المتمولين على حدود أرض فوصلت إلى المرافعة فكتب البهاء إلى ولده : «يا عباس انتهز عن وترافعون على حفنة تراب !» فترك عباس الدعوى من فوره.^(٣)

أما أولاد البهاء فكانت أربعة السادة عباس ، ومحمد علي ، وضياء ، وبديع الله ، وفي عام ١٩٢٢م انتقل إلى الدار الآخرة عبد البهاء ، عباس ، وقد ذرف على الثمانين.^(٤)

١ - الرابع السابق ، وقد نقلنا هذا النص لنظهر جهود المستشرقين في إبراز هذا المنصب وعنايتهم بترجمته وعرضه على أوسع نطاق .

٤/٣/٤ - المرجع السابق .

ولقد بالغ الأمير شبيب كثيراً في مدح مزايا عبد البها، عباس أثنا، تأبىنه له ، وأشار في معرض ذلك إلى مسألة خطيرة ، وهي مراقبة نحر مائة وخمسين شخصاً من أتباع طريقة البها ، من الإيرانيين البها ، وأهله في منفاه في عكا ، وليس فيهم إلا صاحب صنعة أو عمل ، وقد هجروا أوطانهم حبا بجوار البها ، وأولاده ، وكان عباس أندى يكتفي بظله ويعاد جميعهم بفضله .^(١)

ويذكر شبيب أرسلان أنه اتصل بعد البها ، عباس أثنا ، إقامته في عكا ، وجمعت بينهما صدقة ومودة ، حاول شبيب أن يستثمرهما من أجل أن يتعرف على حقيقة العقيدة البابية . وصحة ما ينسب إليها ، فقصد عكا مراراً ولا غرض له سوى الاستماع إليه ، وسؤاله عن حقيقة مذهبها . يقول شبيب :

«ودارتْهُ مَرَّةٌ عَلَى الْكَلَامِ فِي مَوْضِعِ الْعَقِيدَةِ الْبَابِيَّةِ بَدْوِنَ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ رَأْسًا ، بَلْ كَنْتُ أَجِئُ إِلَيْهِ مِنْ بَابِ الْمَعَارِيفِ اسْتَطْرَاقًا ، وَأَحَاوَلْتُ أَنْ أَحْمِلَهُ عَلَى هَذَا الْبَيَانِ اسْتَطْرَادًا ، فَسَأَلْتَهُ عَمَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْمُسْكَنِ تَمْثِيلُ الصَّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ فِي أَحَدِ الْبَشَرِ بَدْوِنَ تَصْرِيفٍ ، إِلَى مَا يُقَالُ مِنْ كَوْنِ الْبَابِ أَوِ الْبَهَا ، هُوَ مَجْلِي الصَّفَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ عَلَى الْأَرْضِ ، فَأَجَابَنِي بِأَنَّ الصَّفَاتِ مَعْنَى ، وَالْمَعْنَى لَا تَجْسِمُ وَلَا تَتَشَخَّصُ ، وَأَنَّ الْمَجَرَادَاتِ لَا تَتَجَسِّدُ ، وَأَنَّا نَاضَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِالْتَّفَيِّ وَتَبَيِّنِ وَجْهِ الْإِسْتَحْالَةِ ، فَأَجَبَنِي : «فَلِمَاذَا يُقَالُ إِذَا أَنَّ بَعْضَ الْبَشَرِ يُمْثِلُونَ الصَّفَاتِ الْأَلَهِيَّةِ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ أَنَّهُمْ مَظَاهِرُ الْأَلَوَهِيَّةِ فِي الْخَلْقِ؟» فَقَالَ لِي : «لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَلَكِنَّ الْحَدِيثَ يَسْتَفِيدُ مِنَ الْقَدِيمِ بِقَدْرِ اسْتَعْدَادِهِ» وَكَرَرَهَا : «بِقَدْرِ اسْتَعْدَادِهِ ، بِقَدْرِ اسْتَعْدَادِهِ» فَفَهَمْتُ مِنْ هَذَا أَنَّ مَقْصُودَهُمْ هُوَ كُوْنُ بَعْضِ النُّفُوسِ مَسْتَعْدِدًا لِلْكَمَالِ أَكْثَرَ مِنْ سَوَاهَا ، فَهُوَ تَقْبِيسٌ مِنَ النُّورِ الْقَدِيسِ بِقَدْرِ صَفَاتِهَا ، وَأَنَّ هَذَا مَبْلَغُ عَقِيدَتِهِمْ فِي الْبَابِ أَوِ الْبَهَا ، أَوْ مَبْلَغُ عَقِيدَةِ عَبَّاسِ أَندِي نَفْسِهِ ، الَّذِي كَانَ فِي لِسُونِهِ مُتَكَلِّمًا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ عَقِيدَتُهُ عَقِيدَةُ الْعَوَامِ مِنَ الْبَابِيَّينِ^(٢)»

. ٤٠ - تعلقيات الأمير على حاصر العالم الإسلامي (المراجع السابعة) جـ ٦ ص ٣٥٩ - ٣٦٠

ويذكر شكيب أن عبد البها، عباس كان يشرح مرة عقيدة القضاة، والقدر فقال له شكيب : «إلا أن هناك من يقول في التعريف ما هو كذا وكذا» فقال عباس : «هؤلاء هم العوام» فقال شكيب له : «كلا بل من العلماء، من يقول هذا» فقال : «والعلماء، فبهم عوام أيضا» .^(١)

وأخيراً فبان شكيب أرسلان يرى أن من واجب المؤرخ أن يثبت أنه بعدهم (بها، الدين) وقع الخلف بين أولاده عبد البها، من جهة ، ومحمد علي أفندي ، وضبا، أفندي، ويديع الله أفندي ، من جهة ثانية ، وكانت دعوى عبد البها، أن إخوته نفروا عليه الرئاسة وهو أحق بها وأولى ، ودعوى إخوته أنه خالف وصايا والدهم في كثير من الأمور ، مما جعل النفرة والجفنة يتسلكان من قلب عبد البها، نحو إخوته ، حتى بعد أن سلما له ، وما زال على الضرر والهجران حتى توفاه الله ولم يعقب ولدا ذكرأ . فلم يستخلف أحداً من أخيه الباقيين ، وفضل عليهما حفيده من أولاد بنته فوقع الخلاف أيضاً بعد موته ، وانتقسمت الفرقـة البهائية إلى قسمين : منهم من يتمسك بوصية عبد البها ، ومنهم من لا يرى له حقاً في ذلك ، ويوجب إنتحـال الزعامة إلى أخيه السيد محمد علي أفندي .^(٢)

١ - تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامي (المراجع السابق) ج٤، ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

٢ - تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامي (المراجع السابق) ج٤، ص ٣٦١ .

نقد موقف الأمير شكيب أرسلان من البابية والبهائية

الدعوة البابية أو البهائية هي دعوة قديمة مجددـة شكلتها أصول متعددة من الفكر الوثني والفكر التلمودي اليهودي والتفكير المجنوسـي ، وهي واحدة من الدعوات التي ظهرت في إبان الاستعمار البريطاني بهدف إستطـاط فرضـة الجهـاد أو تعطيلـها ، وقد دخل يهود إيران هذه الحركة وحولوها وجهـة مختـلـلة بالماـسـونـيـة ، وتحـاـولـ البـهـائـيـة نـشـرـ دـعـوـة وـحدـة الأـديـانـ بالـخـرـوجـ عنـ أـصـوـلـهاـ للـدـخـرـلـ فيـ دـيـنـ جـدـيدـ ، يـقـولـ بـالـسـلـامـ الـعـامـ وـتـوـجـيدـ لـغـاتـ الـعـالـمـ وـمـسـاـوـةـ الرـجـلـ بـالـمـرـأـةـ ، وـاعـتـارـ العـبـادـةـ هـيـ الـعـمـلـ .^(١)

ولقد بنى الأمير شكـيبـ أـرسـلـانـ موقفـهـ منـ الـبـابـيـةـ عـلـىـ التـشـكـكـ فـيـماـ نـسـبـ إـلـيـهـمـ منـ عـقـائـدـ ، وـكـانـ يـقـولـ «إـنـاـ تـعـودـنـاـ مـنـ أـهـلـ الفـرـقـ الـكـبـرـىـ شـرـقاـ أوـ غـربـاـ وـفـيـ الـإـسـلـامـ أـوـ فـيـ النـصـارـاءـ ، أـنـهـ كـلـمـاـ خـرـجـ عـلـيـهـمـ خـارـجـ رـمـوـهـ بـكـلـ عـضـبـهـ»^(٢) وـذـلـكـ لـأـنـ «إـخـلـافـ العـقـيـدـةـ يـوـرـثـ التـبـاغـضـ وـالتـنـافـرـ مـاـ يـنـتـهـيـ بـوـضـعـ أـخـيـارـ كـثـيرـ لـاـ صـحـةـ لـهـ وـيـتـرـوـيجـهـ بـيـنـ النـاسـ حـتـىـ تـكـادـ تـصـيـرـ قـضـيـةـ مـسـلـمـةـ»^(٣) لـذـلـكـ سـعـىـ الـأـمـيـرـ شـكـيبـ إـلـىـ التـعـرـفـ عـلـىـ العـقـيـدـةـ الـبـابـيـةـ بـنـفـسـهـ مـنـ إـمامـهـ عـبـاسـ أـفـنـدـيـ الـمـلـقـبـ (ـبـعـدـ الـبـهـاـ)ـ ، كـمـاـ بـيـنـاـ ، وـقـدـ يـكـونـ الـأـمـيـرـ مـحـقاـ فـيـ مـنهـجـهـ فـيـ الـبـحـثـ عـنـ الـحـقـيـقـةـ وـفـيـ تـرـيـشـهـ وـتـشـبـهـ قـبـلـ حـكـمـهـ عـلـىـ إـحـدـىـ الـفـرـقـ الـتـيـ تـنـسـبـ إـلـىـ الـإـسـلـامـ ، وـلـكـنـ هـذـاـ السـنـهـجـ هـوـ سـاحـلـ نـظـرـ إـذـاـ كـانـتـ هـذـهـ الـفـرـقـ تـنـسـبـ إـلـىـ الـفـرـقـ الـبـاطـنـيـ الـتـيـ قـدـ يـظـهـرـ أـتـبـاعـهـاـ غـيـرـمـاـ يـعـتـقـدـونـ لـإـيمـانـهـمـ بـالـتـقـيـةـ وـالـقـوـلـ بـالـبـاطـنـ .

وـيـعـلـقـ الـأـمـيـرـ شـكـيبـ عـلـىـ الـفـتـنـهـ الـتـيـ أـهـدـتـهـ الـدـعـوـةـ الـبـابـيـةـ فـيـ الـعـالـمـ الـإـسـلـاميـ ، وـمـواـجـهـهـ كـثـيرـ مـنـ الـبـاحـثـيـنـ لـهـ ، وـكـشـفـ زـيـفـهـ فـيـقـولـ : «أـمـاـ مـنـ جـهـةـ تـعـالـيمـ الـبـابـيـةـ ، فـقـدـ اـخـلـفـتـ الـأـقـوـالـ كـثـيرـاـ ، وـطـعـنـ فـيـهـاـ أـنـاسـ كـثـيرـوـنـ ، مـنـ جـمـلـهـمـ السـيـدـ حـمـالـ الـدـينـ الـأـفـغـانـيـ ، وـلـعـلـ وـجـهـ الطـعـنـ فـيـهـاـ هـوـ بـرـوزـهـ بـشـكـلـ شـرـيعـةـ جـدـيدـةـ . حالـ كـونـ الشـرـائـعـ

١ - أنور الجندي ، محاولة لينا ، منهج إسلامي متكامل ، معجم ، ص ٣٩٣-٣٩٤ .

٢ - شـكـيبـ أـرسـلـانـ ، حـاضـرـ الـعـالـمـ الـإـسـلـاميـ جــةـ صـ ٣٥٢ـ (ـمـرـجـ سـابـقـ)ـ .

٣ - المرجـعـ السـابـقـ نفسهـ . جــةـ صـ ٣٢٨ـ .

كلها قد ختمت بالرسالة المحمدية ، فاما إذا تلقاها الإنسان على شكل وصايا وعذام ، كما هو شأن في الطرق الصوفية المتعددة ، فإنه يجد فيها كثيرا من الآداب السامية ، والمبادئ المعقولة»^(١)

ولكن البابية لم تكن مجرد آداب وبماديات معقولة فهي تدعوا إلى رحمة الأديان وتندعوا إلى رحمة الأجناس والشعوب ، وتحاول التشhir بعصر جديد يشرق على البشرية ، وهذا هو جماع ما حملته بروتوكولات صهيون ، ولا ريب أن كل دعوة تدعوا إلى رحمة الأديان والأجناس إنما تحاول عدم الإسلام لأن الدين الوحيد الذي يراد له أن يندفع وأن يننشر وعالمية الأديان لا تستهدف إلا القضاء على عالمية الإسلام^(٢) ، وهذه المعانى كلها مستمدة أساساً من التلمود ، وأبرز معانى البهائية إسقاط فريضة الجهاد وهي دعوة حين تنشر بين المسلمين لا تفيد منها إلا الصهيونية العالمية التي تعرّض على كلمات (الحرية والمساواة والإخاء)^(٣)

والبهائية في أنظمتها أقرب إلى الماسونية وقد وجدت مناخها في كل المناطق التي ضفت فيها بقظة الإسلام ، فقد استوطن البهائيون تركيا ، وعكا ، وحيفا قبل الحرب العالمية الأولى ، وكان لذلك أثره العميد في إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين^(٤).

ويقول شكيب : «ولسنا نعرف بالتدقيق عدد الفرقة البابية ، فعنهم من يقول أنهم زها ، مائة ألف نسمة في العجم ، ومنهم من يقول بل ١٥ ألفاً . ويقال أن منهم بالهند ، وبمصر ، وبين الإبرانيين المقيمين بهذه الحاضرة ، ومنذ نحو ٢ سنة أخذنا نسمع أن هذا المذهب انتشر بأمريكا ، وأنها قد ترجمت عقيدته إلى الإنجليزية ، وأخذ بها أناس كثيرون»^(٥)

١ - شكب أرسلان ، المرجع السابق نفسه . جـ٤ ص ٣٥٦ .

٢ - أنور الجندي ، محاولة لينا ، (مرجع سابق) .

٣ - د. مصطفى حلبي ، الإسلام والأديان ، ص ١٧٢ .

٤ - أنور الجندي ، محاولة لينا ، (مرجع سابق) .

٥ - شكب أرسلان ، حاضر العالم : الإسلام (مرجع سابق) جـ٤ ص ٣٦ .

الباب الثالث

الآراء الفلسفية عند الأمير شكبب أرسلان

الفصل الأول

نقد الأمير شكبب أرسلان للتفكير المادي الحديث

- تمهيد

- قضايا الإنسان في فكر الأمير شكبب أرسلان

٦٦

ونظرية التطور

- عمر الإنسان

- مذهب النشو، والإرتفا،

- مذهب النشو، والإرتفا، في الغرب

- مذهب النشو، والإرتفا، في الشرق العربي

- رأي الأمير شكبب أرسلان في المبادئ الشبوعية والإشتراكية

تمهيد :

في أواخر القرن الثامن عشر ، وفي أثنا ، القرن التاسع عشر بأسره ظهرت بعض النظريات ، أو الفروض العلمية العامة ، التي حاول أصحابها أن يفسروا بها نشأة الحياة على سطح الأرض . وكانت هذه الفرض فيحقيقة الأمر امتداداً لبحوث قام بها علم جديد هو علم طبقات الأرض ، فإن بحوث هذا العلم أثبتت أن المادة غير العضوية التي تتكون منها القشرة الأرضية مرت بأطوار عديدة ، وعصور جيولوجية حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن ، كما تدل على ذلك الحفريات التي تكشف لنا عن تكون طبقات أرضية متالية بعضها فوق بعض في آماد سحيقة .^(١)

ولقد راحت فكرة (التطور) في هذا العصر رواجاً كبيراً ، حتى أصبح يطلق عليه عصر التطور^(٢) ، ففي علم الأحياء ، أراد الباحثون أن يطبقوا فكرة التطور هذه على الكائنات العضوية كالنبات والحيوان ، وحاولوا إثبات أن ظهور الحياة يعتبر امتداداً لتطور المراحل غير العضوية في ظروف ملائمة ، لكنهم اختلفوا في السبب المباشر للحياة^(٣) ، وفي علم الأديان راحت نظرية التطور الأديان ، وفي عالم الفكر راحت نظرية تطور المبادي والنظم ، وسررت هذه الفكرة إلى كل ناحية ، فالعالمة والأخلاق والدولة تطورت ، وكل شيء في هذا الكون تطور ، وأصبح التطور يطلق على معاني التقدم والإرقاء ، وصار من وراء ذلك خلط عجيب لا يكاد ينجر منه إنسان .^(٤)

والحق أن أي بحث متعلق بتصور (الإنسان) وخصائصه الفريدة لا يمكن أن ينفصل عن الدين ، فنعني - المسلمين - نؤمن «أن المصدر الوحيد الذي بعدها يتحقق مؤكدة عن خلق الإنسان ومكانته وغايته هو القرآن الكريم ، ولذا عنى مفكرو الإسلام

١ - د. محمود قاسم ، جمال الدين الأفغاني حياته وعصره ، ص ١٧٥ .

٢ - فيس القرطاس ، نظرية داروين بين مزيفها ومعارضتها ، ص ١١ .

٣ - د. محمود قاسم ، جمال الدين الأفغاني (مراجع سابق) .

٤ - فيس القرطاس ، نظرية داروين (مراجع سابق) .

باستمداد نظاراتهم من القرآن مباشرة»^(١)

«مثال ذلك ما كتبه ابن تيمية في تفسير بعض الآيات القرآنية في هذا المجال مثال قوله تعالى : «وجعلنا من الماء كل شيء حي» ، وقوله عز وجل : «الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ما ، مهين» فما فعل الإنسان التراب وفصله الماء ، وهنا تظهر القدرة الإلهية التي تبشر العقول وهو أن يقلب حقائق الموجودات فيجعلها من شيء إلى آخر ، فإذا خلق الله الإنسان من المني ، فالمني استعمال وصار علقة والعلقة استعمال وصارت مضافة والمضافة استعمال إلى عظام وغير عظام .

فإنسان مخلوق خلقه الله - جواهره وأعراضه - كلها من المني أي من مادة استعمال فهي ليست مادة باقية أحدث الله فيها صورة الإنسان كما يزعم الفلاسفة .

و يقدم لنا الأصفهاني نظرة أخرى فيذكر أن الإنسان مركب من بدن محسوس وروح معقول مستندًا إلى قوله تعالى : «إنى خالق بشرا من طين فإذا سوتهم ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين» فالروح هي النفس ويرى أن إضافتها إلى الله تعالى تشريفاً لها»^(٢) .

«أما كمال الإنسان فيتتحقق في أن يكون مراده هو الله سبحانه وتعالى لأن من لم يكن عبداً لله فلا بد أن يصبح عبداً لغيره»^(٣) .

«وهكذا فإن «الارتفاع» في جوهره أخلاقي بحيث يصل الإنسان حينئذ إلى مستوى أفضل من (الملائكة) فلا يظهر الإنسان في ابتداء أحواله وإنما يظهر فضله عند كمال أحواله وليس أدل على ذلك من ثبات أحوال (الملك) الذي يتشابه أول أمره وآخره ، فالقاعدة الأساسية إذن إذا تكلمنا عن الرقي الإنساني وتقدمه الحضاري يمكن في

١ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمناهج الفلسفية ، ص ١٩١ .

٢ - د. مصطفى حلمي ، (المراجع السابق نفسه) ص ١٩٥-١٩١ .

٣ - المراجع السابق .

رقيه الأخلاقي وسبله إلى ذلك العريبة بالمفهوم الإسلامي ، وهي تعني تحرير الإرادة الإنسانية من سلطان الهوى والشهوات والسمو بالغرائز وتهذيبها خضوعاً لأوامر الله عز وجل «^(١)

وهكذا يضع (القرآن الكريم) الإنسان في موضعه الصحيح ، ويمنه من تعاليمه وأحكامه وحدوده وهذا بما يكفل له خير الحاضر والمستقبل ، وبما لا يستطيع عقيدة أخرى إمداده به .

ولن يستطيع ناصح أن ينصح أهل القرآن بعقيدة في الإنسان والإنسانية أصح ولا أصلح من عقيدتهم التي يستورونها من كتابهم الكريم «^(٢)

ولكن النظريات المادية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في أوروبا عن إرتقاء الإنسان ، وكونه حيواناً مترياً عما دونه من الحيوانات «لم يزل يختار بمرحلتين مرحلة في رحلته النوعية التي استغرقت ألفاً من السنين ولم يزل ينتقل من طور حيوان إلى طور آخر ، من (أميبا) إلى قرد ومن قرد إلى إنسان حتى بلغ كماله النوعي ، وزعم هذه النظرية وبطلها (دارون) الذي ظهر كتابه أصل الأنواع سنة ١٨٥٩م فكان حدث النواحي والمجامع والمدارس وشغل الناس الشاغل»^(٣) كانت هذه النظرية اتجاهًا جديداً لم يسبق في المسائل البشرية وما يتعلّق بها ، تقلب تيار الفكر وتصرف نظر الإنسان في الاستعلام والاستهدا ، في مسائله وفي تاريخه من الإنسان إلى الحيوان ، وتجعله يعتقد أن هذا الكون سائر بغير عناية إلهية ، وبغير أن تتدخل فيه قوة غير طبيعية .

إن مناقضة هذه النظرية للدين والعقل في المبادئ والغابات والنتائج الفكرية والخلقية وأثارها العملية واضحة ، بل كان هذا ديناً جديداً يهدم الدين القديم من الأسس ويحل محله ، فلا غرابة إذا إذا إضطرب لها رجال الدين وحسبوا لها كل حساب ، وخافوا على مصير الدين في أوروبا .^(٤)

١ - المرجع السابق .

٢ - عباس محمر العقاد ، الإنسان في القرآن ، ص ١٨٦ وما بعدها .

٣ - أبو الحسن الندوبي ، ماذا خسر العالم بانحطاط السنين ، ص ٢٠٨-٢٧ .

٤ - إبراهيم العسلي ، إسلام العقول ، ص ٣٣٣ .

وقد تصدى للرد على (مذهب التطور) هذا في الشرق الإسلامي عامه ، والشرق العربي خاصة نخبة من المفكرين وقاده الإصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان الكتابية ، وقد هالهم إقبال الجمهور والدهم ، على هذه النظرية في أوروبا - رغم ما فيها من ضعف ونقص من الوجهة العلمية - فهموها أو لم يفهموها - وكأن الأذهان كانت مهيأة لمثل هذه النظرية .^(١)

والشرق في ظل التخلف العادي والتتفوق الحضاري الغربي أصبح يعيش حالة من فقدان الثقة بالنفس والإضطراب جعلته مفتونة بتقليد الغرب وتلقى كل ما يصدر عنه من أفكار ونظريات ومفاهيم في شتى مجالات السياسة والإجتماع والعلم والتربيه وكأنها حفائط علمية لا مجال لمناقشتها .

لذلك كان إسهام رواد الفكر من المسلمين والمسيحيين ، وأصحاب الإجتهداد من أهل السنة والشيعة ، وأتباع الكنائس الشرقية والغربية في بلاد العالم العربي ضرورة ملحة ، وقد وصلت أصوات الردود التي كتبها المشهورون من أولئك المفكرين إلى أطراف البلاد الإسلامية في الهند والصين .

ومن أشهر من تصدوا للمذهب الشادي في العصر الحديث السيد / جمال الدين الأفغاني في كتاب (الرد على الدهريين) ، والشيخ / محمد رضا آل العلامة التقى الأصفهاني . وهو باحث فاضل من علماء الشيعة بكرها ، المعلى ، تحري النظر في مجموعة وافية من مراجع مذهب النشو ، والإرتقا ، العربية والأفرونجية التي وصلت إلى الشرق الإسلامي ثم رد عليها في كتابه (نقد فلسفة دارون) ، والاستاذ / إبراهيم حوراني - وهو عالم لغوي مطلع على المباحث العلمية - وقد ألف في الرد على مذهب دارون رسالة «مناهج الحكماء في نفي داروين» ، وطبعها بيروت (سنة ١٨٨٦م) ردًا على مناقشة «الدكتور شibli شمبل» لرسالته الأولى ، فنصب حملته الكبيرة على موطن الضعف في المذهب وهو افتقاره إلى الدليل القطعى وتعويذه على الشواهد التي توحى

١ - المرجع السابق نفسه . ص ٢٩ .

بالرأي ، ولا تستأهل الشكوك أو تسكت المعترض المطالب بدليلاً يضعفه الاحتمال^(١).

ولقد كان الأمير (شكي卜 أرسلان) واحداً من مفكري الإسلام الذين شعروا بخطر تأثير هذه النظرة العميقة على الأنماط والعقائد والحضارة والأدب والسياسة وفي أخلاق الناس .

لذلك حذر شكي卜 أرسلان العالم الإسلامي من الإستغراف في الفكر المادي الوافد من أوروبا ، ونسبان ما سوى القيم المادية ، وبين أن نتائج هذه المادوية الجارفة ، والتربيبة اللادينية التي ليست فيها نصيب للأخلاق ومخافة الله عزوجل ستؤدي إلى عبادة المادة ، والإنتقاد لشهوات البدن ، وضياء المثل العليا التي لا تتكون في الأذهان ، ولا تصير هدفاً للقرانع ومرمى للعزائم إلا عند المؤمنين بدين الله تبارك وتعالى.

كما قرر الأمير شكي卜 أن مذهب التطور أياً كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ، ليس فيه ما يصح أن يستند إليه الملحدون لإبطال الدين أو إنكار الخالق أو القول بخلو الكون من دلائلقصد والتدبير .

وإذا كان لانتشار هذه النظريات المادية في أوروبا أسباب حتمية دينية وطبيعية وتاريخية ، جعلت علماً ، الطبيعة والعلوم يحطمون سلاسل التقليد ويبطلوا نظريات التوراة من جهة تكوين الأرض وبدأ الخلق ، كما بينوا زيف النظريات الجغرافية التي اشتغلت عليها هذه الكتب وانتقدوها في صراحته وصراحة ، ومنها ما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمود وجهل واستبداد وسوء تمثيل ، فليس في الإسلام ما يدعوه إلى نبذ الدين ، ولا يوجد في القرآن شيء يخالف قواعد العلم ، بل إن في الرجوع إلى الإسلام والأخذ بما جاء في القرآن يزيد إيمان المسلم من شدة مطابقة آياته للتحقيقات العديدة ، ويحار فيها غير المؤمن بالوحى ، يقول شكي卜 أرسلان :

١ - عباس محمود العقاد ، الإنسان في القرآن (مراجعة سابقة) ص ١٢٢ .

«إن القرآن الكريم ليس بكتاب جغرافي ولا قوسنغرافية ، بل كتاب توحيد تنزيله ، وتهذيب نفوس ، وتطهير أخلاق ، ومع هذا فلم يرد فيه شيء يخالف قواعد العلم بل وجدت فيه آيات ببنات يعارض غير المؤمن بالوحى من شدة مطابقتها للتحقيقات الحديثة سوا ، في علم الفلك ، أو في علم تكوين الأرض مما كان في عهد نزول القرآن مجحولاً»^(١)

ويشهد الأمير شكيب بأيات من القرآن الكريم تنطبق على النظريات العلمية الحديثة التي ثبتت صحتها كحقائق علمية ، وذلك مثل آية :

«أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاء ففتقاهم وجعلنا من الماء كل شيء حي»^(٢) . ويدعو الأمير شكيب إلى تأمل ما في هذه الآية من الإبطاق على جميع النظريات العلمية الحديثة التي معناها أن الأرض والأجرام الفلكية كلها كانت كتلة واحدة فانفصل بعضها عن بعض ، وكذلك أن الحياة بدأت في المياه.^(٣)

وقول الله تعالى : «وكل في فلك يسبحون»^(٤) التي ثبتت أنه لا يوجد في الفلك حرم غير متتحرك على الإطلاق مع أن الفلكيين في عصر القرآن كانوا يقولون بالمسارات والثوابت ، حتى التجأوا يومئذ عند تفسير هذه الآية إلى التأويلات والإحتمالات البعيدة ، إلى أن تقرر في علم الهيئة الجديد كون الإجرام الفلكية بأجمعها متৎحة ، وصدقت الآية بدون أدنى تأويل.^(٥)

وقوله تعالى : «من كل زوج بهيج»^(٦) وكيف كرر ذلك مراراً حتى يفهم

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ مع ص ٣٤٥ .

٢ - الرابع السابق نفسه ، ص ٣٤٦ .

(١) ٢ - سورة الأنبياء ، آية : ٤٠ .

٤ - سورة هيس ، آية : ٤٠ .

(٦) ٦ - سورة الحج ، آية (٥) - سورة (٤) ، آية (٧) .

الإنسان أن الخلق كله من حيوان ونبات وجماد . مبني على الإزدواج حتى النبات فيه ذلك ، والجماد فيه القرantan السلبية والإيجابية مما لم يكن شيء منه معلوماً في زمن البعثة ، فلم يفهم العلماء بعد مرماه إلى أن تكللت به التحقيقات العصرية » (١)

« يذكر الأمير شكيب هذه الآيات البينات وغيرها من الآيات التي تدعش القارئ المتعلم بما فيها من الحقائق العلمية (بشرط أن يكون ذا ملحة عربية . يقدر بها أن يتذمّر عمّق غزو تلك الآيات لا أن يكون أجنبياً عن أدب العربية) » (٢)

وبهذا الفهم القائم على الإيمان بقدرة القرآن الكريم على المواجهة والتحدي أمام التفكير العادي الذي يلح على أن هذه الحياة الدنيا هي كل شيء ، وببالغ في تمجيدها وتقديسها الإحتفاء بها والعرض على ترفيهها وتزيينها يطلق الأمير شكيب أرسلان في تصوره للوجود والإنسان ، وفي نقهـة للمذهب السادي الحديث المتمثل في (نظريـة التطور) في شكلـها العلمـي والفلـسفـي وفي تطبيقاتـها المعاصرـة من خـلالـ الفكرـ الشـيـوعـيـ الذي أسـسـ فـلسـفـتهـ (كارـلـ مـارـكـسـ ١٨١٨ـ ١٨٨٣ـ) ليـتـ حلـقةـ التـطـورـ ، (وـيشـبـتـ بنـظـريـةـ التـطـورـ لـتـفسـيرـ التـارـيخـ ، أـنـ تـارـيخـ الإـنـسـانـ ، هوـ تـارـيخـ الـبـحـثـ عـنـ الطـعـامـ ، فـتـارـيخـ لـاـ يـعـدـوـ فـيـ قـيـمةـ الـحـقـيقـةـ ، أـنـ يـكـونـ تـارـيخـ أيـ حـيـوانـ يـقـنـاتـ عـلـىـ الـأـعـشـابـ أوـ يـقـنـسـ غـيـرـهـ مـنـ الـحـيـوانـاتـ) (٣)

وهكـذا جـحدـ (مارـكـسـ) جـمـيعـ تـواـحيـ الـبـشـرـيـةـ غـيـرـ التـاحـيـةـ الـإـقـتـصـادـيـةـ وـلـمـ يـعـرـ غـيـرـهـ شـيـئـاـ مـنـ الـعـنـاـيـةـ ، وـلـمـ يـقـمـ لـلـدـينـ وـالـأـخـلـاقـ وـالـرـوـحـ وـالـقـلـبـ وـحـتـىـ الـعـقـلـ وـزـنـاـ وـقـيـمةـ ، وـلـمـ يـعـتـرـفـ أـنـ أـحـدـاـ مـنـهـاـ كـانـ عـاـمـلـاـ مـنـ عـوـاـمـلـ التـارـيخـ ، وـأـنـ جـمـيعـ الـعـرـوبـ وـالـثـورـاتـ . فـيـ التـارـيخـ لـمـ تـكـنـ إـلـاـ ثـارـأـ لـبـطـنـ مـنـ بـطـنـ ، وـجـهـادـاـ فـيـ سـبـيلـ تـنـظـيمـ جـدـيدـ لـلـنـظـامـ . الـإـقـتـصـادـيـ وـطـرـقـ الـإـنـتـاجـ الصـنـاعـيـ . (٤)

١ - المرجع السابق نفسه ، ص ٢٤٦ .

٢ - فيس القرطاس ، نظرية دارلن بين متذمّرها ومحاربها (مرجع سابق) ص ١٧٣ .

٤ - أبو الحسن النوري ، مذا خسر العالم . (مرجع سابق) ص ٢٧ .

وشكيب أرسلان يرى أن الإسلام ليس بحاجة إلى (الشيوخية) لأن المبادئ الإسلامية فيها ما هو خير من الشيوخية ، والشرعية المساوية أقرب إلى المساواة ، وأرقى بالضعف ، وأحدب على الفقر من القوانين البشرية .^(١)

كما يرى شكيب أرسلان أن الإسلام وحده هو القادر على صد الصادمة العارفة ، «في الإسلام ، الطاقة الإيمانية عقلية في أكثر أحوالها ، تعتمد على الرشد والتفهم والمحاكمة ، وقد أمدتها هذا العصر العلمي الأخير بمدد لا يقى من الحجج والبراهين ، وهكذا يصبح من السهل استعادة استقلالنا في مجال الأفكار»^(٢)

ولن يتحقق هذا الاستقلال إلا بابعاد صورة من التماسک السياسي للدول الإسلامية ، وإعادة النظر في أساليب التربية ومناهج دراسة الثقافة الأوروبية ، وبعث (مدنية إسلامية) تنقذ أجيالنا من تشرب روح المدنية الغربية .

١ - شكيب أرسلان ، مجلة المجتمع العلمي العربي ، المجلد ٤ ، ص ٥٣٥ .

٢ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمناهج الفلسفية ، ص ٢ .

قضايا الإنسان في فكر الأمير شكيب أرسلان ونظرية التطور

عمر الإنسان

إن تغير الزمان الذي مضى على ابتداء حياة الإنسان على وجه الأرض مرتبط بكل بحث عن أصل الإنسان في جميع المذاهب ، ومن أكبر الديانات التي عرضت لتاريخ الخليقة الديانة اليهودية التي قدرت عمر البشرية بخمسة آلاف أو سبعة آلاف سنة [١] ، وظل هذا الإعتقد شائعاً حتى نهاية القرن السابع والثامن عشر دون أن يعرض لعلماء الغرب من مباحث الدين أو العلم ، شيء يدعوه إلى تغيير عمر الخليقة يزيد على ستين قرناً بحسب السنين الشمسية ، ثم تابعت الكشف عن ظواهر الطبيعة فيما تناولتها العلوم الحديثة ، فتضاعلت هذه القرون الستون حتى أصبحت كلمحة البصر الخاطفة [٢] بالقياس إلى أممار الكائنات السماوية والأرضية . وقد أوقعت هذه الكشف علماء أوروبا في مشاكل من جهة تطبيق هذه النظريات على التوراه ، وقد انقسموا في البحث عن حل لهذا المشكل إلى ثلاث فئات بين كلامهم الأمير شكيب فقال : إن الفئة الأولى حلت هذا المشكل برفض التوراة بتناها وهو لاء هم الفئة التي لا تقول بالأديان ، والفئة المسماة بالإلهينيين وهم الذين يعتقدون بوجود الصانع ولا يقولون بالتبوعات . والفئة الثانية بقى متمسكه بالديانة المسيحية ولكن مع الاعتقاد بأن التوراه دخلها تعريف كثير وأن فيها كثيراً مما أدخله اليهود .

وهناك الفئة الثالثة التي لا تقبل التأويل والتخرير في التوراه ولا ترضى بأن يقال أن فيها من أرواح اليهود - وبالتالي فليس من التزيل - كما أنها لا ترضى أن يقال بأن الكتب المنزلة إنما تخاطب الناس على قدر عقولهم وتتجنب التصريح بما هو فوق أفهمهم خشية الفتنه ودخول الشك على العقائد ، وهذه الفئة الثالثة هي الفئة المتدينة الباقية إلى اليوم على العقائد التي كانت عليها النصرانية في القرون الوسطى وهي التابعة للكنائس سواء كانت الكنيسة الكاثوليكية ، أو الأرثوذكسية ، أو البروتستانتية [٣] .

[١] المصادر اليهودية ، على حسب تحقيق الفقيه (جيمس بوشر) المتوفى سنة ١٩٥٦ م تدل على ابتداء الخليقة في شهر أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق.م ، وقد شرح أسفاؤه التي يبني عليها هذا التقدير في كتاب صخم سماه السجلات القديمة ، والآمده الجديد ... (عيال العقد - الإنسان في القرآن ص ٧٠) .

[٢] عيال العقد - الإنسان في القرآن ص ٧ . [٣] شكيب أرسلان / ابن خلدون / ملحق الجزء الأول ص ٣٠

وفي العصر الحديث ظهرت فئة من المفكرين الغربيين المنصفين نذكر منهم مفكرين فرنسيين كبارين هما الدكتور (روجييه جارودي) والدكتور (موريس بوكاى) اللذين أنتهى بهما تفكيرهما إلى اعتناق الإسلام والتبرير به فيما يقدمانه من بحوث ومحاضرات [١] .

وقد خلص (موريس بوكاى) الطبيب الفرنسي الباحث في دراسته القيمة (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم) إلى القول بأن سفر التكوين يتضمن أكثر المتافقات وضوها مع العلم الحديث ويحصرها في ثلاث نقاط جوهوية :

(١) خلق العالم ومراته .

(٢) تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض .

(٣) رواية الطوفان [٢] .

وأهم ما يعنينا في هذه النقاط الثلاث هو تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض فيقول (موريس بوكاى) : إن التقدير العبري الوارد بالعهد القديم يحدد تاريخ خلق العالم بسبعين وثلاثين قرنا قبل الميلاد ، وهو مخالف تماماً لما تعرفه بواسطة العلم الحديث إذ من العسير معرفة ما يتعلّق بخلق الكون ، وكل ما يمكن تحديده على وجه التقرير هو تكون النظام الشمسي تقريراً باربع مليارات ونصف من السنوات [٣] .

كذلك أخطاء التوراة في سفر التكوين عندما حددت الفترة الزمنية التي تفصل بين إبراهيم وأدم عليهما السلام - فادت إلى الزعم بأن آدم عليه السلام كان قبل المسيح بعشرين وثلاثين قرنا .

وقد ثبت أن هذه التقديرات الوهمية من عمل الكهنة اليهود في القرن السادس قبل الميلاد ،

وتعارض مع المكتشفات العلمية التي حددت تاريخ الخلق بعصر سابق بكثير [٤] .

ويقرر (موريس بوكاى) بأنه لا أحد يستطيع أن يحدد بشكل دقيق تاريخ ظهور الإنسان ، ومع ذلك فيمكن التأكيد بوجود أطلال الإنسانية مفكرة وعاملة وبحسب قدرها بوحدات تكون من عشرات من الألف السنين .

وعلى أي حال فإن المعطيات العلمية تسمح بتحديد تاريخ الإنسان أبعد بكثير من العصر الذي يحدده سفر التكوين لأوائل البشر [٥] .

[١] د. التهامي نقرة ، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، ج ١ ص ٣٦

[٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] د. مصطفى حلمي ، الإسلام والأديان ، ص ١٥١ إلى ١٥٤

هذا في موقف علماء الغرب مما جاء في اليهودية والنصرانية من تحديد لعمر البشرية، أما عن موقف القرآن الكريم مما جاء عن عمر الإنسان بتقدير العلوم المصرية فلن الأمير شكيب أرسلان يقرر أن القرآن الكريم لم يوجب على المسلم مقداراً محدوداً من السنين لخلق الكون أو لخلق الإنسان فلا تناقض بين الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أبواء البشر كما هو منصوص عليه في القرآن وبين تقدير تاريخ الإنسان على الأرض بالWolf السنين بدلاً من العشرات أو الأحاد . يقول شكيب "إن الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أبواء البشر هو منصوص عليه في الكتاب ، فاما المدة التي ضربها أصحاب التوراة لوجود الإنسان فليس في القرآن الكريم شيء يدل عليها ، بل هناك الآية الكريمة (ما شهدتم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) "[١] .

ومع كثرة الدلائل التي وصلت إلى كشفها الجيلوجيا الحديثة تحت طبقات الأرض وفي أحواضها من العظام البشرية والمصنوعات اليدوية من صنع الإنسان القديم إلا أن العلماء لا يزالون يقررون بأن معلوماتهم مفتقرة إلى الإكمال ، فليس من المحقق أن يوغل التاريخ في القدم إلى كل تلك الألوف من السنين ، ولكن المحقق أن يغاليها إلى تلك الدهور كلها أو ما هو أقدم منها ليس بالأمر المستغرب .

يقول الأمير شكيب : " إن الذين جزموا بقدم عهد الإنسان بناء على ما كشفوه في باطن الأرض ، وما نقبوا عنه في الكهوف والغابات ، وما عثروا عليه عرضاً واتفاقاً في قيعان البحيرات ، لا يزالون يقررون بأن معلوماتهم مفتقرة إلى الإكمال وأنه لا يصح الجزم بالنظريّة الإجمالية التي معناها كون الإنسان وجد ، لا من خمسة آلاف سنة ولا من سبعة آلاف سنة ، بل من أضعف هذا العدد من السنين " [٢] .

والمتحقق كذلك أن الإنسان القديم الذي دلت عليه تلك البقايا ، كان يستخدم الآلات الحجرية ، ويستعين في كفاح أعدائه من الحيوانات الضاريه بنصيب من الذكاء لم يكن معهوداً من حيوان منها ، وأنهم استولوا على ذلك بوجود حجارة مقصولة على شكل الفوزوس كانوا يجهلون في أول الأمر حقيقتها وكانت العامة تعتقد بأنها حجارة تتكون من السحاب " [٣] .

[١] المرجع السابق من ٣٢ و الآية رقم (٥١) من سورة (الكهف)

[٢] شكيب أرسلان / بين خلدون / ملحق الجزء الأول من ٣٢

[٣] المرجع السابق من ٣٢

"ولما قال بعض علماء القرون الوسطى بأنها من صنع أيدي البشر رفضوا كلامهم ومنذ مائة سنة توالت الأدلة بكثرة ما وجد من هذه الحجارة في أعماق متفاوتة تحت التراب ، وتحت الماء ، ومنها ما سبقت من فوقي الأشجار ، ومنها ما تكونت من فوقه المعادن ، فحسب علماء الأزمنة الحديثة مايسلزرم وجود هذه الطبقات المتراكمة فوق تلك الأدوات التي صنعها البشر الأوائل من الزمن الطويل والدهور والدهارير فحكموا بأنه لا بد لذلك من عشرات ألف من السنين "[١] . فالإنسان منذ أقدم عهوده معز بالعقل والنطق وهو صفتان انسانيتان لافتراض عن استخدام الآلة ولاغن الخاصة المميزة للحيوان الناطق من اعتدال القدرة ومطابعة اليد للإرادة في حالات المشي والوقف ، ولو لا ذلك لما استطاع الإنسان أن يستخدم السلاح وأن يصنعه لإصابة الحيوانات الضارية من بعيد . ويؤيد هذا أن الاستدلال على وجود الإنسان في الأعمر المختلفة لم يقع بالرغم البشرية فحسب " بل وجدت له آثار أخرى وألات وتصاوير يحكم على وجوده بوجودها والأثر يدل المؤثر "[٢] . هذا هو رأى الأمير شكيب عن لبداء حياة النوع الإنساني وهو مرتبط بليمانه بأصل الإنسان كما جاء بالكتاب ، أما الإنسان المتمدن فإن الأمير شكيب يدعو إلى عدم إهمال الأخبار القديمة التي يرويها الأقدمون عن ماضيهم البعيد في حياة الثقافة والحضارة الرفيعة فهي جزء من تاريخ الإنسان وليس لنا أن ننقضها بغير دليل ، ولا ينبغي أن نحملها محمل الأساطير والأقصيص الوهمية ، فإنه منها كان التواتر قد تداخله لقول عامية ، وآراء ساذجة ، فإنه يرجع إلى نضاب صدق في الأصل لأشبه فيه في مجموعه "[٣] . ويستشهد الأمير بقضية تاريخ جزيرة العرب "[٤] ، فإن تاريخ العرب الأوائل لم يبدأ

[١] شكب ارسلان / ابن خلدون / ج ١ ص ٣٢

[٢] المرجع السابق ج ١ ص ٣٣

[٣] المرجع السابق ج ١ ص ٤٥

[٤] القضية الأصيلة ، ارتقاء مدينة العرب إلى درجة علينا في العصر متوجلة في القلم .. وهذا يثبت استحالة صحة روایة الطوفان الواردة في التوراة : وتوضیح ذلك أن الطوفان حسب تقدیر هذه الروایة وقع في القرن الـ ٢١ أو الـ ٢٢ ق.م ، أى في العصر الذي كانت ظهرت فيه في نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التالية ، وهو ما تؤكد المعرفة التاريخية الحديثة ، وعلى ذلك ينصح أنه لم يحدث انقطاع في هذه الحضارات ، وبالتالي لم تفن البشرية كلها كما تقول التوراة . وفي ضوء ذلك كلة - كما يرى مورييس بوکاى - فإن النصوص التوراتية التي وصلت إلينا لا تعبر عن الحقيقة ، بل هي من وجود تحريف بواسطة البشر ... (موريس بوکاى : القرآن الكرييم والتوراة والإنجيل والعلم) عن (الإسلام والأديان) مرجع سابق ص ١٥٥-١٥٦.

في الحقيقة إلا منذ بدأ السياح الأوربيين بالاطلاع على الكتابات المنشورة على الأحجار وأخذوا ينظرون فيها إلى أن تمكنوا من حلها وفهم معانها ، فمنها ما وافق كتابات المورخين ، ومنها ما اختلفوا عنها ، إلا أن الكتابات قد جاءت بالجملة مؤيدة للتاريخ ، ولم يبق شك في صحة المجموع وإن وقع اختلاف في التفاصيل [١] .

فالامير شكيب يرفض منهج المحدثين في تعاملهم مع كل رواية تختلف من العصور الأولى وانتقلت إلى العصور الأخيرة على أنها في عداد الأساطير ، ويرى أن الكشف عن الكثيرة التي تعاقب خلال القرن التاسع عشر وبين منها أن روایات الأقدمين لم تكن كلها من قبيل الأساطير يجب أن تكون عبرة درسا للباحثين " لأن الرفض بغير برهان أضر بالبحث من القبول بغير برهان ، لأن الذي يجزم برفض خبر قديم إنما يحكم بالاستحالة على المكناة الكثيرة التي تجوز ولا تمنع في العقول ، وخير منه - عقلا - من يقبل شيئاً ممكناً وإن لم يقم البرهان على وقوعه فعلاً كما وقع بغيره من المكناة " [٢] .

فالامير لا يستبعد قيام حضارات إنسانية في أزمنة موغلة في القدم كما جاء في الأخبار القديمة وإن لم تكشف بعد الآثار التي تحدد متى ظهر هذا الإنسان المتعدد - إنسان الحضارة - [٣] على نحو دقيق ، إلا أن مسألة وجود الإنسان المتحضر قبل عصور التاريخ مرتبطة بالبحث عن أصل الإنسان ومكتبه من الدين ، وينجلي من خلالها موقف الأمير من مذهب التشوه والارتقاء أو للتطور .

مذهب التشوه والارتقاء

تعرض الأمير شكيب أرسلان لمذهب التشوه والإرتقاء في تعليقاته على ابن خلدون ، وحيث الناشئة من الأمة الإسلامية على أن يطالعوا هذا المذهب وغيره مما جد من النظريات المحدثة ، ويقارنونها بالنظريات القيمة ليظلوها على وعي بكل فكر جديد في المجتمع الإنساني [٤] . فالامير يرى أن من أهم العلوم وأذناها مطالعة الواقع على كيفية نشوء مبادئ الحضارة الإنسانية ووضع أصولها ، ولكن ليس معنى هذا أنه مقتطع بكل ما جاء في

[١] شكيب أرسلان / تعليقات على ابن خلدون ، من ٨٥

[٢] عباس محمود العقاد / الإنسان في القرآن ص ٧٦

[٣] لسان الحضارة ذلك الإنسان الذي عرف التشريع ونظم العامة وسخر الحياة . المرجع تسلق من ٧٤

[٤] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول ص ٣٦

نظريّة التطور ، بل دفعه حرصه على الایقون الناشئة شئ ممّا يجب معرفته على أهل هذا الزمان ، ولو من قبيل العلم بالشيء ولا الجهل به ، إلى اضافة تلك الأفكار الجديدة والنظريات التي لم تكن معروفة في أيام ابن خلدون ، أو كانت معروفة ولكن عند غير أتباع الأديان الثلاثة : الإسلامية ، والنصرانية ، واليهودية إلى تاريخ ابن خلدون حتى يظل صالحًا لكل الأعصر [١] .

والملاحظ أنّ الأمير يتلوّل جانبًا واحدًا من جوانب نظرية التطور ، فيتعرّض لمن يقصرون التطور على الأحياء أو الجانب المتعلق بعالم الكائنات الحية العضوية التي تستعمل على النبات والحيوان والإنسان ، ولا نحيط بما عدّها من الموجودات غير العضوية ، ولابيّنّ تعرض الأمير لمن يعمّ تطبيق النظرية على الكون كله بماشتمل عليه من مادة وقوّة .. وهو لاء "القاتلون بالتطور العام يواجهون مسألة الإيمان بالخلق ، في كلامهم عن العالم وعن القوى المسيرة له من خارجه أو داخله ، ... ولابد للقاتلن بتعصيم التطور من الفصل في مسألة البداية والنهاية ... وهي لاتتنفصل عن مسألة الخلق والخلق في جملتها" [٢] .

"أما الذين يقصرون التطور على الأحياء ، يرجعون في تعليل تطورها إلى عوامل الطبيعة ، وما تسلّمة من مؤثرات البيئة والمناخ وموارد الغذاء ووسائل الحصول عليه ، ولا يضرّهم القول بهذا التطور إلى التعرض لما وراء هذه العوامل الطبيعية باثبات أو انكار" [٣] .

ومن أشهر علماء هذا المذهب العالم الإنجليزي ، شارل دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) الذي يشير إلى الحد الفاصل بين البشرية والحيوانية أو مدى سرّيان التطور على الجنس البشري فيقول إنه "يتكلّم عن الأطوار التي تؤثّر في جسد الإنسان ولا شأن له بما عدا ذلك من الملائكة الروحية التي يقرّرها له الدين" [٤] .

وببناء على هذا فإنّ الأمير شكيب يقرّر في بدایة حديثه عن أصل وجود الإنسان على وجه الأرض ، "إن الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أباًوا البشر هو منصوص عليه في الكتاب ، فاما المدة التي ضربها أصحاب التوراة لوجود الإنسان فليس في القرآن الكريم شئ يدلّ عليها

[١] تاريخ ابن خلدون ملخص الجزء الأول من ٣٢

[٢] عباس محمود العقاد ، الإنسان في القرآن من ٨٠

[٤] المرجع السابق من ٨٩

بل هناك هذه الآية الكريمة ((ما شهدتم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم))^[١] فلاتعارض بين اعتقاد علماء أوربة بمناث التوف من السنين مضت على وجود الإنسان بفضل عن وجود المادة الأرضية نفسها وبين البداية التي يقررها القرآن بآدم وحواء، ثم لا يذكر عدد السنين التي مرت على الإنسان ، وهى النظرية الاجمالية التى يصح الحزم بها والتى معناها كون الإنسان وجد ، لا من خمسة آلاف سنة ، ولا من سبعة آلاف سنة ، بل من أضعاف هذا العدد من السنين بينما تبقى نظريات التشوينيين الذين جزموا بقدم عهد الإنسان وتتطوره بناء على ما كشفوه فى باطن الأرض ، وما نثروا عنه فى الكهوف والغيران ، وما عثروا عليه عرضا واتفاقا فى قيعان البحيرات ، يقول شكيب إن معلوماتهم مفتقرة إلى الإكمال^[٢]

ثم يستطرد الأمير فى عرض الأدوار التي قسمها علماء الغرب للعدة التي قضتها الإنسان منذ وجد على سطح الكره إلى أن صار معروفا عند أعقابه فيقول إن اقرب الأدوار التي يزعم علماء أوربا الذين لا يقيدون بالكتب الدينية أنهم وجدوا عظاما بشريا تدل على إمكانية

(١) تعليقات الأمير على ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص ٣٢ - آية : ٥١ سورة الكهف

ولهذه المطابقة بين دقة الإشارات الخاصة بالظواهر الطبيعية في القرآن الكريم وبين المعارف العلمية الحديثة . أقدم الدكتور (موريس بوكاي) على عقد مقارنة بين نصوص كتب اليهود والنصاريى وبين القرآن الكريم ، وخلص منها إلى التأكيد بأن القرآن هو الوحي الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل - عليه السلام - وقد كتب فور نزوله وبحفظه و يستطيعه المسلمون عند الصلاة ، وأنه لا يحتوى على مغولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث . (د. مصطفى حلمي ، الإسلام والأديان) [١٤٨] مرجع سابق ص ١٤٨

وتقى قدم (بوكاي) نتيجة بحثة التي تشرف أهل العلم فقال : << كان هدفي الأول هو قراءة القرآن ، ودراسة نصمة آية مستعيناً بمختلف التعليقات الازمة للدراسة التقدمة وانتبهت شكل خاص إلى دقة بعض الإشارات الخاصة بالظواهر الطبيعية . وطبقتها على المفاهيم التي تمنكتها اليوم عن هذه الظواهر نفسها ، والتي لم يكن لأى إنسان في عصر محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون عنها ادنى فكرة ، ثم ثرأت إثر ذلك مؤلفات كثيرة خصصها كتاب مسلمون للجوانب العلمية في القرآن ، وعلى حين نجد في التوراة أحطاء علمية فادحة ، فإننا لا نجد في القرآن أى خطأ...>>

وينتهى بوكاي إلى تقرير تلك الحقيقة : << ... ليس هناك أى مجال للشك : فنص القرآن الكريم الذى نملك اليوم ، هو النص الاول نفسه و من ذا الذى كان فى عصر نزوله يستطيع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون تقافتا العلمية ؟ فقا ابن فى إشارات القرآن قضايا ذات صفة علمية تثير الدهشة >>

(موريس بوكاي ، القرآن والتوراة والعلم ، ١٤٤ ١٤٨) ط دار المعارف بمصر ١٩٧٧.

[٢] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ج ١ ص ٣٢ ، ٣٦

توارد الإنسان في هذا الدور ، هو الدور الرباعي ويقال له الجلدي " ولم يقع الاستدلال على وجود الإنسان في تلك الأعصر بالرغم البشرية فحسب بل وجدت له آثار أخرى من أدوات وألات وتصاوير يحكم على وجودها وبوجودها والأثر يدل على المؤثر . فالإنسان وجد في "واسط أوربة - مثلا - معاصرًا للماموث والرنة " [١]

" وبعد بحث وتنقيب واختلاف بين العلماء الجيلوجيين اصطلاح الأوروبيون على قسمة الأدوار التي يعرفونها عن الإنسان إلى ثلاثة . وهذه الأدوار الثلاثة هي عبارة عن المدة التي مضت في بداية العصر الجلدي إلى أن أصبحت الحالة الجوية مقاربة لما هي عليه أوربة اليوم . ويقدرون هذه المدة بألف قرن - أي مائة ألف سنة - [٢]

ثم يعرض الأمير لاختلافات التي وقعت بين علماء أوروبا حول الدور الذي ظهر فيه الإنسان ، مثل ذكرهم الدور الثلاثي الذي سبق الدور الرباعي أو الجلدي واختلافهم حول إمكانية ظهور الإنسان في هذا الدور وتحمله مالم تتحمله الحيوانات الكبيرة وفي عدم امكان ذلك . بعضهم ذهب إلى أن الإنسان وجد في الدور الثلاثي بدليل وجود أدوات حجرية لا يمكن صنعها إلا بيد مخلوق هو على شيء من العقل ، وذهب المنكرون لوجود الإنسان في الدور الثلاثي إلى أن الأدوات المذكورة هي أحدث عهدا من ذلك الدور " [٣]

ثم ينتهي الأمير إلى القول أن المفروض - مع الترجيح التام - أن الإنسان وجد في " الدور الرباعي .

ثم يسوق الأمير الأدلة والشواهد التي اعتمد عليها أصحاب نظرية التطور لإثبات أن الإنسان وجد في العصر الرباعي ولكن على نحو أدنى من البشر الموجودين الآن ...

[١] [٢] ، [٣] تعليقات الأمير شبيب على ابن خلدون ج ١ ص ٣٢ ، ٣٣ .

فاما من بقايا العصر الرباعي فقد وجدوا أكثر من رمة واحدة ، ووجدوها كلها مشابهة ، منها واحدة وجدت في جبل طارق ، وأخرى في (Spy) من بلجيكا ، وأخرى في فرنسة ، ووجدوا من هذا النوع نفسه في أفريقيا الجنوبية في روبيزيا ، فثبتت من شبابه جميع هذه الرمم وجود طبقة بشرية في الدور الرباعي المذكور ، اصطلاح العلماء على تسميتها بطبقة (نياندرتال Neanderthal) وذلك لأن أول مثال منها وجد في واد اسمه وادي نياندرتال في المانيا [١] .

ولقد تأكّد العلماء أن أصحاب هذه الرمم بشر بما وجدوه معها من أدوات مصنوعة بالأيدي لا تدع شكًا في بشريتهم ، ولكن كانت رؤوسهم مشابهة جدًا لرؤوس الحيوانات ، وكانت الجمجمة مسطحة ، والجبهة ضيقة ، وكان القسم الأدنى من الرأس ضيقا ، والوجه عريضا ، والفكان ثالثين إلى الأمام ، والتقطيع غير منتظمة ، والعيون كبيرة ، والأذن عريضا مع ضيق في مركزه ، والذقن منقبضًا ، وغير ذلك من الملامح التي تثبت أن طبقة "نياندرتال" هي من الطبقات البشرية ، ولكنها أدنى من البشر المعاصرين الآن...". وبالاختصار أدمى نياندرتال مكانه هو بين القرد والإنسان الأخير .. [٢] .

وهنا تظهر مشكلة الإنسان الأول ، فعلماء النشوء والارتقاء يقولون : "إن بشسان نياندرتال هو على شبه كثير مع القردة المسماة أنتروبونيد Anthropoide" ولكن ثبت أن هذا النوع من الإنسان وجد في أواسط الدور الرباعي ، ولهذا لا يمكن أن يقال إنه أقدم نوع من البشر ، لأنه قد ثبت وجود أثار الإنسان في أوائل الدور الرباعي.. [٣] .

يقول شكب بن العلماء عندما وصلوا إلى هذه النقطة صاروا يتساءلون كيف يمكن التلقيق بين هذين الأمرين؟

"ذهب هيكل " Heackel الألماني من أقطاب علماء النشوء والارتقاء إلى أن الإنسان لم ينحدر من القرد المعروف ب شباهه للإنسان الذي يقال له "أورانج أوتان" [٤]

[١] : [٤] تعليقات الأمير شكب على ابن خلدون ج ١ من ٣٤ : ٣٥ / orang-outang

هذه كلمة من لغة الملبو مرکبة من مقطعين (أوران) أي رجل و (أوتان) اي غابة ، وهو قرد يشبه الإنسان لا ذيل له ، ولا أشدق مملأة ، وهو يعيش في جزيرتي بورنيو و سومطرة ، ويمكن استثنائه إذا كان صغيرا ، كما يمكن تدريية على تادية بعض الخدمات ...

(د. محمود قاسم . جمال الدين الانفتاحي حياة وفلسفة . ص ٢٠٦)

وقال أصداد نظرية النشوء والارتقاء انه لايزال بين أقدم الطبقات البشرية وأقرب القردة إلى الإنسان مسافة شاسعة ، ولذلك يفترض وجود طبقة متوسطة وسموا هذا النوع بـ "بيتكانتروب Pithecanthropus" ذذهب بعض علماء أوربة إلى أنه إن كان قد وجد شيء بين آدمي نياندرتال وبين الأدمي المسمى بـ "بيتكانتروب" وبين هذا القرد المسمى أورانج أوتان ، فليس يستطيع ذلك حتماً أن يكون الإنسان الحاضر هو من هذه السلائل ، بل إنسان نياندرتال انفرض في أواسط الدور الرباعي ولم يترك بقايا" [١] . ثم يواصل الأمير في وجوه الخلاف بين علماء النشوء والارتقاء وبين خصومهم الذين قالوا : إن الآثار البشرية التي عثروا عليها لاتصلح حتى الآن مداراً للحكم ، وخالفهم الذين قالوا إن بين إنسان نياندرتال والإنسان الحالي وجوه شبه كثيرة وأنه لايمكن الحكم بالتقراض إنسان نياندرتال وتبعد منه إنساناً من نوع آخر أكمل من الأول وهو الذي سموه بالإنسان العاقل "Home Sapiens" [٢] . ويعلق الأمير شكيب بقوله : "فإذا ثبتت نظرية الإنسان العاقل هذا فيكون قد انقطع ما بين الإنسان الحالي وبين الإنسان الأصلي الذي عاش في النصف الأول من الدور الرباعي والذي يشله القرد كثيراً" [٣] . بعد سلالة نياندرتال أخذ الأمير في تعداد السلالات البشرية التي افترض علماء النشوء والارتقاء وجودها بناء على الرمم التي وجدوها في أوروبا ، فذكر اسم كل سلالة والمكان الذي عثروا على بقاياها فيه وصفة الهيكل الخاص بكل نوع والذي يدل على مدى قرب أو بعد صفات كل سلالة من هيئة الإنسان الحالي . وقد اختلطت هذه السلائل بعضها ببعض ، وما زال الإنسان يتكمّل إلى أن صار كما هو الآن ، وما زال يزداد بسطة في العلم والجسم ، وقد بدأ بأن يصنع بيده في الدور الرباعي وهو ما يسمى "بالدور الحجري" فقد وجدوا حجارة مقطوعة من أيام هذا الدور ، ثم بگرور الزمان صار الإنسان فيها يعمل بيده ، وقد وضعوا لكل قسم اسمًا مأخوذًا من اسماء الأماكن التي وجدت فيها بقايا صناعية يفترض أنها من صنع الإنسان الذي عاش في هذا الدور . بعدها يذكر الأمير بالتفصيل في الإحداث التي اعتمد عليها علماء الغرب لوضع تقسيماتهم للأدوار التي بدأ الإنسان فيها يعمل بيده لكون هذه التقسيمات كلها مبنية على الرمم التي وجدت في أوربة ، والعلماء لا يعرفون شيئاً تقريباً عما

[١] : [٤] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ج ١ ص ٣٥

وَجَدَ مِنْ رَمَمِ الْأَنْسَانِ الْأُولَى فِي سَانَرِ الْقَارَاتِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَحْكُمُونَ بِأَنَّ النَّشُوءَ وَالْإِرْتِقاءَ حَصَلَ مِنَ الْقَارَاتِ جَمِيعًا كَمَا حَصَلَ فِي أُورَبَةِ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ [١] .

ثُمَّ يَخْتَمُ الْأَمِيرُ تَقْدِيمَةً لِخَلَاصَةِ مَا عَنْدَ الْأَوْرَبِيْنَ مِنْ نَظَرِيَّاتٍ حَوْلَ نَشُوءِ الْأَنْسَانِ وَطَطْرُوهُ فَيَقُولُ أَنَّهُ مُجَرَّدُ نَاقْلٍ لِمَا يَجِبُ مَعْرِفَتَهُ عَنْ أَهْلِ هَذَا الْزَّمَانِ يَقْدِمُ لِقَرَاءِ تَارِيْخِ إِبْرَاهِيمِ خَلِدُونِ حَتَّى لَا يَفْوَتُهُمْ شَيْءٌ مَا يَجِبُ مَعْرِفَتَهُ وَلَوْ مِنْ قَبْلِ الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ وَلَا الْجَهْلُ بِهِ [٢] .



الْمُسْكَنُ الْمُكَفَّلُ بِالْمَسْكُنِ

[١] [٢] تطبيقات الأمير شكب على ابن خلدون ج ١ ص ٣٥ : ٤٨

مذهب النشوء والارتفاع في الغرب

على الرغم من انتشار القول بالتطور بين الكثيرين من علماء الغرب إلا أن مذهب النشوء مازال يواجه هجوماً شديداً من معارضيه الغربيين ، ولم يقتصر رفض المذهب من علماء الأديان وحدهم بل لقد اعترض عليه علماء الطبيعة أيضاً وأقاموا أدلة علمية على فساده كما طلبو من دعاته تقديم أدلة علمية محسوسة على فعل الانتخاب الطبيعي في تحول الأنواع ، ولاسيما نوع الإنسان .

ومن علماء الطبيعة من أيدوه وتحمس له مثل " هكملى " صديق دارون وصهره - ولكن بقي تحمسهم له باسم حرية الرأي أشد من تحمسهم له إيماناً بحقيقة واعترافاً بكلفة براهينه [١] . ومن العلماء الطبيعيين من ذهب مذهبها متوسطاً ، فوافق على بعض قضايا المذهب الدارويني ، ورد بعضها بحججة فقد الأدلة الكافية .

ولقد أورد الأمير شكيب أرسلان اعترافات بعض العلماء الغربيين للمذهب ليظهر أن الحملة عليه في البلاد الغربية لم تكن أضعف من ثباتها التي قوبل بها في بلادنا الشرقية يوم لنقل إليها للمرة الأولى .

يقول شكيب " ومن اشتهر في الرد على مذهب داروين الإنجليزي ، ولمارك إلا فرنسي في النشوء والارتفاع ، الاستاذ " فياللون Vialleton المدرس في جامعة مونبلييه ، والأستاذ موريس توماس البلجيكي ، وغيرهما من يقولون إن مذهب لمارك وداروين منقضيان للعلم ، وقال فياللون : إن داروين قد ذهب في نظريته مذهبًا جاهلاً ماهية القواعد التي تترك عليها الجزيئات ، وانخدع بعلاقات الأنواع بعضها مع بعض ، كما أن خلفاء في المذهب قد نظروا إلى المناسبات الصورية التي بين الأنواع نظراً سطحياً ، وقرروا النشوء والارتفاع بدون تأمل كاف في كيفية قيام هذه الأنواع بوظائفها " [٢] .

ثم أخذ الأمير في عرضن أفكار الغرب للأدلة العلمية التي أعتمدها النشونيون لآيات التطور ، و هي مجرد علامات ووجوه الشبه لا يبعدون أن يكون إعادة لتصوير المشابه العلامة التي يلمحها النظر لأول وهلة بغير حاجة إلى تسرير الأعضاء .

[١] عباس العقاد / الإنسان في القرآن ص ١٠٩

[٢] تعلقنا الأمير شكيب على ابن خلدون من ٣٨ (Vialleton) عبد كلية الطب بجامعة مونبلييه و استاذ علم الأجنحة فيها . (عباس العقاد / الإنسان في القرآن ص ١٣٢)

"فالأجل الربط بين الحشرات وذوات الأثداء من الحيوانات اعتمدوا على النطاق الصدرى الذى يعهد فى ذوات الأثداء المتصلة بالطيرور ، لكن اذا انعم الانسان النظر لا يجد هذه الرابطة فى محلها ، لأن هذا النطاق ليس فى الحقيقة جزءا من هيكل الصدر، بل هو خارج عنه ، وليس له اتصال بالقلب ، ولا بالأعصاب كما هو عند الحشرات فالمساببه ليست أكثر من مشابهه سطحية والحال أن طبيعة الحيوانات ذات الأثداء لا تمتاز فقط بالنطاق الصدرى ، ولكن بميزات أخرى ظاهرة فى جميع نوينها ، وفي انسجتها العضوية ، وفي الجلد والشعر والعظام ، وكل ما يعهد فى ذوات الأثداء .. "[١] .

"والخطأ نفسه وقع فى تقدير خصائص الأعضاء ، فداروين يرى أن أي عضو يقدر أن يقوم بأية وظيفة ، وهذا إهمال لحقيقة الوظائف الأساسية . فإن الأعضاء تتولف مع الأنظمة آلات محركة لها فى كل نوع وظائف محدودة لا يمكن أن عملها يتعدى من وظيفة إلى وظيفة ، إذ ليس من وسيط بين الجهازين . ففى طبقة الحيوانات ذوات الأربع إذا وجد نوع طيار مثلاً يجب أن الكتف التى كانت فى البطن تحت مركز القلب تصعد إلى الظهر لأجل ان تحفظ موازنة الحيوان عندما يطير ، ولو لا ذلك لا يمكن من الطيران . فهذا المركز الذى تأخذه الكتف من جديد لا يمكن أن يحصل بالتدرج ، ولا مناص من أن يكون وضع لفنا بدون تدرج . كذلك ذوات الأثداء السابقة التى يسير بها الذنب المتحرك من الأعلى إلى الأسفل ، فيجب أن يكون لهذا الذنب قوة وقطر عظيمان ، بحيث أن الشق الأسفل يندفع إلى الأمام فيكون أفقيا بدلاً من أن يكون عموديا كما هو فى سائر ذوات الأثداء " [٢] .

وقد أحصى الاستاذ "شابمان بنشر" فى كتابه عن تعليل التطور العلامات التشريحية التى يستند إليها الشونينيون ثم عقب عليها قائلاً : " انه لا احتمال لتسلسل الانسان من القردة كما نعرفها ، لأن القردة مفردة بتركيب خاص يستحيل تحربيا ان يتطور منه تركيب الانسان ، اذا كان الانسان قد نماه خلال مليون سنة دماغ أكبر وفأمة أقوم ويد - فوق هذا وذلك - أصلح للتلاؤل والتصرف بالاستعمال " .

ويقول الأستاذ . ب . بيسبوب في كتابه " التشوه منتقداً " : فليس في السجلات الخبيولوجية دليل ولا يرى تأييد القول بتطور الإنسان من نوع آخر ، وأهم من ذلك أنه لا يوجد أمامنا دليل يزيد تحول الأنواع في عالم الحيوان أو عالم النبات وأن تشابه الأجنحة الذي يتخذه بعض التشوهينون دليلاً على التشابه القديم بين أنواع الحيوانات دليل مكذوب ، لأن صور الأجنحة الصحيحة لا تبرر هذا الشبه ، وما عدا ذلك من الصور المتشابهة فهو مزور باعتراف واضح تلك الصور العالم الألماني الانته هكل ، فإنه أعلن بعد انتقاد علماء الأجنحة له أنه اضطر إلى تكملة الشبه في نحو ثمانية في المائة من صور الأجنحة لنقص الرسم المنقول " [١] .

وال Amir Shkib يورد نص قول فيلتون : أن القول بأن الجراثيم تعيد في أثناء نموها الصور المتتابعة التي سبقت نوهاها هو قول مرسل جزاها ، وهو تشبه بالمجاز منه بالحقيقة ، ففي الجراثيم شيئاً ، البدائيات البسيطة التي هي عامة لجميع النوع ثم الأجهزة والصور التي تتلو هذه البدائيات . فالبدائيات لا يمكن أن تكون منها نوع خاص ، لأنها حويصلات بسيطة جداً شبه ببراعم تختلف كثيراً عما سيأتي منها ، بل هي بدياليات سلسلة عامة لا ينبع منها أقسام خاصة إلا بعد النمو ، فالحويصلة لا يمكن أن تشبه حيواناً تماماً مهماً كان ذئبه الطبقية ، ولكن تشبه حويصلة . والحويصلة البشرية ذات الخلايا لا يمكن أن تشبه سمة في جهازها التنفسى ، ولكن قد تشبه حويصلة السمعة قبل أن يكتمل فيها هذا الجهاز .. " [٢] :

[١] عباس العقاد ، الإنسان في القرآن من ١٥٥

« حما بحث الدكتور (براتش) مذهب (هكل) ، ونظر في تلك الصور التي استند إليها وقد أنها لم تكن كلها صادقة ، بل بعضها مزوراً . فإن الصورة الثانية والعشرين تبتدئ بالبسيط و الصورة الرابعة عشر التي سماها السوزور والصورة الواحدة والعشرين التي سماها (الإنسان القرد) لم يكن لها وجود البينة . فكتب العلماء على صنفات الجرائد أن مزور لهاتين الصورتين ، فهددهم برفع دعوى ثم وجدها لا مناص من الإقرار ، فكتب مقالة مؤرخة (٤ ديسمبر ١٩٠٨) بعنوان : (تروير صور الأجنحة) قال : إنني أتعذر رسميأً حسماً للجدل في هذه المسألة إن عدداً قليلاً من صور الأجنحة نحو ستة في المائة أو ثمانية في المائة موضوع أو مزور إلى أن قال : (فبعد هذا الاعتراض يجب أن أحسب نفسى مقضياً على هالكاً ولكتة يعزى إلى أن أرى بجانبى فى كرسى الاتهام منات من شر كائى فى الجريمة وبينهم عدد كبير من الفلسفه المعمول عليه فى التجارب العلمية وغيرهم من علماء الأحياء (البيولوجيا) فإن كثيراً من الصور التى توضح علم آنوثة الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنحة المنتشرة المعمول عليها مزور مثل تزويرى تماماً لا يختلف عنه فى شئ << .

(قبس القرطاس (نظريه داروين بين مؤيديها و معارضتها) من ٣٣ - ٣٤)

[٢] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون من ٣٩

ويكتفي الأمير شكيب بما أورده من ردود مفكري الغرب وعلمائه على مذهب داروين ، ويحيل من أراد التوسع في هذا الموضوع إلى كتاب *فيilton المسمى* : " بأصل الكائنات الحية وخيال النشوء والارتقاء " .

ثم ينتقل الأمير للحديث عن أثر مذهب النشوء والارتقاء في الشرق وما قوبل به من الاعتراض ثم الرد عليه من قبل المفكرين وقراء العلم ورجال الدين الشرقيين كما تتابعت قبل ذلك بين مفكري الغرب وقرانه .

مذهب النشوء والارتفاع في الشرق العربي

لقي مذهب النسوء والارتقاء في الشرق العربي مثل مالقيه من التحريف والإعتراف في البلاد الأوربية ، ولقد تصدى للرد عليه في الشرق العربي نخبة من المفكرين وقادة الإصلاح والمجاهدين من أتباع جميع الأديان الكاثolie .

يقول الأمير شكيب : " ولقد كان أول من كتب عن مذهب داروين باللسان العربي الدكتور شibli شماعيل اللبناني ، نشر في ذلك كتاباً في مصر ضمنه مذهب داروين الإنجليزي ونجز الألماني وجعل له مقدمة جاهر فيها بالمذهب المادى مجاهرة لم تسبق لأحد غيره في الشرق ، ورد عليه اذ ذاك الأستاذ الشيخ إبراهيم العوراتى من علماء المسيحيين الذين يردون المذهب المادى . وكذلك رد عليه اليسوعيون فى بيروت ، وبعض القسيسين المارونيين [١].

والأمير يشير في هذا الإيجاز إلى المناقشات التي اشتلت بين منكري المذهب ومؤيديه في الشرق العربي بعد إعلان المذهب على يد الدكتور شبل شمبل وهو أحد أنجسuar مذهب النشوء ومن أشهرهم وأفصحهم بيانا في الشرق العربي ، حتى أنه كان يسبق دارون وأصحابه إلى الأخذ بالنظريات النشوئية على علاتها وإلى نفي كل صفة روحية أو غيبية في الإنسان " إذ قال في مقدمة ترجمته لشرح نجيز على مذهب دارون : " أن الإنسان على رأي هذا المذهب طبيعي هو وكل ماقيه مكتسب من الطبيعة . وهذه الحقيقة لم يبق سبيل للريب فيها اليوم ، ولو اصر على انكارها من لا يزال مفعول التعاليم القديمة راسخا في ذهنه رسوخ النقش على الحجر فالإنسان يتصل اتصالا شديدا بعالم الحس والشهادة ، وليس تركيبه في شيء من المواد والقوى يدل على اتصاله بعالم الروح والنبي ، فأن جميع العناصر المؤلف منها موجودة في الطبيعة وجميع القوى التي فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة .. فهو كالحيوان فزيولوجي وكالجماد كيميا ، والفرق بينه وبينها فقط بالكمية لا الكيفية والصور لا الماهية والعرض لا الجوهر فالإنسان يحس ، والحيوان يحس ، والإنسان يدرك ، والحيوان يدرك ، ونومايس التغذية واحدة فيهما ... غير أن الإنسان يدرك أكثر من الحيوان لأنه أكمل تركيبا من الحيوان " [١] .

[١] تعليقات الامير شكيب على ابن خلدون ص ٤٤

[٢] الإنسان في القرآن ، العقاد (مراجع سابق) ص ١٣٤

وقد تصدى للرد على الدكتور شibli شمیل الأستاذ ابراهيم حورانى - وهو عالم لغوى مطلع على المباحث العلمية - الف فى الرد على مذهب دارون رسالة "مناهج الحكماء فى نفى النشوء والارتقاء " ثم اتبعها برسالة " الحق اليقين فى الرد على بطل داروين " وطبعها بيروت (سنة ١٨٨٦) ردا على مناقشة الدكتور شibli شمیل لرسالته الاولى .

والأستاذ حورانى يبدأ رده بذكر آراء علماء الطبيعة المخالفين لداروين فى القول بتحول الانسان عن غيره من الحيوان ، قال : " لن العلماء لم يتبنوا مذهب دارون وكذلك نفوه وطعنوا فيه مع علمهم أنه بحث فيه عشرين سنة ومنهم العلامة ونشل مع أنه من أشد الناس ميلا إلى القول بالإرتقاء بفعل الله ... ومنهم العلامة ولاس قال ماخلاصته ان الإرتقاء بالإنتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان ولابد من القول بخلقه رأسا ... ومنهم الأستاذ فرخو قال أنه يتبين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرد فرقا بعيدا ، فلا يمكننا ان نحكم بأن الانسان سلالة قرد أو غيره من البهائم ، ولا يحسن لن ننفوه بذلك [١] .

ويرى الأستاذ حورانى ان أنصار مذهب النشوء ينقسمون إلى ثلات فرق : معلولة ولأندرية والاهية .. " أما المعلولة فهي التي نفت الخالق سبحانه وقالت بقدم المادة .. وأما اللادرية فهي التي لم تتعرض لنفي الخالق ولا لاثائه ، وأما الاهية فهي التي اعترفت بالواحيد تعالى ، وقالت بأنه خالق المادة والحياة ، وانقسمت هذه الفرقة الى اثنين ، ظنت احذاماها الانسان ابن القرد او صنوه ومنها داروين ، وقالت الاخرى بان الله خلق الانسان من البدء انسانا ومنها العلامة ولاس ، وعلماء هذه الفرقة اصحاب النشوء الالهي الذى قالت بامكانه وصرحت بعدم البرهان على وقوعه وبأن عليه اعتراضات لم تدفع دفعا مقنعا " [٢] .

ثم أورد الأستاذ حورانى إحصاء بعض علماء للحرفيات عن الأنواع التي وجدت في باطن الأرض ، فقال أن مئانية وعشرين في المائة منها أنواع لم تتغير ، وسبعين في المائة أنواع مهاجرة ، وخمسة وستين في المائة لاسلف لها . وأما الأنواع التي نشأت بالتغيير أو الأنواع الجديدة ، فلا وجود لها في شيء من بقايا الحرفيات .

[١] انرجع السابق نفسه من ١٢٤

[٢] المرجع السابق ١٢٤ - ١٢٥

ويرد الاستدلال حوراني على استدلال النشوينيين بتشابه الاجنة بين الانسان وبعض الحيوان ، فيقول ان على هذا التشابه "بساطة التكوين وقصر النظر .. بدليل ان التباين يعظم على توالى اقترابها من كمال التكوين ، فلا ينشأ من بروض الانسان أو أجنته سوى انسان ، ولا ينشأ من بذرة اللوز إلا اللوز " [١] .

ويحيل النشوينيين الى بحث النيرنولوجيا - أى المشوهات - لتفصير الأعضاء الائمة التي ثبتت بعد ولادة الجنين ، ومن أمثلتها (الأعنق) أى من له سنة أصلع وهو من أبسط الأمثلة ، والأشوه المزدوج كهبلين وجوديث وهما الأختان الهنجاريتان المشهورتان ، كانتا ملتصقين بالمتدين والأفخاذ والأحشاء ولدتتا سنة ١٧٠١ وعاشتا لستين وعشرين سنة وكانتا مختلفتين السجلية والأخلاق [٢] .

وقال عن الانتخاب الطبيعي أنه لا يمكن "أن يكون أنس الارتفاع للدارويني لأن الطبيعة إنما تؤثر في الموجود ، وليس لها أن توجد المعدوم ، فيمكنا أن نعمى العيون ... ولكنها لا تستطيع أن توجد البصر " ، وبقتضي مذهب داروين أن لا تجتمع الأنواع الدنيا والعليا بل تتبعق وتنسق الأولى والثانية لها ولكن ذلك الاجتماع ثبت في المنقرضات والأحياء [٣] . أما رأي الأستاذ حوراني في مسألة قدم الإنسان فيظهر فيه تأثره بما جاء في التوراة حول تغير عمر الإنسان ، فمذهب داروين يقتضي أن يكون الإنسان قديماً جداً " ولكنه تبين لأشهر العلماء وأكابرهم من النشوينيين وغيرهم أنه أحدث الأحياء وأنه كان من بضعة آلاف سنة ، وأثبتت العلامة دوسون أنه كان في ثاني العصر الجليدي وهو المعروف بالأكثر أحديئة ... وقال الدكتور هودين : نظرت أربع فرق مستقلة من الجيولوجيين في زمن نشوء الإنسان فافتقت على أنه نشا منذ ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف سنة ... [٣] .

أما ردود الدكتور شibli شمیل على مناقشته فكانت تكراراً للردود دارون ونجز وغيرهما من القائلين بتحول الأنواع ، وفحواها :

- ١- ان التباينات بين الأنواع لا تزيد على التباينات بين أفراد لنوع الواحد الا بالوراثة ، وهذه أثر ثابت لا يحكم عليه بالفترة المعلومة من تاريخ الانسان لأنها ثبتت بعد انتفاضة مئات الملايين من السنين ..

[١] المرجع السابق ١٢٤ - ١٢٥

[٢] المرجع السابق

- وإن أنصاف الأنواع ليس من شأنها أن تعيش وتتقل ميراثها إلى زمن طويل ، لأن التوريث مرتبط ب تمام الجهاز المميز لل النوع وهو لا يتم في أنصاف الأنواع ، ولكن قد يدل عليه التنازل بين بعض الحيوانات كالخيل والحمير أو الكلاب والذئاب ، وقد يدل عليه " اكتشاف الطير العجيب - الاركوبتركس - الذي وصل بين طائفتين من الحيوان منفصل بعضهما عن بعض انتفاصا تماماً وهم الطيور والحشرات " [١] .

- إن العلماء يخطئون في وضع حدود الأنواع ، وقد ذكر دارون " أن النباتات الإنجليزى وستن يذكر ١٨٢ نباتاً إنجليزياً عدتها غيره أنواعاً مع أنها تبليفات ، وقد قلل هوكر في هذا المعنى مانصه : إن النباتتين يعودون الآن من ٨٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ نوع من النباتات ، فالنوع إذن غير محدود " .

- إن التحولات لاينبعى أن يبحث عنها في الأنواع الحاضرة ، لأن كلام منها نطور عن أنواع سابقة له في سلسلة هي التي كان يمكن أن يجري بينها التحول في أوائله ، ولكن الأنواع الحاضرة تباعدت عن أصولها فابتعدت الأشباه المتحولة فيما بينها [٢] .

وفي بيان احتدام المناقشة بين منكري المذهب ومؤيديه نشر الأستاذ الشيخ محمد عبد رسالة أستاذ جمال الدين الأفغاني المعروفة باسم " الرد على الدهريين " وفيها يتعرض لمذهب النشوء والارتقاء ويناقشه ، ويرد على ماجاء فيه من نظريات .

· وقد دافع الأمير شبيب أرسلان عن خوض الشيخ جمال الدين في نظرية يلزم للخوض فيها التخصص في العلوم الطبيعية فرأى أن هذا الاعتراض على الشيخ ليس بشيء ، لأن التخصص شرط المباحث التفصيلية ، فاما في العبادىء العامة فالذى يلزم إنما هو الفلسفة ، ومن كان أطول فيها باعاً وأفسح نظراً كان أحق بأن يتكلم بها ، فالسيد جمال الدين إذا يقدر أن يقول هنا " [٣] .

ونقل الأمير فقرات من كتاب الشيخ جمال الدين المعروف " بالرد على الدهريين " ينالش فيها مذاهب الدهريين في كيفية نشوء مبادىء الحضارة الإنسانية ووضع أصول الأنواع ، ويخوض خلالها في مناقشة نظرية النشوء والارتقاء .

[١] المرجع السابق

[٢] المرجع السابق ص ١٣٤ - ١٣٥

[٣] نعيقات الأمير شبيب على ابن خلدون ص ٤٠

قال السيد جمال الدين : " ولما كشفت علوم الجيولوجيا (طبقات الأرض) عن بطلان القول بقدم الأنواع رجع المتأخرون من الماديين إلى القول بالحدث . ثم اختلفوا في بحثين ، الأول بحث تكون الجراثيم النباتية والحيوانية ، فذهب فريق إلى أن الجراثيم على اختلاف أنواعها تكونت عندما أخذ إلهاب الأرض في التناقص ، ثم انقطع التكون بانقضاء ذلك الطور الأرضي ، وذهب آخر إلى أن الجراثيم لم تزل تكون حتى اليوم خصوصاً في خط الاستواء حيث شئت الحرارة .

وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياة نباتية أو حيوانية خصوصاً بعد مائتين لهم أن الحياة فاعل في بساطة الجراثيم ، موجب لا لتأتمها ، حافظت تكونها . وأن قوتها العالية هي التي تجعل غير الحي من الأجزاء حيا بالتجذبة فإذا ضعفت الحياة ضعف تعاسك البساطة وتجاذبها ، ثم صارت إلى الانحلال . وظن قوم منهم أن تلك الجراثيم كانت مع الأرض عند انفصالها عن كمة الشمس وهو ظن عجيب لأن ينطبق على أصلهم من أن الأرض عند الانفصال كانت جذوة نار ملتهبة ، وكيف لم تحرق تلك الجراثيم ولم تمع صورها في تلك النيران المستمرة !؟ .

والبحث الثاني من موضع اختلافهم صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها إلى ذروة كمالها (يقول شكيب : وصل السيد هنا إلى مذهب التشوه والارتفاع) وتحولها من حالة الدجاج والنقص ، إلى مازراه من الصور المتقنة ، والهيئات المحكمة ، والبني الكاملة ، فمنهم قائل : إن لكل نوع جرثومة خاصة به ، ولكن جرثومة طبيعية تميل بها إلى حركة تتناسبها في الأطوار الحيوية ، وتتجذب إليها مايلائمها من الأجزاء الغير الحية ليصير جزءاً لها بالتجذبة ، ثم تجلوه بلباس نوعه : وقد غلوا عما أثبتته التحليل الكيماوي من عدم التفاوت بين نطفة الإنسان ونطفة الثور ونطفة - الحمار مثلا - وظهور تمايز النطف بالعناصر البسيطة . فما منشأ التخلاف في طبائع الجراثيم مع تمايز عناصرها ؟! ومنهم ذاهب إلى أن جراثيم الأنواع كافة - خصوصاً الحيوانية - متماثلة في الجوهر ، متساوية في الحقيقة ، وليس بين الأنواع تخلاف جوهري ، ولا إنفصال ذاتي . ومن هذا ذهب صاحب هذا القول إلى جواز انتقال الجرثومة الواحدة من صورة نوعية إلى صورة نوعية أخرى بمقتضى الزمان والمكان وحكم الحالات والضرورات ، وقضاء سلطان القوايس الخارجية .

ورأس القائلين بهذا القول "دارون" وقد ألف كتاباً في بيان أن الإنسان كان قرداً ، ثم عرض له التبيح والتهذيب في صورته بالتدريج على تسلق التقرنون المتزاولتين ، وتناول

الفاعل الطبيعية الخارجية حتى ارتفى الى بذخ "أوران لوئان" ثم ارتفى من تلك الصورة الى أول مرتب الإنسان فكان صنف "اللبيم" وسائر الزنوج ، ومن هناك عرج بعض أفراده الى أعلى وأرفع من أعلى الزنوجين فكان الإنسان القرقيسي ..

ويشير الأمير هنا إلى أن الداروينيين يستندون في التشوه والارتقاء على جماجم وجذب في أوربة تحت الأرض ، وليس هذه الجماجم وهذه الهياكل أقرب إلى الإنسان القواسمي منها إلى الإنسان الزنجي ، ولاتتفى بالعكس ، بل هي ناقصة عن كل منها".
ثم يقول السيد جمال الدين : "وعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بعمر القرون وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك !!"

ويعلق الأمير شكيب على قول السيد هذا عن مذهب داروين بأنه لا مبالغة فيه لأن هذا المذهب يجعل البيئة والاحتياج والضرورة والتثيرات الخارجية هي منشأ التنويع وأن كثرة الدهور تحت هذه التثيرات يؤدي إلى ما يظهر عجيباً وربما يظهر مستحيلاً وليس الأمر كذلك عندهم؛ وأن الذي جعل كيماءينا كبيراً مثل (برنتلر) يسمى مذهب دارون قصصاً متسع الخيال، وهو حكم داروين بنطراً دهراً المخلوقات".

ثم يستمر الأمير في عرض مناقشة السيد جمال الدين لنظرية دارون ، يقول السيد جمال الدين : " فإن سُلْطَن دارون عن الأشجار القائمة في غابات الهند ، والنباتات المتولدة فيها من زِمَان بعيد لا يحددها التاريخ الا ظننا ، وأصولها تضرب في بقعة واحدة وفروعها تذهب في هواء واحد ، وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب في اختلاف كل منها عن الآخر في بنيتها ، وأشكال أوراقه وطوله ، وفصبه ، وضخامته ، ورقبته ، وزهره ، وثمره ، وطعمه ، ورائحته ، وعمره ؟ فأي فاعل خارجي أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والهوا والماء ؟ أظن لاسيبل إلى الجواب سوي العجز عنه !! "

وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والاصور ، والتقوى والخواص ، وهى تعيش فى منطقة واحدة ، ولا تسلم جيانتها فى سائز المناطق . أو عرضت عليه الحشرات المتباعدة فى الخلقة ، المتباينة فى التركيب ، المتولدة فى بقعة واحدة ولاتطأة لها على قطع المسافات البعيدة لتخلو الى تربة جديدة تختلف تربتها ، فماذا تكون حجته فى علة اختلافها ؟ كأنها تكون كفافة لا كشفا !

وليداع كل منها قوة على حسنه ، ونوطها بكل قوّة في عضو إزاء وظيفة ، وإبقاء عمل حيوى ، مما أعجز الحكماء عن درك سره ، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول إلى تحديد منافعه . وكيف صارت الضرورة للعياء معلماً لتلك الجراثيم ، وهادياً خبيراً لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنية ؟ لاريب أنه يقع قبوع القنفذ ، وينتكم بين أمواج الحرير ، يدفعه ريب ويتنقا شك الى أبد الآدبين الخ " .

وبمضي السيد جمال الدين في إبطال المذهب في جملته وتصييله ويقند الأدلة التي اعتمد عليها الششوّشون لإثبات نظريةّهم مثل الخيل في سiberia وبلاد الروسية أطول وأغزر شرعاً من الخيل المولدة في البلاد العربية فيقول : " إن السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقلته في بقعة واحدة لوقتين مختلفتين حسب كثرة الأمطار وقلتها ووفر المياه ونزورها أوجد علة النحافة ودقة العود في سكان البلاد الحارة .. والضخامة والسمن في أهل البلاد الباردة مما يعتري البدن من كثرة التحلل في الحرارة وقلته في البرودة ... " [١] .

ولكن الأمير شبيب لا يمضى مع الشيخ جمال الدين في منحى الجزم بالرفض والحكم ببطلان المذهب ، بل يتوقف عند قول الشيخ : (لا يزال يرفعه ريب ويتنقا شك إلى أبد الآدبين) ويقول عن هذا القول الأخير (ما أحسن) لأنه " لا " دارون " ولا " مارك " ولا " تجر " ولا خصومهم الكثيرون في أوربا ، ولا " السيد جمال الدين " يقدر واحد منهم أن يقول قوله في معضلة كهذه ويسلم من الاعتراض من جهة من الجهات ، وإنما هي نظرية يترجح بعضها في نظر بعض العلماء ، ولا يكاد يجزم به حتى يقول في وجهه ما يمنعه من الجزم " [٢] .

فالامير شبيب أرسلان لا يجزم برفض المذهب بل يرى أنه يستحيل القطع بشيء لنقص الأدلة مع تعليق النتيجة بانتظار الألة المقنعة ، هذا مع الإيمان به - إذا ثبتت - لا يقضى بتكتيب العقيدة الدينية ، والعقلية في الخالق عز وجل وفي القرآن الكريم الذي لم يحدد مدة زمنية لبدأ الخليقة وجود الإنسان بل قال تعالى : " ما أشهدتم خلق السموات والأرض ولأخلق أنفسهم " :

" فعلم التكوين بنوع خاص بين مد وجزر ، وأخذ ورد ، وعكس وطرد لابنته . وكيف يمكن أن ينتهي والآثار التي يبغى أصحاب مذهب النشوء والارتفاع عليها آراءهم هي

[١] جمال الدين الأفغاني ، الرد على الدهريين ، من ص ١٨ إلى ص ٢٣ (تعليقات شبيب على ابن خلدون)

من ٤٣:٤١

[٢] تعليقات الأمير شبيب على ابن خلدون من ٤٣

آثار ضئيلة جدا ، نسبتها إلى الموضوع نسبة النقطة إلى الغدير !!
 وقد اعترفوا هم - يقصد التشوينيين - بأن كل ما عثروا عليه في باطن الأرض إن هو
 إلا هيكلان أو ثلاثة في القارة الأوربية ، ولم يعثروا حتى هذه الساعة على شيء في للقارات
 الأخرى التي هي أوسع من أوربة بكثير ! وما دامت الشواهد ضئيلة إلى هذه الدرجة
 ومنحصرة في بقعة واحدة ، فإنه يستحيل القطع بشيء " [١] .

[١] تعليقات الأمير شكبب على ابن خلدون ص ٤٤

تعقيب

وأمام هذه النهاية تبقى (القضية) أن هؤلا ، الذين اعتنقا المذهب المادي لم يقفوا أمام أي تناقض ، بل لقد عدوا إلى الأدلة العلمية فعرفوا فيها وزوروا ولفقوا كما فعل (هيكل) في تزوير صور الأجنحة واعتراضه بذلك ، بل وفي اتهامه لعدد من العلماء ووصفهم بأنهم شركاؤه في الجريمة .^(١) وكما حدث في قصة اكتشاف جمجمة إنسان (بلتدون) وكانت تجمع بين الجزء العلوي وله صفات بشرية لا شك فيها ، بينما الفك الأسفل يحتفظ بالعظمة القردية ، ولكن هذه (الجمجمة) التي أقامت الدنيا وأقعدتها وكانت دليلاً قاطعاً على صحة نظرية التطور اختلف العلماء ، في شأنها ، هل تعود لمخلوق واحد أم لمخلوقين «على أن الطامة الكبرى قد وقعت فيما بعد فاكتشف العلماء ، في سنة ١٩٥٣ م أن بقايا إنسان (بلتدون) مزيقة ، وأنها زيفت عمداً بواسطة مكتشفها مستر داوسون المحامي بقصد خدعة العلماء»^(٢) فلماذا كل هذا الغش والتزوير اللذين شوها الجو العلمي تشوّيها بلبيغاً ؟ إن الإجابة التي لا مفر منها أن أصحاب المذهب المادي يرمون إلى هدف أبعد بكثير من الوقوف عند حدود نظريتهم المادية ، فهم «يهدّفون إلى غاية يريدون تأكيدها بعطلهم الناقص ، وتلك الغاية هي إنكار الألوهية واستقلال النفس وخلودها ، حتى يستطيعوا التخلص من الدين أو النزول إلى مستوى الحيوان الأعمى الذي يتخذون حباته مثلهم الأعلى»^(٣)

١ - قيس الترطاس ، نظرية دارون بين مؤيدتها ومعارضتها (مراجعة سابقة) ص ٣٣-٣٥ .

٢ - المرجع السابق نفسه ، ص ٨٧ .

٣ - د. محمد ناسم ، جمال الدين الأفغاني حياته وفلسفته . ص ٢١٣ .

رأي الأمين شكيبي أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية

رأي الأمير شبيب أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية

تبه الأمير شبيب منذ وقت مبكر للخطر الذي تمثله المبادئ الشيوعية والإشتراكية على العالم الإسلامي ، وأكد أن «الشيوعية لابد من أن تنفذ مبادتها إلى البلاد الإسلامية مهما حاولوا وحاولت دول الاستعمار من مقاومة سريانها إلى الشرق»^(١) وذلك لأن بلاد الإسلام أصبحت ممهدة لقبول ذلك الخطر القادم ، «فالمسلمون إلا النادر أهلوا الزكاة ونهانوا بفرائض الدين لذلك هم مهددون اليوم بخطر الإشتراكية»^(٢)

ويرى الأمير أن «المبادئ الإشتراكية» تبث روح التبغض والشحنا ، وإثارة حرب الطبقات والشقاق في الأمم التي تنتشر بينها^(٣) ، ومن خصائصها الخطيرة أنها تقرم مقام العقيدة الدينية ، فتنفي الجنسية والقومية ، «إذ ك بما أن المسلم لابد أن يعترف باخاه المسلم أيا كان أصله وفصله ، فالاشتراكي لابد أن يتضامن مع الإشتراكي في أي وطن كان ، ومن أي أمة كان ، وإن فضل الوطنية على الإشتراكية ، كان شأنه شأن المسلم الذي يفضل القومية على الإسلام»^(٤)

ويرى الأمير أن الشريعة الإسلامية بما تشتمل عليه من مبادئ التكافل والتراحم بين المسلمين ، و بما تفرضه على كل مسلم من أوامر إلهية لا محيد عنها من إيتاء الرزكـة - بكافة أنواعها - على الوجه الشرعي كافية بأن تحفظ للمجتمع المسلم وحدته وتماسكه في وجه الفتنة القادمة على شرطـة أن تقوم الدول الإسلامية بفرض الزكـة ، التي هي ركن من أركان الإسلام على الوجه الشرعي ، وأن يكون لها وزارة أو إدارة في كل حكومة إسلامية ، تنظم أمر استيفائها ، وطريقة اتفاقها ، فينتهي بذلك كل فقر وكل خصاصة بين المسلمين ، ويقل تفاوت الطبقات في درجات الرفاهية ، وتتوفر وسائل التمريض والمأساة والتعليم ، وتشمل نعمـاؤها الجميع بدون منه غني على فقير ، ولا اعتداء ، كبير على صغير ، بحيث إذا دخلت الإشتراكية على بلاد الإسلام ، دخلت بدون ضوضاء ، ولا شـقاق ، بل كانت سببا لإـحـبـاء ، فرضـ من أقدس فروض الدين ألا وهو

الزكاة.^(١)

ويرى الأمير أن الشريعة الإسلامية بما تفرضه على المسلمين من زكاة هي أوامر إلهية لا محيد لل المسلم عن إنفاذها إذا أراد أن يبقى مسلماً . وقد ورد ذكرها مقترونا بذكر الصلاة مراراً عديدة في القرآن الكريم ، لذلك فهي أوثق ، وأمنـ، وأجدر بأن يتـزمـ العمل بها المسلمين من العبادـيـ الإشتراكـيـ المعروـفةـ فيـ أـورـوـباـ والـتيـ هيـ أـوضـاعـ شـرـبةـ مـتـفـقـ عـلـيـهـ فـيـمـاـ بـيـنـهـ^(٢)

فالإسلام ليس بحاجة إلى الشيوعية . والشرعـانـ السـماـوـيـةـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـسـاـواـةـ ، وأـرـفـقـ بـالـضـعـفـ ، وأـحـدـبـ عـلـىـ الـفـقـرـ مـنـ الـقـوـانـينـ الـبـشـرـيـةـ^(٣) ، هذا مذهبـ الأمـيرـ شـكـيبـ أـرـسـلـانـ الـذـيـ دـعـاـ إـلـيـهـ دـائـنـاـ ، حـتـىـ عـنـدـمـاـ التـقـىـ فـيـ سـنـةـ ١٩٢٧ـ مـ وـهـوـ يـزـورـ مـوسـكـوـ «ـمـدـامـ كـوـلـونـتـايـ»ـ الـرـوـسـيـةـ الـتـيـ يـسـمـيـهـاـ الرـوـسـ «ـأـمـ الـبـلـاشـفـةـ»ـ وـالـتـيـ كـانـ لـهـ الـيدـ الطـولـيـ فـيـ الـشـوـرـةـ الـتـيـ أـطـاحـتـ بـعـرـشـ قـيـصـرـ ، وـأـقـامـتـ الـحـكـمـ الـبـلـشـفـيـ ، وـفـيـ أـثـاءـ حـدـيـثـهـ مـعـ الـأـمـيرـ شـكـيبـ أـرـسـلـانـ تـخـارـهـ حـوـلـ الـشـيـوعـيـةـ ، فـيـجـاهـرـ (ـشـكـيبـ أـرـسـلـانـ)ـ بـأـنـ الـبـلـادـ الـعـرـبـيـةـ لـيـسـ بـحـاجـةـ إـلـىـ الـشـيـوعـيـةـ لـأـنـ الـمـبـادـيـ الـإـسـلـامـيـةـ فـيـهـ مـاـ هـوـ خـيـرـ مـنـ الـشـيـوعـيـةـ ، وـيـسـرـحـ لـهـ هـذـهـ الـمـبـادـيـ فـتـجـعـبـ بـهـ^(٤)

وفي حديثـ شـكـيبـ معـ (ـمـدـامـ كـوـلـونـتـايـ)ـ يـتـحدـثـ عـنـ فـنـونـ الـأـوـقـافـ الـإـسـلـامـيـةـ فـيـ الـبـلـادـ الـإـسـلـامـيـةـ ، وـهـوـ يـقـصـدـ أـنـ يـعـدـ وـجـوهـ الـمـسـاعـدـاتـ الـإـجـتمـاعـيـةـ الـتـيـ أـوـجـتـ بـهـاـ الـرـوـحـ الـإـسـلـامـيـةـ ، فـيـذـكـرـ أـنـ الزـكـاةـ لـيـسـ هـيـ كـلـ مـاـ يـنـفـقـ فـيـ وـجـوهـ الـخـيـرـ ، فـهـيـ الـفـرـضـ الـمـعـتـومـ الـذـيـ لـأـنـاـصـ مـنـهـ أـوـلـاـ ، ثـمـ هـنـاكـ فـيـ الـمـجـتـمـعـ الـإـسـلـامـيـ بـعـدـ هـذـاـ مـؤـسـسـاتـ خـيـرـيـةـ تـسـمـيـ (ـالـأـوـقـافـ)ـ ، تـبـلـغـ نـحـوـ الـثـلـثـ مـنـ أـمـالـ الـمـسـلـمـيـنـ وـجـمـيعـهـاـ مـحـبـوـسـ الـعـيـنـ ، أـيـ لـأـ يـجـوزـ بـيـعـهـاـ أـوـ التـصـرـفـ فـيـهـاـ ، وـهـيـ مـرـصـودـ الـرـبـعـ عـلـىـ وـجـوهـ الـبـرـ وـأـنـوـاعـ الـإـعـانـةـ

١ - شـكـيبـ أـرـسـلـانـ ، حـاضـرـ الـعـالـمـ الـإـسـلـامـيـ صـ ٣٦٢ـ .

٢ - شـكـيبـ أـرـسـلـانـ ، حـاضـرـ الـعـالـمـ الـإـسـلـامـيـ ، صـ ٣٦٢ـ .

٣ - شـكـيبـ أـرـسـلـانـ ، مـجـلـةـ الـسـجـعـ الـعـلـمـيـ الـعـرـبـيـ ، الـمـجـلـدـ ٤ـ صـ ٥٣٥ـ .

٤ - شـكـيبـ أـرـسـلـانـ ، الشـوـرـىـ عـدـدـ ١٥ـ /ـ ١٢ـ /ـ ١٩٢٧ـ مـ (ـعـنـ شـكـيبـ أـرـسـلـانـ دـاعـيـةـ الـعـرـبـةـ وـالـإـسـلـامـ)ـ صـ ٤ـ .

لبني الإنسان .

فمنها مدارس ومستشفيات ودور كتب ، ودور لعلاج المجاذيف ، ودور ضيافة ، ومنها ما يوزع الخبز يوميا ، ومنها ما يوزع العسا ، (المرق) ، ومنها مؤسسات لأنشأ ، لا تخطر على بال الأوروبيين ، ولا يتمنه لها ولا يرصده لها الأرزاق الكافية إلا الأمم التي يلغت الشأن البعيد في الإنسانية .^(١)

ولقد بني الأمبر شكب أرسلان رأيه في هدم الشبوعية على (حقائق الإسلام التي تتوج ما دعمه الفكر الإنساني والنظر العلمي التجريبي)^(٢) ، في حين التناقض الذي يقوم عليه الفكر الشيوعي فعلى الرغم من أن الشبوعية دعوة مادية تذكر الأديان كلها ، وتهدئها من أصولها ، وتنقلعها من جذورها ، لأنها تعترف بغير المادة ، ولأنها تصرح بأن الدين وهم ، وبأنه مخدر يتعزى به الفقراء ، والكادحون ، فيصرفهم عن الكفاح في سبيل نيل حقوقهم إلا أنها تقيم (العقيدة الشبوعية) محل (العقيدة الدينية) وتقلدتها في معالمها الرئيسية « حيث نشاهد الماركسية تحول إلى بدائل عاطفي وثقافي للmessianic الأرثوذكسي مع إحلال ماركس محل موسى عليه السلام ولبنين مكان المسيح عليه السلام وقيام مجموعة أعمالها بدور الكتب المقدسة لهذه الديانة الإلهادية »^(٣) أو ما يسميه شكب أرسلان ، « إنجليل البلشفية الجديد » .

فهذا هو (شكب أرسلان) يتكلم بما ينزله البلاشفة من جهود في الشرق وفي العالم الإسلامي ، إذ « بهمسمون في آذان الشعوب المغلوبة على أمرها ، الناقمة الساخطة (إنجليل البلشفية الجديد) ، حملًا لهم على الهبايج والشعب ، ثم الإنقاذه والثورة ، فكل حرفة وطنية ومطمح قومي وسخط سيعاسي ومظلمة إجتماعية وتحكيم جنس في جنس ، جميع ذلك من الوسائل التي يتخذها البلاشفة وقوداً لنار الهبايج ، فالإنقاذه ، فالعرب »^(٤)

١ - المرجع السابق ص ٢٠٩-٢١١ .

٢ - د. مصطفى حلبي . الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص ٢١٤ .

٣ - د. مصطفى حلبي . الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص ٢١٤ .

٤ - شكب أرسلان . حاضر العادة الإسلامي ، ح ٢ ص ٣٠ . وما سمعها .

أما القول بأن الدين أفيون الشعوب ، فمن الجهل وصف الإسلام بالأفيون فبان من المعروف أن الإسلام يأبى للسلم أن ينسى نصيبيه من الدنيا ويأمره أن يأخذ من طيباتها ، بل لقد ذهب أعداء الإسلام الذي لاحظوا أنه لا يمكن إيهامه بتحسين الجبن أو الاستكانة لاتباعه بوصفه بنقيض ذلك ، وبمالغوا فيما وصفوه فيقولوا عنه إنه دين السيف أو دين القتال .^(١)

وبين الأمير (شكيب أرسلان) ذلك فيقول : إن الزعم بأن الإسلام مبني على الخضرع للقورة القاهرة كذب محض ، واحتراق - من القائل - . فإن الإسلام أمر بأوامر ونهى عن نواه لابد للمسلم أن يجري عليها إذا أراد أن يبقى مسلما ، مهما وقف في طريقه ولو ذهبت بذلك نفسه ، وهذا مبسط في كتب الشريعة .. ، وليس للمسلم أن يتنقى في دينه إلا في بعض نقاط لا يكون فيها خطر على وجود الإسلام «^(٢)

ويمضي شكيب في تأكيد حرص الإسلام على عزة المسلم وعدم استسلامه لقوى الظلم والقهر ، فيقول : «ولو كان الإسلام مأموراً بالإسلام للقورة الغالية ، لما قاوم الرسول صلى الله عليه وسلم قريشاً وهي أقوى منه ، ولا قاوم الخلفاء، الراشدون تلك الأمم ودخولوها وهم لم يكرنوا شيئاً بالقياس إلى ما كانت عليه تلك الأمم . كلا ، فالإسلام مبني على العزة وعدم العيالة بالحياة ولا بالمال في الذب عن شريعة الإسلام ، وإن القرآن ملآن بذلك والحديث الشريف مستفيض به ، وما سقط الإسلام إلا بعد أن فتر عمل أهله بتلك الآي ، وغلبت عليهم «كراهية الموت وحب الدنيا» وقتاً للحديث النبوي الذي أتباهم بالحالة التي وصلوا إليها وبالأسباب الداعية إلى حصولها ، وهو حديث «يوشك أن تدعوني عليكم الأمم من كل جانب تداعى الأكلة على القصاع ... الخ»^(٣)

١ - د. مصطفى حلبي ، الإسلام والناه观音 الفلسفية ، ص ٤١٥ (مراجع سابق).

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٣٣٢ .

٣ - المرجع السابق نفسه .

وشكيب يرى أن الدين ضروري للبشر ، وما ثورات (الإلحاد) إلا غمرات ثم تنجلي ، أو فورات ثم تخمد ، وأن التزغات الإلحادية التي تعرض للمجتمع الإنساني في بعض الأوقات ليست إلا عوارض مؤقتة ، لا تستطيع أن تكسب شكلاً عاماً ، ولا أن تستقر وتدوم ، ولا أن تقوم مقام العقائد الضرورية للبشر .

ويقرر شكيب أن التاريخ يبيننا بأن أمثليل لهذه التزغات وقعت ، حيث عصفت ريح الإلحاد في بعض العقب ، ثم زالت واستقر الإيمان ، وعاد الأمر كما بدأ .^(١)

ويحذر شكيب (ملاحدة) المسلمين الجاهلين أو المستجاهلين لحقيقة ما ينطوي عليه هذا الفكر السادي من محاولة إقامة النهضة العلمية في البلاد الإسلامية على أساس (مادية) لادينية ، فيقول «إننا نخشى إن جردنها من دعوة القرآن أن تفضي بنا إلى الإلحاد والإباحة وعبادة الأبدان ، واتباع الشهوات ، مما ضرره يفوق نفعه»^(٢)

ولقد صدق استشعار الأمير (شكيب أرسلان) للأمور قبيل وقوعها ، وسبق عصره في توقع ما أصاب العالم الإسلامي ، بعد أن انحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل فجاءت العوادث مصادقاً لشكهنه .

وقد بين (شكيب أرسلان) أن هناك غرضين جد وراهما البلاشفة : «غرض عاجل ، وهو محور التفرق الغربي سياسياً واقتصادياً محظوظاً تماماً ، وغرض آجل ، وهو بال بشفة الشعوب الشرقية .. أما في الدور الأول : فالبلشفية مستعدة تمام الاستعداد لإحترام الأديان والعادات والتقاليد الشرقية ، والأخذ بنصرة العركات الوطنية في الشرق ، أما في الدور الآخر فالآديان ، مثل الإسلام ستنتقوص تماماً»^(٣)

١ - شكيب أرسلان ، الإرتسامات اللطاف ، ص ٨٤ .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا ناخى المسلمين ؟ ص ١٣٩-١٣٨ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مراجع سابق) ص ٣٠ ، وما بعدها .

الباب الثالث

الفصل الثاني

الفكر السياسي عند الأمير شبيب أرسلان

- تمهيد : شبيب أرسلان بين (الإصلاح الديني) و (الإصلاح السياسي)
- تصور الأمير شبيب أرسلان للدولة الإسلامية :
- استقلال النظام الإسلامي (الفرق بين الخلافة والملك)
- الأصول والمبادئ العامة التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية :
 - ١ - الشورى .
 - ٢ - المساواة .
 - ٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام .
- الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير شبيب أرسلان
 - تمهيد
 - الجامعية الإسلامية
 - الجامعية العربية
- آراء الأمير شبيب أرسلان في التربية
- بعث (المدنية الإسلامية) في مواجهة (الحضارة الغربية)

تمهيد : شكب أرسلان

بين (الإصلاح الديني) و (الإصلاح السياسي)

كلمة «الإصلاح الإسلامي» من الكلمات الاصطلاحية التي إن لم يتحدد معناها بدقة حتى تكون لها شكل واضح لا ليس فيه ولا إبهام ، كانت مثار خلاف بين الناس ، وأدخلت في باب الإصلاح ما ليس منه .

فإن كان فهمنا «للإسلام» بأنه هو الذي كان عليه نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم وأصحابه مصابيح الهدى رضوان الله عليهم كما فهمه منهم التابعون لهم بإحسان ، فمن الإصلاح الإسلامي تجريد الإسلام من البدع الطارئة عليه ، وتخلصه من الدخيل الذي يحسب العاهلون أنه منه وما هو منه ، ومن الإصلاح الإسلامي بث روح النشاط في المسلمين لإحياء مقاصد دينهم وتحقيق أغراضه ، وحسن التعبير عنه في الدعوة إليه وتأليف الكتب في حقائقه وأحكامه وتاريخه ، ومن الإصلاح الإسلامي تعزيز المسلمين على حسن تمثيل الإسلام بأن يتخللوا بأخلاقه ويعاملوا بأدابه وينشروا أبناءهم عليه حتى يكونوا جنود في العصبة له ، وأولئك في السرور بانتشاره واعتلاته ، والحزن لما يصيب أهله من سوء حيّثما كانوا^(١) .

من هذا المنطلق في فهمنا لمعنى (الإصلاح الإسلامي) نستطيع أن نميز ملامع الخط الإصلاحي الذي سار عليه الأمير شكب أرسلان .

فقد انطلق الأمير شكب أرسلان في دعوته الإصلاحية من مقدمة كبرى ، هي صلاحية الإسلام في جوهره لجميع العصور ، وما الوهن والإلحاد الذي ينبع على الشعوب الإسلامية إلا نتيجة تقاعس المسلمين أنفسهم ، ودسائس الأجانب ومكانتهم ، لا نتيجة فساد ذاتي في معتقدهم الديني - كما يزعم الخصوم - فهذا المعتقد يرتكز على ركائز العقل ويقول بالحرية والإختيار وينكر التواكل والخمرل ، ولكن المسلمين قد ضلوا السبيل وتكلموا عن الإهداء بهدي دينهم ، فصاروا إلى ما صاروا إليه من

١ - محب الدين الخطيب ، صحيفة الفتح ، عدد ١٧ ربیع الثاني ١٣٥٤ھ .

الانحطاط والجمود .

وللخروج من هذا المأزق يجب أن يبعث الإسلام من جديد وبطهر من الشوائب التي لحقت به في غضون تاريخه الطويل ، والرجوع إلى نهج السلف الصالح ، الذين أرسوا قواعد العقيدة الإسلامية .

يقول الأمير : «إن أسباب الارتفاع كانت عائدة بمجملها إلى الديانة الإسلامية التي كانت قد ظهرت جيداً في الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب وتحولوا ب Heidiاتها من الفرق إلى الوحدة ومن الجاهلية إلى المدنية ، ومن القسوة إلى الرحمة ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد ... فالقرآن قد أنساهم إذا نشأوا مسأفة خلقهم حلقاً جديداً وأخرجهم من جزيرتهم والسيف في أحدي اليدين والكتاب في الأخرى يفتحون ويسرون ويشكّون من الأرض بطولها وعرضها »^(١)

ولم يقف الإسلام عند حد الفتوحات أو إقامة السلطان الواسع ، بل أسهم في بناء مدنية عربية إسلامية وضاءة دانت لها الدنيا سعاية قرون ثلاثة أو أربعة^(٢) .

١ - شكب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمين . ص ٤١ .

٢ - يقول شكب : «... وقد يقى دور العرب هو الأول في رفته ، وبثرواهم السبطيون في الأرض ، لا يضارعهم مشارع ، ولا يغالبهم مفاسد ، مدة ثلاثة قرون أو أربعة ، ثم أخذوا بالإنحطاط ، وجعلت ظلالهم تتخلص عن البلدان التي كانوا غلبوا عليها شيئاً فشيئاً ، وذلك بفتور الهمم ، ودبب الفساد إلى الأخلاق ، ونبذ عزائم الدين » لماذا تأخر المسلمين ؟ ص ١٢٥ / ١٢٤ .

ويزيد الدكتور نهيم جدعان في كتابه : «أنس التقدم عند مفكري الإسلام في العصر الحديث» ما ذهب إليه شكب أرسلان بتحديد مرحلة التثمير في تاريخ الحضارة الإسلامية زمانها بالقرن الأول للإسلام . وذلك عندما قسم المراحل الثقافية - الاجتماعية لتاريخ الإسلام والعرب حتى يومنا الحاضر بأربعة مراحل هي :

١) مرحلة التثمير وبناء الحضارة ، حيث تشمل زمنياً القرون الأربع الأولى من تاريخ الإسلام .

٢) مرحلة الترفق الحضاري والغزواني ، وتشمل القرن الخامس الهجري .

٣) مرحلة الإنحطاط واحتلال التوازن ، وتبعد مع الغزواني حتى نهاية القرن الثامن الهجري . وما تخلل هذه الحقبة من ركود وجسمود على الصعيد الفكري ، مثلازمه مع وقائع تاريخية معاونة لهذا التخلل (سقوط الخلافة ، انحرار الوجود العربي ، الغزو التتري ، والشعوب والصليبيين) .

٤) مرحلة البقافة والنهوض : وتبعد مع العلامة ابن خلدون ومقدمته في البحث عن أسباب وعلل الإنحطاط وصولاً إلى مرحلة الاستعمار الأجنبي للعالم العربي ومرادفته بالمدنية الغربية وما نتج عن ذلك من صراع وتوتر فكري =

• يقول الأمير : « ومدنية الإسلام قضية لا تقبل المماحكة ، إذ ليس من أمة في أوروبا سوا ، الألمان أو الفرنسيين أو الانكليز أو الظبيان الخ ... إلا وعندهم تأليف لا تحصى في مدنية الإسلام ، فلو لم تكن للإسلام مدنية حقيقة سامية راقبة مطبوعة بطابعة مبنية على كتابة وسته ما كان علماً ، أوروبا ، حتى الذين عرف منهم بالتحامل على الإسلام ، يكترون من ذكر المدنية الإسلامية ومن سرد تاريخها ، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدنيات ، ومن تبين الخصائص التي انفردت هي بها »^(١)

نهدف الأمير شكيب من حركته الإصلاحية هو إظهار قوة الشرع الإسلامي على إدارة المدنية الحاضرة واتساعه لكل ضرب من ضروب الرقي الصوري أو المعنوي بدون أن يقلق وجданه المؤمن أو تخلخل عقيدته ، وبحيث تعبط آمال الاستعماريين الذين يحتالون لوضع الإسلام في موقف المعاند للمدنية .

وتجذور هذا الخطر الإصلاحي لدى الأمير شكيب نجدها واضحة في دعوة الشيخ الأفغاني والإمام محمد عبده ، ولا عجب في ذلك فقد ذكرنا أن شكيب تلمذ على الشيفيين ورأى في فهمهما للعقيدة الشكل الوحيد الذي يرجى أن ينهض بالإسلام .

يقول « د.الدهان » في امتداد خط الأفغاني الإصلاحي من خلال محمد عبده ثم شكيب أرسلان : « كان الشيخ (الإمام) يردد في مجالسه ما تلقنه على يد جمال الدين الأفغاني من سعي إلى الإصلاح وحب للإسلام وذود عن كرامته وتأليف فيه وعمل له ، وكان الإمام لا يفتر عن الحديث في رفع مستوى الأمة وتقديم أخلاقها والنهوض بها نهضة اجتماعية عن سبيل الثقافة والعلم ، في وعي صحيح وفهم عميق لا يسير في تقليد الغرب تقليداً أعمى وإنما يسعى في تربية العقول والنفوس .. وأصانع شكيب إلى هذا كله واستهورته أحاديث محمد عبده عن شخصية جمال الدين الأفغاني .. هذا اللقاء ، بين الإمام والفتى كان نقطة تحول الأمير الناشئ صرفته عن الخيال والأحلام إلى واقع

= وفاني ما بزال حتى أيامنا . د/لهسي جدعان . أنس التقدم - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨١ .

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ١١٩ .

العرب والمسلمين وأحلامهم والتقدم بهم ورد الاستعمار عنهم^(١)

كان الإمام محمد عبد العلقة التي ربطت شكيباً إلى حركة الاصلاح التي تزعمها جمال الدين الأفغاني ، لكن شكيباً لم يكن مجرد تابع في فكرة للفكر أستاذيه بل أسهم بوعيه وحسه الفلسفى القادر على ربط ما تفرق وتشتت من معطيات ووقائع ثم ردتها إلى مبادئها ، وهو كذلك إستمرار شجاع للخط الإصلاحي ، في تعبيده وتعبيده والدعوة له ، كما سعى بكل طاقته إلى تحويله واقعاً فعلياً في السياسة والثقافة والإجتماع .

إن أهم ما قدمه الأفغاني هو ربطه الإسلام الصحيح بالفنال السياسي والإجتماعي الذي يعني تحديداً وحدة الشعور الإسلامية القادرة وحدتها على رد غائمة التدخل الأوروبي^(٢) ، وكان يرى أن ما أمكن تحقيقه في بدء «المدنية الإسلامية» وازدهارها ، والانتصارات العسكرية التي حققتها في صدر الإسلام «يمكن أيضاً تحقيقه وذلك بقطف ثمار العقل ، أي علوم أوروبا الحديثة وإعادتها بنا ، ووحدة الأمة»^(٣) .

«ورغم أن محمد عبد عبده قد صاغ برنامجاً عملياً يقوم على (التربية) مدخلاً إلى (الإصلاح) والتغيير»^(٤) معتقداً اعتقاداً استاذه الأفغاني أن العمل السياسي الصرف كفيل بأن يوصل الأمة إلى الصلاح المطلوب ، فهو يلتقي مع أستاذه في معظم مبادئه وقناعاته وغاياته ، «فهر يلاحظ ، كما الأفغاني ، أن المجتمعات الإسلامية تعانى انحطاطاً أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً يبلغ حد الأزمة والذلة ، لكن علة الأزمة والذلة لا ترقوم في الإسلام ولا في أركانه ، وإنما في العمال الذي انتهى إليها تفكير المسلمين»^(٥) .

ويرى محمد عبده : أن الإسلام قد بنى مدنية زاهدة وله القدرة على استعادة ذلك ،

١ - د. سامي العثمان ، شكب أرسلان ، ص ١٣٢ .

٢ - د. محمد شفيق شبا ، شكب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص ٤١ .

٣ - ألبرت هورانى ، الفكر العربي ، في عصر الابضة ، ص ١٤٥ .

٤ - مقدمات الفكر السياسي ، (مراجع سابق) عن ٤٣ .

٥ - المرجع نفسه .

فالإسلام لم يكن دين آخرة وحسب بل هو كذلك دين الدنيا وصلاح الناس وتقديمه ، لكنه يميز في الموروث الديني الجوهرى المبدئى الثابت الذى لا يتغير ، وبين ما هو غير جوهري غير ثابت وقابل لأن يتغير ، بل يجب أن يتغير ويبدل ليتلام مع حاضر الناس وواقع مطالبهم وحاجاتهم ، ولذلك فهناك امكانية فعلية للتحقيق بين الإسلام والمعصر ، فالإسلام يبحث على الأخذ بالنظر والعقل ، والأخذ بالعقل يوجب قبول ما يقدمه العلم الوضعي ومواكبته ثم الإسهام فيه»^(١)

وإذا كان الشيخ محمد عبد عبده قد ابتعد في الفترة الأخيرة من حياته عن التوجيه السياسي مؤثراً تركيز نشاطه الخاص في الجانب العملي والديني^(٢) ، إلا أن أفكاره وأفكار أستاذ الأفغاني استمرت في توجيهه نكر (شكيب أرسلان) ، ولذلك رأى المستشرق الأسباني المسلم (خبل بن أمينة) شكيباً محاولة في السياسة على هدى إنجازات محمد عبد عبده في الإصلاح الديني .

« ... كان الأمير بريد أن يعمل في السياسة ماعمله الشيخ محمد عبد في الدين، وليس من سبيل إلى نكران ما استطاع تحقيقه في هذا السبيل»^(٣)

كما أشار إلى ذلك «أبرت حوراني» بقوله : «أما شكب أرسلان ، فمع أنه لم يخل قط عن الاهتمام بالإصلاح الديني فقد جذبه السياسات القومية العربية ..»^(٤)

والباحث في فكر الأمير شكب أرسلان السياسي يجد جذوره ومقدماته في أحوال عصره وأيام سيرته ، وأن الأمير شكب أرسلان عاصر حقبة استثنائية في تاريخ الأمة الإسلامية وال العربية - نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين - شهد خلالها وقائع خطيرة متشابكة ومتعارضة ورأى بعينه خلقة تتلاشى ودولة تنهار كما شهد ارتفاع الطابع التوسيعى الغربي حتى بلغ ذروته في مطلع القرن العشرين ، لذلك كانت

١ - المرجع نفسه ص ٦٤ .

٢ - د. محمد البهي ، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص ٩٨ .

٣ - محمد علي الطاهر ، ذكرى الأمير شكب أرسلان ، ص ٢٢٦ .

٤ - أبرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة ، ص ٢٧ .

سياسته متنوعة في أشكالها وصيغها ولكنها ظلت ثابتة ومتمسكة بالمبادئ والأهداف المخلصة لعقيدته وأمته .

إن الإسلام - كما فهمه شبيب أرسلان - ليس دين تعبد فحسب ، وإنما هو رسالة من الله جاءت لخدمة الإنسانية وتقديساً لها ، ويرغم كل ما أصبه به المسلمين من علة وضعف فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض التي تعد خصم الأمم الغربية وغريمتها ومنافقتها في قيادة الأمم ، لذلك كان الإسلام تقىضاً للإستعمار وأداة عمل ضده بقصد خير الإنسانية ولكي يستبعد المسلمون مكانتهم في قيادة الإنسانية إلى السعادة والفلح في الدنيا والآخرة .

لهذا كانت سياسة شبيب أرسلان (إنسانية) في مواجهة السياسة الغربية المناهضة للإسلام والمسلمين ، وبهذا وصف شبيب نفسه سياسته فقال : «إن سياستي في الحقيقة مبنية على الإنسانية لا غير ، وعندى أن الإنسانية هي رأس السياسة ، وأن الذي يأخذ بسياستها لا ي العشر .. هذا هو مشربي الحقيقي ، ويراني الناس مزيلاً للدين لأنني أرى الدين ركناً للإنسانية ، ولست أعتقد مجني الأديان إلا خدمة للإنسانية وتقديساً لها ، وإلا فإن الله غني عن العالمين»^(١) .

والدين الإسلامي في رأي شبيب أرسلان مرتبط بالسياسة فهو عامل توحيد للمسلمين في رد غائلة العدوان والإستعمار يشد أزفهم ويجمع شملهم ويعنفهم قوة أعظم ، يقول الأمير شبيب :

«فاما من جهة المسلمين فإن الجامعة الوحيدة التي كانت تجمع بين الترك والعرب والكرد والأرمن ووط والجركس ، فهي الجامعة الدينية ، ولو لاها لكانت هذه السلطنة قد تفككت منذ قرون»^(٢)

ويرى شبيب أن الإسلام قادر على الإسهام في نهوض الشعوب الإسلامية علماً

١ - أحمد الشريachi ، شبيب أرسلان ، داعية انصر ، والإسلام ، ص. ١٥ .

٢ - مختارات من الأمير شبيب أرسلان ، ص. ٢٩ .

وثقافةً واجتماعاً ، واللحاق بركب العصر ، وهو أمر تحقق له في أيام المسلمين الذهبية ، وكانت أسباب الارتفاع عائدة إلى تمسك المسلمين بدينهم وأسباب التردي والضعف تعود إلى محيدتهم عن جادة القرآن القوية .

كمارأى شكيب أن المسلمين يحتاجون في بنا ، نهضتهم العضارية الحديثة أن يعودوا إلى تراثهم ذاتهم التاريخية الخاصة التي تميز هويتهم وتبعث الثقة في أنفسهم وتعيّنهم في سعيهم الجاد نحو الحرية والعدل .

ذلك هي الأسس والمبادئ التي بنى عليها شكيب أرسلان ذكره الإصلاحي في المجال السياسي ، ولكن لم تكن أفكار شكيب السياسية مجرد طموحات نظرية «بوتومبا» بل لقد حرص على أن يجعلها معياراً لتعامله مع الواقع السياسي الذي ساهم بجهده وآرائه وموافقه في معالجة أحدها .

«لم يكن شكيب أرسلان ، لحظة واحدة ، في هامش ما يجري ويتحول ، كان موقعه الاجتماعي يمنحه قوة واضحة في كل المسؤوليات الرسمية التي تقلدتها ، إلا أنه كان أكثر نفوذاً وقوة وهو خارج المركز والمسؤولية الرسمية »^(١)

وتساؤل حرص الأمير شكيب على ربط منهجه الإصلاحي السياسي بالواقع العملي كثيرة منها إصراره الدائب على ربط الوحدة الإسلامية بمضمون نضالي يقوم على الجهاد ومقاتلة الفزرة الأوروبية ، بل لقد شارك الأسير شكيب بنفسه في مقاتلة الإيطاليين إلى جانب المجاهدين بلبيبا ، كما سارع إلى الإصلاح بين ملك السعودية وإمام اليمن حتى يمنع التدخل الأجنبي ، وكان عضواً في الوفد السوري الفلسطيني المطالب بالحرية ورد الحقوق أمام الدول الغربية ، وكان يقول :

«إن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتعدد إتحاداً دفاعياً تماماً ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، يستطيع بذلك الزياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفتاك ، المقبل»^(٢)

١ - د. محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص ١٤٣ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ، ص ٣٧ .

ونحن لا نهدف من دراستنا تبع الجانب العملي في سبابة الأمير شكبب أرسلان مع عظيم تقديرنا لجهاده وجهوده ، ولكننا أردنا أن نبحث في فكره النظري السياسي الإصلاحي الساعي إلى إعادة بناء الكيان السياسي للدولة الإسلامية في العصر الحديث على أصول شرعية صحيحة وبيان اجتهادات الأمير شكبب في مواجهة (واقع الأمة) المستمثل في الفراغ السياسي الذي أحده إلغاء الخلافة العثمانية ، ومواجهة الهجمة الغربية السياسية والحضارية والفكرية والتي تهدد الأمة الإسلامية بفالنا ، أو فقدان الهوية .

ولقد تناول البحث (الفكر السياسي عند الأمير شكبب أرسلان) من جانبين :

الجانب الأول : «تصور الأمير شكبب أرسلان للدولة الإسلامية»

ويبحث في مسأليتين : المسألة الأولى :

استقلال النظام الإسلامي (الفرق بين الغلابة والملك)

ويهدف إلى إظهار رؤية شكبب أرسلان لنفرد النظام الإسلامي ، وتفوقه على كل الأنظمة السياسية التي قامت عليها الدول عبر العصور .

والمسألة الثانية :

تبين الأصول والمبادئ العامة التي تميز الدولة الإسلامية في رأي شكبب وقدرتها على تحقيق مصالح الناس ، وبلغة الغاية المقصودة من الشريعة الإسلامية وهي إقامة (العدل) في الأرض ، وقد تجلى هذا الهدف من خلال إبرازه لمبادئ الإسلام العامة التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية وهي :

١ - الشورى .

٢ - المساواة .

٣ - التسامح أو معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام .

أما الجانب الثاني : «الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير

شكيب أرسلان «

فيبحث تدرج فكر شكيب أرسلان السياسي في تعامله مع الواقع السياسي للأمة الإسلامية ، ومحاولاته الجمع بين (المثل الأعلى) المتمثل في إقامة الخلافة وبين واقع المسلمين وصراعهم من أجل الحفاظ على كيانهم السياسي في مواجهة حلات التغريب والتغريب والشروعية.

ولقد تدرج فكر شكيب أرسلان وموقفه السياسي على مرحلتين :

المرحلة الأولى : والتي امتدت إلى نهاية الحرب الأولى أو بعدها بقليل ، وتميز مضمون فكره خلالها بالتمسك بالجامعة الإسلامية وكانت تمثلها في هذه المرحلة (الخلافة العثمانية) حقيقة قائمة .

والمرحلة الثانية : وهي مرحلة ما بعد الحرب الأولى ، منذ مطلع العشرينات وإلى أيامه الأخيرة ، وتميز فكره خلالها في محاذالت ملء الفراغ السياسي الذي أحدثه إلغاء الخلافة العثمانية ، وما ترتب عليه من فتح الباب على مصراعيه للاتجاهات الفكرية والمذهبية والعرقية من كل شكل وعلى كل لون .

ولقد عرضنا مراحل هذا التدرج من خلال دعوته إلى (الجامعة الإسلامية) وفكرة (الرابطة الشرقية) ثم إلى (الجامعة العربية) ، كما بينما منهجه لبعث الأمة الإسلامية بعثاً جديداً من خلال عرض آرائه في (ال التربية) ، ويعث (المدنية الإسلامية) في مواجهة (الحضارة الغربية) .

تصور الأمير شحيب أرسلان للدولة الإسلامية :

- استقلال النظام الإسلامي (الفرق بين الخليفة والملك).
- الأصول والمبادئ العامة التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية :
 - ١ - الشوري .
 - ٢ - المساواة .
 - ٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام .

باستقلال النظام الإسلامي (الفرق بين الخلافة والملك)

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الخلافة من بعده ثلاثون سنة فقال : " الخلافة ثلاثة عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك " [١] فهذا نص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرق فيه بين مصطلح الخلافة التي هي : " نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا ، فصاحب الشرع متصرف في الأمرين : أما في الدين فمقتضى التكاليف الشرعية التي مأمور بتبليلها وحمل الناس عليها ، وأما سياسة الدنيا فمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري " [٢] وبين الملك بما يحاط به من مزايا الترف وخصائص الأبهة .

ولقد اجتهد الأمير في إظهار الفروق بين معنى كل من الإصطلاحين فقال : إن الإسلام في أصله يفترق عن غيره من الملل بأن الخلافة فيه وإن أشباه الملك من جهة الأمر والنهي - شرط مشاورة أهل الحل والعقد - فهي لاشبه الملك في مزايا الترف وخصوصيات الأبهة التي يحيزها ملوك الأمم الأخرى [٣] .

وعلى هذا فليس كل من انتحل لقب الخلافة خليفة فقد أطلق لقب " خليفة " على ملوك عدول وأخرين مستبدین وعلى سلاطين منهم الصالح ومنهم الطالح ومنهم القوى رمنهم الضعيف وليسوا بخلفاء . ولذلك ذهب جماعة من أئمة السلف منهم أحمد بن حنبل رحمة الله إلى كراهة إطلاق اسم الخليفة على من بعد الحسن بن علي رضي الله عنهما ، واحتجوا بما رواه أبو داود والترمذى عن حديث سفيينة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخلافة في أئمتى ثلاثة سنّة ثم ملك بعد ذلك " [٤] .

ويرى الطبرى خبراً عن عبد الله بن مساعدة يبين أن معاوية بن أبي سفيان قد أدرك الفرق بين الخلافة والملك ، قال :

[١] رواه الإمام أحمد في مسنده ، وصححه ابن حبان

[٢] ابن خلدون ج ١ ص ٢٨٦

[٣] تعليقات الأمير على ابن خلدون من حق الجزء الأول من ٤

[٤] التقشندى ، مأثر الآئمة في معالم الخلافة ج ١ ص ١٦

"انتقل معاوية من بعض كور الشام إلى بعض عمله فنزل متزلاً بالشام فبسط له على ظهر اجار (سطح) مشرف على الطريق ، فلأنه لم يفوت معه فمرت القطرات والرهايل والجواري والخيول فقال : تابن مسدة رحم الله أبا بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا وأما عمر فرارته الدنيا ولم يردها ، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه ولما نحن فتمر غنا فيها . ثم كله ندم فقال : والله إنه لملك ساقه الله إلينا" [١].

فخلافة ابن نعمت فريد من أنماط أنظمة الحكم تختلف عن الملك أو السلطنة ، أو كما يصفها الأمير شكيب : "الخلافة في الإسلام ليست بملك ولا سلطنة ، وإنما هي رعاية عامة للأمة لاقامتها على الشرع الحنيف ، وردع القوى عن الضعف في الداخل ، وصيانة الإسلام ودفع المعتدى عليه من الخارج . وهي لاتعتقد إلا بإرادة الأمة . والسلطان الذي يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمة لسلطان له عليها إلا منها" [٢].

والأمير يدعو من أراد أن يتعرف على النظام الحقيقي للخلافة في الشرع الإسلامي أن يتأمل مكاناً عليه الخلفاء الراشدون الأربع ، فهو أشد صور الحكم الإسلامي إنطباقاً على الشرع [٣] ، وسيرة الخلفاء الراشدين هي المرأة الحقيقة لروح الإسلام [٤] .

والأمير بذلك ينطق بما جاء في الحديث الشريف ، وعندما يقول "إن الخلافة لم تستتم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، إلا خشية الفتنة في الداخل والإعتداء على الحوزة من الخارج" [٥] .

وإذا أراد الإنسان أن يعرف ثمار شجرة الإسلام فعليه أن يدرس سيرة الخلفاء الراشدين التي تستخلص منها الأحكام الشرعية التي تميز نظام الخلافة والمبادئ التي يقوم عليها فتميزه كنظام مستقل سابق لأنظمة العصر .

[١] الطبرى ، ج ٥ / ٣٣٤

[٢] حاضر العالم ، ج ١ من ٦٤٠

[٣] نفسه ج ١ من ٢٤٠

[٤] نفسه ج ١ من ٢٤١

[٥] المرجع السابق ج ١ من ٢٩٠

ومن تلك المبادئ التي يقوم عليها نظام الخلافة في الإسلام مبدأ كون السلطة القومية من الأمة وهو مبدأ سبق به الإسلام لمنظمة العصر، وليس كما يزعم الكثير من الأوروبيين ومن تابعهم من المسلمين الجاهلين بتاريخ الشرائع : إن هذا المذهب من الأوضاع الغربية الأوروبية ، فقعدة الإسلام في هذا الموضوع واضحة ، وحكم الخليفة الراشدين " كان أمراً شبيهاً محضاً وديمقراطياً بحثاً وأبعد شيء عن السلطان المطلق ، وللقرآن صريح في قوله تعالى : " وشولرهم في الأمر " قوله " وأمرهم شوري بينهم " [١] .

والبعض الثاني أن الخليفة أو أمير المؤمنين لم يكن شخصاً مقصتاً غير مسنون كما هو عند الأوروبيين - في البابا - ولم تكن له مزية شخصية على سائر الأمة ، وكان إذا أخطأ فقد من نفسه [٢] . ولم يخطر ببال أحد من الخلفاء الراشدين أن يورث أولاده الخلافة - كما يفعل الملوك - بل كانوا يتلقونها عن ظهورهم للقاء من يريد الخلاص من تبعتها [٣] .

أما المبدأ الثالث - وهو بدائي - أن نظام الحكم كان يقوم على ما نزل لله سبحانه حسب منهاج النبوة ، لافرق بين الخليفة وأهل الحل والعقد وبستر نفراد للرعاية في وجوب الامتثال لشرع الله ، وهو محارب الاستقلالية التي تحدث عنها أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما بوبع للخلافة فقال : إنما أنا بشر ولست بخير منكم فراعوني فلن رأيتوني استقمت فاتبعوني وإن رأيتوني زخت فقوموني " [٤] .

هذه هي المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الخلافة ، ولكن ما الفرق بين الخليفة والملك ؟ ولربما التبس الأمير على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب خشية الوقوع في الملك والإتلاف عن الخلافة كما نقل الأمير عن الطبقات الكبرى لإبن سعد : أن عمر مآل سلمان قال له : أملك أنا أم خليفة ؟ قال له سلمان : إن كنت جبيت من لرض المسلمين درهماً أو لقل لو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة ، فلم يستغير عمر ثم قال أخينا محمد بن عمر قال عن سفيان بن ثين العوجاء قال : قال عمر بن الخطاب : والله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك ؟ فلن كنت ملكاً فهذا أمر عظيم ، قال قتال : يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً ، قال ما هو : قال الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا في حق فأنت بحمد الله كذلك ، والملك يتصف للناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا . فسكت عمر [٥] .

فمن طبئ العالك الذى تفرق بينه وبين الخليفة حرصه على الدنيا وترك العدل ، والاستبداد ، على أن عمر رضى الله عنه ، كان يعلم بعض طبائع الملك غير الذى ذكر أصحابه . وذلك أنه لما قدم الشام ولقي معاوية بن أبي سفيان واليه عليه ، فى أئمة الملك وزيه استقر هذا الترف وقال : "اكسروية يا معاوية !" فقال : "يا أمير المؤمنين إنا فى ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباراته بزينة الحرب والجهاد حاجة " فسكت عمر [١] . وكان عمر بن الخطاب إذا استعمل عاملًا كتب عليه كتاباً وشهد عليه رهطاً من الأنصار أن لا يركب برذونا ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولا يغلاق بابه دون حاجات المسلمين ، ثم يقول اللهم اشهد [٢] .

وأعمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يكن ليشق على عماله بالتضييق عليهم ، ولكنه أراد أن يضطهدهم فلا يغدون طبقة متميزة في الأمة يتعمدون بمراتب خاصة وملابس خاصة يحتاجون في دواوين الدولة عن الناس ، وهذا هو فهم عمر للنظام الخلافي الذي كان يأخذ به نفسه ، فليست الخلافة مجرد نظام سياسى إدارى أو منهج حكم بل بتجاه سلوكي وخلقى بلد اجتماعى أيضاً . عليه فإن من صancs الخلافة الرشيدة إلتزام المجتمع الإسلامى بمجموعة الأخلاق الإجتماعية التي حدتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسلوك الخلفاء الراشدين والصحابية الأوليين [٣] . والأمير شبيب يرى في سيرة عمر مثالاً يأذن به القارى صورة حقيقة عن كيفية الإسلام في زمان الخلفاء الراشدين وعن روح الإمارة التي أمرهم بها الشارع صلى الله عليه وسلم ، وفي سيرته رضى الله عنه تبرئة للشريعة الإسلامية مما أصاب المسلمين بعد عهد الراشدين من فرقة وضعف ، لأن حقيقة الإسلام كما تظهر من سيرة الراشدين كانت معيار الفلاح والفشل للMuslimين ، "فكانوا كلما تمشوا عليها أفلحوا وسلاموا وكلما إنحرفوا عنها وهنوا وفشلوا (إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)" [٤] . وفي تعليقات الأمير على (حاضر العالم الإسلامي) يعلق على قول (لوثروب ستودارد) الامريكي : "إن العرب ما إنفكوا ينظرون إلى الخلفاء الترك شزرًا ويعدونهم

[١] مقدمة ابن خلدون ط ٣ ص ٣٦٠

[٢] ابن الجوزى ، سيرة عمر ص ٨٥

[٣] الخلافة بين التنظير والتطبيق ، محمود المرداوى ص ٤٨

[٤] تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامي ، ح ١ ص ٢٥٨

المختصين للخلافة باغتصابه^[١] .
 يقول شبيب : إن الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة نم تكن إلا منكاً عضواً قد يولد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم^[٢] .
 وبناء على هذا فقد فرق الأمير شبيب بين أنظمة الحكم الثلاثة الملكي الاستبدادي أو الطبيعي كما يسميه ابن خلدون ، والملكى السياسى والخلافة التي وازع كل أحد فيها من نفسه وهو اثنين ، وهذا الفهم نجده عند ابن خلدون ويز في قوله : "قد تبين لك من ذلك معنى الخلافة ، وأن الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الفرض والشهوة ، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصانع الدنيوية ودفع المدار ، والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصانعهم الأخروية والدنبوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به"^[٣] . وهذا النظام لم يتحقق إلا فى عهد الخلفاء الأربع الذين خلفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويؤيد ما ذهب إليه الأمير ما سبق وأشارنا إليه عن الثلاثين سنة التى أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنها سنى الخلافة فى قوله "الخلافة ثلاثون سنة ثم يكون بعد ذلك الملك"^[٤] . وقول العلماء : لم يكن فى الثلاثين سنة بعده صلى الله عليه وسلم إلا للخلفاء الأربع وأيام الحسن^[٥] .

ويقال الأمير شبيب بين نظام الخلافة وبين النظام الدستورى الذى تحكم فيه العامة إلى قوانين سياسية فبنقاد الجميع إلى أحکامها فيقول : "إن الخليفة ليس معصوماً عند أهل السنة ، وأنه لا يمتاز عن غيره من الرعية ، وأنه مقيد بالشورى ، وأنه ليمر له أن يستبد بالأمر" ثم يقول الأمير : "ولعل باتلاً يقول : إن ملوك العصر الحاضر أيضاً مقيدون بالدستور الذى وضعتها الأمم التى يلون أمرها وليس لهم أن يستبدوا فى شيء ! وهذا لاجدال

[١] سودارد ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ٢٩٠

[٢] شبيب أرسلان ، تطبيقاته على حاضر العالم الإسلامي ، هامش ص ٢٩٠ ج ١

[٣] مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٣٣٧

[٤] رواه أحمد وآخرجه بن حبان

[٥] جلال الدين السيوطي تاريخ الخلفاء ، ط ١ ص ٩٠

فيه وأن الأمم الحديثة قيدت الملوك ولكن يبقى بينهم وبين الخلفاء الراشدين الفرق العظيم بأن ملوك الأعصر الأخيرة هم غير مسؤولين في أحوالهم الشخصية ، وأن الخلفاء في الإسلام هم مسؤولون كسائر الرعية .

ويبقى فرق آخر بأن الخلفاء كانوا من السذاجة والتقشف في معيشتهم ما لم يكن أحد قبلهم ولا بعدهم ، ولم يكونوا يأخذون من بيت المال إلا ما يسد عوزهم الضروري والحال أن الملوك ورؤساء الجمهوريات في الأعصر الأخيرة يتمتعون بالجرائم الوافرة وبعيشون في ترف عظيم لا ينابيع فيه أحد" [١] .

ويقر الأمير بأن الخلفاء الراشدين لم يقع انتخابهم إلى أجل مسمى نظير رؤساء الجمهوريات ، ولكنه يؤكد أنه لا جدال في أن الخليفة أو أمير المؤمنين لم يكن شخصاً مقدساً غير مسئول كما هو عند الأوربيين ولم تكن له مزية شخصية على سائر الأمة [٢] .

ويرى الأمير أن من أكبر الفروق التي تميز الخلافة عن الملك أن الخلفاء الراشدين لم يخطر ببال أحدthem أن يورث لولاته الخلافة بل كانوا يلقونها عن ظهورهم لقاء من يريده الخلاص من تبعاتها .

وبلغوك هذا العصر ينتقل الملك منهم إلى أولادهم فأحفادهم ، بينما كان الخلفاء الراشدون يعهدون إلى ذوى الكفالة من الأمة دون أولادهم . "فروح الاسلام الحقيقي هي مراعاة الكفالية والأهلية دون أي اعتبار آخر" [٣] .

وبعد .. فإن دارس الشرع الإسلامي يحق له أن يتساءل كيف انقلب الخلافة ملكاً في الإسلام؟ وكيف رضيت الأمة أن تتقاد لنظام سياسي مخالف لما كان عليه سلفها الصالح بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم؟

ويجيب الأمير شكيب فيقول : " ما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، إلا خشية الفتنة في الداخل والإعتداء على الحوزة من الخارج " [٤] .

[١] تعليلات الأمير على مقدمة ابن خلدون ج ١ من ٢٦

[٢] تعليلات الأمير على حاضر العالم الإسلامي ج ١ من ٢٤١

[٣] تعليلات الأمير على ابن خلدون ج ١ من ٢٦

[٤] تعليلات الأمير على حاضر العالم الإسلامي ج ١ من ٢٩٠

والحق أن خوف الفتنة ، وتغير أحوال المسلمين عن أحوال أسلافهم بيان عهد النبوة ، سببان أساسيان في إنقلاب الخلافة إلى الملك ثم استقرار الملك ورضا المسلمين به . يقول ابن خلدون في بيان ذلك ما نصه " فقد تبين لك كيف انقلب الخلافة إلى ملك وأن الأمر كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الذين وكانوا يؤثرون على كل أمور دنياهم وإن أفضت إلى هلاكهم وددهم دون الكافة ، فهذا عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيف بين المسلمين مخافة للفرقعة وحفظاً للألفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدى إلى هلاكه" . وهذا يبين أن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه أثر أن يصل إليه الثائرون فيقتلوه على أن يقوم رهط من أنصاره بقتالهم فتفتح الفتنة بين عامة المسلمين دون أن يجتهد في دفعها عنهم وهو راجيهم وممسنؤ أمام الله عما استرعاها [١] .

ويروى ابن خلدون رواية أخرى عن علي رضي الله عنه تبين تمسكه بمنهج الخلافة وتركه لأساليب الملك . وإن كان بها مصلحته يقول ابن خلدون : وهذا على أشار عليه المغيرة لأول ولاته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيته ، وتتفق الكلمة ، وله بعد ذلك ماشاء من أمره ، وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فرلا رأيه من الغش الذي ينافيه الإسلام . وغدا عليه المغيرة من الغدة فقال : لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرت ثم عدت إلى نظرى فعلمت أنه ليس من الحق والنصيحة ، وإن الحق فيما رأيته أنت ، فقال على : لا والله ، بل أعلم أنك نصحتي بالأمر ، وخششتى اليوم . ولكن معنى مما أشرت به ذائد الحق . وهكذا كانت حالهم في إصلاح دينهم بفساد دنياهم " [٢] . فعلى كرم الله وجهه أبي نصيحة المغيرة لأن العمل بها ، وإن كان في مصلحته ، من سمات الملك وليس من سمات الخلافة التي اجتهد أن يتمسك بها وينهج نهج أسلافه في التمسك بنظام خلافة النبوة .

ولكن هل كان العصر ملائماً لاستقرار الخلافة على نهج النبوة ؟ . " لقد كان على رضي الله عنه يدرك اختلاف المحيط وأنه جاء في عصر أهله أهل دنيا وملك ، فسأله سائل ؟ مباب الناس اختلفوا عليك وقد أجمعوا على أبي بكر وعمر ؟ فقال : لقد كان أبو بكر

و عمر خلفاء على أمثالى و كنت خليفة على مثالك " [١] .

وعلى قاعدة كما تكونوا يول عليكم " صار الأمر إلى الملك وبقيت معانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ، ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديننا ثم انقلب عصبية وسيفًا . وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وإبنه عبد الملك ، والصداد الأول من خلفاء بنى العباس إلى الرشيد وبعض ولده . ثم ذهب معانى الخلافة ولم يبق إلا إسمها ، وصار الأمر ملأها بحثا " [٢] .

ولقد ذهب العقاد إلى القول بأن " الصراع بين علي ومعاوية رضي الله عنهم لم يكن صراعاً بين رجلين وإنما كان صراعاً بين بجهاهن أو نظامين ، النظام الخلافي والنظام الملكي . فالأول : ذهب أهله وانتقض زمانه ، والثاني : استحله الناس واستحسنوه فهو أيسر لأهوانهم وأنعم لدنياه " [٣] .

قال ابن خلدون : " ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم منها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهما بغير رض نبوي أو لإثمار باطل أو لاستشعار حق كما يتوجهه متوجهون وينزع إليه ملحد وإنما اختلف جهادهم في الحق وسفه كل واحد نظر . صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه " [٤] .

وبعد حسم الصراع وانتقال أمر العرب والمسلمين لبني أمية ، انتقض الأمر وفق موازين القوة الإجتماعية وخوف الفرق أو ما يسميه ابن خلدون (العصبية) أن تتحول الخلافة إلى ملكاً وراثياً . قال ابن خلدون : " ثم انتقض طبيعة الملك الإنفراد بالمجد ، واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقه العصبية بطبيعتها واستئمرته بنو أمية ، ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتقاء الحق من أتباعهم فاعتوصبوا عليه واستئمروا دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الإنفراد بالأمر لوقع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس ورائه كبير مخالفة " [٥] .

[١] الخلافة بين التنظيم والتطبيق ، محمود المرداوي ، ص ٣١ - ٣٢

[٢] مقدمة تاريخ ابن خلدون ج ١ ، ص ٣٦٩

[٣] عباس تعقاد . عبقرية الإمام علي ، ص ٤٣ عن الخلافة بين التنظيم والتطبيق ص ٣٢

[٤] . [٥] مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٦٤ ، ج ١

ويزعم ابن خلدون أن الذي دعا معاوية إلى ابئثار إينه يزيد بالعهد دون سواه ، إنما هو مراعاة المصلحة العامة في إجتماع الناس وإتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بنى أمية ... فعدل معاوية عن الفاضل إلى المنضول حرصاً على الإتفاق وإجتماع الأهواء والذي شأنه أهم عند الشارع .

وحرصاً على جمع كلمة المسلمين والخوف من افتراق الكلمة إمتنعت عمدة الخلافة الصحيحة فيما بعد ، فقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القسم بن محمد بن أبي بكر : " لو كان لي من الأمر شيء لوليته الخلافة " . ولو لراد أن يعهد إليه لفعل ، ولكنه كان يخشى من بنى أمية ، أهل الحل والعقد ، فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم ، لذا نفع الفتنة [١] .

[١] شبيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ص ٣٢٥

الأصول والمبادئ العامة التي تقوم عليها

نظم الدولة الإسلامية

- ١ - الشوري .
- ٢ - المساواة .
- ٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام .

١ - الشورى

يرى الأمير شكيب أن السلطان الذى يوتوه صاحب الخلافة هو من الأمة لسلطان له عليها إلا منها [١] ، ذلك فإن أمر الشورى فرض أوجبه الله [٢] فى كتابه قال تعالى : وشأورهم فى الأمر . وقال : " وأمرهم شورى بينهم " . وكان النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون يعملون كل شيء عام بالشورى . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى احدى خطبه : " ولكن الإبرام بعد التشاور ، والصفقة بعد التناظر " [٣] .

وينقل الأمير عن ابن قيم الجوزيى فى (أعلام الموقعين) قوله : كانت النازلة إذا نزلت بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليس فيها عنده نص عن الله ولا عن رسوله جمع لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جعلها شورى بينهم [٤] وعن شريح القاضى قال : قال لي عمر بن الخطاب : " اقض بما استبان لك من قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن لم تعلم كل قضية رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بما استبان لك من آئمه المهتدين فإن لم تعلم كل قضيتك به آئمه المهتدين فاجتهد رأيك واستشر أهل العلم والصلاح " . وكتب عمر إلى شريح : " إذا حضرك أمر لابد منه فانتظر ما فى كتاب الله فاقض به فإن لم يكن ففيما قضى به رسول الله فإن [٥] . ففيما قضى به الصالحون وأئمة العدل فإن لم يكن فائت بالخبر . فإن شئت لن تجد رأيك فاجتهد رأيك وإن شئت أن توأمري ولا أرى موامرك إياى إلا خيرا لك " [٦] .

ومن كتاب لعمر إلى أبي موسى الأشعري : " تم الفهم فيما أدى إليك مما ورد عليك مما ليس في القرآن ولا سنة ثم قايس الأمور . واعرف الأمثال ثم اعد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق " [٧] .

والأمير شكيب يكثر من الاستشهاد بالأخبار والآثار الواردة فى أمر الشورى عن الخلفاء الراشدين لأنه يرى أن من أراد أن يعلم قاعدة الإسلام فى هذا الموضوع فعلبه أن يتأمل مكانة الخلفاء الراشدون الأربع ، فهو أشد صور الحكم الإسلامي انتباها على الشرع [٨] . فإذا أراد الإنسان أن يعرف ثمار شجرة الإسلام فليتأمل فى سيرة الخلفاء الراشدين فإليها للمرأة الحقيقة لروح الإسلام " [٩] .

من [١] إلى [٩] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٣٤٩ ، ٧٠ .

ومن تأمل النصوص التي يستدل بها الأمير على وجوب الشورى في الإسلام نجد أن مهام الشورى تقتصر على جانب واحد من جوانب الفقه والشريعة هو الاجتهاد والرأي ولامجال لها مطلقا فيما ورد فيه نص ، وقدما رسم الأصوليون هذه القاعدة فقالوا : "لا اجتهاد في مورد النص " [١] . وليس أدل على هذا مما ذكره الأمير من الحديث " لما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل واليأعلى اليمن قال لمعاذ : كيف تصنع أن عرض لك قضاء ؟ قال أقضى بما في كتاب الله : قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال فبسنة رسول الله . قال : فإن لم يكن بسنة رسول الله ؟ قال اجتهد رأيي ولا آلو . ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله هذا وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله " [٢] ، فالشريعة قد جعلت باب الاجتهاد مفتوحا لكل من كان حقيقا به ، وجعلت المصلحة والضرورة وسد الذرائع من الأصول الكلية التي يرجع إليها [٣] ، وأوجبت على الإمام المشاورة في كل مالا نص فيه عن الله ورسوله ، ولا إجماعا صحيحا يحتج به ، أو ماقببه نص اجتهادي غير قطعي ، ولا سيما أمور السياسة وال الحرب المبنية على أسس المصلحة العامة ، وكذلك طرق تنفيذ النصوص في هذه الأمور إذ هي تختلف باختلاف المكان والزمان فهو ليس حاكما مطلقا كما يتوهم الكثرون بل مقيدا بأدلة الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين العاملة وبالمشاورة [٤] . والأمير يستشهد بقول الله تعالى :

وشاورهم في الأمر " وقوله في وصف المؤمنين : " وأمرهم شوري بينهم " ، ولو لم يرد في أمر الشورى الآهاتين الآيتين لكنى بهما دليلا على وجوب الشورى في الإسلام ، فالآية الأولى أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهي جزء من قوله تعالى : " فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر " [٥] . وقد ذهب بعض السلف إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان غنيا عن المشاورة فلولا إرادة جعلها قاعدة شرعية لما أمر الله بها " روى عن الحسن البصري في تفسيره قوله تعالى (وشاورهم في الأمر) أنه قال :

[١] الخلقة بين التنظيم والتطبيق محمود المواردي، ص ٢٢٢

[٢] شكب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ من ٣٥٠

[٤] رشيد رضا ، الخلقة ، ص ٢٨

[٥] آل عمران ، آية ١٥٩ " فبما رحمة من الله لنت نهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لاتفوضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتقين " .

"قد علم الله أنه مأبه إليهم من حاجة ولكن أراد أن يستن به من بعده" [١].
 فالمشاورة في حقه صلى الله عليه وسلم مندوبة لتطييب القلوب ، ومنهم من ذهب إلى وجوبها لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مستغنياً عن غيره من الناس إلا فيما ينزل عليه فيه الوحي وقال "أنتم أعلم بأمور دنياكم" [٢] (رواه مسلم) . ولذلك كانوا إذا راجعوا في أمر أمر به ورأوا المصلحة في غيره سأله أفاله أو فعله بمحى من الله أم من رأيه ؟ فإذا كان من رأيه ذكروا رأيه وقد يعمل به ويرجحه على رأيه كما فعل في يوم بدر فقد جاء صلى الله عليه وسلم أدنى ماء فنزل عنده فقال العباس بن المنذر : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أعلىك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه ؟ ألم هو الرأي والرعب والمكيدة ؟ ، قال "بل هو الرأي والرعب والمكيدة" فقال يا رسول الله ليس هذا منزل فانهض بالناس حتى ثأرني أدنى ماء من القوم فتنزل له ثم نفور ما وراءه .. إلخ ، فقال صلى الله عليه وسلم "لقد أشرت بالرأي " وعمل برأيه [٣] . وسواء أكان الأمر في حقه صلى الله عليه وسلم على سبيل الندب لو الوجوب ، إلا أنه في حق المؤمنين واجباً بالإجماع لأن الله سبحانه وتعالى وصف به المؤمنين فقال : "وأمرهم شورى بينهم" فذكر سبحانه من صفات المؤمنين التشاور فلا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بأرائهم في مثل الحروب وما جرى مجريها [٤] . والأثار الوردة عن الراشدين في المشاورة كثيرة منها ما ذكره الأمير شكيب عن أبي بكر وعمر رضبي الله عنهما ورواه الدرامي والبيهقي عن ميمون بن مهران أن أبي بكر كان يسأل عامة المسلمين عما لا يجد فيه نصاً من الكتاب ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، هن يعلمون عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه شيئاً فربما قام إليه الرهط فقالوا نعم قضي فيه بكلّا فيأخذ به ويحمد الله تعالى (قال) وإن أعياد ذلك دعا رعوس المسلمين وعلماءهم فاستشارهم فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضي به ، وإن عمر بن الخطاب كان يفعل ذلك ، وزاد أنه كان بعد النظر في الكتاب والسنة ينظر فيما قضى به أبو بكر أيضاً لأنه كان لا يقضي إلا بنص أو مشاورة [٥] .

[١] رشيد رضا ، الخلاة ، ص ٣٨

[٢] المرجع السابق ، ص ٣٨

[٣] المرجع السابق ، ص ٣٨

[٤] ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ص ١١٨ مع ٤

[٥] رشيد رضا ، الخلاة ، ص ٤٠

ومنه ما رواه علي كرم الله وجهه قال : قلت يارسouن الله إن نزل بنا أمر ليس فيه بيان أمر ولا نهي فما تأمرنا ؟ فقال صلي الله عليه وسلم " شاوروا فيه الفقهاء والعابدين ولا تنتظروا فيه رأي خاصية " [١].

ومن تأمل هذه الآثار، نلحظ الفرق بين سؤال عامة المسلمين عن الرواية وإختصاص الرؤساء والعلماء بالمعاشرة، ذلك بأنهم هم جماعة أولى الأمر وأهل الحل والعقد الذين أمر الكتاب بطاعتهم بعد طاعة الله ورسوله وقال في إحالة الأمر إليهم (ولو ردوه إلى الرسول إلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستطونه منهم) . والحق أن الدولة الإسلامية قامت مع نظام صحيح أو قام النظام معها ، والأصل في الشور . أنها دعامة من دعائم الدولة وواجب من واجبات الحكومة الإسلامية كما يتجلى ذلك في نظام الحكم على عهد الراشدين ولا عبرة بالمنحرفين عن هذا الأصل ؛ وهذا ما يؤكده الأمير شكيب بقوله : " إن جميع الحكومات الإسلامية هي شورية ديمقراطية فطرة وحقيقة والاستبداد فيها عارض ومن جملتها الدولة العثمانية أو التركية الحاضرة " [٢] .

٢ - المساعدة

لن الدين لا يكون إليها سلواً مارشحاً لأن تأخذ به الأمم المختلفة ، أحمرها وأسودها
وادنها وأبعدها ، الا إذا كان مؤسساً على هذه القاعدة المقدسة ، قاعدة المساواة [٣] .
وشريعة الإسلام حرصت على قيام الدولة الإسلامية بتحقيق العدالة بأوسع معانيها وفي
شتى مجالاتها السياسية والإدارية والقضائية والاجتماعية والدولية ويتضمن ذلك حماية
الحقوق والحربيات ، العامة والمساوية في صورها المتعددة ، كما تقوم ممارسة الحكم على
الشوري . ويرتبط تحقيق المساواة في الإسلام بمفهوم (الأمة) ، فالامة في الإسلام تقوم على
أساس عقدي ذكرى لا على لسان عرقى ، كما يقوم مفهوم (الدولة) على نفس الأساس ،
لا على لسان أرضى جغرافي أو تاريخى "كنت خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف
ونهون عن المنكر وتبذلون بالله - آل عمران ١١٠"

[١] زواه الطرانتي في مجده الوسيط وصحمه السيوطي في مفتاح الجنة (محمد عوامة ، أثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمة ، ص ١٠٢)

[٢] مكتب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ص ٧٠

[٣] سکیب ارسلان، حاضر العالم الإسلامي، ج ٤، ص ١٥٨

"وكذلك جعلناك أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهداً - البقرة ١٤٣ . وقد ورد ما يشير بمقامة كيان سياسي نظامي لأمة الإسلام في القرآن والسنة ، غير عن المسئول عنه بـ (الإمام) و(ولي الأمر) [١] .

ومن هنا قامت أمة الإسلام ودولته على أساس إنساني عالمي ، يقول الأمير شكيب : "نرى صورة الإسلام كلها في هذه الآية "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله لتقاكم" يقول تعالى : إنه خلق البشر كلهم من أب وأم وما جعلتهم شعوباً وقبائل اتميّز بعضهم على بعض ، كلا ، بل ليعرف كل من أى قبيل هو ، أما المزية فهي للتقوى فقط . وبهذه الآية انتشر الإسلام ، وفتح العرب تحت ظل رايته الديموقراطية الحقيقة نصف المعمور ، ودخلت الأمم في الإسلام ، ولا تزال تدخل فيه إلى يومنا هذا" [٢] .

ويبيّن الأمير رفض الإسلام لأمته ودولته أن ينغلقاً على عصبية ضيقة فيشتهد بالآحاديث النبوية التي جاءت مؤيدة للآلية الكريمة (فمنها "ليس من دعا إلى عصبية") ومنها : "ليس لعربي فضل على عجمي ولا لجمي فضل على عربي إلا بالتقوى"؛ ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : لفاطمة ابنته : "اعملي يا فاطمة فلن أغنى عنك شيئاً يوم القيمة" . أو كما قال . وهذا في معنى قوله تعالى : "لَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَذْ لَا يَتَسَاءَلُونَ" [٣] ثم يقول الأمير : "وهناك حديث شريف أطلعنا على أسانيده حضرة الإمام الكبير بقية السلف الصالح الشیخ بدر الدين الحسیني المغربي نزيل دمشق وهو قوله صلى الله عليه وسلم : "ألا إن بعض أهل بيتي يرون أنفسهم أولى الناس بي وليس الأمر كذلك إنما أوليائي المتفقون من كانوا وحيث كانوا . ألا بني لا أهل لأهل بيتي أن يفسدوا ما أصلحت" أو كما قال [٤] .

والأمير يرى أن الإسلام يفتح الباب أمام أي مسلم ليسعرب ، فمن تعلم لغة القرآن فهو عربي ، فإنما العربية لسان ، وليس عرقاً ودماً ومن تعلم القرآن فقد درب على اللسان العربي المبين ، بل يستطيع كل مسلم أن يصل بقواته إلى الانتساب إلى أكرم البيوت العربية ، والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم "سلمان من آل البيت" وذلك أنه عند سلمان الفارسي نظراً لقواته من آل البيت النبوى أكرم البيوت [٥] .

[١] د. محمد فتحي عثمان ، من أصول الفكر السياسي الإسلامي من ٦٦

[٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] شكيب ارسلان - حاضر العالم ج ٤ ص ١٥٢

والأمير لاينفى العزية التاريخية للعرب فى عصر الرسالة النبوية ، فالشريعة الاسلامية تعرف للعرب أمة الرسول صلى الله عليه وسلم خصوصيات وفضائل ولكن هذا لا يخرجها قيد شعرة عن قاعدة التسوية العامة بين جميع الأمم^[١] .

فالعرب هم الذين نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بين ظهرانיהם ، وهم الذين حفظوا رسالة الإسلام فيما بينهم وحملوها إلى العالمين وجالوا في سبيلها ، وتمتلتوا بحسب بي سُنوكِم وأخلاقِهم ، وحفظوا كتابها وسنة رسولها ، وأنفقوا مما رزقهم الله من عمل وفورة بدن وجهد وعزمية ومال في نصرة هذا الدين ، وقد كان الإسلام للعرب شرف الدهر وعز الأبد "لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ، فلما تعلقون - الأنبياء / ١٠ " والمفروض أن يكون العرب في كل عصر أقدر على فهم القرآن والسنة إذ يتكلمون لغتها ومن ثم يكونون أقدر على ابلاغ الرسالة ولادة الأمانة ، وهي مسؤولية عظمى وشرف كبير للعرب إذا قدروا ذلك حق قدره "وانه لذكر لك ، ولقومك وسوف تسألون - الزخرف / ٤٤".

وعلى هذا فالامير شكب لابرى في الآيات والأحاديث والآثار التي أوردها "ما يتصادم مع شيء من الأحاديث الصحاح الواردة في فضل العرب ، ووجوب حب العرب ، وكون كلام الله القديم جاء بال Manson العربي المميز". [٢].

غير أن الأمير يعود فيقرر ورود أحاديث أخرى في فضل غير العرب مثل "لو على العلم بالثريا لنباته رجال من فارس". [٣].

وعلى أساس قاعدة المساواة المقدسة ظهر التضامن الإسلامي قوياً راسحاً ، وهو الذي حار في أمر قوت نطس الأطياف الاجتماعية ، ودهش من استحكام عراه جهابذة المؤرخين الأوليين ، وليس هذا الا نتيجة قوله تعالى : "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ" [٤] .

ويرتبط بالبحث في المساواة في الشريعة الإسلامية المؤسسة على التزام دولة الإسلام بتحقيق العدالة في داخل المجتمع الإسلامي أو الدولة الإسلامية بشمول هذه العدالة لتعامل الحكومة الإسلامية مع غير المسلمين في داخل دولة الإسلام ، وفي العالم كله "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتنقسطوا إليهم ، إن الله يحب المحسنين - الممتحنة / ٨".

٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام :

وهذه صفحة جديدة من صفحات (العدالة) في الإسلام ، فعدالة الإسلام الشاملة تحكم تعاملها مع غير المسلمين في داخل الدولة الإسلامية ، وفي العالم كله ، ولقد أفتى بعض العلماء المسلمين بأن الكافر العادل أفضل من المسلم الجائز ، لأن الأول لنا عدله وعليه كفره ، والثاني له إسلامه وعلينا جوره ، وقالوا : إن الله يقيم الدولة بالعدل ولو على كفر ولا يقيسها بالظلم ولو على إسلام^(١).

ولقد قرر (شكيب أرسلان) أن الديانة الإسلامية لم تأمر بسوء المعاملة من المسلم لغير المسلم ، وإذا كان بعض المنتسبين إلى الإسلام قد فعل هذا فليس فعله حجة على الإسلام ، بل هو تعصب قبيح غير مندوب ولا مستحب ، والشريعة لم تأمر بشيء من هذا^(٢).

ومعنى قوله تعالى : «وليجدوا فيكم غلظة»^(٣) هو أنه يجب قتال المشركين الأعداء بشدة ، ويجب الإغلاق عليهم في الحرب ، وليس معناه احتقار غير المسلمين في المعاملات الشخصية ، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام لعدي بن حاتم وهو نصراني وأجلسه على وسادته^(٤).

وشكيب قد أصاب كبد الحقيقة فيما ذهب إليه ، فإن القرآن الكريم هو الذي يقول في سورة المستعنة : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسّطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم

١ - الاستاذ عبد الوهاب خلاط ، بحث في مؤتمر (الإسلام والإصلاح الاجتماعي) سنة ١٩٣٨ عن كتاب : (من أصول الفكر السياسي الإسلامي) للدكتور محمد فتحي عثمان ، ص ٦١.

٢ - شكب أرسلان ، الشري ، ٧ يناير ١٩٤٥ (عن شكب أرسلان داعية العربية والإسلام) ص ٢١٣-٢١٤ .

٣ - سورة التوبة ، آية ١٢٣ . والآية كاملة : «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يطرنك من الكتاب وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع التقين» .

٤ - المرجع السابق .

فأولئك هم الظالمون^(١)

ومن الأمثلة التي تدل على سماحة الإسلام وعده الله ما جاء في كتاب شكب « تاريخ غزوات العرب » من أن اليهود كانوا مضطهدين في إسبانيا ، « وكان رجال الدين الكاثوليكي يرهقونهم عسراً وبالغون في إبذائهم .. فلما جاء المسلمين فتحوا إسبانيا كان اليهود هناك في أشد العذاب ، فحررهم المسلمون من الرق ، وتركوا لهم الحرية التامة بأن يمارسوا شعائر دينهم ، فشققا نسيم الفرج »^(٢)

فالإسلام لم يستعمل القوة ضد « الأديان » الخالفة للإسلام الواقعة تحت سلطانه ، ويدلل الأمير على ذلك في مقارنة بين التسامح والتعصب بين الإسلام وأوربة بما فعله الأتراك الذين « بقي تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون في أوقات عديدة أن يستأصلوهم أو أن يحملوهم على الجلاء ، كما فعل ملوك أسبانيا وفرنسا بالعرب »^(٣)

إن الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الإسلام أو الجلاء هو الشرع الحمسي الذي يمنع الإكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزءة^(٤).

ويروي الأمير أن أحد السلاطين العثمانيين أحب إخراج الصليبيين من الأدرام والبلفار والأرمون وغيرهم من الممالك العثمانية خوفاً من مغبة بقائهم « وكان كل مرة يعرض في ذلك شيخ الإسلام ويقول : ليس لنا عليهم إلا الجزية »^(٥).

وهذا يثبت أن الإسلام هو الذي هذب الأتراك وحال بينهم وبين طرد المسيحيين من ديارهم^(٦) ، مما يثبت حرص الإسلام على تحقيق العدالة وتسامح الشريعة الإسلامية ومساواتها بين الناس أمام الشريعة .

١ - سورة المستحقه ، آية : ٨ .

٢ - شكب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، هامش ص ٣٢ / ٣١ .

٦/٥/٤ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ، ص ٢٣٨ وما بعدها .

ويؤيد ما استشهد به الأمير ما روى عن الخليفة عمر بن العزيز أن قوماً من سمرقند وفروا عليهم «فرفعوا إليه أن قتيبة بن مسلم دخل مدinetهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فإن أمر بخروج المسلمين أخرجوه ، فنصب لهم جميع بن حاضر الباجي فحكم بخروج المسلمين على أن ينابذوهم على سوا ، فكره أهل سمرقند العرب ، وأقرروا المسلمين»^(١).

وقد اتخذ بعض المستشرقين - أمثال «غودفروا دومومبيين» صاحب «تاريخ العالم» من بقاء الملايين من غير العرب في ظل الدولة الإسلامية على عقائدهم ، وعدم تعرض المسلمين (للكتابيين) وارغامهم على الدخول في الإسلام - نقول - اتخذوا من هذا مدخلاً للطعن في عدالة الإسلام ، وردوا ذلك بزعمهم إلى النظرة العنصرية التي نظر بها العرب تجاه الأمم الأخرى ، يقول (دومومبيين) : «أما الأعاجم .. فإن العرب لم يكونوا ينظرون إليهم كقوم مساوين لهم ، ولم يكن عليهم إلا أن يؤدوا الجزية ، وهكذا يكونون أمنين على دمائهم ، وأموالهم ، وعقائدهم . فاما اشراكهم في شرف السلطة الإسلامية ومنافع الإسلام في الدنيا والأخرى فلم يكن في نظر العرب ضرورياً لأنهم قوم منحطون عن درجة العرب ، وحسب الأعاجم حريتهم الدينية لأنهم أهل كتاب ، فاما المساواة مع العرب فغير مطلوبة ، والعدالة إنما هي بين المسلمين فقط»^(٢).

ويرد الأمير (شكيب أرسلان) هذا الإدعاء ، ويبيّن أن عدم استخدام (الحكومات الإسلامية) للقوة في حمل أهل الكتاب الواقعين تحت سلطانهم على الدخول في الإسلام هو مدعاة قصر للإسلام والمسلمين ولا يمكن أن يتخذ مدخلاً للطعن في عدالة الإسلام ومساواته بين الناس ، يقول شكيب : «إن كلام (دومومبيين) هنا لا يخلو من الخلط لا سيما عند ظنه أن العرب لم يكونوا مهتمين بإدخال العجم في الإسلام ، وإنما كان همهم الوحيد إسلام العرب ، نعم إنه لاما كان الخلفاء، ساترين على مقتضى الآية الكريمة : «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي»^(٣) لم يعترضوا أحداً من الكتابيين في دينه ،

١ - البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤١١ .

٢ - حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١٦٩-١٦٨ .

وهذا في الحقيقة من مفاخر الحكومات الإسلامية لأنه لا يوجد أثر، ولا أشرف من الحكومات التي لا تستعمل قوتها القاهرة في سبيل استجلاب الأمم التي تحت حكمها إلى دينها ...^(١)

فعدالة الإسلام في معاملة أهل الذمة والعهد من أتباع الديانات من رعايا الدولة الإسلامية حددتها القرآن الكريم بما يكفل حرمتهم الدينية ، وحقوقهم القانونية والقضائية ، ولكن هذا لا يعني أصلاً هاماً من أصول الإسلام والذي ينبغي أن تقوم عليه الدولة الإسلامية ، وهو إلتزام دولة الإسلام بنشر رسالته في العالم ، يقول الأمير : « فقد كانت جميع سياسة الخلفاء، لا سيما الأقباط، منهم تدور على محور (نشر الإسلام) »^(٢).

ولذلك ينبغي أن يكون سلوك (الدولة الإسلامية) على أرضها في الداخل وبين دول العالم في الخارج قائماً على الأمانة والعدالة وحسن المعاملة متجنباً كل ما يمكن فيه إساءة للإسلام ومدعاة للصد عن سبيل الله ، ويستشهد الأمير شكيب بالواقع التاريخية التي تبين حرص الخلفاء، الأقباط، على نشر الإسلام ومنها موقف الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمة الله « لما شكا أحد العمال بمصر من نقص الجبائية بسبب إقبال أهل الذمة على الدخول في الإسلام أجابه الخليفة عمر بن عبد العزيز : يعلم أن محمداً جاء، هادياً ولم يجيء، جائياً ...»^(٣).

١ - سورة البقرة، آية : ٤٥٦ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ٢١ ص ١٦٩ .

٣ - المرجع السابق نفسه .

٤ - المرجع السابق نفسه ص ١٧ . وقد نقل شكب لتأييد رأيه عدداً من الواقع عن (عمر بن عبد العزيز) و(الأسمن) و(المتعمض بالله) من كتاب فتوح البلدان للبلذاري .

الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير شبيب أرسلان

- تمهيد .
- الجامعة الإسلامية .
- الجامعة العربية .
- آراء، الأمير شبيب أرسلان في «التربية» .
- بعث (المدنية الإسلامية) في مواجهة (الحضارة الغربية) .

- المروية السياسية لمستقبل (الامة الإسلامية) عند الأمير (شكيب أرسلان) :

- تمهيد :

إن الفراغ السياسي الذي أحدهه ضعف (الدولة العثمانية) ثم إلغاء (الخلافة) في العالم الإسلامي دفع الأمير شكيب أرسلان لتقديم اجتهاده في علاج أزمة الخلافة الشاغرة بما يراه من نظام آخر بديل يحقق وحدة ورق العصر بصفة مؤقتة أو في صورة دائمة فرأيأه يدعو إلى (الجامعة الإسلامية) أو (الرابطة الشرقية) ثم إلى (الجامعة العربية) ، وأخذ يبصّر المسلمين في الأقطار التي أنشئ الاستعمار مخالبه فيها وصادر حرياتها وخيراتها بسبب الجهاد لاستعادة عزتها والحكم بشريعتها ، ويضع أيديهم على ثغرات التخلف والتفرق التي تغذى منها الاستعمار إلى ديارهم وجثم على أنفاسهم ويدد البقية الباقية من حبيتهم ، وبين أن سبيل الخلاص من واقع الأزمة يقوم على (تربية) وتنشئة أحداث المسلمين على أنس صحبة ، وطالب بإحياء (المدنية الإسلامية) التي تبعث في قلوب المسلمين روح الاستقلال في مواجهة (الحضارة الغربية) .

ولقد حاول (شكيب أرسلان) أن يجمع بين المثل الأعلى والواقع ، ولقد تحقق المثل الأعلى الذي ينشده المسلمون في نطاق محدود من الزمان نطاق الخلفاء، الراشدين الأربعة ، وهو أشد صور الحكم الإسلامي إنطباقا على الشرع^(١) ، ولكن الراشدية ليست مجرد لقب لنظام الحكم الإسلامي في فترة محدودة من التاريخ كما أنها ليست مجرد التزام من الإمام المسلم بمنهج النبوة فحسب ، إنها إلتزام الأمة كلها بهذا المنهج الرياني ، لذلك تعدد أنماط الخلافة بتغيير الظروف وانحراف الأمة عن منهج النبوة ، فعدم رشود الأمة وما يتترتب عليه من تعذر وجود خليفة راشد لا يسقط مشروعية (الحكومة الإسلامية) ، بل لا بد من قيامتها أو الحد الأدنى منها وهو وجود حاكم مسلم واحد يقود الجماعة المسلمة كلها ويحكم بينها بما أنزل الله ، وقد عرفت الأمة نماذج

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ٢٤ .

من نظام الحكم الإسلامي غير الخلافة (الراشدة) كما بين شكب أرسلان هنا بقوله : «إن الخلافة لم تستقم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء، الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضرياً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الفاشي ، وما إنقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة سوا ، كان من العرب أو من الترك إلا حشية «النوبة في الداخل ولاء الداء على العوزة من الخارج»^(١).

ونفي ظل الواقع الممكن يكن «للأمة الحق أن تبتهج في أشكالاً أخرى من أنظمة الحكم بحيث لا تخرب في حدتها الأدنى عن الإطار الإسلامي أي أن تكون إسلامية متفردة غير متعددة ، وتتفذ حكم الله لا حكم الجاهلية»^(٢).

وذلك لأن الإسلام كنبل بأن يقدم الإصلاح الدائم حسب الظرف القائم والإمكانيات المتاحة ، والله تعالى يقول : «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» البقرة : ٢٨٦ ، «وما جعل عليكم في الدين من حرج» الحج : ٧٨

وقد يمكن في الغد مالا يتحقق اليوم ، وقد نفذ (شكيب أرسلان) ببصره وبصرته إلى حقيقة الإسلام وطبائع النفوس والمجتمعات ، فرأى أن شرائع الإسلام بمجملها ، وأحكام الإمامة جزء منها لا تتصادم مع الفطرة الإنسانية ، ولا تكفل الإنسان إماماً كان أو مأسوماً إلا وسعه ، فلا يعقل أن نجد في تطبيق الصنهج الإسلامي في الحكم أو في غيره عنتاً أولاً يمكن تطبيقه في أرض الواقع العملي ، مهما قدم العهد وتغير الزمان والإنسان إلا أن نجد هوى متبعاً ..

وقد تبه الأمير شكب أرسلان من خلال تجاربه السياسية أثنا ، تعامله مع الواقع أن الإسلام يمكنه أن يتعايشه مع التقسيمات العرقية أو القبلية شريطة أن تستقيم له ولا تتعارض معه ، فالإسلام أقر التقسيم القبلي ونهى عن العصبية القبلية ، ولكن كانت (القومية) أوسع نطاقاً من القبلية فهي أولى ألا يعارضها الدين بل يمكنه أن يتعايش معها بشرط استقامتها له وعدم تعارضها معه .

١ - المرجع السابق ج ١ ص ٢٩.

٢ - محمود المرداوي ، الخلافة بين النظير والتطبيق . ص ٣٤٥ .

وبنا ، على ما تقدم رأى الأمير أن إحبها ، الخلافة ممكن إن أحب أناس أن يستجيبوا إلى ما يحببهم ، وذلك بتكون رابطة تجمع بين أقطار العالم الإسلامي « ومن مجتمع الأقطار القوية المهيبة تكون جبنة رأس هو الخلافة إذا استقلت به احدى دول الإسلام كانت رأسها تطأطي له الرؤوس »^(١) .

ولقد كان للأمير (شكيب أرسلان) نظرة مستقبلية في الأمور السياسية صادقة ومتميزة ، وتدعو إلى الإعجاب ، فطالما تباً عن أسر قبيل وقوعها فجاءت كما حدث « لا لأنه أوتي علم الغيب - فالغيب يعلمه الله - ولكن لأنه يحسن التدبر للأمور ، ويحسن التطلع إلى العاقب »^(٢) .

وقد شهد له معاصروه بصدق فراسته ، ودقة تقديره للأمور السياسية الخطيرة قبل وقوعها ، يقول الدكتور زكي علي في هذا المقام :

«الأمير شكب كثيراً ما تكهن في الأمور السياسية الخطيرة قبل وقوعها ، حتى إذا انحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل جاءت الحوادث مصداقاً لتكهنـه ، ودليلـاً على صواب حكمـه ، ولا غـرـرـ أنـ هـذاـ يـعـزـىـ إـلـىـ سـلامـةـ فـطـرـتـهـ وأـصـالـةـ رـأـيـهـ وـغـلـوـ مـعـدـنـ ذـكـائـهـ ، وما وـهـبـهـ اللـهـ مـنـ قـوـةـ فـرـاسـةـ فـوـقـ مـاـ اـمـتـازـ بـهـ مـنـ الـخـبـرـةـ وـبـعـدـ النـظرـ وـالـتجـربـةـ خـلـالـ عـشـرـاتـ السـنـينـ مـنـ حـبـاتـ الـسـيـاسـيـةـ »^(٣) .

وشكب أرسلان يلحظ من نفسه هذه الصفة ، ويعملها بالتفكير والتأمل ، وكثرة المطالعة ، فيقول : « لست من الكهان ، ولا من العرافين ولله الحمد ، ولا أنا بعجزي وضعي من الأولياء ، الذين يكافشون بكثير مما وراء حجب الغيب ، ولكنني أنكر وأتأمل ، وأكثر مطالعة الكتب والصحف ، لاسيما ما تعلق منها بالتاريخ والسياسة ، ولذلك تصح أقوالي عن كثير من الحوادث قبل وقوعها »^(٤) .

١ - شكب أرسلان . من رسالة أرسلها إلى (أكرم زعبي) سنة ١٩٣١ م ، جريدة الشرق الأوسط ١٩٨٦/٣/٢٤ م .

٢ - أندـ الشـريـاصـيـ ، شـكبـ أـرسـلـانـ ، دـاعـيـةـ الـعـرـبـةـ وـالـإـسـلـامـ ، صـ ٢٥٥ـ .

٣ - المرجع السابق عن « الشباب » ١٥ ديسمبر ١٩٣٧ م .

٤ - المرجع السابق ص ٢٥٦ .

ويذكر - شكيب - أنه تكهن بنشوب الحرب العالمية الأولى قبل بدنها بنحو ستة وأربعة أشهر ، ونشر ذلك في جريدة «الشعب» المصرية في ٢١ مارس سنة ١٩١٣ م ، وأعاد نشره حرفياً في مجلة الفنون عدد ٥ صفر ١٣٥١ هـ (١٩٢٢ م) ^(١).

ومن الواقع الخطير التي تنبأ بها الأمير شكيب أن إنجلترا ستنهك وعدوها التي أعطتها للعرب إبان الحرب العالمية الأولى ، وأن البلاد العربية ستتصير إلى احتلال الأجانب ، وأن فلسطين ستكون وطنًا قوميًّا للبيهود ، وقد كتب إلى الشريف حسين يحذر من ذلك ، وفي هذا يقول شكيب :

«لم يمنعنا من الاشتراك في الثورة العربية سوى اعتقادنا أن هذه البلاد العربية ستصبح نهائًا مقسماً بين إنجلترا وفرنسا ، وتكون فلسطين وطنًا قوميًّا للبيهود ، وهذا التكهن كان عندنا مجزرًّا به ، حتى أني كنت أقول قبيل الحرب : لو ارتفع الغطاء ، ما ازدلت بقينا ، ثم انتهت العرب ، وانتصر الحلفاء ، وارتفع الغطاء ، فما حصل بالفعل شيء ، غير ما كنا نقول» ^(٢).

وقال شكيب أن الملك حسين ملك الحجاز سيندم وسيخلع من ملکه وكذلك كان ، وتنبأ بأن نفيه سيكون لجزيرة ، وكذلك كان .

ولما قيل له : ولماذا اخترت جزيرة ؟ . أجاب : لأن إنجلترا لها جزائر كثيرة ، وقد نفي الملك حسين بعد ذلك إلى قبرص ^(٣).

كما تنبأ بنشوب الحرب العالمية الثانية وكتب سنة ١٩٣١ م يحذر العرب من نتائجها ، ويدعوهم إلى الاتحاد لدرء الخطر القادم ، ومسا قاله في ذلك : «الوقت مخيف جداً ، والمستقبل مظلم حالك الظلام ، والعرب الأوروبيون مهمًا تأخرت فهم آتية لاريب فيها ، وقد ينشأ عنها من تقاسم بلدان الضعفاء ، ومن العواهض والمبادلات ما نشأ في العرب الماضية» ^(٤).

١ - المرجع السابق .

٢ - المرجع السابق ، ص ١٠٦ - والملاحظ أن شكيب كتب هنا في (الشوري) عدد ١٠ أبريل ١٩٢٩ م .

٣ - المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

٤ - الفنون ، عدد ٤ ، شوال سنة ١٣٥٠ هـ ١٩٣٠ م .

كما بشر الأمير شبيب أرسلان بقيام (الجامعة العربية) قبل قيامها بسترات طويلة ، فكتب في كتابه (الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف) أنه قال سنة ١٩٢٩ م : «إن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة ، مهما عارض في ذلك اللئام من أعدانها ، والمتفلسفون من أبنائها ، وأن هذه الوحدة آتية لاريب فيها ، ولو بعد مئة سنة أو أكثر»^(١).

كما واصل الحض عليها مؤكدًا ثقته في نظرته المستقبلية للأحداث فيقول - في سنة ١٩٣٧ م - : «وأنتم أيها العرب الكرام : إذا دعوناكم للوحدة العربية فلا تقاومونا ، ولا تهزأوا بنا ولا تقولوا : خيالات ، ولا تحملوا على مشروع هذه الوحدة كما فعل كثير منكم يوم قمنا بالدعابة إليه منذ سبع سنوات ، ثم عادوا إلى رأينا ، وصاروا في مقدمة أنصاره».

لقد أثبتوا للناس أننا - والحمد لله - موقفون في آرائنا ، مستشعرون للأمور قبل وقوعها ، وأننا ثمانى مرات في العشر نقول رأينا يبنكره الكثيرون ، ثم تتحققه الأيام ، وتزيده الحوادث ، ويتجلى فيه الصواب كفلق الصبح»^(٢).

ومن أخطر الأمور التي تنبأ لها الأمير (شبيب أرسلان) منذ وقت مبكر : «مؤامرة التجهيل بحضارة الإسلام» ، فحذر من خضوع مناهج التعليم في البلاد الإسلامية ، ومصادر الثقافة فيها للمصادر الأجنبية - وهو ما حدث طوال فترة الاستثمار الأجنبي-^(٣) ، وبين (شبيب أرسلان) أن ضرر ذلك سيكون أشد من الاحتلال الأجنبي نفسه ، ويستدل أثره بعد تخلص الإحتلال ليزايزل ثقة المسلمين في أنفسهم ويدفعهم إلى النظر إلى الغرب نظرة إيكار بصفته المثل الأعلى في الحضارة والتقدم والرقي .

لقد كان شبيب في الواقع أخصائياً في تشخيص المرض وأساليب علاجه ومداواته بل ووصف طرق الوقاية منه قبل وقوعه ، وعلى هذا الأساس وصف الدوا ، الواقي وهو

١ - شبيب أرسلان ، الإرتسامات اللطاف ، ص ٢٠٧ .

٢ - الشورى - ٣ مارس سنة ١٩٣٧ م .

٣ - د. مصطفى حنفي ، الإسلام والذئاب المنفحة ، ص ٢٦٧ .

(التربيـة) العـلـمـيـة فـى إطار اللـغـة وـالتـارـيـخ وـالـعـقـيـدـة مـا يـحـفـظ لـلـأـمـة شـخـصـيـتـها وـديـنـهـا .

كـما أـبـتـت أـنـه بـإـمـكـانـ الـحـضـارـة إـلـاسـلـامـيـة أـنـ تـقـدـمـ لـلـبـشـرـيـة مـنـ جـدـيدـ أـجـلـ الخـدـمـاتـ كـما فـعـلـتـ فـيـ الـمـاضـي ، وـذـلـكـ بـإـثـيـاتـ فـضـائلـ الـمـسـلـمـينـ عـلـىـ حـضـارـةـ أـورـوـبـاـ وـالـدـعـوـةـ إـلـىـ إـحـيـاءـ (ـالـمـدنـيـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ) .

وـإـذـاـ كـانـتـ (ـالـصـيـدـلـيـةـ)ـ الـعـرـبـيـةـ وـإـلـاسـلـامـيـةـ تـعـمـدـتـ إـخـفـاءـ هـذـاـ الدـوـاءـ ،ـ فـسـنـحـاـولـ فـيـ الصـفـحـاتـ الـقـادـمـةـ أـنـ نـظـهـرـ لـعـلـ اللـهـ أـنـ يـنـفعـ بـهـاـ الـجـهـدـ الـمـتـواـضـعـ أـمـنـاـ إـلـاسـلـامـيـةـ .ـ وـنـكـونـ بـذـلـكـ قـدـ أـلـقـيـناـ بـعـضـ الـضـرـوـرـةـ عـلـىـ جـانـبـ جـدـيدـ مـشـرـقـ فـيـ فـكـرـ الـأـمـيرـ (ـشـكـبـ أـرـسـلـانـ)ـ .

الجامعة الإسلامية

الجامعة الإسلامية

يقوم تصور الأمير شكب أرسلان للجامعة الإسلامية على إرادة إخراج المسلمين من وضع الإنحطاط والتفكك والضعف الذي أصاب الأمة الإسلامية في مواجهة تحدي الحضارة الغربية الحديثة الذي يظهر في أشكال عدّة ويضع بتفوّقه وسيطرته نجاح أي مشروع هادف إلى إعادة توحيد المسلمين .

وكانت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية قد نشطت بعد ولادة السلطان عبد الحميد بسنوات قليلة وعلى أثر انعقاد مؤتمر برلين وافتتاح مؤامرات التقسيم التي اتفقت عليها الدول الكبرى لانتزاع بلاد الدولة العثمانية من سيادتها بفارق فارق بين الإسلامية منها وغير الإسلامية^(١) ، ولقد أدرك الأمير شكب أرسلان طبيعة الإتفاق بين الدول الاستعمارية فلم يكن ليعبّي في ذهنه إلا استمراراً للغزوة الصليبية ، تغيرت الأسماء والألقاب أم لم تغير^(٢) .

ولقد قدم الأمير شكب أرسلان للعالم الإسلامي حقيقة تاريخية باللغة الدلالة وهي أن الغرب الاستعماري يرى في الإسلام الخطر الأعظم الذي ينبغي مقاومته ، بل يرونه «أعظم من الخطر البولشفي مهما كان الخطر البولشفي عظيماً»^(٣) ويسوق الأمير لإثبات تلك الحقيقة الكثبر من الأدلة التاريخية البارزة منها التوازن بين أوروبا والروسيا القبصية على قهر الشرق وملائحة الدولة العثمانية ، حتى أن هناك جملة وردت في كلام العلامة (فريرو) فيها معنى كبير ينبغي أن ينبع النظر فيه جميع الشرقيين ألا وهي قوله : «أن الروسية وإنكلترة مع تناقضهما وتناقضهما في الشرق كانت كل منهما شادة أزر الأخرى»^(٤) .

ولم يقتصر هذا التضامن «بين أوروبا والروسية القبصية فحسب بل بين أوروبا

١ - عباس محمود العقاد ، عبد الرحمن الكواکبی ص ٧٢ .

٢ - د. محمد ثلیق شیا ، شكب أرسلان ، ملذمات الفكر السياسي ، ص ١٦١ .

٤/٣ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ٢٣٢-٢٣١ .

والروسيّة البولشفيكية نفسها ، مع شدة العداوة بين الفريقين»^(١).

«فإن الدول الغربية أثارت على البولشفيك كل قوم ترجو فيه النهضة ، لقتال الحكومة البولشفية ، التي ترى فيها الخط الأعظم على كيان الهيئة الاجتماعية الأولى .. ولكن قد حذرت كل الحذر ، من أن تحرك على البولشفيك قوة إسلامية .. ولا راق لهم تسليع مسلمين .. وما ذاك إلا لأنهم يرون الخط الإسلامي أعظم»^(٢).

ومن الأدلة البارزة التي تؤيد موقف الأمير شكيب النظري من الغرب الاستعماري «أن فارس عرضت على إنكلترا المحالفه والدخول إلى جانب الحلفاء في العرب العامة ، فأبأته إنكلترا مساعدة فارس .. وأن مصر عرضت نفسها أثنا ، العرب العامة أن تقاتل في جانب الحلفاء بشرط الجلاء ، الإنكليزي عن مصر بعد الحرب فأبأته إنكلترا أيضا ذلك .. وأغرب منه أن (تركيا) عرضت على الحلفاء ، أن تكون معهم بشرط أن تأمن شرورهم في المستقبل فأبأى الحلفاء .. ويدللي أن رفض الحلفاء هذه المساعدات من دول العالم الإسلامي مبني على أساس واحد ، وهو أن الحلفاء ، لو قبلوا مساعدات الحكومات الإسلامية أثنا ، العرب العامة ، لما كان لائقاً أن يتقسموا فيما بعد الحرب بلاد الإسلام الباقيه الإقسام الأخير ، كما كانوا ينون أثنا ، العرب ، وكما فعلوا بعد .. العرب»^(٣).

ويرد الأمير الدعوة بأن الحلفاء حالفوا سنة ١٩١٥م الشريف حسين ، وهذا ملك من ملوك الإسلام مما ينقض نظرية الأمير ، فيقول : «إنهم - أي الدول المستعمرة - ما قبلوا التحالف مع الشريف حسين باديء ذي بدء لظهورهم أنهم يستغفرون عنه .. فلما طالت الحرب عادوا إلى قبول محالفه الشريف حسين أملاً بفصل العرب عن الترك .. فما وضعت الحرب أوزارها حتى عومن العرب معاملة الأعداء ، وتقسمت بلادهم غنائم»^(٤).

ويؤكد الأمير شكيب «أن الحلفاء طلبوا أثنا ، العرب العامة العون من كل دولة ،

وعرضوا التحالف مع كل حكومة ، حتى أصغر حكومات أمريكا ، ولم يكونوا ليقبلوا التحالف مع دولة من الدول الاسلامية علماً بما ينونوه للإسلام وجميع حكمائه في المستقلين وقراراً من مكافأة دولة اسلامية بالإبقاء عليها»^(١)

وهذا ينتهي الأمير شبيب أرسلان إلى استنتاج تاريخي يزيد فهمه لطبيعة الاستعمار الغربي المعادي للإسلام فيتقول :

«فهذا من الحقائق الكلية التي ينبغي أن يتفطن لها المسلمون ولا يغيّبوا عن نظرهم ، وليعلموا أن الدول المستعمرة لا تقبل من الإسلام حتى ولا الصدقة ، وأنها لا ترضي من المسلمين في جانبيهم بذلك الأرواح والأموال إلا مجاناً»^(٢)

وإنطلاقاً من هنا الفهم العميق لروح العدا، الغربي للإسلام رأى الأمير شكيب ، ومن قبله الأنثفاني «أن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتعدد اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك بالأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفتنة ، المقابل»^(٤) ، فمن سنن المقام أن يتعدد الضعفاء في وجه القوي^(٤) ، ولأن رد الفزوة الأوروبيية لدبار المسلمين هو أمر يتتجاوز طاقة شعب واحد أو قطر بمفرد ، أصبحت (الجامعة الإسلامية) ضرورة ملحة في نظر الأمير شكيب أرسلان .

فالجامعة الإسلامية إذا أداة وحدة المسلمين ونهاجمهم ، وهي بمعناها الشامل ومفهومها العام «إنما هي الشعور بالوحدة العامة والغيرة الوثقى لا انقسام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الإسلامي ، وهي قديمة بأصلها ومشتبها منذ عهد صاحب الرسالة ، أي منذ شرع الرسول صلى الله عليه وسلم يجاهد فالتل من حوله المهاجرون والأنصار معتصمين معه بعاصبة الإسلام لقتال الشركين»^(١٥) .

فمنشأ الجامعة الإسلامية الأصلي هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقية في

^{١٤} - شکیب ارسلان، حاضر العالم الاسلامي، (مرجم سابق) ج ١ ص ٣٣١.

٣ - ستودارد : المترجم السابق ج ١ ص ٣٧

٤ - شکر ارسلان (الترجمہ سابق) ج ۱ ص ۱۶

^٩ - حاضر العالم الإسلامي: (مترجم سابق): ج ١ ص ٢٨٨.

ال المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، كما أنها حركة سياسية داعية محملة على الغرب ردًا اعتداته ودفعاً لجرره ، وهي أخيراً سنة من سنن البقاء في عالم لا يدين إلا للقرآن ولا يحترم إلا الأقواء^(١) .

ولقد كان الأمير شكيب أرسلان على وعي بالعقبات الكبرى التي تقف دون تحقيق دعوته إلى الوحدة الإسلامية العامة ، وهي :

أولاً : إنتما ، المسلمين إلى أجناس متباعدة وإلى دول قومية مختلفة مما ينوط في على مشكلة التوفيق بين الانتماء الإسلامي والانتماء القومي .

ثانياً : مشكلة التوفيق بين المسلمين وغير المسلمين في الدولة الواحدة .

ثالثاً : مشكلة الانتماء المذهبي التاريخي بين المسلمين^(٢) .

وبناء على وعي الأمير بتلك العقبات الثلاث على طريق (الجامعة الإسلامية) فقد اجتهد شكب في رصد كل مشكلة ، وناقش الدعاة إليها ، وبين موقف (الجامعة الإسلامية) منها .

فأمّا التعصب إلى الجنس الذي أخذ يشتد في داخل العالم الإسلامي ، دعا الأمير إلى الأخوة الإسلامية القائمة على قاعدة المساواة ، تلك القاعدة المقدسة التي على أساسها ظهر التضامن الإسلامي قريراً راسخاً . يقول شكب :

« وليس التضامن الإسلامي الذي حار في أمر قوتهم نطس الأطباء ، الإجتماعيةين ، ودهش من استخقام عراه جهابذة المؤرخين الأوليين ، إلا نتيجة قوله تعالى : «إِنَّا
الْمُؤْمِنُونَ إِخْرَوْهُ»^(٣) .

« وقد ظهرت في هذه الأيام الأخيرة فرق من الأمم الثلاث العربية والتركية والفارسية ، لا يريدون أن يعرفوا هذا الأصل العظيم ولا أن يقيموا له وزناً ، بل زعموا أنه هو الذي كان منشأ ضرر هذه الأمم»^(٤) .

١ - يقول شكب : «والحقيقة أن القراءة السليمة هي العامل الوحيد الذي يزور بالأنفونج» ويقول : «والحق أن القراءة السادبة هي معيار الفرقين قبل الشرقيين» (المراجع السابق) ج ٢ ص ٣٣٥-٣٣٦ .

٤/٤ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ص ١٥٨ .

وهكذا يرصد الأمير شكب ظهور التزعزعات الجنسية الإقليمية نتيجة إنتشار الأفكار والأراء ، والروح الفربية ، ثم يعرض الأمير إدعى مات الداعين إلى العصبيات الجنسية الذين يرفضون أن يكون الدين الإسلامي هو الرابطة التي تجمع بين الشعوب الإسلامية ، والتي ينبغي أن تقوم عليها رابطة التعاون السياسي ، فيقول :

«فالذين هم من العرب يعلّمون أنه لو لا آخرة العرب مع الترك بالإسلام لما فقد العرب ملكهم وسلموا به للترك ، والذين هم من الترك يقولون لو لا هذه الآخرة الإسلامية التي فرضها الدين لما بذلت الدولة العثمانية قوتها في الذب عن القضية الإسلامية، بل كانت حصرتها في الذب عن القضية التركية فحسب ، والذين هم من الفرس يقولون ما لنا وللعرب والترك ، كل من الأمتين عدو لنا فلولا الإسلام لم يكن لنا بهما أدنى رابطة، فيجب أن نعود فرساً كما كنا»^(١)

وقد فند شكب مزاعم هؤلا ، الذين لا يرون الاستمساك بجامعة إسلامية تشم منها رائحة الدين ، وتستوحش منها نزعاتهم المنصرية ، وبين أن الإسلام لم يضر أية أمّة من هذه الأمم بشيء لا في دين ولا في دنيا ، وأن تلك الآخرة والرابطة التي جمعت بين المسلمين هي التي مكتت لهذه الأمم في الأرض ، وبها عزروا بين الأمم قروناً طويلاً ، يقول الأمير شكب :

«والجواب على الفتنة الأولى ، أنه لو لا تلك الآخرة الشرعية ما أمكن العرب أن يقسووا بذلك الفتوحات الباهرة في صدر الإسلام ، ولا دانت بدينهم الأمم ، ولا اتخذت كتابهم دستورها ، ولا نبيهم نبيها ، فإن كانوا فقدوا الملك فيما بعد ، فلم يفتقدوه إلا بتنازعهم وتنافسهم ، ولعل الآخرة الشرعية التي يشككون ضررها قد لطفت الضرر الذي أصابهم من أثر السقوط ، بحيث أن الأمة الحاكمة فيما بعد كانت ترعاهم نوعاً وتبقى عليهم بسبب جامعة الإسلام ، فلما أديب منها بدول غير إسلامية ذاقوا طعم الفرق بين تلك الدولة الإسلامية والدول الأجنبية التي خلفتها في الحكم على العرب»^(٢)

١ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ٤ ص ١٥٨ (المراجع السابق).

٢ - المراجع السابق ، جـ٤ ص ١٦٠ / ١٥٨.

«والجواب على الفتنة الثانية أن الأوصاف الإسلامية لم تضر الترك في شيء ، بل أعطتهم ملكاً طوياً عريضاً ، وجهاها كباراً لبئسوا يستطيعون به على الأمم مدة قرون وأحقاب ، من أيام الأثابك والطولونيين إلى السلاغة إلى العثمانيين الذين لم يقتصرروا على الملك فقط بل استولوا على الخلافة الإسلامية أي على الرئاسة العليا على ثلثمائة مليون مسلم بين مطلع الشمس ومغربها .. إن الترك أصبحوا بعد هذا بالنسبة إلى المجتمع جزءاً بسيراً في السلالة فلم يكن ليتسنى له التسلط على بقية الأجزاء ، لولا الوحدة الإسلامية التي جمعت بينه وبين العرب والأكراد والجراركسة والأرناؤوط والبربر وكانت من كل هؤلا ، عصبية واحدة ، ولو لا كونه قائماً بحبيطة الدين الإسلامي تلك الحبيطة التي هي عنوان الدولة العثمانية»^(١).

«وجوابنا على الفتنة الثالثة أن الإسلام لم يضر فارس بشيء ، في دين ولا في دنيا ، أما من جهة الدين فإنه نقلها عن عبادة النار إلى عبادة الواحد الأحد ، وأما من جهة الدنيا فقد ازدهرت فارس بعد الإسلام أزدهاراً لم تعرفه من قبل إلا قليلاً ، لا بل استولت فارس على الدولة العباسية العربية وصارت هي روح تلك الدولة برابطة الإسلام وحده ، لا بقورة فارس نفسها»^(٢).

ويختتم الأمير جوابه على هذه الفرق الثلاث بتوجيه خطاب لفته من المصريين أيضاً - الذين «يذهبون إلى أنه «ليس فيهم شيء ، غير مصر» وأن المسألة المصرية ينفي أن تبقى منفصلة عن كل مسألة شرقية إسلامية أو غيرها»^(٣) فيحضر الجميع بأنهم مقبلون على منحى سياسي جديد ، وليس للإنسان أن يحكم على الشيء ، الجديد إلا بعد التجربة ، ولكن الأمير شكيب يؤكد ببعد نظره السياسي ، ونظرته المستقبلية النقابية أن (سياسة الإنفراد) هذه ستقود الجميع إلى الفشل فمن سنن البقاء أن يتحدد الضعفاء في وجه القوي «ومما لا مشاحة فيه أنه لاأمل باستقلال الشرق مادام مفكك الأجزاء»^(٤).

١ - المرجع السابق ، جـ٤ ص١٥٨ / ١٦٠ .

٢ - المرجع السابق جـ٤ ص. ١٥٣ .

٤ - شكيب أرسلان ، داعية العبرة والإسلام ، تأليف أحمد الشريachi ، ص ١٥٢ .

ولقد سبق الأمير شكب أرسلان عصره بالدعوة إلى سياسة (النكتلات) وهي تمثل في أسمى صورها في (الجامعة الإسلامية) لأهمية العقيدة الدينية الكبرى في توثيق الروابط بين المواطنين ، وفي إيجاد قومية مؤمنة لهم ، فإن أبي دعاء العصبيات العصرية ، فليعدلوا على الأقل إلى جامعة وطنية شرقية تشمل جميع الشرقيين من أمة كانوا .

«فليست الجامعة الإسلامية هي العروة الوحيدة التي يقدرون أن يعتضوا بها ، بل الجامعة الشرقية إذا اتسقت على الوجه المطلوب في آسيبة كانت أوسع نطاقاً ، ولكن هذه الجامعة أيضاً توجب التضامن مع سائر الشرقيين من كل أمة ومذهب»^(١).

ويعود الأمير شكب ليبثت ضرورة الجامعة الإسلامية كتوقف بين مقتضيات التعصب القومي ومقتضيات التعصب الإسلامي فيذكر أن «الدول الاستعمارية تحارب الجامعة الإسلامية والرابطة الوطنية معاً ، ولكنها تخاف من الجامعة الإسلامية أكثر ، وذلك لأن الجامعة الإسلامية تقول أن من يخرج عن الرابطة الوطنية يعد في نظر قومه خانياً وكافراً معاً ، فلا يمكن آئمـاً أمـاً الناس وحسب بل يمكن آئمـاً أمـاً الله أيضاً ، وغير خاف أن رابطتين أشد من رابطة واحدة ، وأن رابطة يعتقد صاحبها أنها مناط ثواب أو عقاب في الآخرة هي أمنـاً من رابطة لا ثواب ولا عقاب فيها ، وإنـا هي دنيوية محضة»^(٢).

وبلغنـا الأمـير شكب براهـينـه على رأـيه في تفضـيل الرابـطة الإـسلامـية على الرابـطة الجـديـدة الـواـقـدة التي تـسـمى (بالـوطـنـيـة) المـجرـدة عن الإـسلامـ ، فـيـقولـ :

أولاً : الوطنية المجردة الملحدة لا تمنع الذريـانـ في الأـجانـبـ كما تـمـنـعـهـ العـقـيدةـ الإسلاميةـ ، فإنـاـ الأولىـ تـمـنـعـهـ منـ الجـهـةـ الـدـنـيـوـيـةـ فقطـ ، وأـماـ الثـانـيـةـ فـتـمـنـعـهـ منـ الجـهـةـ

١ - شكب أرسلان ، الفتح ٨ شوال ١٣٤٩ هـ.

٢ - شكب أرسلان ، داعية العروبة والإسلام (مراجع سابقـاً) ، ص ١٤٨-١٤٩ .

٣ - وقد كان السيد جمال الدين أول من وضع أساس الجمع بين الرابطة الشرقية السبابية والجامعة الإسلامية وتولية العالمين لكل منها وجهـتهـ منـ غيرـ تـعـارـضـ وكلـ منـ تـرـجمـهـ منـ المـسـلـمـيـنـ وـالتـصـارـيـيـنـ . يـعـتـرـفـ بهـ بذلكـ ، محمدـ رـشـيدـ رـضاـ ~ تاريخـ الأـسـنـدـ الـإـمامـ ، جـاـ ٢٨٩ صـ .

الدينوية والأخروية معاً .

ثانياً : الوطنية المجردة عن الإسلام معرضة لما ليست تتعرض له الجامعة الإسلامية من خطر انحلال الأخلاق التي هي دعائم الأمم .

ثالثاً : العقيدة الوطنية المجردة لا تبعث من الآمال في حسن المال ما تبعه العقيدة الإسلامية المبنية على المواعيد الصريحة بالقرآن لمن عمل به .

رابعاً : العقيدة الوطنية المجردة لا تزرع في صدر الشرقيين عزة النفس والاعتقاد بالكرامة الشخصية كما تزرعه العقيدة الإسلامية في صدور المؤمنين الذين يقول لهم قرآنهم : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

خامساً : العقيدة الوطنية المجردة تفك ما بين المسلمين من عرى الارتباط ، مما ينعدم بذلك قوة لا عوض لهم عنها ^(١) .

أما العقبة الثانية التي تعترض قيام (الجامعة الإسلامية) فهي مشكلة التوفيق بين المسلمين وغير المسلمين في الدولة الواحدة ، وفي هذا يقرر الأمير شكيب أن قوة الآخرة والرابطة بين المتحدين في العقيدة أمر طبيعي ، ولكن هذا لا يمنع أبداً من التأكيد في الوطنية بين المسلمين وغير المسلمين ، فيقول : « وإن كان بين المسلمين أثر من الجامعة الإسلامية فليس من عجب في ذلك لسببين :

أحدهما : أن التضامن بين الضعفاء أمر بديهي لا يحتاج إلى برهان ، حتى ولو لم ينتصروا إلى عقيدة واحدة ، فكيف إذا اتحدوا في عقيدة ؟

الثاني : أن المسلمين من حيث المجموع يعتقدون بقرآنهم وشريعتهم ، ويزورون فيما سعادتهم وراحة وجوداتهم ، وفي القرآن الكريم : « إنما المؤمنون إخوة » فالإسلام يجد إخاء للمسلم فرضاً محتماً عليه ، ومؤازرته من باب الشرع الذي من ترك شيئاً منه فهو أثم .

١ - د. محمد شفيق شيا ، شكب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي . ص ١٦٥ .

ولا يزند من ذلك أن هذه الأخيرة بين المسلمين حاجزة دون الإخاء ، مع غير المسلمين ، كما يترهم بعضهم ، أو كما يفتري آخرون . كلا ، بل يرتبط المسلمين مع غير المسلمين برابطة الإنسانية^(١) .

إن جوهر الدعوة إلى الجامعة الإسلامية سياسي إلى حد بعيد ، ولذلك فهي لا تتجه بالعداء إلى الفرق الدينية الأخرى ، وإنما إلى الاستعمار الغربي تحديداً ، يقول الأمير :

«فالجامعة الإسلامية ليس معناها في نظرنا أن يقوم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ليؤلّفوا كتلة واحدة ليقاتلوا كل من هو غير مسلم» فالجامعة الإسلامية هي أكثر من ذلك ، فهي تجمع المسلمين إلى غير المسلمين في إطار الغايات الواحدة ، هي تقدم للمشرقيين عموماً ، وليس للمسلمين فحسب ، يعتصمون بها فتفقدوا أداة توحد للشعوب المقهورة ، تماماً كما وجد الأوروبيون أداة توحدهم :

«فبعد أن تقرر وجود هذا التضامن المتبني بين جميع الأوربيين في وجه الإسلام والشرق بأسره ، لا عجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً^(٢) لا سيما أن بين هؤلا رابطة دينية ..»^(٣)

ولذلك لا يرى شكيب في قيام الجامعة الإسلامية خطراً على غير المسلمين في داخل البلاد الإسلامية ، بل هي دعامة للشعوب الشرقية بأسرها ، ويستشهد شكيب لذلك بقضية فلسطين إذ أن كثيرين من المسلمين يؤيدونها ويدافعون عنها برابطة الإسلام ، فيقول شكيب : «إن الجامعة الإسلامية ليست بخطر على غير المسلمين من العرب ، بل هي عضد للشعب العربي بأسره ، فلماذا يعطف مثلًا مسلم الهنـد والجاوـي والفرس والترك والبشـاشـاق والأرنـاؤـوطـ على فلـسـطـين ؟ الجـوابـ : لأنـها مـسلـمةـ ، لا لأنـها

عـربـيةـ»^(٤) .

١ - شكيب أرسلان ، داعية العربية والإسلام ، مرجع سابق ، ص ١٤٩ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، (مراجع سابق) ، ج ١ ص ٤٣٨ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٣٢ .

٤ - شكيب أرسلان ، مجلة الشورى ، عدد ١٩٢٥/١٢/٣١ .

أما وضع غير المسلمين في داخل الدولة الإسلامية فقد حدد الشرع الإسلامي في حقوق أهل الذمة ، والتاريخ يشهد على الترك في عهد الدولة العثمانية «بقي تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون في أوقات عديدة أن يستأصلوهم أو أن يحملوهم على الجلاء ، كما فعل ملوك إسبانيا وفرنسا بالعرب .. إن الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الإسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدي الذي يمنع الإكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية»^(١) .

وثمة عقبة ثالثة تخترق الأقطار والشعوب الإسلامية وتحول دون اجتماعهم ووحدتهم ، وهي الإنتماء ، المذهبي التاريخي بين المسلمين ، فالMuslimون ينقسمون تاريخياً إلى سنة وشيعة ، وفي داخل كل قطر من أقطار العالم الإسلامي تتشتت المذاهب ، وقد تختلف الفرق والعصبيات في القطر الواحد وبين من يتبعون إلى جنس واحد وأصل مشترك وتجمعهم رابطة الإسلام .

ولقد حرست الدول الاستعمارية على بث الإحن أينما حلت وعلى بعث التمرارات والعصبيات في الشعوب الإسلامية ، وأخذت تدفع هذا ضد ذاك كيما يكن الشتاق مدخلاً لتدخلها وحجة لاستعمارها ، يقول شبيب :

«إذا كان عمال فرنسا منذ أول احتلالهم لسوريا ، أي منذ سنة ١٩١٨ م إلى ساعة تعزير هذه السطور ، لم ينفروا يوماً واحداً عن تأثير الضغائن الدينية بين المسلمين والنصارى في سوريا وبين النصارى والدروز في لبنان بعد أن كانت هذه الضغائن والذحول قد سكتت وتلاشت تقريباً ، فتجدد سوريا ولبنان اليوم في أسوأ حال من هذه الجهة مما بذرته يد الاحتلال التي ظنت أنها لا تمتد إلا على بساط شقاق ، ولا تتمكن إلا من خلال قتنه ، فما ظنك بما كان يفعله عمال فرنسا في الجزائر من تحريك الإحن بين العرب والبرير»^(٢) .

لذلك حرصن الأمير شبيب على مواجهة التعدد المذهبي الذي يصعب رابطة العقبة

١ - أحمد الشريachi «شبيب أرسلان داعية العربية والإسلام» ص: ٨ . نقلًا عن «جريدة الاتحاد» ص: ٣٦ .

٢ - شبيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي . ١٢ ص: ١٨٧ .

الواحدة بالضعف . إن لم نقل بالشلل في وجه التحدي الغربي ، وأبرز الأمثلة التي تمثل سياسة الأمير في جمع الكلمة وعدم التفرقة بين الأمة دفاعه عن إسلام الطائفنة الدرزية وأصولها العربية ، وفي ذلك يستشهد بموقف الدولة العثمانية منهم فيقول :

«والدولة العثمانية أيام كانت هي الخلافة الإسلامية عرفت الدروز مسلمين ، ولما كان جماعة من مشايخ دروز حوران في الاستانة صدرت إرادة السلطان عبد الحميد الخليفة يومئذ بأن يصلوا الجمعة وراء في جامع يلدز ، ولهذا أنا لا أفهم : ما وجه الضرورة لفتح مسألة ديانة الدروز وما فيها من مخالفات الإسلام ، في وقت يسفك فيه الدروز دماءهم باسراف في الدفاع عن حوزة تسعة أعشارها - لا بل أكثر من تسعه أعشارها - للمسلمين ؛ لأن الدروز في سوريا ١٥ ألف نسمة ، والمسلمين يزيدون على المليونين »^(١).

ويختتم الأمير شكيب دفاعه عن عروبة الدروز قائلاً : « فأولئك الذين يعدون الأجانب بأن آل معروف - يقصد الدروز - يكونون إلى جانبهم على الأمة العربية قد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً . فمهما يكن من العوامل فإنه متى انقسم الناس ، ولحق كل فريق بأهله ، فإننا معروف لا يخرجون عن الجامعة العربية ، ولا من الجامعة الإسلامية ، ولن يقدر أحد أن يخل بهذه القاعدة : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه »^(٢).

والأمير شكيب أرسلان لا يستطيع في دعوته إلى الوحدة بين المسلمين تجاهل انقسام المسلمين إلى سنية وبشيعة ، وهو الإنقسام الأخطر في تاريخ الإسلام ، وخاصة بعد انتشار (التشييع) في بلاد فارس واتخاذه أداة سياسية المقصد منها مقاومة الحكم العربي .

ولقد بعث الأمير شكيب أرسلان نشأة التشيع ورأى أن العرب أقدم فقهه من

١ - المرجع السابق ، ج ١ ص ١٨٦ .

٢ - المرجع السابق ، ج ١ ص ١٦٢ .

الفرس ، فالتشبع لم يبدأ في فارس بل بدأ في العجائز نفسه أي في موطن العرب .
وظهر بعد ذلك في الشام بواسطة أبي ذر الغفاري «^(١)».

ولiken ما لا مشاحة فيه أن أهل فارس يغلون في علي وأآل البيت أكثر جداً من
الشيعة العرب ، كالزيدية في البمن ، والمتاولة في الشام ، والشيعة في العراق «^(٢)».

وعلى الرغم من تشيع العجم لآل البيت مع علمهم بأنهم من العرب الأقحاح إلا أن
تشبعهم لم يقر لهم من العرب ، بل يقعوا على بعضهم للعرب واستكمارهم الخاضع لهم ،
وهذا ما سجله الأمير شكيب ولمسه بنفسه من مخالطة بعض فضلاتهم ، وكان مشار
دهشته وتعجبه ، يقول شكيب :

« ومن الغريب أن كثيراً من العجم مع تدينهما بالإسلام ، وشدة استساکهم بالتشيع
لآل البيت ، لا تزال تمجدهم في الأحاديث آثار البغضا ، للعرب ؛ وهم يعلمون أن آل
البيت الذين يقدسونهم هذا التقديس كله هم عرب أقحاح ، بل هم سدام العرب »^(٣)

ويخرج الأمير شكيب من دراسته وتأمله لنفسية الفارسي التي تجمع بين الحب
والبغض في مكان واحد - كأن الواحد من هؤلاء له نسبتان إحداهما إسلامية والأخرى
فارسية^(٤) - بحقيقة خطيرة لها أثر عظيم في خلخلة تماسك الوحدة الإسلامية عبر
التاريخ ، وهي « أن القومية الفارسية لم تندثر بالدبابة الإسلامية التي جاءت من العرب ،
وأن هناك عوامل خاصة تجعل الفرس يصلون إلى آل البيت ، منها أن استيلاء العرب
على فارس أوجد في العجم مناورة للدولة ، التي استولت على بلادهم ، وأزالت ملوكهم ،
فذلك رأيهم انتصروا لبني العباس والعلوية ، يوم كانوا يبدأوا واحدة في حرب بني أمية
الذين كانوا مركزهم الشام ، وما زالوا حتى حولوا الخلافة إلى العراق ، وصارت الدولة
العباسية كما يقول كثير من المؤرخين مطبوعة بطبع المذهبية الفارسية »^(٥).

١ - المرجع السابق . ج ١ ص ١٦٣ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي . ج ١ ص ١٦٣ .

٣ - المرجع السابق ج ١ ص ١٨٧ .

٤ - المرجع السابق ج ١ ص ١٦٤ .

٥ - المرجع السابق ج ١ ص ١٦ .

كما أن الفرس قد نقلوا كثيراً من عقائدتهم القديمة إلى الإسلام ، وانتقضوا على العرب مراراً ، وحاولوا تأسيس ممالك فارسية في وجه الخلافة العباسية ، وأنهم أيضاً احتفظوا بالسان الفارسي في وجه اللسان العربي ، وأن تشيعهم للعلوية إنما كان أكثره ناشنا عن أغراض سياسية في أصلها^(١).

وهكذا ظل المعجم عامل ضعف في كيان الأمة الإسلامية المتتساك عبر العصور فلما كان هذا العصر (عصر القوميات) - اقتدا ، بالأمم الأوروبيية في الزمن الأخير - اشتدت (القومية الفارسية) أكثر من ذي قبل ، وذلك نظير ما حصل عند الترك^(٢).

ويشير الأمير إلى خطورة التسادي في بعث العصبيات إلى درجة ظهور الدعوات في بعض الممالك الإسلامية إلى نبذ الإسلام وبعث المعتقدات الوثنية القديمة بعد أن أنقذهم الله منها ، وطهرهم من سفالاتها ، يقول الأمير :

«وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم ، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم ، وعن الذئب الأبيض الذي كانوا يعبدونه ، حتى صوروه في بعض كتبهم الحديثة^(٣).

وينقل الأمير شكيب رد المرحوم موسى كاظم شيخ الإسلام على حينين بعض شبان الترك إلى دياناتهم القديمة وإلى عبادة الذئب الأبيض استكماراً لاتباع الأمة التركية ديانة صادرة عن العرب قوله :

«إن العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشعر منها الأبدان ولكنهم اقتلعواها بالإسلام وافتخرموا بأن الله لطف بهم ، وأنقذهم منها ورفعهم عن مستوى تلك السفالات . وأما أنتم فتريدون أن تتناسوا الإعتقاد بالباري تعالى ، وتذكروا عبادة الذئب الأبيض .. فبالألف !!^(٤)

وما قبل ناشئة الفرس والترك يقال لبعض ناشئة المسلمين :

١ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج١ ص ١٦٤ .

٢/٣ - المرجع السابق ، ج١ ص ١٦٧-١٦٨ .

«من أمة الجاوي الذين يبحشون عن مذهب بوفا الذي كان مذهب الجاوي قبل أن
أسلموا ، ويدرسونه وكأنهم يريدون أن يحيوا آثاره»^(١).

«كذلك في الهند شبان كثيرون من المسلمين يكرهون الجامعة الإسلامية ويفضلون
عليها الجامعة الهندية اتباعاً للهنداد»^(٢).

«و عند بعض الناشئة المصرية نزعة محسوسة إلى الأوابد المصرية القديمة ،
والحضارة الفرعونية ، وميل إلى التفضي من النسبة العربية والحضارة العربية»^(٣).

«و كل هذا تعصباً من هؤلا ، الأقوام لقومياتهم بزعمهم وشعوراً منهم بشيء ، من
الكثير عن أن يتبعوا ملة ليست من سلالتهم»^(٤).

وعلى كل هؤلاء الذين تجاوزت عصبيتهم حدود الجنس والنسب إلى التعصب
للمذاهب والمعتقدات البالية مع ما فيها من وثنية وحط من قدر الإنسانية بل وتفضيلها
على دين الحق والهدایة الذي أخرج الله به الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان
والعزّة ، بدعوى استكبارهم الخضرع لدين أصله من العرب ، برد الأمير شكب بأن
الإسلام ليس بدين يفرق بين عربي وعجمي ، وأن مبدأ الأساس : «إن أكرمكم عند الله
أنتقاكم» وأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلى العرب وحدهم بل إلى البشر
كافحة ، فإن كانت المساواة ثامة في دين من الأديان أمام الغالق تعالى فهي في
الإسلام»^(٥).

ومن أعجب الشواهد على فساد عقل هذه الفتنة سواه من الترك أو من العجم أنهم
 يجعلون الأمم الأوروبية قدوتهم في كل شيء ، ولا يرون : «أن الأوروبيين وهم أرقى الأمم
والغالبون على أكثر الكرة الأرضية وهم يعلمون أنهم جميرا من الجنس الآري ، يتبعون
ديانته رجل يهودي من الجنس السامي الممحض ، ولا يستنكفرون عن أن يعبدوه وعن أن
يؤلهوه ، ومنهم من يعبد أمه .. فهل سمعنا أن أحداً من الأفريقيين استكبر أن يتبع سيدنا

٣/٤٢١ - المرجع السابق ، ج ١ ص ١٦٧-١٦٨ .

٤/٤ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ١٠ ص ١٦٨ .

عيسى على السلام ۱ .. كلا «^{١١}.

«أعلم يكن في ذلك عبرة للعجم والترك وغيرهم من يأبهي بغير بعضهم أن يتبعوا دين النبي العربي وهم غير مكلفين أن يزليهوا، ولا أن يقدسوه تقدير الأفرنج للمسبب»^{١٢}.

ثم يختتم شكيب رده المفخم على أدعية القوميات هؤلاء، بقوله «فياليتهم اقتدوا بالأفرنج في عدم ادخال العقائد في القوميات»^{١٣}.

وأمام كل هذه العقبات لا يفقد الأمير شكب تفاؤله ، ولا ثقته في نجاح دعوته إلى (الجامعة الإسلامية) بل يرى أن المحن التي حلت بالدول الإسلامية ، والضعف الذي أصاب الأمة في العصر الحاضر قد نبهها المسلمين إلى ما يهددهم من خطر ، وإلى ما يضمره الغرب لهم جميعاً من الفدر والشر ، فكان ذلك سبباً في طرح ما بين الأحزاب المختلفة من الأحقاد ، واجتماع مشاعر المسلمين على وجوب نبذ الفرقـة والتعاسـك أمام العدو المشترك .

يقول شكيب : «ولما كان ضعف الأمة الواحدة يزيد ما بين أحزابها المختلفة من الأعتقد فقد كان من نتائج ضعف الأمة الإسلامية في العصر الحاضر ، زوال كثير من البغضـا ، التي كانت عند العجم لأهل السنة ، وزوال مثل ذلك من أهل السنة للشيعة ، وقد يورثـ الخيرـ شـراً والـشرـ خـيراً»^{١٤}.

ويؤكد الأمير شكب «أن الأمة الفارسية في العصر الحاضر تشعر بشعور العالم الإسلامي جميعـه ، فتهتمـ لـ تركـيا ، ولـ بلـادـ العـرب ، ولـ مصر ، ولـ المـغـرب ، ولـ كلـ بلـادـ الإـسـلامـ اهـتمـاماًـ أـكـيدـاً ، ويـكرـثـهاـ ماـ يـكـرـتـ المـسـلـمـين ، ويـسـرـهاـ ماـ يـسـرـهـمـ»^{١٥}.

١ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ من ١٦٨.

٢ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ من ١٩٢.

٣ - المرجع السابق .

ولقد ظل الأمير شكب أرسلان منذ نعومة أظافره مناصراً (الخلافة الإسلامية) ، على اعتبار أنها المظهر السياسي الأعلى (للجامعة الإسلامية)^(١) ، وعلى الرغم من محاولات الأمير في معالجة دولة الإسلام ، وتحذيره من سقوطها إلا أن التاريخ جرى على غير ما يشتهي ويروم ، وانتهت العرب العالمية الأولى بسقوط الخلافة الإسلامية بعد هزيمة الدولة التي كانت قوام أمرها وواسطة عقدها .

ومع أن شكب قد أدار ظهره لحكام تركية بعد أن قطعوا روابطهم بالعرب وال المسلمين ، وأخذ يجاهد مستقلًا من أجل وحدة العرب وأخوة المسلمين ، فقد ظل يظهر حزنه على إلغاء الخلافة ، لأنها كانت في نظره أحسن علاقة جامعة بين المسلمين ، وهو مع ذلك يقول في تعقيبه على فصل الجامعة الإسلامية من كتاب (حاضر العالم الإسلامي) : «إن الخلافة لم تستقيم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عوضياً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة سواء كان من العرب أو من الترك إلا خشية الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج»^(٢) .

ولقد تصدى الأمير شكب أرسلان لدعابة (القومية العربية) في زمان (الخلافة العثمانية) ، ولكن بعد تنكر الحكام الأتراك للإسلام - أولئك المسلمين العغافون (كما يصفهم شكب) الذين تواطأوا مع الأجانب في لوزان على إلغاء الشريعة الإسلامية من بلادهم^(٣) إلتفت الأمير إلى الأمة العربية ، فرأى بشاقب بصره ونظرته أن الإبقاء على البلاد العربية إبقاء على عمود الإسلام ، فأطلق أول دعوة للوحدة العربية ، وأول فكرة لتأليف (الجامعة العربية) بوصفها أفضل بديل مباح من (الجامعة الإسلامية) التي تفككت عرفاها بسقوط (الخلافة الإسلامية) ، حتى قال له الملك فیصل : «أشهد بأنك أول عربي تكلم معي عن الوحدة العربية»^(٤) .

١- أحمد الشريachi ، «شكب أرسلان دائمة العربية والإسلام» ص: ٢١٤ .

٢- شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ج1 ص: ٢٩ . «هامش» .

٣- أحمد الشريachi ، «شكب أرسلان دائمة العربية والإسلام» ص: ٢٢ .

ومع ذلك ظل الأمير مخلصاً (للجامعة الإسلامية) ولم يشخل عن الدعوة إليها ، مؤمناً بمستقبل الإسلام ، واثقاً بسيادته للعالم . وينشره العدل بين ربوعه ، وإقامته السلام والطمائنة مقام العروب والقتال : «هذا وأن رأينا الذي نعول عليه أولاً وأخراً ، ونرجع إليه باطننا وظاهراً ، أن الشرق أجمع سبتبته من رقتته ، وينهض من كبوته ، وأنه كما شهد القرن التاسع عشر استقلال أمريكا بأسرها ، فسوف تشهد بقية القرن العشرين استقلال آسيبة بعروتها وزرها ، وأنه لا تمضي الشانون سنة الباقية ل تمام هذا القرن حتى يلي الإسلام بلاده ، ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده ، ليس هناك كهانة ولا عراقة ، ولا هي مقاصد ترك بالرقي أو العيافة ، ولكن يعرف المستقبل من العاضر ، ويدل الأول على الآخر»^(١).

«هذا وإن نهوض الشرق هو الشرط الأول في سزدة السلام ، وراحة الأنام ، وحقن الدماء ، العرام ... وما دام الغربيون برون الشرق لجيوبهم مجالاً ، والاستعمار لدول أوروبا لبلأ تتفوه بعبنا وشمالاً ، فالحروب بين الدول قائمة متتابعة إلى قيام الساعة .. والإختراعات التي تفتخر بها المدنية مصروفة إلى استئصال البشر وناهيك ما في مدنية كهذه من الشناعة»^(٢)

«وما دامت جمعية الأمم مثل العروض بعرأ بلا دماء ، ما وجدت إلا لتلبس الإعتدا ، حلة قانونية ، وتسوغ الفتوحات بتغيير الأسماء ، لا بطبعها سوى ضعيف عاجز ، ولا تستطيع أن تحكم على قوى متتجاوز ...»

«فلا مندوحة للألم الشرقي عند الإقتداء ، بالبيان في إلتحام السنمة ، ومضارعة الدول الغربية في ارتياح العلم واقتباس الصنعة»^(٣).

١ - شكب أرسلان ، درشيد رضا ، ص ١٦١

٤/٣/٦ - شكب أرسلان ، ج ١ ص (ك) ٢١/٣/١٩٤٥ م.

الجامعة العربية

الجامعة العربية

مع سقوط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ انتهت السياسة الإسلامية في الإمبراطورية العثمانية ، ويرزت العصبية القومية التي حاربها عبد الحميد بكل جهده أيام حكمه ، وكان العرب والترك يلتقطون عند الإسلام الذي يوحد بينهم وسيوي بين أفرادهم ، فلما صاح الترك مفاخرن بطور انتقامهم استيقظ في العرب فخرهم بمجدهم القديم ، فبدأ العرب - وهم الأمة التي ظهرت فيها الرسالة الإسلامية ونزل كتابها بلسانهم - يستنكفون من حكم الترك الذي بسط عليهم نفوذه منذ القرن السادس عشر .

ولكن لم تظهر المسألة العربية ظهوراً مستقلأً في التاريخ الإسلامي عن الفهم الإسلامي للأزمة إلا بعد أن أعلن الشريف حسين (الشورة العربية) في ٩ شعبان سنة ١٣٣٥ هـ (١٩١٦ م) على وعد من الإنجليز أن يجعلوه ملكاً على الدولة العربية التي تشمل جزيرة العرب والعراق وبلاد الشام ، وأن لا يعارضوا في تصفيه خليفة على المسلمين ، وخاض الحرب هو وأولاده في سبيل ذلك إلى جانب العلafa ، حتى دخلوا دمشق تحت رايته ، راية الشورة العربية^(١).

ولقد كان الأمير شبيب أرسلان على وعي بما ستجره هذه الشورة على العرب من ويلات ، فكتب للملك حسين علم عزمه على الإغارة على سوريا مع الجيوش الإنجليزية ، بنها عن المضي فيما هو فيه من دعوة زعماء السوريين للخروج على الدولة العثمانية والإتحاق بالجيش الحسيني العربي ، ويحذرء عاقبة هذه الغارات التي يضرر فيها العرب بالعرب خدمة لمصلحة العدو ، إذ يقول : «أنقاتل العرب بالعرب أيها الأمير ، حتى تكون ثمرة دماء قاتلهم ومقتولهم استيلاً ، انكلترا على جزيرة العرب ، وفرنسا على سوريا ، واليهود على فلسطين !»^(٢).

والأمير يحذر في رسالته من غدر الإنجليز الذي يملأ التاريخ شواهد ، وبخاطب القائمين بالدعوة العربية والمخدوعين بها قائلاً :

١ - د. محمد محمد حسين ، أزمة العصر ، ص. ٥ .

٢ - المار ٢٥ ، ج ٩ ص ٧١٣-٧١٤ .

«قل لهؤلا ، القائين بالدعوة العربية ، الناهضين لحفظ حقوقها وأخذ تاراتها : ماذا إلى اليوم أمنوا من حقوق العرب بقياهم ؟ ليقولوا لنا ماذا أقاموا للعرب من الملك حتى شكرهم ونقر بفضلهم ، لأننا عرب نحب كل من أحب العرب ، ونبغض كل من أبغض العرب ، ولا نبالي بالقيل والقال أمام الحقائق»^(١).

ولقد سلم الكثيرون بصواب رأي شكيب في القضية العربية بعد انتهاء ، العرب العالمية الأولى ، ومنهم من صارحه بهذا واعتذر إليه ، ومنهم من وضع يده في بد شكيب ، ومنهم من اقتنع عملياً وإن لم يعتذر بلسانه^(٢) ، ويقول شكيب في ذلك : «فلما انجلى الغبار وانكشفت الأسرار ، وعرفوا أنني ما تكهنتم إلا بما وقع عادوا فوضعوا أيديهم في يدي وعولوا علي ، ومن هؤلا ، الملك فيصل رحمة الله ، فإنه ما سقط عن عرشه في دمشق حتى أرسل إلى بيكاني في برلين رسالة تدل على منتهى الشقة ومزيد الإعتقداد بأخلاقى للقضية العربية ، وأنضى إلى أسرار لا ينفعني بها إلى أخر الناس عليه ، وبعد ذلك بسنوات جاءني منه كتاب هو عندي يقول فيه : أشهد بأنك أول من تكلم معى من العرب في قضية الوحدة العربية»^(٣).

«والواقع أن الذين دعوا إلى (الجامعة العربية) في أواخر القرن التاسع عشر الصبلاطي كانوا مختلفين في تصورهم لهذه الجامعة ، متبابعين في أغراضهم التي يستهدفونها من وراء هذه الدعوة ، كانت الجامعة الإسلامية وقتذاك هي الرابطة التي تربط أجزاء الدولة العثمانية ، وتجمعهم تحت راية السلطنة العثمانية التي جمعت بين الرعامة السياسية والزعامة الدينية منذ تلقب سلاطينها بلقب الخلافة الإسلامية»^(٤).

«وكان بعض دعاة ما سمي في ذلك الوقت بالجامعة العربية من المسلمين خاصة لا يرون تعارضاً بينها وبين الجامعة الإسلامية ، ويسلمون بأنها هي الجامعة الأولى ،

١ - المرجع السابق .

٢ - أحمد الشريachi ، شكيب أرسلان داعية العربية والإسلام ، ١٠٧م .

٣ - شكيب أرسلان ، السيد رشيد رضا ، ص ١٦ .

٤ - د. محمد عبد حسين ، الإسلام والمعاصرة الغربية ، ص ٢٠٨ .

والأهم بين المسلمين في سائر الأرض .. »^(١)

« وكان بعضهم الآخر يدعى إلى نقل الخلافة للعرب .. »^(٢)

« وكان هناك فريق ثالث من المسلمين أنفسهم واقع تحت تأثير الدعوات القومية المتطرفة التي اشتدت حركتها في أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .. وهذا الفريق يلتقي في تصوره القومي مع غالبية القوميين من الترك الذين يدعون إلى القومية الطورانية ، والذين كان أكثرهم منضماً إلى حزب الإتحاد والترقي .. »^(٣)

« أما المسيحيون .. فقد كان من الطبيعي أن يكونوا ضمن الفريق الذي يرى الجامعات العربية قومية خالصة ، لأنه غير داخل بحكم مسيحيته في الجامعات الإسلامية ، وليس له ولاء ، قلبي لها ، فكل الذي يربطه بالدولة هو الولاء السياسي .. »^(٤)

وقد تابق الاستعمار الإنجليزي والفرنسي والصهيونية إلى احتضان الحركة العربية الثانية على تركيبها منذ ظهورها ، وقد وجدوا أنها تلتقي مع أطماعهم في فترة مرحلية تمهد لتحقيق أغراضهم .

كما أكد الأمير شكيب أن الإنجليز كانوا على اتصال بالشريف حسين قبل وأثناء «العرب الكبرى الأولى» ، وكانوا يتظاهرون بالموافقة على نقل الخلافة الإسلامية إلى الشريف حسين حتى يطمئن إليهم ، ويسلس لهم القياد^(٥).

لذلك دعا الأمير شكيب العرب إلى عدم الانخذاع بدعوى الاستعمار ، وإلى

١ - المرجع السابق ، وكان يمثل هذا الفريق في مصر (مصنف كامل) .

٢ - بدأ هذا التصور الإسلامي في مصر واضحاً في كتاب الكواكب «أم القرى» ، كما كان يدور في صحيفتي «المنار» لسالم رشيد رضا ، وإن كان الأخير قد أداه على مهاجمة الشريف حسين من بعد ، حين تبين له أنه آلة في يد الإنجليز لتحقيق أهدافهم لا لتحقيق أهداف العرب^(٦) . محمد محمد حسين ، الإتجاهات الوظيفية ، ج ٢ ص ١٢٣ .

٣ - د. محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية (مرجع سابق) ص ٢٩ .

٤ - المرجع السابق .

٥ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ٣٩١-٣٩ .

وجوب الالتفاف حول راية الغلالة العثمانية ، والإعتماد بها في وجه الأطماع الاستعمارية التي تنتظر بفارغ الصبر الوقت الملائم لاقتسام البلاد الداخلة في هذه الدولة.

ولم يكن هذا هو رأي الأمير شكيب وحده ، بل كان يراه أيضاً جمع من العرب ، وإن كانوا قلة بالنسبة إلى مخالفيهم ، ولذلك نرى شكيب يتحدث عن استعمال الإنجليز للعرب ، وجعلهم ضد تركيا في الحرب العالمية الأولى ، ثم يقول : «فصار بين العرب حزب غير قليل يتزعرون إلى الإنفصال عن الدولة قلباً وقالباً ، متوقعين لذلك أول فرصة ، ولا يمكن أن يقال أن هنا رأي الجمهرة من الأمة العربية ، بل في الحقيقة كان عقلاً. العرب يفهومون أنه إذا وقع الإنفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الإقريج ، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفاً من حكم الأجانب»^(١).

وانتهت الحرب العالمية الأولى ، ووزع الشرق العربي بين إنجلترا وفرنسا كما توقع شكيب أرسلان ، أما المغرب العربي ، فقد كان شطر منه في يد فرنسا من قبل ، وكانت مصر في قبضة جيوش الاحتلال الإنجليزي منذ الثورة العربية ، وكانت ليبيا محظلة بالجيوش الإيطالية منذ غزتها قبل الحرب العالمية .

وعند ذلك شهد الجميع وبعد نظر الأمير شكيب أرسلان ، وسلامة موقفه السياسي من أحداث عصره ، ودقة استشعاره للأحداث قبل وقوعها ، حتى قال الحاج أمين العسبي سنة ١٩٥٥م : أن شكيب لم ينخدع في الحلفاء مع المنخدعين ، وكان يجاهر بهذا ، ويقول لخاليه : «أنا أشد عربية منكم ، ولكن أعلم أن الحلفاء سينكثرون عهودهم وستظهر الحقائق لكم»^(٢).

ولقد كان الأمير شكيب أرسلان واثقاً في حسن تقادره للأمور ، مؤمناً بصواب الخط السياسي الذي ينتهجه ليس بمجرد الحدث والتخيين بل بناء على قرائن وأدلة

١ - شكيب أرسلان ، تاريخ ابن خلدين ، ملحق الجزء الأول ، ص ٣٤١ .

٢ - أحمد الشناصي ، شكيب أرسلان داعية العربية والإسلام ، ص ١١ .

ثابتة عنده^(١) ، وبناء على تفكير سياسي عميق لا ينخدع بظواهر الأمور ومقدماتها ، وكان على وعي بما يدبر لأمته في الخفاء ، وكان يقول : «لقد أثبتوا الناس أننا - والحمد لله - موفقون في آرائنا ، مستشعرون للأمور قبل وقوعها ، وأننا شهانى مرات في العشر نقول رأينا فينكره الكثيرون ، ثم تتحقق الأيام ، وتزدهر الحوادث ويتجلى فيه الصواب كفلك الصبح»^(٢) .

ولكن تركيبة العثمانية الإسلامية سقطت في امتحان الحرب ، فكان لسقوطها وقع بدل وتحول في الكثير من المفاهيم والمعتقدات السياسية الراسخة في العالم الإسلامي ، كما سقط بسقوطها الشكل السياسي للجامعة الإسلامية التي كانت هاجس شبيب أرسلان وشاغله في المرحلة الأولى من حياته ، وبدأ بعدها في التحول إلى المرحلة الثانية في اتجاه (الجامعة العربية) .

ولكن التحول هذا هو تدرج وامتداد وليس إنقلاباً^(٣) ، ففهم الأمير شبيب أرسلان للجامعة العربية في المرحلة الثانية لم يكن سوى امتداد طبيعي لجوهر الغايات التي حكمت جهاده في سبيل الجامعة الإسلامية في المرحلة الأولى .

وينطلق الأمير شبيب أرسلان في فهمه (الجامعة العربية) «بأن العرب لم يكونوا ليتحدون في يوم من الأيام إلا بالإسلام ، ولولا الإسلام لبقوا شعراً وقبائل يقتتلون في جزيرة العرب إلى يوم القيمة ، وإنهم أبداً يسيئون»^(٤) .

«فلما جاء الإسلام ووحد بينهم في الدين ، وقال الله تعالى : «إذ كنت أعداؤاً فألف بين قلوبكم فأصبحتم إخواناً»^(٥) ، لم يلبثوا أن خرجوا من جزيرة العرب

١ - يقول شبيب : «أنه عرف تقسيم فرنسا وانجلترا لسوريا وفلسطين سنة ١٩١٢هـ وأنه سبّح هذا في كتاب «البيان عما شهدته بالعيان» المرجع السابق من ١٠٦ .

٢ - الشروق ، ٢٠ أغسطس ١٩٢٥ م .

٣ - د. محمد شفيق شهبا ، شبيب أرسلان ، مقدمة الفكر السياسي ، ص ١٣٧ .

٤ - شبيب أرسلان ، مقدمة ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١٧-١٦ .

٥ - من سورة آل عمران آية ١٣٢ .

بقوة هذا الإتحاد ، ففتحوا نصف العالم في ثمانين سنة ، ولم يقف في وجههم شيء . ولكن بعد أن بعدهم بعهد النبي وخلافة الراشدين ضعفت فيهم العقيدة التي كانت مدار العمل عند سلفهم ، وعادت فتجددت بينهم العصبيات الموروثة عن الجاهلية ، فرجموا يقتلون على المضدية واليمنية في الإسلام ، كما كانوا يقتلون قبل الإسلام ، ورجع بذلك زرعهم هشبا ، وبدرهم عرجونا قدبا »^(١) .

فالأمير يؤمن أن العقيدة الإسلامية جعلت الإسلام هو العروبة الوثقى ، وجعلت أخوته فوق كل رابطة^(٢) ، ويأن لا وحدة للعرب إلا بالإسلام ، وأن في الإبقاء على الأمة العربية مترابطة إبقاء على عمود الإسلام .

ولا يرى شكيب تعارضا ولا تصادماً بين الوحدة العربية والأخوة الإسلامية ، بل هو فوق ذلك يرى أن الوحدة العربية تتضمن خيراً وقوة للشرقيين والمسلمين ، فيقول : «أما اتحاد العرب والجامعة العربية فليس في ذلك إلا ما يزيد الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً قوة ومنعة»^(٣) .

وكان موقف الأمير شكيب أرسلان من فكرة إنشاء الجامعة العربية هو موقف الإسلاميين الذين بدأوا يعبدون التفكير بعد نهاية الحرب العالمية الأولى فيما آل إليه أمر المسلمين والعرب ، ورأوا أن البديل الوحيد من الجامعة الإسلامية بعد هزيمة تركيا وزوال الخلافة الإسلامية هو الجامعة العربية^(٤) .

ولكن لم يكن تحول الأمير شكيب أرسلان من الدعوة إلى الجامعة الإسلامية إلى الجامعة العربية إنقلابا ، بل كان نتيجة لدرج منطقي فرضته أحداث عصره المتلاحقة ، فمع إلغاء الخلافة العثمانية انهارت الجامعة الإسلامية في وجهها السياسي . وكان الأخطر من ذلك أن الشعوب الإسلامية بدت وكأنها أعرضت عن الجامعة الإسلامية ،

١ - المرجع السابق .

٢ - المرجع السابق .

٣ - مجلة الفتح ، ٩ ، ربـ ١٣٤٠ (عن أحمد الشريachi ، شكب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص ١٤٦) .

٤ - د. محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ص ٢١٢ .

وأخذت تبحث عن بديل آخر تظنه أكثر انسجاماً وتوافقاً مع شروط العصر ، وقد ساعد على نمو هذا الشعور ما بنته الدول الإستعمارية من الادعا ، بأنها مستعدة لبحث موضوع استقلال الشعوب الإسلامية فيما لو تخلت عن فكرة الجامعة الإسلامية ، وقد لاحظ شكيب أرسلان تصاعداً لهذا الاتجاه في الفكر السياسي فقد ثر جملة ماذكره عن أسباب تخلى العالم الإسلامي عن معاونة نزيف منيري في جهةه : ضد الأسبان : «فتشوا الاعتقدة في تركيا ، ومصر ، وقسم من بلاد التمرد ، بأن سياسة الاتحاد الإسلامي شيء مضر بال المسلمين ، حافز لأوروبا على التأب عليهم ، ومنعها استقلال ما يرجى استقلاله منهم حال كون الشعوب الإسلامية لو قامت بصناعة وطنية أو قومية خالية من صبغة الدين ، لما وجدت أوروبا بأساس من إعطائها استقلالها ، فاما شعور أوروبا بكون الإسلام في وجهها متماساًكاً بعضه مع بعض ، فإنه مما يزيد تصفيتها على سد كل طريق فرج في وجه أبنائه»^(١).

ولقد عمت هذه الظاهرة الخطيرة أرجاء ، العالم الإسلامي ، كما يلاحظ شكيب : «وقد زاد هذه العقبة رواجاً في تركيا ، فشو الدعوة التورانية التي معناها أن الأتراك ينبغي أن يكونوا تركاً في الأول ثم مسلمين في التالي ، بل يذهب الغلاة من التورانية إلى محاربة الإسلام بكل الوسائل ، لأجل قلع نفوذه لمحو الصبغة العربية من بين الأتراك»^(٢).

«كما زاد ذلك رواجاً بمصر مراعاة جانب القبط الذين رأى بعض كبار الزعماء ، أن إداماجهم الحقيقي في الكتلة الوطنية المصرية ، متوقف على نقض البند من الجامعة الإسلامية»^(٣).

«ولا تخلو هذه التزعنة من البلاد العربية أيضاً ، لا سيما بين الحزب الذي انتقض على الأتراك أيام العرب العامة ، والذي تحالف مع الانجلترا وتمني فوزهم في العرب ،

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٣ ص ١٩٢-١٩٣.

٢ - المرجع السابق.

٣ - المرجع السابق.

بحجة أن الذي ينفي أن يكون نصب نظر العرب هو القرمية العربية ، لا الجامعية الإسلامية ، وإن هذه الجامعية توجب نفور انكلترا التي كانت عند هذه الفتنة مناط آمال العرب ... بخلاف ما لو كانت النزعة عربية قومية ، فيإن انكلترا ترحب بها ترحيباً !)١(.

وهكذا انتشرت الدعوات القومية الإنفصالية في أنحاء العالم الإسلامي ، ودفعت خط الجامعة الإسلامية إلى الظل لتنقدم عليه سياسة الإنفراد والتزاعات العنصرية ، بينما ازداد شكب أرسلان يقيناً بأن «الشكتل» هو السبيل الوحيد للنجاة ، وأن تلك الدعوات القومية الإنفصالية لابد أن تنتهي إلى القضا ، على الشعوب الصغيرة أيام قوى الغرب الساحقة ، فرأى أنه «إذا كان هؤلاً لا يرون الاستمساك بجامعة إسلامية تشم منها رائحة الدين ، وتستوحش منها نزعاتهم العصرية ، فليعدوا على الأقل إلى جامعة وطنية شرقية تشمل جميع الشرقيين من أية أمّة كانوا إذ كان من سن البقاء ، أن يتحدد الضعفاء في وجه القوى »)٢(.

وفي ظل هذه الواقع بدأ التحول في سياسة الأمير شكب إلى الجامعة الشرقية «فليست الجامعة الإسلامية هي العروة الوحيدة التي يقدرون أن يعتصمو بها ، بل الجامعة الشرقية إذا اتسقت على الوجه المطلوب في آسيـة كانت أوسع نطاقاً ولكن هذه الجامعة أيضاً توجب التضامن مع سائر الشرقيين من كل أمّة ومذهب ، وما لا مشاحة فيه أنه لا أمل باستقلال الشرق ما دام مفكك الأجزا ،»)٣(.

ولكن الأمير شكب كان يخلط بين فكرة الجامعة الشرقية والجامعة الإسلامية ، وظهرت المحاولة الأولى لإنشا ، رابطة من هذا النوع بعد الحرب العالمية الأولى عندما اشترك شكب أرسلان مع جماعة من دعاة الجامعة الإسلامية السابقين - ومنهم طلعت

١ - المرجع السابق .

٢ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ٤ ص ١٦ ..

٣ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ٤ ص ١٦ ..

باشا ، الصدر الأعظم السابق ، المقيم في برلين^(١) - في تشكيل النادي الشرقي في برلين^(٢) .

«وفي سنة ١٩٢٢ م تألفت جمعية الرابطة الشرقية ، وحدد قانون الجمعية أغراضها بأنها «توثيق الروابط بين الأمم الشرقية باتساعها الفكري بيته . ودرس حضارة الشرق وما يناسب افتراضاته لنهضته من الحضارة الغربية ، وأن ترسو على ذلك بناء شامل للعلمية والاقتصادية ، وبث دعوتها باللسان والقلم ، وإيفاد بعض رجالها إلى البلاد الشرقية للتعرف والتآلف ، وإنشاء شعب فيها ، وعقد مؤتمرات دولية في جهات متعددة لتبادل الأفكار ... الخ» ، ومع أن الجمعية قد صرحت بأن غرضها غير سياسي ولا ديني ، وبأنها جامعة للشرقين من كل الأديان ، فقد كان اتجاهها الإسلامي واضحًا ، فهي ترسل مندوبياً لمقابلة الخليفة في الأستانة ، وهي تبدأ نشاطها بالمساهمة في جميع التبرعات لترميم قبة المسجد الأقصى والصخرة سنة ١٩٢٣ م ، ثم تحبti في العام التالي ذكرى جمال الدين الأفغاني ، وتتدخل في محاولة التوسط بين الملك حسين ملك الحجاز وبين السعوديين لوقف القتال . ثم تساعد بعد ذلك في جمع التبرعات لجرحى «الريفين» في ثورة مراكش ، ولضحايا الاحتلال الفرنسي في «دمشق» ، وللدفاع عن عرب فلسطين الذين قدموا للمحاكمة سنة ١٩٢٩ م لاشتراكهم في انتفاعة ضد استمرار هجرة اليهود ، وهكذا يتبع من عرض أعمال هذه الجمعية التي ظلت قائمة إلى سنة ١٩٣١ م ، أن معظم نشاطها قد اتجه إلى البلاد الإسلامية ، والعربية منها خاصة»^(٣) .

وتلا ظهور (الرابطة الشرقية) ظهور (جمعية الشبان المسلمين) في آخر سنة ١٩٢٧ م ، وقد انصرف معظم نشاطها الإسلامي - كسابقتها - إلى العالم العربي ، فأأسست لها فروع في فلسطين وفي سوريا وفي العراق^(٤) .

١ - وذلك قبيل اغتياله في ١٥/٣/١٩٢١ م .

٢ - د. محمد شفيق شيا ، شكب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص. ١٩ .

٣ - د. محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ج٢ ص ١٢٨ .

٤ - المرجع السابق ص ١٢٩ .

وشكيب كان يعلق أملًا كبيراً على جمعيات الشبان المسلمين ، ويرى أن المسلمين نهضوا نهضة مذكورة بعد الحرب العالمية الأولى ، ونفروا غبار الخمول عن ثغورهم ، ومن أحسن ما قاموا به إنشاء جمعيات الشبان المسلمين في مصر وفلسطين وسوريا والعراق^(١).

وعندما اجتمع الرعامة العرب حين اجتمعوا في القاهرة ، وشكلوا اللجنة التنفيذية للوزير السوري الفلسطيني سنة ١٩٢٢م ، قرروا تأليف وفد عربي يدأع عن سوريا وفلسطين ، ويسعى لتحرير هذين القطرين من براثن الاستعمار ، فبسط قضيتهما أمام الرأي العالمي ، وتابع المحاماة عن حقوقهما والعمل لاستقلالهما في جمعية الأمم بجينيف ، ولم يجدوا بدأ من الاستنجاد بشكيب والإفادة من ثقافته ورجولته واحلاصه ونضاله ، فانتخبوه سكرتيراً أول الوفد ، وأرسلوا إليه برقية إلى برلين تدعوه إلى تأليف الوفد المذكور .

وسافر شكيب من برلين إلى جنيف سنة ١٩٢٥م للقيام بهذه المهمة المقدسة الجديدة بتكليف من قومه^(٢) ، وبتاريخ ١٥ سبتمبر يقدم إلى عصبة الأمم نداء مطولاً بالفرنسية ، يطالب فيه بسرعة الإعتراف باستقلال سوريا ولبنان وفلسطين وبالسلطان القومي لهذه الأقطار الثلاثة ، ويحق هذه البلدان في أن يرتبط بعضها مع بعض بحلف بينها ، ويطالب باللغة نظام الاستبداد ، ويجلا ، القوات الأجنبية عن سوريا ولبنان وفلسطين ، ودخول سوريا ولبنان الكبير في عصبة الأمم مع إعلان استقلالهما التام الناجز ... الخ^(٣).

وهكذا نزل الأمير شكيب إلى ساحة العمل السياسي العربي ، وكما اتسمت الجامعة الإسلامية بالطابع النضالي المعادي للفزوة الأوروپية الصليبية السياسية ، كذلك اتسمت الفكرة العربية الصاعدة بسواجهة الاستعمار الأوروبي العسكري/السياسي/الاقتصادي .

١ - أحد الشخصيات ، شكب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، امراجع سابق ، ص ٢٢٨ .

٢ - د. سامي الدعاه ، الأمير شكب أرسلان حياته وأثاره ، ص ٨٤ .

٣ - شكب أرسلان ، الشوري ، ١٩٢٥/١١/٥ .

ولنظرة شكيب وفراسته الصادقة في الأمور السياسية الخطيرة ، حتى أنه طالما
تنبأ عن أمور قبل وقوعها فجأة كما حدث ^(١) ، أخذ يدعو العرب إلى الإتحاد وهو في
أثناء تكراره لدعوته ينذر ويحذر من مستقبل الأمة العربية إن بقيت مفككة فبقرار
سنة ١٩٣٦م :

«الورقت مخيف جداً ، والمستقبل مظلم حالك الظلام ، وأنحرب الأوروبيية مهماً تأخرت فهي آتية لاريب فيها ، وقد ينشأ عنها من تقاسم بلدان الضعف ، ومن المعاوضات والمبادلات ما ينشأ في العرب الماضية .

فالبلدان العربية تحت الخطر ، بل الخطر الشديد ، إني لأعلن العرب هذه الحقيقة من الآن ، وليس أمامهم لدرء الخطر إلا الاتحاد ظاهراً وباطناً ، أنه إذا نشببت حرب أوروبية تفلت كل من قبده ، وصار كل قوى يستعمل قواه ، والحق بعد ذلك للغالب ، وقد ينتهي الأمر بالاتفاق ، ولكن علم ، ظهر الضعف »^(٢) .

ولقد كان شكيب فيما يقول الرواة أول من دعا إلى إنشاء (الجامعة العربية) عقب الحرب العالمية الأولى.^(٣)

يقول الأستاذ عبد العزيز عزت عن شكيب : « وهو أول من نادى عن عقيدة وإيمان يتكلّم في جامعة عربية تعلم على تضامن العرب كافة واسعادهم واستقلالهم ، وكان يقول أن شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم التي تسوّي بين المسلم وغير المسلم في بلاد الإسلام : (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) تجعل مواطنينا غير المسلمين توافقين للإستقلال معنا ، و تاريخ الدول الإسلامية أعظم شاهد على هذه المساواة في جميع الحقوق و تمام الحرية » (٤١).

١- يقول د. زكي على نفي هذا المقام : «الأمير شكب أرسلان كثيراً ما تكهن في الأمور السياسية الخطيرة قبل وقوعها ، حتى إذا انحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل جرت العوادت مصداقاً لتكتئنه ، دليلاً على صواب حكمه . ولا غرو أن هذا يعزى إلى سلامة نظرته وأصالة رأيه .. فوق ما أمتاز به من الخبرة وbread of النظر والتعمير خلال عشرات السنين من حياته السياسية » شكب أرسلان داعية المعرفة (مترجم سابق) ص ٥٤

٢ - الفتح . عدد ٤ شوال سنة ١٣٥٠ هـ .

^٣ - أحمد الشريافي ، شكيك أرسلان داعية العربية والاسلام : (مترجم سانه) ، ص ١٢٢.

٤ - المحمد السادس، ص ١٢٣

غير أن (الجامعة العربية) - كما ذكرنا - لم تكن نقيبة للإسلام في فكر شكيب، أو بديلاً عن (الجامعة الإسلامية) كمشروع سياسي ، فالكثير من عناصر الجامعة الإسلامية ومكوناتها قد وجدت طريقها إلى فكرةعروبة ، كما استلهمت (الجامعة الإسلامية) في ضرورة الوحدة ، وحدة المشرقيين ووحدة المستضعفين ، واستلهمت في ذلك كله طابع الجامعة الإسلامية النضالي المعادي والمقاوم للغزو الفرنسية الاستعمارية ، فالجامعة العربية اعتبرت في فكر الأمير أكثر توافقاً مع وقائع المرحلة وتحدياتها ، وأقرب نفعاً في تأمين مستلزمات الوحدة والنضال .

«وهكذا لم يتردد عرب الجامعة الإسلامية ، ولم يقدّم انكفاء الإسلام السياسي ، بل انخرط الكثير من قادتهم في معركة دفع الاستعمار الأوروبي عن البلاد العربية ، وربات أكثرهم أعضاء نشطين في حركة المقاومة العربية الآخذة بالانتشار والتصاعد ، ونكتفي بذكر بعض هؤلاء، أمثال الحاج أمين الحسبي ، علال الفاسي ، أحمد زكي ، ساطع العصري وغيرهم ، كان شكب أرسلان بين أكثر هؤلاء نشطاً واندفاعاً وإقداماً في خدمة القضية العربية الاستقلالية»^(١).

لقد رأى الأمير شكيب ومعه فريق من الإسلاميين أن قوة (الجامعة العربية) مستمدّة من أنها جزء لا يتجزأ من (الجامعة الإسلامية) ، ومن النماذج القوية التي تعبّر عن هذا النصّور الإسلامي للجامعة العربية ما نشر في صحيفـة السياسـة تحت عنوان «الوحدة العربية - وهـل هي خـيال؟» .

«لم تكن الوحدة العربية فكرة اليوم ، فهي رببة الدعوة المباركة للجامعة الإسلامية الكبرى ، أو قل إنها جزء لا يتجزأ منها ، بل لا تكون مغالين إذا اعتبرناها حجر الزاوية في بناء تلك الجامعة العتيدة التي نعتقد أن عناصر تكوينها من روحية وثقافية وحضارة وتقاليـد هي العـانـصـرـاتـ الـنـفـسـهـاـ ، مـصـوـلـةـ بـسـرـدـ التـطـرـرـ ، الـتـيـ يـقـومـ عـلـيـهـاـ نـشـانـ الـوـحـدـةـ الـعـرـبـيـةـ»^(٢).

١ - د. محمد شفيق شيئاً، شكب أرسلان مقدمات الفكر السياسي ، (مراجع سابق)، ص ١٩٥.

٢ - ملحق السنة الأولى عدد ٦ رجب ١٣٥١ - ٥ نوفمبر ١٩٣٢ لميس بن دك - عن الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، لمحمد محمد حسين ، ج ٢ ص ١٨ ، (مراجع سابق).

وشكيب أرسلان يرى أن تكون الوحدة اتحاداً عسكرياً واقتصادياً وسياسياً يضمن البقاء للجميع حتى لا تتفق مشكلة الإتحاد الإداري عقبة في طريق تنفيذ مشروعه، فالوحدة العربية لا ترحب «نظام اندماج مملكة بآخرى»، بل هي ممكنة بسهولة مع إيقاع كل من العراق وسوريا والمملكة العربية السعودية «مالك مستقلة بإدارتها الداخلية».^(١)

ويتحدث عن الاتحاد العربي بين الدول الأربع : «الشام والعراق ومملكة ابن سعود ومملكة اليمن» ثم يذكر أنه عند اتحاد جميع هذه البلدان يصلح العرب الذين فيها من العدد ثلاثة وعشرين مليوناً من الأنفس» فإذا وجدت مصر في شرقها ثلاثة وعشرين مليوناً عربياً متحالفين تحالفوا عسكرياً ، اقتصادياً ، اجتماعياً ، متهددين كثلة واحدة في وجه كل مناوى ، فلأنهن أنها تتردد في أن ترتبط مع هذه الأمة العربية الكبيرة ارتباطاً متيناً وثيقاً عسكرياً واقتصادياً ، وتصير عندها بذلك (جبهة شرقية) هائلة بربور عدد أهلها على خمسة وأربعين مليون نسمة ».^(٢)

ويلاحظ أنه استعمل كلمة «جبهة شرقية» مما يدل على تواصل الخط السياسي في فكره الذي بدأه من الجامعة الإسلامية إلى الرابطة الشرقية إلى الجامعة العربية استجابة لجملة الحقائق التاريخية والسياسية التي استحدثت مع نهاية الحرب العالمية الأولى ، ودون أن يكون في ذلك التحول تراجعاً أو انقلاباً .

ويقرر الأمير شكيب في مواقف مختلفة الروابط التي تربط شعوب العربية من العقيدة الدينية واللغوية والجغرار وتشابه الظروف الاجتماعية والحوادث التاريخية والمطامع السياسية وأهداف الرقي المدني والاقتصادي ، ويذهب بعد ذلك إلى تأكيد إيمانه بتحقق تلك الوحدة العربية ، فيقول : «إن الأمة العربية سازنة إلى الوحدة ، مهما عارض في ذلك اللئام من أعدانها ، والمتفلسفون من أبنائنا ، وأن هذه الوحدة آتية لا رب فيها ».^(٣)

١ - من محاضرة لشكيب عن «الوحدة العربية» في النادي العربي بدمشق يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٣٧ عن أحمد الشريachi ، شكيب أرسلان داعيةعروبة والإسلام (مراجع سابق) ص ١١٥ .

٢ - المرجع السابق ص ١١٦ ، ويلاحظ أنه كان يقول هذا في سنة ١٩٣٧ م .

٣ - شكيب أرسلان ، الارتسامات اللطائف في خاطر العاج إلى أقدس مطاف ، ص ٧

أما تصور الأمير لمستقبل السياسي للجامعة العربية فيقوم على أساس أن «العرب أمة كاملة ، أي أن لها جميع العناصر التي يقتضيها كيان الأمم من الرجاهة السياسية والاجتماعية فلها عرق واحد ولسان واحد وأكثريه دين واحد ، و تاريخ واحد كما أن لها مصالح واحدة ، ومنافع واحدة وأملاكاً واحدة ، ولكن الذي فت في عضد هذه الأمة ، وأقصاها عن السير في مواكب التنمية والرقي هو تفكك حلقاتها واستعمار الأجنبي لها »^(١).

ويحدد الأمير شكب دوره وهدفه من (الجامعة العربية) فيقول : « أنا جندي من جنودها له ثلاثة أهداف جلية وواضحة تمام الوضوح .

الأول هو الاتحاد ، والثاني هو التحرر ، والثالث هو السير في مواكب النهضة والعلم والبعث^(٢) .

ومع ذلك كله ، فلم يكن طريق الدعوة إلى (الجامعة العربية) ميسراً ولا ممهدأ ، فقد كانت تتعرضه عقبات كثيرة ، ولم يكن الاحتلال الأجنبي الذي قطع أوصال بلاد العرب هو شر هذه العقبات وأخطرها^(٣) فهناك المسيحيون الذين تخوفوا من أن تكشف الوحدة العربية عن شكل جديد من أشكال التسلط الإسلامي^(٤) ، وقد يكون لهذا النفر من المسيحيين عذرهم فيما ذهبوا إليه ، فقد لقي هؤلاء من عنت الحكم ومن فساد الإدارية في أواخر الدولة العثمانية ما نفرهم من الارتباط بالحكم الإسلامي جملة^(٥) ودعاهم إلى تفضيل الاستعمار الأوروبي (الأفريقي) أيا كان وبأية صورة احتل البلاد على ابن وطنهم ، وأحباناً على ابن جلدتهم المشارك لهم في السراء والضراء ، بمحنة كونهم مختلفين مع ابن وطنهم في الدين .

وقد أوضح الأمير شكب أرسلان عقم هذه السياسة وسمتها ، ومخالفتها للعقل

١ - محمد علي الطاهر ، ذكرى الأمير شكب أرسلان ، ص ٢٤٢ .

٢ - المرجع السابق .

٣ - د. محمد محمد حسين ، الاتجاهات الرطنية (مرجع سابق) ص ١٣٦ .

٤ - صالح بن عبد الله العبرود ، فكره القومية العربية في ضوء الإسلام ص ١٧٦ .

٥ - د. محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، ص ٤٣ .

والكرامة وللمصلحة في مقالة تحت عنوان «العروبة جامعة كلية» نشرت في «عروة الإتحاد» في أيلول ١٩٤٠، ثم أعاد نشرها كاملاً الشيخ أحمد الشريachi^(١)، تحدث فيها الأمير شبيب عن الرابط التي تجمع بين المسلمين والمسيحيين ، وأهمها رابطة الدم بالأصل ، ثم المصالح ، واللغة ، والوطن ، وضرب الأمثلة ، وبين كيف يرجع نصارى العرب إلى أصول عربية ، كما تحدث عن تأثير العقيدة الدينية ، وأنها لا تبني رابطة الدم ، وبين أنه لا تعارض بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية ، وأن الحروب الصليبية هي التي أوجدت العداوة بين المسلمين والمسيحيين ، ويشير إلى اتحاد المسلمين والأقباط في مصر ، ويجعل ذلك قدوة لسوريا^(٢).

ولنا أن نقف هنا عند ثلاث مسائل أولها شبيب كبير عنياته وتعد ذروة تصوره السياسي حول (الجامعة العربية) :

الأولى : يرى شبيب أن رابطة الدم من أقوى الروابط الجامعية بين الشعوب ، وأن رابطة العقيدة الدينية لا تبني رابطة الدم ، يقول الأمير شبيب : «إن العرب سوا ، كانوا مسلمين أو نصارى هم عرب ، لا يقدرون أن يتبرأوا من أصلهم ، ولا أن ينسلخوا عن أرومتهم العربية ولا نزاع أن رابطة الدم كانت ولا تزال من أقوى الروابط الجامعية بين الشعوب ، ولا نزاع أيضاً أن رابطة العقيدة الدينية هي ذات تأثير عميق في اجتماع الشعوب وافتراقها ، ولكنها لا تبني رابطة الدم ، ولا تمحوها من الوجود ، لاسيما إذا كانت رابطة الدم معززة برابطة الجوار ومقتضيات المصلحة المادية المشتركة»^(٣).

ثم يقرر الأمير حقيقة هامة ثبتت في وعيه السياسي بفعل التجربة الغنية التي خبرها أمدا طويلاً : «لقد أثبتت التجربة أن رابطة الدين على أهميتها لم تكون هي كل شيء ، وأن رابطة اللغة ورابطة الدم كان لهما في جانبها مكان من البال لا يقل عنها»^(٤).

١ - في كتابه : «شبيب أرسلان داعية العروبة والإسلام» .

٢ - شبيب أرسلان «العروبة جامعة كلية» عن «داعية العروبة والإسلام» (مراجع سابق).

٣ - المرجع نفسه ص ١٦٢

٤ - المرجع نفسه

وينقل الأمير شكب أرسلان عن الفيلسوف «ريتان» الفرنسي : أن أقوى جامعة بين الشعوب هي «جامعة الإرادة» في الإجتماع^(١) ، ثم يعلق شكب بقوله : «ونحن أولاً نجد بين المسلمين والمباحبين في الشرق لا جامعة واحدة بل جامعات كثيرة كلية ، منها وحدة الأصل ، وليس ذلك بالأمر الذي لا تبالي به الشعوب .. وزد على هذه وحدة المصلحة الراهنة المشتركة في الحياة الدنيا ، وهي لا تقل شأنًا عن الوحدتين السابقتين^(٢) .

ويرد الأمير الاعتراض بأن في الشعب العربية أنساباً متباعدة وأقواماً لا يجري فيها الدم العربي الصراح ، فيقول : «وان كنا نريد البحث والتدقيق فأية أمة في العالم تظهر أنها من أصل واحد اليوم لم تكن مركبة في الأصل من عناصر شتى ؟^(٣) .

فالنسب العرقي النقي وهم لا وجود له في أمم الأرض جميعاً ، ومثل هذا لا تخلو منه أمة ، حتى أن العرب أنفسهم - وإن كانوا جميعاً ساميين - ليسوا من أصل واحد ، فمنهم العرب الباندة ، مثل عاد وثمود وطسم وجديس ، ومنهم العرب العاربة ، وهم سلالة قحطان ، ومنهم العرب المستعربة ، وهو سلالة إبراهيم الخليل عليه السلام ، ومع ذلك فإن العرب أمة واحدة ، لا يقدح في وحدة أصلها إلا شافي أو حاسد أو مشاق معاند^(٤) .

«فإن كان في الأمة العربية اليوم أقوام هم من أصل آرامي أو كنعاني أو نبطي ، أو غير ذلك ، فهذا لا يقدح في كونهم من جملة الأمة العربية الكبيرة باللغة سبعين مليون نسمة ، اتحدوا في الأصل السامي ، ثم اتحدوا في اللغة العربية ، وحسبك باللغة العربية عنواناً على العروبة»^(٥) .

المسألة الثانية : وهي ما أشار إليها شكب في النص السابق ، بقوله «اللغة

١ - المرجع نفسه

٢ - المرجع السابق

٣ - المرجع نفسه

٤ - المرجع نفسه

٥ - المرجع نفسه

عنوان على العروبة» ، فشكيب أرسلان يرى أن عامل وحدة اللغة سابق على غيره من العوامل، وأن الأمة تتكون أساساً بهذا العامل مهما تعددت الأصول ، وتباعدت الأقاليم، وتباينت التقاليد والعادات .

وبهذا التصور اللغوي للأمة تصبح اللغة أهم عوامل التوحيد القومي «وليست اللغة العربية وحدها هي (البروتة) التي ذابت فيها قبائل شتى فصيانتها جسماً وروحاً واحدة ، بل كل لغة من اللغات الكبرى كالإنكليزية والألمانية والإفرنجية والطليانية والروسية قد كانت (بوتقة) ذات فيها عناصر مختلفة الأصل فصارت عنصراً واحداً»^(١).

ويشير الأمير إلى الترابط الوجداني الذي تحدثه اللغة في نفوس المجتمعين عليها حتى أنه قلما تصلع إنسان في لغة قوم إلا أحب أولئك القوم . ولهذا نجد أكثر علماء العربية من النصارى - سوا ، كانت أصولهم عربية بحتة ، أم لم تكن - يحبون العرب ويقتربون بالعروبة ، وقد كان من الفرس ومن الترك علماء بالعروبة جعلهم اتقانهم للعروبة من أنصار العروبة^(٢).

وهنا يلحظ الأمير عالماً من عوامل تفكك عرى (الجامعة الإسلامية) ، وهو إهمال تدريس اللغة العربية - بعد أن كانت عامل توحد للشعوب الإسلامية - في تركيبة «وغلب على ناشتها تعلم اللغات الأوروبية ، وإهمال اللغة العربية التي كانت لغة العلم عندهم من قبل^(٣) ضعف ميل الأتراك إلى العرب ، بل انقلب إلى التغور ، وانتهى بالعداوة . وما نقوله عن الترك في هذا الباب نقدر أن نقوله عن الإبرانيين^(٤).

المسألة الثالثة :

وهي تأكيد الأمير شكيب على عدم وجود تعارض بين الوحدة الإسلامية والوحدة

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٧١ .

٢ - المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

٣ - وفي هنا يقول جمال الدين الأفغاني : «... أما الأتراك فقد أهلوا أمراً عظيماً وحكمة نافعة قالها السلطان محمد القاتع رحمة الله عليه وأحب أن يحمل بها السلطان سليم وهي قبيل اللسان العربي لسان الدولة ، محمد باشا المخزومي ، خاطرات جمال الدين الأفغاني ، ص ٨٨ .

٤ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

العربية ، هي مسألة دقيقة ناقشها الأمير شبيب أرسلان بعنابة المفكرة الغرير على التوفيق بين أبناء الوطن الواحد ، وقد نختلف معه في بعض الرأي لكننا نتفق معه في الإطار العام وفي الغاية والهدف .

بداية يقرر شبيب أرسلان أن الدين الإسلامي جعل العقبة الإسلامية فوق كل شيء ، ونهي الذين آمنوا عن أن يتولوا الذين لم يؤمنوا ، ولو كان هؤلاء من ذوي قرياحهم ، أو كانوا أصولهم أو فروعهم ^(١) .

ويستشهد بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء ، إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباءكم وأبناءكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقتربت نحوها وتجارة تخشون كсадها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجihad في سبيله فترىصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » ^(٢) .

ثم يرد الأمير شبيب أرسلان على المعارضين لفكرة الربط بين العروبة والإسلام ظناً منهم أنني الجمع بينهما جمع بين نقبيضين ، فإذا كانت « الوحدة الإسلامية هي المقدمة على كل وحدة أخرى من النسب واللغة والجوار والمصالح المشتركة » ، فإية فائدة إذن أن يتحد نصارى العرب مع المسلمين منهم ؟ ^(٣) ويرى شبيب أن العواب عن ذلك سهل إلى للغاية ، وذلك من وجده :

الأول : أنه إذا كان القرآن جعل الرابطة الإسلامية فوق كل شيء ، فإنه جعل الحق في المعاملات فوق الرابطة الإسلامية حتى أنه سرى في الحق بين المسلمين وغير المسلمين ، ونهى عن أن تكون العداوة الدينية سبباً لحرمان الأعداء من حقوقهم .

فقال تعالى في سورة السائدة : « ولا يجرمنكم شأنكم قوم أن صدوقكم عن المسجد الحرام أن تعبدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعذوان واتقوا الله

١ - شبيب أرسلان داعية العروبة والإسلام (مراجع سابق) من ١٧٤ .

٢ - سورة التوبة آية ٢٤-٢٣ .

٣ - المرجع السابق ص ١٧٥ .

إن الله شديد العقاب» آية : ٤

وقال تعالى في السورة نفسها : «بِاَيْهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ لِللهِ شَهِداً .
بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى اَنْ لَا تَعْدِلُوا ، اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» آية : ٨ .^(١)

وهكذا يقوم الأمير بإثبات الغاية المقصودة من الشريعة الإسلامية وهي إقامة
(العدل) بين الناس ، ولهذا أمر الله المسلمين أن يقرموا بالقسط ولو على أنفسهم أو
الوالدين والآخرين ، وأمر بالعدل ولو مع العدو . وجعل العدل في الحكم وفي القول
مفروضاً في كتاب الله فانقطع بذلك خوف غير المسلمين من الإجتماع مع المسلمين في
دولة إسلامية تحكم بشرعية الإسلام .

«فَإِذَا كَانَ الشَّرْعُ إِلَّا يَبْيَعُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَجْرُورَ عَلَى مُسْبِحِيٍّ ، أَوْ عَلَى أَيِّ
كَانَ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَوْ كَانَ عَدُوًا لِلْإِسْلَامِ عَوْمًا ، وَكَانَ يُوجَبُ أَنْ يَوْفَرَ لَهُذَا
العُدُوُّ حَقَّهُ غَيْرُ مُنْقُوصٍ ، فَأَنْيَ مَكَانٌ بَعْدَ هَذَا لِلخُوفِ مِنَ الْإِجْتِمَاعِ مَعَ الْمُسْلِمِ فِي حُكْمَةٍ
وَاحِدَةٍ ؟ وَأَنِي مُحْنَرٌ مِنْ جَعْلِ الْقُرْآنِ رَابِطَةَ الدِّينِ فَوْقَ كُلِّ رَابِطَةٍ ، وَهِيَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَبْطِلَ
هَذَا ، وَلَا أَنْ تَمْحُقَ بِاطْلَالًا فِي مَعَالِمِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ ؟»^(٢) .

أما الوجه الثاني الذي يدعو إلى ترابط المسلمين بالمسحيين في داخل (الجامعة العربية) فهو أن الشرع الإسلامي قد فرق بين المشركين وبين أهل الكتاب ، الذين منهم اليهود والنصارى ، فكان هؤلاً، بالنظر إلى عقيدتهم بالغالق تعالى بنظر إليهم الإسلام بغير النظر الذي ينظر به إلى الملحدين والمعطلين والمشركين^(٣) ، فيقول الله تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرُونَ وَالنَّصَارَىٰ مِنْ آمِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»^(٤) .

١ - المرجع نفسه .

٢ - شكب لرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

٣ - المرجع نفسه .

٤ - سورة الصافات آية ٦٩ .

ويعتقد الأمير شكيب أن الله تعالى جعل باب الرحمة مفتوحاً لأهل الكتاب ، ومستشهد على اعتقاده هذا بقول الله تعالى في آخر سورة العنكبوت على لسان سيدنا عيسى :^(١) «ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ، أن أعبدوا الله ربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيته كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم»^(٢) .

وهناك وجه ثالث لتقرب المسيحيين مع المسلمين ، يرى الأمير أن من لم يتأمل القرآن العظيم لا ينفعه إليه ، وهو أن الله سبحانه وتعالى قد جعل اليهود والمشركين أعداءً للمسلمين من دون النصارى ، وقد ورد هذا بالنص الصريح^(٣) في قول الله تعالى : «لتتجدُّن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشروا ، ولتجدُّن أقربهم مرودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ، ذلك بأنَّ منهم قسيسين ورهبانا وأنَّهم لا يستكرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترَى أعينهم تفيض من الدمع مما عرَفُوا من الحق ، يقولون رينا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين»^(٤) .

ويؤكد الأمير شكيب أن المسلمين في صدر الإسلام وما بعده كانوا لا يعتبرون النصارى أعداء لهم ، وكان ذلك عقيدة عندهم مدة قرون متعددة ، «ولكن العداوة بين المسلمين والمسيحيين لم تبدأ في الشرق إلا بعد أن فكر الغرب في الإستبلاء على الشرق ، وزحفت الأمم الأوروبية كلها على المشرق ، تزيد القضايا ، على دولة الإسلام ، بحجة استنقاذ بيت المقدس .. ولم تزل أوروبا تتفاخ في هذا النفير من ذلك الوقت وكلما هدأت حركة العدا ، بين المسيحيين والمسلمين في الشرق جاعت الدول الأوروبية فأشعلت نارها»^(٥) .

ما يفرق إذاً بين العربي المسلم والعربي المسيحي إنما هي إحن داخلية وغربية

١ - شكب أرسلان ، المرجع السابق ص ١٧٦ .

٢ - سورة العنكبوت آية ١١٨-١١٧ .

٣ - شكب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

٤ - سورة العنكبوت ، آية ٨٢-٨٣ .

٥ - شكب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٧٩-١٨٣ .

تعمد إلى الإرث الصليبي قديماً والمد الأوروبي الاستعماري الجديد^(١)، ولكن (الجامعة العربية) الناظمة لشمل المسلمين والمسيحيين من العرب «هي أشد قوة وأحصف مريرة بالنظر إلى وحدة الدم واللغة والمصلحة من روابط سائر الأمم الدامجة بعضها مع بعض»^(٢)، وهي أيضاً ثابتة بالشريعة الإسلامية كما تقدم.

والأمير شكيب أرسلان لا يرى في اختلاف المقادن الدينية سبباً لاختلاف العقائد السياسية، وبناءً على ذلك فالعروبة تمثل في فكر الأمير كتلة سياسية في مجال الصراع العالمي الذي لم يعد فيه مكان للكتل الصغيرة لضعف إمكانياتها، ولعجزها عن الدفاع عن نفسها أمام الطامعين، وعليها في سبيل هدفها أن تتغلب على أسباب الفرقة بكل أشكالها سواه، بين أبناء الأديان المختلفة أو بين أبناء الدين الواحد، يقول شكيب:

«ولنا الأمل في أن تكون العروبة سواه، كانت من جهة الدم أو من جهة اللغة هي الجامعة الكلية، لا بين المسلم والمسيحي فقط، بل بين أبناء الفرق الإسلامية من سنة وشيعة ودروز وعلويين وأسماعيليين، وبين الفرق المسيحية بعضها من بعض من أتباع الكنيسة الشرقية وأتباع الكنيسة الغربية»^(٣).

ولكن تبقى العروبة في فكر شكيب أرسلان (عروبة إسلامية)، نظروف نشأتها في ظل دولة إسلامية جامعة للشتمل تختلف عن ظروفها مع تفرق الشتمل واختلاف الكلمة، فإذا كانت هذه الدعوة قد فتت بالأمس في عضد (الجامعة الإسلامية)، فهي في هذه المرحلة - إذا صحت مسیرتها - الخطورة الأولى في الطريق إلى هذه الجامعة^(٤).

فالعرب هم أقرب الناس بين المسلمين إلى تحقيق وحدة جامعة بحكم اللغة المشتركة التي تربط بعضهم بعض من ناحية، والتي تربطهم بأصول الدين الإسلامي من

١ - د. محمد شفيق شيا . شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي . (مرجع سابق) . ص. ٢١٩ .

٢ - شكيب أرسلان . (العروبة جامعة كلية) . داعية العروبة والاسلام (مرجع سابق) . ص. ١٨٦ .

٣ - شكيب أرسلان . (المرجع السابق) . ص. ١٨٧ .

٤ - د. محمد محمد حسين . الاسلام والحضارة الغربية (مرجع سابق) . ص. ٢٢١ .

ناحية أخرى ، وبحكم تجمع دولهم وتلاصقها واتفاق العادات أو تقاريرها على الأقل مهيئون لأن يكونوا نواة إسلامية صلبة تشع على العالم الإسلامي من ثقافة الإسلام^(١).

(الجامعة العربية) هي نقطة البدء التي لا بديل منها في هذه المسيرة الطويلة نحو (جامعة إسلامية) لا سبيل إليها الآن^(٢).

لذلك فرح شكب أرسلان لما تألفت (الجامعة العربية) وحياتها ، وتعنى لها التوفيق ، ومن أقواله الأخيرة : «إن الجامعة لن تستطع تنفيذ مبادرتها والاطمئنان إلى مستقبلها دون أن يكون لها جيش مرهوب الجانب تستطيع أن تشارك فيه جميع دول (الجامعة العربية)»^(٣).

وينقل «محمد علي الطاهر» مدى فرح الأمير شكب وقد عاد إلى وطنه سنة ١٩٤٦م بعدما تحقق حلمه بتأسيس الجامعة العربية^(٤)، كما ينقل تأبين الشیخ بشارة الخوري للأمير بعيد وفاته في بيروت «.. فرحت للبنان وسوريا ولجميع البلاد العربية إذ وجدتها متآخية في جامعة سعيت لها طول حياتك ، فتحقيقها بها أمانيك ومساعيك»^(٥).

وأحسن ما قبيل في تقدير سعي الأمير شكب أرسلان وجهاده في سبيل وحدة العرب وجمع كلمتهم ، ما كتبه رشيد رضا عنه عندما لبي شكب أرسلان دعوة الحاج أمين الحسيني لإصلاح ذات البين بين إمام اليمن وبين سعود ولوقف العرب اليمنية العجاجية فقال رشيد رضا : «... واستجاب له (ال الحاج أمين الحسيني مفتى القدس) من أوروبا أكبر كتاب الأمة العربية وأمير البيان فيها الداعي إلى وحدتها المحامي عن حقيقتها الصادع عن ملتها ورئيس الوفد السوري الفلسطيني في جنيف ، مثابة سياسة

٢/١ - المرجع نفسه .

٢ - د. سامي الدحان ، شكب أرسلان ، حياته وأثاره ، ص ٩٩ (مرجع سابق) .

٤ - أصبحت (الجامعة العربية) حقيقة واقعة في ٢٢ مارس ١٩٤٥م حين اشترك في ترتيب مبتالها سبع دول عربية ، هي : مصر والملكة العربية السعودية ولبنان وشرق الأردن والعراق واليمن . (الاتجاهات الوطنية ج ٢ ص ١٨٩) .

٥ - محمد علي الطاهر . ذكرى الأمير شكب أرسلان . ص ٣٤ .

الأسم كلها ، الأمير شكب أرسلان»^(١) .

- تعليق حول تحول الأمير من (الجامعة الإسلامية) إلى (الجامعة العربية) :

لم يجانب الأمير شكب أرسلان الصواب عندما توجه بكل طاقته نحو (الجامعة العربية) ، فما العرب إلا مسلمون «بل هم جرثومة الإسلام وأصله الأول وقلبه النابض ، فإذا عجزنا عن تقديم جامعتهم وحملها على الإسلام ، فنحن أعجز عن تقويم جامعة المسلمين وحملها عليه»^(٢) ، وإذا كان «فريق من الإسلاميين ظلوا متاثرين بالظروف التي أحاطت نشأة الجامعة العربية حين كانت فكرة ومبدأ ، وبعد أن أصبحت مؤسسة سياسية ، وظلت في تقديرهم فرعاً من الإتجاه القومي الوافد على بلاد المسلمين من أوروبا ، والذي كان سبباً في تعرق الجامعة الإسلامية»^(٣) ، فقد أدى إعراضهم عنها إلى ترك السيدان مفتوحاً «لتسلل زعامات غير إسلامية أقحمت عليها مناهم ومناهج في السياسة والاقتصاد تناقض الإسلام»^(٤) .

١- شكب أرسلان ، السيد رشيد رض ، أو إخاء أربعين عاما ، ص ١٨٩ .

٢- د. محمد محمد حسين ، أزمة العصر ، ص ٥٥-٥٦ .

آراء الأمين شحيب أرسلان في (التربية)

آراء الأمير شكيب أرسلان في

(التربية)

إن الضعف والاضمحلال اللذين أصابا الدولة العثمانية (دولة الخلافة) لم يصدرا عن الخلافة نفسها - كما يقول الذين لا يدققون في أسرار الأمور أو الذين في قلوبهم مرض - وإنما كان مبعثهما - فيرأى شكيب - حال المسلمين في العالم الإسلامي ، «فقد كان العالم الإسلامي قبل الحرب العالمية معتمدا على الدولة العثمانية براها كل شيء ، ويطلب منها كل شيء ، ويظن نفسه مستريحا بوجودها»^(١) وكان المسلم لا يفكر ولا يريد أن يفكر في مسائل الإسلام العامة اعتقادا منه بأن هناك دولة كبيرة وخلافة هي المرجع لكل هذا وإنها ناظرة إلى كل هذا .

«وصار هذا الإعتقاد وسيلة للمسلم أن يكمل وبهمل ويقول لنفسه : مالي وللاهتم بما يهتم به من هو أولى وأقدر مني ؟ وربما قال : بما لا يعنيني»^(٢)

«فهذا الاعتماد أضر الخلافة وأضر العالم الإسلامي نفسه ، أضر الخلافة لأنه حملها كل شيء من الفيلبين إلى المغرب وأنقى كل المهام عليها فعجزت ورزحت تحت العمل حتى عجزت عن حفظ ما هو بيدها فضلا عن البعيد .

وأضر نفسه لأنه بتخفيه أن كل المهام قائمة بها الخلافة في استانبول أهمل كل سعي وكل عمل وصار ينظر إلى نفسه كفاقد ليس له أن يهتم بشيء مع وجود عليه فصارت الدولة ضعيفة وصار العالم الإسلامي ضعيفا وصار ضعف كل منها يزيد ضعف الآخر»^(٣) .

وهكذا يلقى الأمير شكيب بتبعة ضياع الخلافة على عاتق المسلمين أنفسهم ، وبالتالي فقدانهم لكتابهم السياسي ، فماذا تفعل الدولة إذا كان أفرادها لا يقومون بواجبهم في تصرتها والعمل على سلامتها ورقيها «فصارت الحال أشبه بجسم جميع

٤/٢٤/٤ - رسالة مطولة أرسلها «شكيب أرسلان» من لوزان إلى «أكرم زعيتر» سنة ١٩٣١ م نشرت في سلسلة مقالات بعنوان «ذكريات مع الأمير شكيب أرسلان» بقلم أكرم زعيتر بجريدة (الشرق الأوسط) ١٩٨٦/٣/٢٢ وما بعده .

أعضاءه شلاء أو مصابة ، فالرأس مهمًا كان مفكراً لا يستطيع مع ضعف الجسم كله شيئاً .

«والحقيقة لو كانت أقسام العالم الإسلامي كلها ملائكة حياة لكانوا الدولة العثمانية أقوى دول الأرض إذ كانت رأساً لثلاثمائة وخمسين مليوناً آدميًّا ، كل واحد منهم قائم بوطبيعته في نصرتها ولكنها كانت رأساً لثلاثمائة وخمسين مليوناً منهم ٣٠٠ مليوناً تقريباً في حكم القاصرين ، فماذا يفيد الفاقر الفاسدون مما كثروا»^(١) .

والأآن وبعد إلغاء الخلافة وانفراط عقد الأمة الإسلامية ، يحدد الأمير شكيب مذهب في الطريق الواجب اتباعها لتحرير الإسلام وإنهاكه ، فيدعى المفكرين والمهتمين بمستقبل الإسلام إلى الاتجاه عبر التاريخ ودروس الأحداث الجارية ، وقد أثبتت الواقع وشهدت التاريخ بأن الفرد المسلم هو الأساس الذي يقوم عليه بناء الدولة الإسلامية ، «فالآن يجب علينا أن نؤسس من تحت .. يجب أن نربي الفرد الإسلامي فنخرجه فرداً عاملاً قائماً بالواجب عليه سواء كان زارعاً أو صانعاً أو تاجراً أو حاكماً أو معلماً أو مصلياً ... الخ ومن مجموع الأفراد القائمين بما عليهم حق القيام يتألف البلد الزاهر الرافق» .

ومن مجموع البلدان الزاهرة الراقية تتالف القوة المهيبة التي لا تحصل على القوة إلا حصلت على الاستقلال لأن هذين لازم وملزوم»^(٢) .

«ومن مجموع الأقطار القوية المهيبة يتكون حينئذ رأس هو الخلافة إذا استقلت به إحدى دول الإسلام كانت رأسها تطأطن له الرؤوس»^(٣) .

هذا هو مذهب الأمير شكيب في النهضة الإسلامية ، ويقوم على تربية الفرد ثم البلد ثم القطر ثم العالم الإسلامي ، وهذا لا يتحقق إلا بالمجاهدة والتضحية واستذكار سير الشعوب التي جاهدت ووضحت فنالت حريتها واستقلالها :

١ - رسالة مفرقة أرسلها «شكيب أرسلان» من لوزان إلى «أكرم زعيم» سنة ١٩٢١م نشرت في سلسلة مقالات بعنوان «دكريات مع الأمير شكيب أرسلان» بقلم أكرم زعيم بجريدة «الشرق الأوسط» ١٩٨٦/٢/٢٢ وما بعده.

«نحن أمة كسائر الأمم ، بشر كسائر البشر ، نتبع طرق الأمم التي كانت فقدت استقلالها ثم استقلت .. طريقهم أنهم بعد أن انقرضت حكوماتهم ودولهم عدوا إلى الجمعيات ، جمعيات منها سرية ومنها علنية قانونية . فهذا قام لهم مقام دولهم ، قام الفكر مقام السلطة ، قامت السلطة الشعبية مقام السلطة الأجنبية الحاكمة ، ولم تزل تتغنى حتى تناولت السلطة القانونية باسم الوطن»^(١).

يعتقد شكيب أن هذا النسبج التحتي من الغلايا هو عصب نهوض الأمة وبمقدار ما تشتد هذه الأعصاب وتتقوى وتزداد عدداً وصلابة تقرب ساعة الغلاص .

يقول الأمير : «إن الجمعيات وهي ما يسميه الترك التشكيلات هي طريق الخلاص ، جمعيات خفية ، جمعيات قانونية ، لجان ، شركات ، نقابات ، كل هذه التشكيلات سوا ، كانت خيرية أو علمية أو اجتماعية أو تجارية أو صناعية أو زراعية قوى للوطن وسبل حياة له ، وهذه الجمعيات لها صناديق ، وهذه الصناديق وجودها يعلم البذل أو ما يعبر عنه بالتضحيبة ، فإذا صارت في الوطن الواحد عدة جمعيات وشركات ولجان وكل واحدة منها لها صندوق ملأن صارت في الوطن عدة قوى أربعة أجنحة تنهض به»^(٢).

ويرى شكيب أن تعدد هذه التشكيلات في داخل الوطن الواحد يجعله أشبه ببعضه ملآن دما في جسم الإسلام ، فإذا كان كل من الأعضاء ملآن حياة تألف منها جسم نشيط وثيق قوي سريع ناهض ، جميع ما فيه يؤدي ما عليه تماماً فنال مراده في هذه الحياة .

«وهي الطريقة الإقليمية أي أن كل إقليم يبدأ بنفسه ويرطد مداميك حائطه ، فإذا رأى نفسه تقوى وارتاش وصار قادراً على النهوض التفت إلى بحارة ومد يده إليه» .

ويؤكد الأمير شكيب أن القرآن العظيم هو أقوى رابطة تجمع قلوب المسلمين في كافة أقطار العالم الإسلامي : «وأما الجامعة بين هذه الأقطار فهي طبيعة حاضرة أقرب

من حبل الوريد وما دام القرآن موجودا لا تخشى عليها»^(١).

ويقول شكيب مزيدا ثقته في اتجاهه السياسي : «فالتشكيلات هي قوة كل أمة فقدت حكمتها وكيانها السياسي ، وهي الزعيمة مع الشبات والعزم واتقان العمل وروح التضحية بإعادة ذلك الكيان السياسي»^(٢).

ويرى شكيب أن هذا الطريق «الشعبي» هو أحدي نفما وأكثر فائدة من الاجتماعات والمؤتمرات «الرسمية» العظيمة الصدى والقليلة النفع ، فيضيف شكيب :

«هذا هو مذهبني في النهضة الإسلامية ، ولذلك تأثيرني كتب كثيرة من المغرب والجاوي ومصر وسوريا والعراق وفلسطين مقتربا أصحابها عقد مؤتمر إسلامي وما أشبه ذلك ويكون جوابي دانيا : يجب أن نتوسس من تحت ، يجب أن تربى الفرد ثم البلد ثم القطر ثم العالم الإسلامي ، ويقولون إن تعليم الأفراد وترقية الأقطار هما يأخذوننا طريرا ونحن في حاجة إلى العجلة ، وأجابوا : إن (التعليم) بطبيعة الحال سائر مع (التشكيلات) التي ذكرناها ، إذ لا خير في التشكيلات إن لم يكن أول شيء تبدأ به هو التعليم والتهذيب»^(٣).

هو هذا رأي شكيب في النهوض الإسلامي ، وفي سبيل تحقيق حرية العالم الإسلامي وتقدمه ورقبه ، ومن نصوص شكيب السابقة ، وفي غيرها من آثاره المطبوعة يبدو بوضوح حرص الأمير على حسن تربية الفرد المسلم وتعليمه ليكون عضوا نافعا لدينه وأمته ، إذ بدون ذلك لا نفع يرجى ، ولا فلاح لأمة .

والأساس الذي يراه الأمير لازماً في بناء الفرد المسلم هو (القرآن الكريم) ، لأن الإسلام لم ينتشر إلا بالقرآن وعمارة الصدور به ، إلى أن يبلغ قراوه من القوة المعنوية الدرجة القصوى التي مكتنهم من نواصي الأمم ، وهذه القوة المعنوية هي الأصل ، وهي التي بدونها لا تنهض أمة»^(٤).

١ - المصدر السابق وفي رواية الحميد شقيق شيبة في كتاب (شكيب أرسلان : مقدمات الفكر السياسي ص ١٨١) يضيف شكيب : «وأما أن نعقد مؤتمرا مجمعا من ضعفا . ليس لهم إرادة مستينة وهم لا يقدروا أن ينفذوا قرارا فيما فائدة ذلك ؟ أتريدنا أن نجمع أسفارا

٤ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٨ .

وَمَا الْقُوَّةُ السَّادِيَةُ مِمَّا دَقَّتْ أَوْ غَلَظَتْ إِلَّا تَبَعَ لِلْقُوَّةِ الْمَعْنُوَّةِ ، وَهِيَ بِالنِّسْبَةِ لِهَا كَالْبَدْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الرُّوحِ ، وَكُلُّ مَا يُقَالُ مِنْ أَنْ سُبُّ الْفَتُورَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْبَاهِرَةِ هُوَ مَرَاسِ الْعَرَبِ لِلْقَتَالِ أَوْ حِبْهِمُ لِلْغَزْوِ ، أَوْ مَلْلُ الْأَمَمِ الْمَجَاوِرَةِ مِنْ حُكَّامَهَا ، كُلُّ هَذَا تَضَبِّعُ لِلْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ ، وَرِيَغُ عَنْ شَاكِلَةِ الصَّوابِ .

«وَإِنَّمَا أَمْكَنَتْ هَذِهِ الْفَتُورَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْمَادَةِ بِكَلَامِ مَنْ زُلَّ مِنْ عَنِ اللَّهِ خَارِقَ لِلْمَعَادَةِ، وَيَقُولُ مَعْنَوِيَّةُ أَحَدُهُنَّا فِي النُّفُوسِ ، خَارِقَةً لِلْمَعَادَةِ»^(١).

وَشَكِيبُ أَرْسَلَانَ يَدْرِكُ أَنَّ اللَّهَ هُبَا لِلْمُسْلِمِينَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كِتَابًا مَا فَرَطَ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَمْرَهُمْ أَنْ يَتَدَبَّرُوهُ وَأَنْ يَعْصُلُوا بِهِ بِرِيَّهُنَا التَّدْبِيرُ وَهَذَا الْعَمَلُ حَقُّ الْمُسْلِمِينَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ مَا حَقَّقُوهُ مِنْ فَتْحٍ وَمَجْدٍ وَقُوَّةٍ ، لَذُلُكَ حَذَرُ طَلَابُ النَّهْضَةِ الْقَوْمِيَّةِ دُونَ الدِّينِيَّةِ مِنْ أَنْ يَرْلَوْا الدِّينَ ظَهُورَهُمْ ، وَبَيْنَ أَنْ دُعُوتُهُمْ سَقْضِيَّةٌ إِلَى الْإِلْحَادِ وَالْإِبَاحِيَّةِ وَلِنَ تَبَعُ نَهْضَةٌ أَوْ تَقْدِمَ كَمَا يَزَّعُمُونَ ، يَقُولُ شَكِيبُ :

«يَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ مَا لَنَا وَلِلرجُوعِ إِلَى الْقُرْآنِ فِي ابْتِعَاثِ هُمُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى التَّعْلِيمِ فَإِنَّ النَّهْضَةَ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ دِينِيَّةً بِلَّ وَطَنِيَّةً قَوْمِيَّةً كَمَا هِيَ نَهْضَةُ أَهْلِ أُورُوباِ ، وَنَجِيَّبُهُمْ أَنَّ الْمَقْصُودُ هُوَ النَّهْضَةُ .. وَلَكُنَا بِخَشْيَّ أَنْ جَرِدَنَا هُنَا مِنْ دُعَوَةِ الْقُرْآنِ أَنْ تَنْتَصِي بَنَا إِلَى الْإِلْحَادِ وَالْإِبَاحَةِ وَعِبَادَةِ الْأَبْدَانِ وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ ، مَا ضَرَرَهُ يَغْوِيَنَّهُ ، فَلَا يَدُدُّ لَنَا مِنْ تَرْبِيَةٍ عَلَيْهِ سَائِرَةٌ جَنِيَاً إِلَى جَنْبِ مَعْ تَرْبِيَةِ دِينِيَّةٍ ، وَهُلْ يَظْنُ النَّاسُ عِنْدَنَا فِي الشَّرْقِ أَنَّ نَهْضَةَ مِنْ نَهْضَاتِ أُورُوباِ جَرَتْ دُونَ تَرْبِيَةِ دِينِيَّةٍ؟»^(٢).

وَيَوْضُعُ شَكِيبُ : فَهُمُ الْأُرْبَيْبِينَ لِلْفَقْتِيِّ (الْوَطَنِ) وَ (الْقَوْمِ) فَهُمَا عِنْدَهُمْ لِفَطَانٍ تَدَلَّانَ عَلَى وَطَنٍ وَأَمَّةٍ بِمَا نَبِهُمَا مِنْ جُرْفَاقِيَا وَتَارِيَخِ وَثِقَافَةٍ وَحَرَثٍ وَعَقِيدَةٍ وَدِينٍ وَخَلْقٍ وَعَادَةٍ مَجْمُوعَةٍ ذَلِكَ مَعَا ، وَهُنَّا الَّذِي يَنَاضِلُونَ مِنْ أَجْلِهِ وَيَسْتَبِسُلُونَ كُلُّ هَذَا الْإِسْتِبَسَالِ مِنْ أَجْلِهِ^(٣) مَمَا يَدُلُّ عَلَى النَّقْلِ الصَّحِرِ لِدِي دِعَةِ (الْقَوْمِيَّةِ) وَ (الْوَطَنِيَّةِ) مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

١ - شَكِيبُ أَرْسَلَانَ ، الْمَرْبِعُ السَّابِقُ ١٢ صِ ٢٨ .

٢ - شَكِيبُ أَرْسَلَانَ ، لَمَّا تَأْخُرَ الْمُسْلِمِينَ وَلَمَّا تَقْمِمَ غَيْرُهُمْ ، صِ ١٣٩-١٣٨ .

٣ - الْمَرْبِعُ السَّابِقُ ، صِ ١٣٩ .

ويقرر الأمير أن الأزمة الحقيقة الحاضرة في أمة الإسلام هي (أزمة التعليم) ، فطريقة التعليم التي جرت عليها الحكومات الإسلامية والمسلمون في عصره ستكون نتيجتها أشد ويلًا على المسلمين من الاستعمار ومن العرب الصليبية ، ومن الغارات الاقتصادية ، ومن كل مصيبة وداهية^(١).

وهذه الطريقة هي أن ينشأ الفتى المسلم دون عقبة من الصغر تتشق في لوح صدره ، وأن لا يكون له نصيب من حفظ القرآن الكريم ، ولا من قواعد العربية ، فكيف نطلب منه بعد ذلك أن يكون مسلما^(٢) .

كما ينبه الأمير إلى خطر النشطة الغربية لأحداث المسلمين ، ويرى أنها ستفضي حتما إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا أو ينظروا إلى أنفسهم على أنهم هم ممثلوا الحضارة الإلهية التي جاء بها الإسلام ، لذلك «يشدد حملته على أولئك الذين يرسلون أولادهم إلى أوروبا للتعلم فيها ، دون تزود من الدين والعقيدة ، ويرى أن فوضى التعليم خطر عظيم ، وأن عدم تجانسه سببدي في العالم الإسلامي إلى فتن وشدايد بين أبنائه أنفسهم أشد خطرا من غارات الأفريقيين واحتلالاتهم التي لابد أن يتقلص ظلها بالصبر والثبات وأغتنام الأوقات»^(٣) .

ولكن الاحتجاج على تعليم المسلمين تعليماً غريباً لا يعني أبداً أن الإسلام يعارض (العلم) في ذاته ، فشكيب أرسلان لا يعتقد أن هناك علماً أوربياً وعلماً شرقياً ، فالعلم مشاع بين البشر أجمعين^(٤) ، ولكن الأمير يؤمّن أن النهضة العلمية للأمة لابد أن تكون في إطار لغتها ، وتاريخها ، وعقيدتها ، وشخصياتها ، ولذلك يقول : «التجارب من قديم الدهر أثبتت أن التربية العلمية لا تنهض بالأمة نهوضاً حقيقياً إلا إذا حصلت ضمن دائرة لغتها وتاريخها وعقيدتها ومشريها»^(٥) ، وشكيب ينصح المغاربة أن يقتبسوا العلوم الأوروبية مع المحافظة على معتقداتهم ومشخصاتهم ،

٢/١ - شكب أرسلان ، الفتح ١٧ ابريل ١٩٢٠ م.

٢ - شكب أرسلان ، الفتح ١٧/٧/١٩٢٠ م.

٤ - شكب أرسلان ، الفتح ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٩ هـ.

٥ - شكب أرسلان ، الفتح عدد ٢٤ ربى الأول ١٣٥١ هـ.

ويضرب المثل باليابانيين الذين أخذوا عن الغرب ما نفعهم ، وحافظوا على شخصيتهم وديتهم ، ويضيف الأمير .. والتفرون في نظري شر الأشياء ، والأمم مهما كانت فمن شأنها أن تحافظ على كيانها ، فكيف بأمة عظيمة لها تاريخ مجيد ؟^(١)

ويرى شكيب أن حث (القرآن) على (العلم) هو خبر حفز للمسيسين على سبق الأمم في الرقي ، فما من دين أبداً حث على التقدم العلمي كما حث عليه الإسلام ، فالعالم الإسلامي يمكنه النهوض والرقي واللحاق بالأمم العزيزة الفالبة إذا أراد ذلك المسلمين ووطّنوا أنفسهم عليه ، ولا يزيدتهم الإسلام إلا بصيرة فيه وعزما ، ولن يجدوا لأنفسهم حافزاً على العلم والفن خيراً من القرآن الذي فيه^(٢) :

(هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)^(٣).

ويستشهد الأمير شكيب بآيات قرآنية كثيرة تبين حرص الإسلام على العلم وإجلال العلماء ، ثم يرد على زعم أعداء الإسلام ومتهم (المسيو سيكار) أحد مستخدمي فرنسا في الرباط ، وكان قد ألف كتاباً في الطعن في الإسلام ، وكتب في مجلة «مراكش الكاثوليكية» : أن المراد بالفظة «العلم» في القرآن هو العلم الديني ولم يكن المقصود به العلم مطلقاً لمستظره به على قضية تعظيم القرآن لتعلم وإيجابه للتعزيم^(٤).

ويرد الأمير شكيب هذا الإفتراء بالدعوة إلى تأمل آيات (القرآن الكريم) المتعلقة (بالعلم والحكمة) وغيرها مما يبحث على السير في الأرض والنظر والتفكير ، فنستعمل «أن المراد هنا بالعلم هو العلم على إطلاقه متناولاً كل شيء ، وأن المراد بالحكمة هي الحكمة العليا المعروفة عند الناس ، وهي غير الآيات المنزلة والكتاب كما يدل عليه العطف وهو يقتضي المعايرة»^(٥).

١ - شكب أرسلان ، الفتح ١٧ جمادى الأولى ١٣٤٩هـ.

٢ - شكب أرسلان ، لماذا تأثر المسلمين ص ١٣٣ .

٣ - الضر ٩ .

٤ - شكب أرسلان ، لماذا تأثر المسلمين ، ص ١٣٦ .

٥ - المرجع السابق .

وشكيب يرى أن الحديث النبوي الشهير : « أطلبوا العلم ولو في الصين »^(١) يعزز القول بأن المراد بالعلم هو العلم على إطلاته « فلو كان المراد بالعلم هو العلم الديني كما زعم (سيكار) ما كان النبي صلى الله عليه وسلم بحث على طلبه ولو في الصين إذ أن أهل الصين وثيرون لا يجعلهم النبي مرجحاً للعلم الديني كما لا يخفى »^(٢).

ويضيف شكيب أن في بعض آيات القرآن الكريم من القراءات اللغوية والمعنوية ما يقتضي : « أن المراد بالعلم علم الكون لأنّه في سياق آيات الخلق والتكون وهي في القرآن أضعاف الآيات في العبادات العليلة كالصلة والصيام »^(٣).

ويمثل الأمير لذلك يقول الله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السما ، ما ، فأخرجنا به من ثمرات مختلفة ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحر مختلف ألوانها وغرائب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلما » سورة فاطر : ٢٨-٢٧.

ويرى الأمير أن المراد بالعلما ، في هذه الآية الكريمة « العلما » بما ذكر في الآية من النبات والجبال وسائر المواليد المختلفة الألوان وما فيها من أسرار الخلق لا العلما ، بالصلة والصيام والقيام »^(٤).

وهكذا يتضح لدينا أن إهمال المسلمين ، ولبس النقض في التعاليم الإسلامية ، هو الذي سبب الإنحلال الحاضر ، وأن الإسلام لم يقف يوماً ما سداً في وجه التقدم والعلم ، وأن أوروبا « مع تبحرها في العلوم الطبيعية والصادبة لا تزال تبني ثقافتها على أساس ديانة مضى عليها أكثر من تسعة عشر قرنا ، وعلى لغات وأداب مضى عليها أكثر من ثلاثين قرنا ، وهي مع ولوعها بالجديد ، لم تنس الإحتفاظ بذلك القديم »^(٥).

١ - تضمنه « فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه العقيلي وابن عدي والبيهقي وابن عبد البر عن أنس ، قوله طرق يقري ببعضها بعضا . (رشيد رضا) (المراجع السابق) هامش

٢ - المراجع السابق .

٣ - المراجع السابق .

٤ - المراجع السابق ص ١٣٧ .

٥ - شكب أرسلان . الفتح ١٧ ابريل ١٩٣٠ .

من هذا ينتقل الأمير شكب أرسلان إلى استخلاص العبرة التي يعرض عليها ويسعى نحوها :

«إذن المدنية تجتمع مع الدين ... ، إذن الالادينية لبست شرطا من شروط الحضارة الأوروبية ... ، إذن الحكومات الشرقية التي تزعم أنها إنما تقطع صلتها بالدين الإسلامي إقتناء بحكومات أوروبية التي بزعيمها قطعت صلتها بالدين المسيحي إنما هي حكومات تضل أنفكار السُّنج من رعيتها ، وتموه عليهم ، وتنقص حرها وتورى بغيرها .. إذن هذه الحكومات كاذبة فيما تزعم ، وإذن ناشرو دعايتها في مصر والبلاد العربية كاذبون أيضا ، إذن على الأمة المصرية وعلى الأمة العربية جمعا ، أن يتبعها للحقائق»^(١).

وأخيراً برى (شكيب أرسلان) أن العلم الأعلى الذي يجب أن يتعلمه المسلمون لينهضوا ويتقدمو ويتقدموا كما ترقى غيرهم من الأمم - هو الجهاد بالمال والنفس الذي أمر به الله في قرآن مرارا عديدة ، وهو ما يسمونه اليوم (التضحية) .

«إن (التضحية) أو الجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها ، فإذا تعلمت الأمة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم وال المعارف ، ودنت منها جميع القطوف والمجانى»^(٢).

أما العلوم الطبيعية والرياضية في أشكالها الخالصة والتَّجَزِيَّة ، والتي يعتقد كثير من المسلمين أنها مفتاح الرقي والتقدم ، فيرى شكب أنها «فروع لا أصول ، وأنها نتائج لا مقدمات»^(٣).

وهذه نظرة دقيقة سبق بها الأمير عصره الذي كان من أبرز سماته إنها وإن المسلمين بالتقدم العلمي الغربي ، واعتقاد أكثرهم أن سبيل النهضة منحصر في تلبيد نظام التعليم الغربي ، ولكن إذا كان المسلمين قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لا

١ - شكب أرسلان ، الفتح ٩ فبراير ١٩٢٨ م.

٢ - شكب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمين . ص ١٦٣

٣ - المرجع السابق .

يستطيعون أن يتظروا بإصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم من غير وازع ما ، إن كل تأثرا العلمي وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الإسلام الدينية الكامنة^(١) .

ويضيف شكيب : « فالمسلمون يسكنهم إذا أرادوا بعث العزائم وعملوا بما حرضهم عليه كتابهم أن يبلغوا مبالغ الأوروبيين والأميركيين والبابانيين من العلم والارتفاع ، وأن يبقوا على إسلامهم كما بقى أولئك على أديانهم ، بل هم أولي بذلك وأحرى^(٢) .

(والذين جاهدوا فبنا لنهديتهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)^(٣)

١ - محمد ناد ، الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٧٨ .

٢ - شكب أرسلان ، لذا تأثر المسلمين ، ص ١٦٤ .

٣ - سورة العنكبوت ، آية ٦٩ .

بعث (مدنية الإسلام) في مواجهة (الحضارة الغربية)

إن نجاح الحضارة الغربية في ميادين الاقتصاد والسياسة والعلم التطبيقي نجاحا عالميا جعل الحركة الاستعمارية في العالم تعاول أن تستثمره في فرض الوصاية على الشعوب المختلفة باسم (المثل الحضاري الأعلى)^(١) ، وقد ساعد على ذلك ما وقع فيه بعض المفكرين من وهم فانطلقوا إلى القول بوحدة الحضارة الإنسانية ، بما تضمنه هذه الفكرة من افتراض نهر واحد لها ، وهو الغرب ، والزعم بأن جميع ما عداه ليس إلا روانده له ، أو هي مياه ضائعة في رمال الصحراء^(٢) .

وخيّل لكثير من المسلمين ومن تأثروا بحملات المستشرقين والمبشرين الأوروبيين ، أن الحضارة الغربية - في أحدي صورها المتتحقق أو المنشودة - هي المثل الأعلى لل المجتمع الإنساني ، فنظروا إلى (المدنية الغربية) على أنها القوة الوحيدة لإحياء الحضارة الإسلامية الراكرة ، فأخذوا بذلك الضعف على ثقتهم بأنفسهم ، ودعموا بطرق غير مباشر ذلك الزعم الغربي القائل بأن الإسلام «جهد ضائع»^(٣) .

لذلك أدرك (شكيب أرسلان) أن العالم الإسلامي يحتاج إلى مراجعة ذاته ، لمزيد من معرفة النفس ، والتعود على روحه التاريخية الخاصة في مثل هذا الصراع الثقافي والسياسي الذي يواجهه ، ومثل هذه المعرفة بتاريخ حضارتنا شرط جوهري لانطلاق هذه الحضارة فاعلة في التاريخ .

ولهذا عني شكبب بتبيّن أن الإسلام لم يقف عند حد الفتوحات أو إقامة السلطان الواسع ، بل هو بدل في الواقع والتقوس والتاريخ فأسهم في بناء (مدنية إسلامية) خاصة به حقيقة ، سامية ، راقية ، مبنية على كتابه وستته .

١ - وهي فكرة نشمت في تحليل تونسي على ثلاثة جذور ، وهي الإغراء في حب الذات من قبل هؤلاء الدارسين الغربيين ، ووهم القول بفكرة الشرق الراكد ، ثم وهو الزعم بالتقدم كحركة تلتزم خطأ مستقيما على الدوام «أرنولد تويني ، مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة فؤاد شبل ، جا عن ٦٩ ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ص ٦٦ .

٢ - د. عفت الشرقاوي ، في فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص ٣١ ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ .

٣ - محمد أ. الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٦٧ .

ولما كان أعدا ، الإسلام يريدون أن ينتقصوا بأي شكل من الأشكال ، فقد حاولوا إنكار أن يكون له مدنية خاصة به وزعموا أنه ما زاد على أن نقل ونسخ ، وما أشبه ذلك من الأقاويل^(١) ، واستدلوا على ذلك بحالته الحاضرة وزعموا أن الشجرة تعرف من ثمارها ، متوجهين بذلك إسهامات المدنية الإسلامية في دفع مسيرة العلم إلى الأمام ، وما قدمته إلى الإنسانية من انجازات .

وقد فند الأمير مزاعم أعدا ، الإسلام هزلاء ، سواء كانوا من داخل العالم الإسلامي أو من خارجه وبين الهدف الذي يرمي إليه كل فريق منهم فقال :

« أما زعم من زعم أن الإسلام لم يتمكن من تأسيس مدنية خاصة والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة ، فهو خرافة يسوه بها أعدا ، الإسلام من الخارج ، وبعض جاحديه من الداخل ، أما القسم الأول فلأجل أن يصيغوا المسلمين بالصبغة الأوروبيّة ، وأما القسم الثاني فلأجل أن يزرعوا في العالم الإسلامي بنور الإلحاد »^(٢) .

وينكر الأمير شكيب أن يكون الدين الإسلامي هو المسؤول عن تخلف المسلمين الديني والدنيوي في القرون الأخيرة ، « فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة ، بل من الجهل بالشريعة ، أو كان من عدم إجراه أحکامها كما ينبغي ، ولما كانت الشريعة جارية على حقها كان الإسلام عظيماً عزيزاً . وأي عظمة أعظم مما كان الإسلام في أيام عمر بن الخطاب مثلاً »^(٣) .

ويخلص شكيب إلى تأكيد علو المدنية التي أقامها الإسلام ، حقيقة لا جدال فيها : « ومدنية الإسلام قضية لا تقبل المماحكة إذ ليس من أمة في أوروبا سوا ، الألمان أو الفرنسيّين أو الانجليز أو الظبيان ... الخ ، إلا وعندهم تأليف لا تعصى في (مدنية الإسلام) فلو لم تكن للإسلام مدنية حقيقة سامية راقية مطبوعة بطبعه ، مبنية على كتابه وسننه . ما كان علماً ، أوروبا حتى الذين عرفوا منهم بالتعامل على الإسلام يكتشرون من ذكر المدنية الإسلامية ، ومن سرد تواريختها ، ومن المقابلة بينها وبين

١ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١١٢ .

٢/٢ - شكب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمين ، ص ١١٩-١٢١ .

غيرها من المدنية ، ومن تبيان الخصائص التي انفرد بها »^(١)

فالمدنية الإسلامية هي من المدنية الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام ، والتي تفاص سجلاتها الخالدة بعثتها الباهرة »^(٢) .

ويمضي شكيب في ضرب الأمثال على (مدنية الإسلام) بذكر العاصمة الإسلامية وحاضر بلاد الإسلام في آسيا وأفريقيا والأندلس في عصور الإسلام الظاهرة وما بها من آثار العمران ، وتطور البنية ، ورفاهة السكان ، وانتشار العلم والعرفان مما يؤكّد على قيمة تمدنها وعظيم إنجازها .

ثم يعلق شكيب على ذلك بقوله : « هذه لمحنة دالة على مآثر (حضارة الإسلام) وغير أيامه . والا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمين في الأرض من رائع وبديع لم يتسع ذلك الجلود الكثيرة المرصوفة طبقا فوق طبق »^(٣) .

ويحسن بنا أن نتوقف قليلاً أمام المصطلح الذي استخدمه شكيب أرسلان أعني (مدنية الإسلام) أو (حضارة الإسلام) ، فشكيب يستخدم كلمتي (الحضارة) و (المدنية) بمعنى واحد ففي كتابه (لماذا تأخر المسلمين) الذي نقلنا عنه الفقرات السابقة يضع عنوان هذا البحث (مدنية الإسلام) بينما ينقل عنه في حواشيه على (حاضر العالم الإسلامي) تحت عنوان (الحضارة الإسلامية ورقي العرب الفكري في العصور الوسطى) ويكرر في داخل المتن كلمة (الحضارة) و (المدنية) للدلالة على الشيء نفسه .

ولقد ارتبط استخدام كلمة (حضارة) في العربية بدلالة مكانية تحمل في بعض مجالاتها الحركة المقودة والخبر ، كما في قولنا حسن المحضر ، إذا كان من يذكر الغائب بغير ، ويقال رجل حضر ، إذا حضر بغير »^(٤) .

« أما في العصر الحديث فقد أطلق عدد كبير من الباحثين كلمة الحضارة على كل

١ - ٣/٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمين ، ص ١١٩-١٢١ .

٤ - مادة (حضر) في (سان العرب) .

ما يحصل بالتقدّم والرقي الإنساني في المجالات المختلفة كاللغة والأدب والفنون الجميلة والصناعة والتجارة ، وغير ذلك من مظاهر النشاط الإنساني الذي يؤدي إلى التقدّم والرقي ويسير السبيل إلى حياة إنسانية كريمة »^(١) .

« أما فيما يتعلق بكلمة «مدنية» فيميل كثير من الباحثين إلى استخدامها مرادفة لكلمة «الحضارة» فإنها تشير في اللغة أيضاً إلى ارتباط مكاني »^(٢) .
 جاء، في لسان العرب : مدن بالسكان أقام به .

« ومثلما يفعل الباحثون العرب في كثير من الأحيان فيستخدمون كلمتي (الحضارة والمدنية) متزلفتين ، يميل كثير من الباحثين الغربيين إلى استخدام كلمتين : (Civilisation, Culture) بمعنى واحد ، ومن الباحثين الغربيين من يفرق بينهما فيرى أن : «الحضارة هي ما نحن ، وأما المدنية فهي ما نستعمل » ، وبعبارة أخرى فإن العضارة في رأيهم في الفنون والآداب والديانات والأخلاقيات ، بينما تتمثل المدنية في السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا »^(٣) .

أما الجزء الثاني من (المصطلح) أو التعريف ، وأعني بذلك كلمة (الإسلام) أو (الإسلامية) التي يصر (شكيب أرسلان) على وصف (المدنية) أو (الحضارة) بها فيميل كثير من الباحثين إلى تسمية هذه الحضارة (بالحضارة العربية) على أساس دور العرب واللغة العربية فيها^(٤) .

وشكيب أرسلان لا ينكر دور العرب السياسي والثقافي في تأسيس هذه الحضارة ، كما أن أحداً لا يماري فيما قدمته اللغة العربية بوصفها لسان الثقافة والعلم والعرفة في العصور الوسطى لشعوب العالم ، ولكنه كان يرى : أن أسباب الإرتقاء كلها كانت

١ - د. عفت الشرقاوي . في فلسفة الحضارة الإسلامية . ص ١٤ .

٢ - المربع نفسه ص ١٥ .

٣ - المربع نفسه ص ١٦ ، يقول ابن خلدون : « إن الحضارة غابة المتران ونهاية لمصر ، ومؤدية لفساده » ، وهكذا يستخدم ابن خلدون كلمة (الحضارة) للدلالة على صفة معينة من حياة المدينة .

٤ - كما فعل جورجيوس ليوبون الذي سمي كتابه (حضارة العرب) ، وكما فعلت بغيره هونتكه التي سبت كتابها : (شمس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربية في أوروبا) .

عائدة بمحملها إلى الديانة الإسلامية^(١).

«فالعرب لم يستقلوا استقلالاً حقيقياً واسعاً إلا بالإسلام ، ولم تعرفهم الأمم البعيدة وتتخن لهم المالك العظام والقياصرة والأكاسرة وتحدث بصولتهم الناس ، ولم يقعدوا من التاريخ المتعدد الذي أحلمهم في الصف الأول من الأمم الفاتحة إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم^(٢)».

أضف إلى ذلك أن سكان الجزيرة العربية الذين اعتنقوا الإسلام لم يكونوا هم وحدهم الذين أسهموا في بناه (الحضارة الإسلامية) ، بل أسهم فيها من غير العرب كثيرون من الفرس والأتراك والأسبان والأرميين والمغول وغيرهم ، «كشأن الحضارات البشرية بأجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض ويكملا بعضها بعضاً»^(٣) ، ولكن يبقى أن وصف (شكيب أرسلان) لهذه الحضارة بالإسلامية هو الوصف الأرجع باعتبار أن الإسلام هو دين الغالبية في هذه الحضارة ، وأن الشريعة الإسلامية كانت الرابط المرحد لشعوب الدولة الإسلامية في ثلاث قارات هي آسيا وأفريقيا وأوروبا طوال العصور الوسطى ، وأن هذه الحضارة قد استمدت من الإسلام العناصر الفعالة في إقرار الإنسجام بين التقاليد الثقافية المختلفة ، وبين هذه العناصر شعبية الحج ، وهو لقاء على مستوى عام بين المسلمين ، يقرب بينهم ويزلف بين قلوبهم ، ثم اللغة العلمية المشتركة ، وهي اللغة العربية التي كانت لغة الثقافة والمعرفة في كل مكان من العالم الإسلامي .

وقد حاول بعض حساد الإسلام والمكابرون في عظمة فضله من مزخرفي الأفرينج أن يصفروا من شأن (مدينة الإسلام) ، وأن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً وسبقوا إلى نظريات صارت خاصة بهم ، فقالوا :

إن المسلمين لم يزيدوا على أن قلدوا وأذاعوا وكانتوا واسطة بين المشرق والمغارب^(٤).

١ - شكيب أرسلان ، لماذا نأثر المسلمين ، ص ٤١ .

٢ - المرجع نفسه من ٤٢ .

٣ - المرجع نفسه من ١٢٤ .

٤ - المرجع نفسه من ١٢٢ .

وقد تصدى (شكيب أرسلان) للرد على أصحاب هذه المزاعم مستثثمرا خطورها فيما لو انتشرت بين شباب المسلمين ، فذكر أن موقفهم مع ما ينطوي عليه من التتعصب غير العلمي والتحامل على الإسلام مردود عند المحققين الذين يعرفون للMuslimين علوماً ابتكروها وحقائق كشفوها وأراؤها سبقوا إليها ، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه ، وما نشروا ونقلوه ^(١) ، كما بين أن كل المدنيات تشترك وتتمازج ولا يقدح ذلك في تميز كل منها .

وسلط شكب أرسلان في تصديه لأعداء ، (المدنية الإسلامية) من مقدمة أولى براها يقينية وثابتة وفحواها : أن (مدينة الإسلام) لم تكن نسخاً ولا نفلاً ، وإنما هي قد نبعثت من (القرآن) وتفجرت من (عقيدة التوحيد) ^(٢) .

«إن الإسلام لم ينتشر إلا بالقرآن وعمارة الصدور به إلى أن بلغ قراوه من القوة المعنية الدرجة القصوى التي مكتنهم من نواحي الأمم» ^(٣) .

«فكل ما يقال أن سبب الفتوحات الإسلامية هو مراس العرب للقتال أو حب البدو للغزو وغرامهم بالغنائم أو ملل الأمم المجاورة من ملكة حكامها فهذا تضييع للمعنى الحقيقي وزيف عن شاكلة الرمية ، وإنما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل هو خارق للعادة ، ونقرة معنية أحدهما في النفس خارقة للعادة ، ولقد كان العرب أهل حرب من قديم الزمان ، وكان الأعراب مغربين بالنهب والكسب من أعلى أيام الجاهلية ، فلماذا لم يفتحوا البلدان إلا بعد بعثة محمد» ^{(٤) ، (٥)} .

وهكذا نجد الأمير شكب حاسماً في تحديد سبب ارتقاء المسلمين ورده إلى الديانة الإسلامية ، وإلى الإيمان العميق بالعقيدة الداعية إلى الوحدة لا إلى الإنقسام والفرقة ، والثانية على الجهل والجاهلية في سبيل المدنية ، والمناهضة للظلم والقسوة

١ - شكب أرسلان ، لماذا ناصر المسلمين ، ص ١٢٢ .

٢ - المرجع نفسه ص ١٢٣ .

٣ - شكب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٢٨ .

٤ - صلى الله عليه وسلم .

٥ - المرجع السابق .

وصولاً إلى الرحمة ، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان من أجل عبادة الواحد الأحد^(١) .

«وتبدلوا بأرواحهم الأولى أرواحاً جديدة ، صبرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة ، ومجد وعرفان وثروة ، وفتحوا نصف الكرة الأرضية في نصف قرن ... فالقرآن قد أنشأ إذا العرب نشأة متسانفة وخلقهم خلقاً جديداً وأخرجهم من جزيرتهم والسيف في إحدى البددين والكتاب في الأخرى يفتحون ويسودون ، ويتمكنون من الأرض بطرلها وعرضها»^(٢) .

من هذا المنطلق يؤكد شكيب أرسلان أن (مدينة الإسلام) استمدت عناصرها من مبادئ الإسلام الأولى ، ولا يقدح في أصالتها أنها أخذت عن غيرها من المعارف والعلوم والنظم التي لا تتعارض مع مقاصدها وقواعدها الكلية ، ولم يتوقف جهد المسلمين على التقليل أو التقليد بل هضموا كل هذا الزاد ، وصهوروه في بورقة عقيدتهم ومبادئهم ومثلهم ، «وكفروا كل هذا التراث تكبيداً فيه التنظيم والتقويم ، وفيه التعديل والتحليل ، وفيه الزيادة والزيادة ، وفيه الأصلة والجلالة»^(٣) يقول شكيب :

«أما ما ترجمته (حضارة الإسلام) من كتب ، وما أخذته عن غيرها من علوم ، وما أفادته في فتوحاتها من منازع جميلة ، وطراحت سديدة ، أخذتها عن غيرها فلا يقدح ذلك في بكارتها الإسلامية ، ومساحتها العربية ، لأن هذا شأن العصارات البشرية ياجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض ويكملا بعضها ببعضاً»^(٤) .

أما الإدعا ، بأن الشرق وأن المدينة الشرقية كانت مزدهرة قبل ظهور الإسلام ، راتعة في بحاج العمران ، فجاء الإسلام وطمس المدنيات الشرقية القديمة ، فهذا إدعا ، باطل - في رأي شكيب - فالغرب كان غلب على الشرق قبل الإسلام^(٥) . والمدنيات الشرقية كانت كلها قد انقرضت أو انحطت قبل ظهور الإسلام بكثير^(٦) .

١ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون (مراجع سابق) ص ٤١ .

٢ - أحمد الشريachi ، شكيب أرسلان داعية العربة والإسلام ، ص ٢٠٥ .

٣ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون . (مراجع سابق) ص ١٢٣-١٢٤ .

٤ - المرجع نفسه ص ١٢٣ .

٥ - المرجع نفسه ص ١٢٨ .

ولا يقدر مكابر أن ينكر دور الإسلام العظيم في الدنيا ، فالإسلام وحده لا غيره « هو الذي جدد مدنية الشرق الدارسة ، ويعث تلك الحواضر العظمى الراخدة بالبشر كبغداد والبصرة وسمرقند وبخاري ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة وهلم جرا ، فإن كانت قد بقيت للشرق آثار (مدنيات قديمة) فإن الإسلام هو الذي وطد برانيها »^(١).

« وأضفى عليها لباس الإسلام الخاص ، ودبّجها بدبباجة القرآن التي لم تفارقها في شرق ولا غرب »^(٢) ، والإسلام هو الذي « حمل السيف بيد القلم بيد إلى أبعد ما تصوره العقل من حدود الأقطار التي لم يسبق لشرقى أن يطأها بقدمه »^(٣).

ولم يتوقف دور الإسلام على الفتوحات المادية بل كان له دور عظيم في الفتوحات الروحية أو العقلية ، فأهم ما يميز (المدنية الإسلامية) أنها تعمل على بنا ، شخصية حضارية متوازنة تساير في نفس الإنسان جانبها الغبي والحسنى . وذلك لأنها تأخذ موقفاً وسطاً فتعرف للروح قدرها ومكانتها وللمادة قيمتها وزونتها ، فتقضي حق الدنيا كما تعلي كلمة الدين « فلا هي تذهب مذهب الحضارة البوذية - على سبيل المثال - التي تنكر عالم الحس ، وتبالغ في انكاره ، وتبشر بأن حياة الإنسان محنة في واقع الأمر ينبعى احتمالها والصبر على مكارها وأن الخبر كل الخبر في اجتناب خدعتها وشهواتها (*) ولا هي تذهب مذهب العبرية القديمة ذات التزعة العملية التي تربط بين المفهوم الروحي للخير والشر وبين ملابسات الواقع والمصير الاجتماعي ، وتقيم فلسفة الجزا ، والثواب والعقاب على أساس جماعي مرتبط بمصير الجماعة في هذه الحياة الحاضرة »^(٤) ولا هي تذهب مذهب المدنية الغربية المعاصرة ، وهي مدنية تقدس المادة ، وتکاد تعبد الشهوة ، وتستخف بالقيم ، وتستهين بالمثل والمبادئ .

١ - المرجع نفسه ص ١٢٨ .

٢ - المرجع نفسه ص ١٢٣ .

٣ - المرجع نفسه ص ١٢٧ .

* مثلها التنصريات لأنها ديانة مبنية على الرهد والبالغة فيه ، والخضع لكل حكم ديني ، والعمان لا يتم ولا يسر إلا بالسياسة والسلطة والمعنى ، ومن فوائد الإنجيل أن الجصل إذا دخل في ثقب الإبرة فالمعنى لا يدخل ملوك السotas .. (رشيد رضا) هاشم لماذا تأخر المسلمين ، ص ١٤٧ .

٤ - د. عفت الشرقاوى ، في فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص ٢٩-٢٨ .

ولهذا التوافق في (المدينة الإسلامية) بين النشاط الروحي والنشاط العصلي في الحياة أصبحت رؤية الإنسان للوجود رؤية متفانلة مقبلة على الحياة ، مبدعة خلاقة «ترى في عرمان الأرض ، واجا دينياً مقدساً» . وهذا هو المزاج الفلسفى المتعيس الذى طبع الحضارة الإسلامية في أقاليمها المختلفة بطابع واحد يبحث بجهود يجوز لنا أن نقول فى النهاية : نعم لقد ظلت (حضارة) واحدة رغم كل ما تضمنته من تنوع إقليمي »⁽¹¹⁾ .

ولهذه (المدنية) كان يدعو شبيب أرسلان ، ويجهد في إبراز قدرتها على الجمع بين الدين والدنيا ، فعلى الرغم أن أساسها وأصلها برجم إلى القرآن والتوجه إلا أنها سبقت وأبدعت في علوم المعادن والنباتات والحيوان .

«وكانوا - العرب - يعتمدون في العلم على التجربة وهذا يخالف مذهب بعض الشعوبية المتعطبين الذين لا يفتتون يقولون إن العرب كانوا يعتمدون في علومهم على الأسلوب الغيبي ، وعلى التخييلات ، وما أشبه ذلك من الأقاويل الفارغة»^(١) ، وقد تلقى منهم الغرب علماً و المعارف كثيرة ، وعرف ما لم يكن يعرنه في ذلك الوقت^(٢) ، إلى جانب التفوق الشرقي المستمر في العلوم الأدبية والعلقنية ، يقول شكسب : «إن الغربي وإن بد الشرقي في العلوم المادية فلم بهذه في العلوم الأدبية أو العقلية ، وإن المحققين من الغربيين معترفون بمعزية الشرقيين في الفلسفة والمنطق ، مقررون في العلوم الأدبية أو العقلية ، وإن المحققين من الغربيين معترفون بمعزية الشرقيين في الفلسفة والمنطق ، مقررون بأن الشرقي هو منشأ الحكمة ومهد العدنية»^(٣) .

ولكن ليس معنى هذا أن تغلق الحكمة الشرقية والمبادئ الإسلامية بابها أبداً في وجه العلوم العصرية ، بل لها وعليها أن تأخذ من هذه العلوم ما يقربها ويعليها ، فنون أقدس قواعده الإسلام - كما يقول شكيّب - هذا الحديث الشريف : «الحكمة ضالة

١ - الترجم المأذن.

^٢ - شكب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، ج ١، ص ١١٧.

٢ - المترجم المتابع .

^٤ - شبيب أرسلان ، مقدمة كتاب في النقد الفيزيقي ، ص(هـ) .

المؤمن ينشدها ولو في الصين»^(١).

ويستطيع المسلمون اليوم أن يستفيدوا من العلوم الغربية فهم يستردون في حاضرهم بعض ما قدموه إلى البشرية في ماضيها «فالحقيقة التاريخية المجمع عليها هي : أن العرب في القرون الوسطى كانوا أسياد الأوربيين ، وكان الواحد من هؤلا ، إذا تخرج على العرب تباهي بذلك بين قومه»^(٢).

ولا تستطيع أمة أن تزعم أنها انفردت بخلق العلم وإبداعه من البداية للنهاية ، «ولا يجب القول عن العلوم المعاصرة بأنها علوم غربية ، بل هي علوم لا شرقية ولا غربية ، وهي علوم بشرية امتلأت حياضها من قطرات قرائح البشر منذ تأسست الحضارة ، وصادف العصر الحالي تألق أنوار العرفان السابقة ازدهار مصابيح العلم في الشرق ، مما نبتنا بعظامه الأخبار والآثار»^(٣).

وبنا ، على ذلك فلا حرج أن يدرس المسلمون اليوم العلوم وأن يدرسها من غير أن يخضعوا خصوصا (باسترائهم) للإتجاه العقلي في الغرب ، فما يحتاجه العالم الإسلامي ليس استشراقا فلسفيا جديدا ولكن تجهيز علمي فني عصري ، وبهذا يستعيد المسلمون الذين العقلية التي اقرضتها أوروبا من (المدنية الإسلامية) على بد مترجمي (طلبلطة)^(٤) في العصور الوسطى ، «والحقيقة أن هذه الملكة العلمية وأن هذا البحث والتنقيب قد أثبتتها العرب لأنفسهم من البداية في بغداد حيث قرر علماؤها من ذلك الوقت تقريرا صريحا المبادئ التي ينبغي أن يسير عليها العلم وهي السير من المعلوم إلى المجهول وعدم قبول شيء على أنه حقيقة إلا بعد ثبوته بالتجربة ، إذن منذ القرن

١ - هنا مضمون حديثين أحدهما : «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها رواه الترمذى من حديث أبي هريرة . والثانى «اطلبوا العلم ولو بالصين» رواه العقيلي ص ، وابن عدي والبيهقي وابن عبد البر عن أنس .

(رشيد رضا) هاشم لماذا تأخر المسلمين

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمين ؟

٣ - شكيب أرسلان ، الكتاب النهى لبريل المتقطف الخمسيني . ص ١٢٥ .

٤ - ترجم شكيب أرسلان محاضرة ألقاها العجاج الفرنسي (فوري) عن مجلة الدراسات الفرنسية عدد ١٩ مارس ١٩٣٢ وقد جاء فيها : «كانت طبلطة قد عادت إلى الأستان ١٠٨٤ فصارت مركزاً للاتصال بين المدينتين الإسلامية والصينية .. ومركز للترجمة» (حاضر العالم الإسلامي - ج ١ ص ١٢٨ وما بعدها) .

الحادي عشر أثبت العرب أنهم كانوا قد ملكوا الطريقة العلمية الصحيحة»^(١) .
وينقل (شكيب أرسلان) عن الفيلسوف الألماني «هومبولد» Homboldt قوله :
«إن العرب لم يقتصرُوا على حراسة كنز المعارف الذي عثروا عليه بل أضافوا إليه
وأوسعوه وفتحوا طرقاً جديدة للبحث في أسرار الطبيعة»^(٢) .

وهكذا كان (شكيب أرسلان) يحتفي بما ينشره الباحثون الغربيون المنصفون
فيترجمته ، وينقل عنهم في مقالاته وحواشيه وكتبه معتبراً ما حرره هؤلاء ، في حق
(المدنية الإسلامية) شهادة تقدم لناشرة المسلمين المفتونين بكل ما يننقل عن الغرب
ورداً على أعداء ، (المدنية الإسلامية) الماكابير في الشرق والغرب^(٣) .

كما كان لا يهدأ ولا يسكت إذا رأى من ينتقد هذه المدينة أو يفترى عليها ، مثل
رده الشديد على (السيوسان) (العقب الأفروني السامي) في السفر الذي نشر في
(مجلة الأحبا)، الأفرنسية مقالة يتكلّم فيها عن يقظة المغرب بعد (ليل الإسلام) !
هكذا تعبره .

فأثارت كلمته شكيب فكتب يقول : «فإن كان تأخر إحدى المالك الإسلامية حقبة
من الدهر يجب أن يقال فيه (ليل الإسلام) فكم كان ليل النصرانية طويلاً عندما بقيت
أوروبا المسيحية زهاء ألف سنة وهي في حالة الهمجية أو ما يقرب من الهمجية»^(٤) .

ويقصد شكيب أن الأمم الأوروبية تنصرت «في القرن الثالث والرابع والخامس
والسادس من ميلاد المسيح ، وبقيت أمم في شرقها إلى القرن العاشر حس

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ خ ١٣٥ خ ١٣٥ .
٢ - المرجع السابق .

٣ - مثل نقله عن المستشرق الألماني المعنتر (ماكس ماربروف) بعض ما كتبه في كتابه ... (إسلامي) في
حواشيه على اصحاب العلوم الاتـ.ـلامـ.ـ ، ترجمة خلاصة أبي الفيلسوف (الاتـ.ـحدـ.ـ) ، ... إن خطورة العرب عن
كتب أندلس في ذلك يـ.ـفـ.ـ ، ... وترجمة كتاب العلامة (درـ.ـةـ.ـ) الأمـ.ـركـ.ـيـ.ـ (فينـ.ـ) ، بــيعــ العــرــكــةــ الــعــلــمــيــةــ
فيــ الــمــدــنــةــ ، ... مــرــكــزــ اــتــصــدــمــ مــغــولــ ، ... مــلــمــزــنــ يــهــرــبــ ، ... إنــ الــعــربــ فــتــحــواــ اــنــســتــ فيــ حــصــفــ فــيــ الــأــخــيــرــ ، ... الشــهــدــ دــهــتــهــ
مــرــ بــ يــعــ الــإــلــامــ ، ... وــشــدــ - شــكــبــ فيــ رــاســهــ ، ... نــســاــ أــخــرــ الــســلــمــونــ ، ... خــصــ ١٢٤ .
٤ - شكيب ، ... حــدــ نــاــخــ الــســلــمــونــ ، ... خــصــ ٢٠ .

تنصرت ولم تنهض أوروبا نهضتها الحالية التي مكنتها تدريجياً من هذه السيادة العظمى بقوة العلم والفن إلا من نحو أربعين سنة أي من بعد أن دانت بالإنجيل بـ«السنة».

وشكيب برى أن (النصرانية) نفسها لم تكون هي المسؤولة عن تخلف أوروبا مدة ألف سنة في القرون الوسطى ، بل كان للمسيحية (الفضل في تهذيب برابرة أوروبا) ، وكذلك اليهودية والوثنية لم يكونا سبباً تخلف (البيان) السابق ولا نهضتها الحالية ، وإنما للتأخر والتقدم أسباباً وعوامل متراكمة ترجع إلى أصول شئ من فساد الأخلاق ، وانحطاط الهمم وانتشار الخنف والخلاعة ، وشيع الإلحاد والإباحة ، من هرم الدول الذي يتكلّم عنه ابن خلدون وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلي منضمة إليها أسباب خارجية مثل غارات أعداء وغيرها ، فإذا تراكمت هذه العوامل في خبر أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد ، وأصبحت فضائل أقوام الأديان عاجزة بازا ، شرعاً ، كما أصبحت معابد أسفافها غير مؤثرة في جانب خيرها .^(١)

ومن أكبر أمثلة التاريخ الشاهدة على صدق هذا سقوط الرومان بعد فشو الدين المسيحي فيهم ، وسقوط اليونان من قبلهم بعد أن تقبلوا دعوة بولس إلى النصرانية . فهل يقدر أحد أن يقول : إن الوثنية أصلح للعمان من النصرانية ؟^(٢)

فإذا كان الدين لا يصح أن يجعل معياراً لتأخر أو تقدم هذه الأمم فإن هذا لا ينطبق على الإسلام ، فالقرآن والتاريخ يثبتان أن (الإسلام) هو سبب تقدم أهله حين أهتدوا به وبسبب تأخيرهم حين أعرضوا عنه ، فأظلم الظلم أن يجعل سبب تأخيرهم ، يقول الأمير شكيب :

«إذا كان الأنفرنج الصليبيون من الغرب ، وكان المغول أولئك العجراط المنتشر من الشرق ، قد دمروا ما بني الإسلام في تلك الممالك ، ونسفوا عمران هاتيك الحواضر ، وكانت منافسات ملوك الإسلام الداخلية للشهوات وامعانهم في الضلالات ، ومحبدهم

١ - شكيب أرسلان ، إذا تأخر المسلمون ؟ (مراجع سابق) من ص ١٣٢-١٢٣ .

٢ - المرجع السابق ص ١٢٧ .

عن جادة القرآن القوية ، وقد هم ما يزرعه في الصدور من الأخلاق العظيمة ، وقد نقضت في الداخل ، على ما عجز عن تعفيته العدو من الخارج ، فليس الذي في هذا التفلق ذنب الإسلام ، وإنما النتيجة في هذا الإنقلاب عائنة على القرآن ، وإنما الذنب هو ذنب الهجع من الأفرنج ، وجناية ذلك الجراد الزاحف من الفرس ، وإنما هي نتيجة المسلمين الذين رغبوا عن أوامر كتابهم واشتروا بأياته ثمناً قبلًا ، إلا النادر منهم»^(١).

وهكذا ينتهي الأمير شكبب أرسلان إلى الطريق الذي ينبغي أن يسلكه المسلمون لننصر (المدنية الإسلامية) نمواً جديداً عظيماً ، مملوءاً بالثقة بالنفس ، فما من مدينة تستطيع أن تزدهر أو أن تظل على قيد الحياة بعد أن تخسر إعجابها بنفسها ، وصلتها بماضيها ، فإذا أراد المسلمون أن يبحثوا عن الباعث الروحي والعقلي فلن يجدوه إلا في العودة لإسلامهم ، فالإسلام هو الذي بعث الأمة العربية في التاريخ وهو قادر على أن يبعثها من جديد ، أما الخطر الحقيقي الذي يمكن أن بهدم الإسلام ويقطع صلة المسلمين بماضيهم ويقادهم مركزهم الروحي والثقافي والسياسي فهو اتخاذ المسلمين ثقافة أجنبية تختلف عن اختلافاً جوهرياً في أسسها الأخلاقية .

«أما الإسلام فلا جدال في كونه هو سبب نهضة العرب وفتحوا لهم المدهشة مما أجمع على الاعتراف به المتركون شرقاً وغرباً ولكنه لم يكن سبب انعطافهم فيما بعد كما يزعم المفتررون الذين لا غرض لهم سوى نشر الثقافة الأوروبية بين المسلمين دون ثقافة الإسلام ووسط سيادة أوروبية على بلدانهم بل كان السبب في ترددي المسلمين هو أنهم اكتفوا في آخر الأمر من الإسلام بمجرد الإسم والحال أن الإسلام اسم وفعل»^(٢).

١ - المرجع نفسه ص ١٢٨ .

٢ - المرجع السابق ص ١٣٢ .

الخاتمة

لعل النتيجة التي يخرج بها الباحث في آراء ، الأمير شكيب أنه أمام مفكر إسلامي عظيم ، وقف حاته للدفاع عن كل ما بمت إلى العرب وال المسلمين بصلة ، إننا أمام حياة مقدرة لعمل مسمى ، بوشاء تكرز حز ، من أجزائها وكل عنصر من عناصرها أن يشير إلى ذلك العمل ويتربّب الرؤجية التي اتجه إليها ، فقد عاش شكيب نصف عمره منفياً وعاش عسرة كله معاذهاً مناضلاً في سبيل ما اعتقاده صحيحاً وحقاً مشروعاً .

نشأته منذ صباء على تربية عالية ، وحياته في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، عصر النهضة القومية والمطامع الدولية ، والصراع في ميادين العلم والسياسة والدين ، بين الغرب المستعد بأبهى وشرق الذي تتنازعه التيارات المختلفة والأراء ، المتباينة .

وأسرته التي مكتبه من الإتصال بكتاب العاملين في حقل الأدب واللغة والسياسة ،
وما أتيح له من الإجتماع بالزعما ، المصلحبن وإكبارهم لإتجاهاته الإسلامية في الإصلاح
والسعى لخدمة الإسلام .

كل ذلك جعل حياة شكيّب أرسلان أشبه ما تكون بحياة المناضلين الأوائل أصحاب العقيدة والقلم ، وتمت حياة الرجل ولم تتم رسالته في خدمة قومه وغيبته .

وبحسب المصلح صاحب الدعوة عرفاناً بعظمته وإنصافاً لمقصده أن يسيط الزمن وأن يحسن السبق إلى مجرأه ، وأن يأتي بالغد المجهول من ظلمات الغيب فيمشي فيه على هدى قبل أن تهتدى إليه شمس النهار ، وهذا ما يميز فكر الأمير شكب أرسلان ويشهد بتفوقه واستحقاقه للإستمرارية والبقاء ، ليس بمقاييس عصره فقط ، بل بمقاييس الزمن الذي نعيشه اليوم ، فهو من دعاة النهضة والتقدم وليس من أنصار الجمود والجمود ، وطبعي أن عوامل النهضة والرقي لم تشرف بوفاته .

ولنا أن نثبت هنا أن صاحب هذا الفهم العقيم للإسلام كفيفه وشريعة . وهو الذي شغل نفسه بهموم المسلمين ودافع عن قضائهم بردتهم طوال حبه . لا يمكن أن

يكون منتمياً بفكرة إلى طائفة تتخذ من الجهل شرعة ومنهاجاً ، ومن الإنحراف عن الإسلام وجوهره الصافي ، والبعد عن المسلمين ديناً .

وأخيراً .. نرجوا أن تكون قد وفقنا في إثبات أن الأمير شبيب أرسلان الذي ناضل بعقله وقلمه طوال أربعين عاماً في سائر العالم الإسلامي ، تجاوز مسألة الاستعمار والاستقلال إلى طرح آراء كلامية وفلسفية تمثل منهاجاً إصلاحياً شاملًا في مجالات الدين والسياسة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين !!

المراجع

- القرآن الكريم .
- ابن سمية - أحمد
- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، الرياض - ١٤٨١ هـ
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعيه ، القاهرة ١٩٥١ م
- ابن خلدون .
- تاريخ ابن خلدون . دار الكتاب اللبناني ، بيروت - ١٩٨١ م
- ابن حبيب .
- نفس القرآن ، العجمي ، دار السعف ، العادره .
- البداية والنهائية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٧٧ م
- أبو الحسن المأوردي .
- الأخمام السلطانية ، طبعة ١٤٣٧ هـ ، ١٩٠٩ م
- أبو الحسن الندوبي .
- مادة حس العالم بالخطاط المسلمين ، دار العلم ، الطبعة التاسعة ، ١٩٧٣ م ، الخوبت
- نصراع بين الفخرة الإسلامية والفخرة العربية في الأقطار الإسلامية ، دار القلم ، ١٩٨٣ م
- إحسان الهي ظهير .
- السعي والسبعين فرق وتاريخ ، باكستان ، ١٩٨٤ م
- أحمد بن حنبل .
- الرد على التهمة والزندقة ، تحقيق عبد الرحمن عميرة ، دار اللواه ، الرياض ، ١٩٨٥ م
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، بيروت ١٩٦٥ م
- أحمد سماعيل وفتش .
- فلسفة الاستشراق واثرها في الأدب العربي المعاصر ، رسالة دكتوراه ١٩٧٤ م / ٦ م بالازهر دار المعارف بمحضر
- أحمد الشريachi (الشيشي) .
- أدب أمير البيان ، سلسلة مذاهب وشخصيات ، القاهرة .
- أمير البيان شحيب أرسلان ، مطباع الكتاب العربي ، مصر ١٩٦٣ م ، الطبعة الأولى .
- شحيب أرسلان داعية العربة والإسلام ، المؤسسة المصرية العامة ، ١٩٦٣ م .
- أرنولد توينبي .
- محض دراسة التاريخ ، ترجمة فؤاد شل ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦٦ م
- البرت دوراني .
- العصر العربي في عصر النهضة (ترجمة عرقول) الطبعة الثالثة ، دار النهار بيروت ١٩٧٧ م
- أنور الجندي .
- محاولة لبناء فنون إسلامي متاحمل ، المجلد الخامس ، دار الإسحاق بمصر .
- البخاري .
- صحيح البخاري ط ١٢١٥ هـ - ١٨٩٧ م .
- البلاذري .
- فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رخوان ، القاهرة .
- جمال الدين الأفغاني .
- الرد على الدهرسن ، السلام العالمية للطبع والنشر ، مصر ، ١٩٨٣ م .
- العروفة الونقى ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان طب ٣ ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م
- حاضرات جمال الدين الأفغاني ، دار المعرفة بيروت ، ١٩٨١ م .

- جميل صليبي
- ٣٣- المجمع الفلسطini ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧١ م
- ٣٤- حسن الشافعى
- ٣٥- لمحة من الفخر الحلاوى ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ١٩٩٣ م
- ٣٦- سامي الدهان
- ٣٧- محاضرات عن الأمير شحيب أرسلان ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٨ م
- ٣٨- الأمير شحيب أرسلان حياته وانتهائه ، دار المعارف مصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٦ م
- ٣٩- سامي محارم
- ٤٠- اصوات على مسلك التوحيد (الجريدة) دار صادر ، بيروت ١٩٦٦ م
- شحيب أرسلان
- ٤١- لماذا تناهى المسلمين ولماذا تخدم غيرهم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٣٥ م
- ٤٢- روح التحقىق في الجل الرقيق ، وهو ديوان أخيه الأمير نجيب شحيب ، دمشق ١٩٣٥ م
- ٤٣- تاريخ ابن خلدون ، تأليف عبد الرحمن بن خلدون ، تعليق شحيب أرسلان ، المطبعة الريحانية مصر ، ١٩٣٦ م
- ٤٤- حاضر العالم الإسلامي - تأليف سودارد الإمبريلى ، وترجمة عباج توبيخ ، وتعليقات الأمير شحيب ، في أربعة أجزاء ، دار الفخر مرسوت ١٣٩٤هـ - ١٩٧٣م (الطبعة الرابعة)
- ٤٥- تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وذان البحر المتوسط ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٣٩ م
- ٤٦- النقد الشسليني لكتاب في الأدب الدياهلى - تأليف محمد أحمد القميروى ، القاهرة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٩ م
- ٤٧- الدراسات اللطافية في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف - تأليف الأمير شحيب أرسلان ، مطبعة العنار مصر ١٣٥١ - ١٩٣١ م
- ٤٨- السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة - تأليف شحيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدون بدمشق ، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧ م
- ٤٩- سوق أو صدقة أربعين سنة - مطبعة عيسى الطباخ مصر ١٣٣٣هـ
- ٥٠- الملل السنديسة في الأخبار والآثار الأندلسية - تأليف الأمير شحيب أرسلان ، المطبعة الريحانية مصر ١٣٣٩هـ
- الشمر ستانى
- ٥١- الملل والنحل المطبوخ على هامش الفصل في الملل ، دار المعرفة بيروت
- صالح بن عبد الله العبود
- ٥٢- فخرة الفوقيمة العربية في ضوء الإسلام - دار طيبة بالزياض ، ١٤٠٤هـ
- ٥٣- الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير)
- ٥٤- تاريخ النعم والمولد ، طبعة دار المعارف ١٩٦٢ م
- ٥٥- داعم البيان في تفسير القرآن
- عباس محمود العقاد
- ٥٦- الإنسان في القرآن ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٩ م
- ٥٧- التحضر فريضة إسلامية ، دار نصّحة مصر ، القاهرة
- ٥٨- عبد الرحمن الصواхى ، دار نصّحة مصر ، القاهرة ، ١٩٨٦ م
- ٥٩- آثر العرب في المخاتير الازورية ، دار المعارف مصر ١٩٦٣ م
- ٦٠- عصرية الإمام على ، سلسلة العبريات
- عبد الله الأصين
- ٦١- دراسات في الفرق والمذاهب الخديجية المعاصرة ، دار الحقيقة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م
- عبد الله النجار
- ٦٢- مذهب اندريل وتوبيخ ، دار المعارف مصر ١٩٦٥ م
- ٦٣- عبد القادر شيبة الدحمد
- ٦٤- الديان والقرآن والمذاهب المعاصرة ، مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

- د. عبد المنعم التمو
 - الشاشة .. المحمدي .. الدروز .. تاريخ ووثائق، كتاب المدرية ، القاهرة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م
- عبد الوهاب خلاف
- ٥١- مذاقه سارين الشرباع الإسلامي ، دار الفلم ، الحويت
 - عز الدين الـ مـ يـ مـ يـ
- ٥٢- سـيـاهـ اللـفـقـدـ الـأـدـعـيـنـ الـحـدـيـثـ فـيـ مـصـرـ ، دـارـ الـمـعـارـفـ ، الـطـبـعـةـ الـثـالـثـةـ ، الـقـاـمـهـ
- ٥٣- عـقـلـ الـشـرـقاـوـيـ
- ٥٤- فـيـ حـلـسـهـ الـمـضـارـهـ إـلـاـسـلـامـيـهـ - دـارـ النـفـضـهـ الـعـرـبـيـهـ . بـيـرـوـتـ ١٩٨١م
- الغـرـالـيـ (ـأـبـوـ حـامـدـ)
- ٥٥- حـصـانـ الـبـاطـيـهـ ، بـحـقـيقـ دـ. عـبـدـ الرـحـمـنـ بـحـوـيـ . ١٤٧٤هـ ١٩٦٤م
- ٥٦- الـمـسـدـ مـنـ الـطـلـالـ ، طـ ١٤٧٥مـ ١٩٥٠مـ
- ٥٧- الـإـلـفـتـادـ فـيـ الـإـعـقـادـ ، طـ ١٤٣٢هـ - ١٩١٢مـ
- دـ . فـهـمـيـ جـعـلـانـ
- ٥٨- نـسـنـ الـقـدـمـ عـنـ مـعـطـرـيـ الـإـلـاسـلـامـ فـيـ الـعـصـرـ الـحـدـيـثـ ، الـمـؤـسـسـةـ الـعـرـبـيـةـ لـلـدـرـاسـاتـ وـالـنـشـرـ ، بـيـرـوـتـ لـيـانـ ١٩٨١مـ
- فـيلـيـبـ جـنـ
- ٥٩- لـيـانـ فـيـ الـتـارـيـخـ ، تـرـجـمـةـ دـ . أـبـيـ فـريـدـ ، دـارـ الـنـفـضـهـ - بـيـرـوـتـ ١٩٠٩مـ
- قـيـسـ الـعـرـطـاسـ
- ٦٠- طـرـيـقـ دـارـوـنـ سـرـ مـؤـيـدـيـهـاـ وـمـعـارـضـيـهـاـ . مـؤـسـسـةـ الرـسـالـةـ ، بـيـرـوـتـ ١٤٩١هـ - ١٩٧١مـ
- حـكـيـمـ ثـابـتـ
- ٦١- الـدـرـورـ وـالـنـوـرـ الـسـوـرـيـهـ وـسـيـرـةـ سـلـطـانـ باـشاـ الـأـطـرـشـ
- لـوـتـسـخـيـ
- ٦٢- سـارـيـةـ الـاقـطـارـ الـعـرـبـيـهـ الـحـدـيـثـ ، (ـنـوـجـمـةـ سـتـانـيـ) مـؤـسـسـةـ نـوـقـلـ ، بـيـرـوـتـ ١٩٧٩مـ
- محمدـ أـحـمـدـ الـخـطـيبـ
- ٦٣- عـنـدـ الـدـرـورـ مـرـضـ وـمـخـ ، مـحـبـةـ الـأـقـصـىـ ، الـإـرـدنـ ، طـ ١ـ ، ١٤٨٠هـ - ١٩٨٠مـ
- ٦٤- الـمـرـاحـ الـنـاطـنـهـ فـيـ الـعـالـمـ إـلـاـسـلـامـيـ ، مـحـبـةـ الـأـقـصـىـ ، طـ ٢ـ ، ١٤٣٦هـ - ١٩٦٧مـ
- محمدـ أـحـمـدـ الـغـرـاوـيـ
- ٦٥- الـنـفـدـ الـتـدـلـيـلـ لـكتـابـ فـيـ الـذـكـرـ الـدـاهـلـ ، الـقـاـمـهـ ١٤٣٧هـ - ١٩٢٩مـ
- محمدـ أـسـدـ
- ٦٦- إـلـاسـلـامـ عـنـ مـعـرـقـ الـطـرـقـ ، دـارـ الـعـلـمـ الـمـلـاـيـنـ ، بـيـرـوـتـ ، ١٩٧٨مـ
- دـ . محمدـ الـبـهـرـ
- ٦٧- الـعـرـ الـإـسـلـامـيـ الـحـدـيـثـ وـلـتـهـ بـالـسـعـمـاءـ الـغـربـيـ ، مـحـبـةـ وـمـهـ ، طـ ٩ـ ، ١٤٨١هـ - ١٩٨١مـ
- محمدـ الـظـيـرـ عـبدـ الـقـادـرـ
- ٦٨- سـجـنـ الـأـمـةـ الـعـرـبـيـهـ سـقـوطـ الـخـلـافـةـ الـعـثـمـانـيـهـ . مـحـبـةـ وـمـهـ طـ ١ـ ، ١٤٨٥هـ - ١٩٨٥مـ
- دـ . محمدـ السـيدـ الـجـلـيـنـ
- ٦٩- فـصـيـهـ الـظـيـرـ وـالـدـنـيـعـهـ فـيـ الـعـرـ الـإـسـلـامـيـ ، مـطـبـعـ الـخـلـيـجـ ، طـ ٢ـ ، ١٤٨١هـ - ١٩٨١مـ
- محمدـ الـغـزاـوـيـ
- ٧٠- فـرـقةـ الـزـرـاـيـرـ . شـالـيـشـاـوـرـ حـالـهـ عـلـىـ خـوـ ، الـمـرـاجـعـ الـغـارـسـيـهـ ، الـهـيـنةـ الـعـامـهـ لـلـحـسـ دـامـهـ عـنـ سـرـ
- تـعاـهـدـ
- محمدـ رـشـيدـ رـصـاـ
- ٧١- سـارـيـةـ الـإـنـسـانـ الـإـلـامـيـ مـحمدـ عـمـدـ . مـطـبـعـ الـمـارـسـ . ١٤٣٤هـ
- ٧٢- الـمـلـاـعـنـ الـإـلـامـيـ الـعـطـمـ . مـطـبـعـ الـمـارـ . ١٤٣١هـ - ١٩٢٢مـ
- ٧٣- كـلـاـعـنـ الـإـنـسـانـ مـحمدـ رـشـيدـ رـضـاـ . بـحـقـيقـ دـ . حـلـاجـ الـدـينـ الـمـسـدـ . بـيـرـوـتـ . ١٤٣٥هـ

- ٢٥- محمد شفيق شيا

- ٢٤- سحب أرسان مقدمات الفخر السياسي ، سلسلة غير دورية تصدر عن مجلة الفخر العربي ، طب الاولى ١٩٨٣م

- ٢٣- محمد ضياء الدين الرئيس

- ٢٢- النظريات السياسية الإسلامية . ط ١٣٧١هـ - ١٩٥٠م

- ٢١- محمد عبد الله عتار

- ٢٠- المذاهب وأسرار الدعوة الفاطمية ، دار النشر الحديث / القاهرة ١٩٣٧هـ

- ١٩- محمد عبد

- ١٨- الإسلام والصرارة مع العلم والمدينة ، دار المعارف مصر ، القاهرة ١٣٦٧هـ

- ١٧- محمد علي الطاهر

- ١٦- محمد فتحي عثمان

- ١٥- ذرورى الامير سحب ارسلان . مطبعة عيسى الطيبى مصر ، طب ١ ، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م

- ١٤- محمد فتحي عثمان

- ١٣- من أصول الفخر السياسي الإسلامي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، طب ١ ، ١٩٧٩م

- ١٢- محمد قطب

- ١١- شهاد حول الإسلام ، الإنذار الإسلامي للمنظomas الطلبية ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

- ١٠- محمد محمد حسين

- ٩- الإيمانات الوطنية في الأدب المعاصر ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الخامسة ، ٢٤٠٤هـ - ١٩٨٢م

- ٨- الإسلام والحضارة الغربية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ٢٤٠٣هـ - ١٩٨٢م

- ٧- أرومة العصر ، دار عطاء للطباعة والنشر ، جهة ، ١٤٠٤هـ - ١٩٧٩م

- ٦- محمد محمد زغوق

- ٥- الاسترقاق والملقية الفخرىة للصراع الحضاري ، كتاب الامة ، طب ١ ، ١٤٠٤هـ

- ٤- محمود قاسم

- ٣- بلال الدين الأفغاني ، حياته وفلسفته ، مختتمة الأنجلو المصرية

- ٢- المسطو الحديث ومناجم البحث ، دار المعارف مصر ، طب ٥ ، ١٩٦٨م

- ١- محمود المرداوى

- ٠- العلاقة بين التنظير والتطبيق ، دراسات في الفقه السياسي ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

- ٥- مصطفى حلمي

- ٤- نظام الخلافة في الفخر الإسلامي ، دار النصار ، ١٩٧٧م

- ٣- منصب علماء الحديث والسبة من أصول الدين ، دار الدعوة ، ١٩٨٣م

- ٢- الإسارة الجعفرية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ، دار الدعوة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م

- ١- الإسلام والإبداع دراسة ومقارنة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م

- ٠- الإسلام والمذاهب الفلسفية ، دار الدعوة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م

- ٤- محاضرات في علم الكلام ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

- ٣- مصطفى صادق الرافعى

- ٢- بعد رابه انقران ، دار الحناب العربى ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ٢٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

- ١- مصطفى صبرى

- ٠- موقف العمل والعلم والعلم من رب العالمين وعيادة المسلمين ، دار إحياء الموراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م أربعة مجلدات

- ٥- مصطفى السباعي

- ٤- الاسترقاق والمسترسقو ، ما لهم وما عليهم ، المحب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٩هـ - ١٩٧٩م

- ٣- إسلام بلا مذاهب ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

- مورييس بوكانان
- ٩٨ - القرآن والرواية والذيل والعلم (الترجمة العربية) ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨٧م
- د. ناصيف نصار
- ٩٩ - صورات الأزامة المعاصرة ، برامج حات وكتاب ، الطبعة الأولى ، الخوית ، ١٩٨٦م
- زكي العقبي
- ١٠٠ - المسئرون ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦١م

الدوريات

١- الشبائب :

مجلة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة . أصدرها محمد على الطاهر بين سنة ١٩٣٧ - ١٩٣٩م

٢- الشسور :

جريدة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة ، لصاحبها محمد على الطاهر ، بين سنة ١٩٣١ - ١٩٣٤م

٣- الفتاح :

مجلة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة لصاحبها محب الدين الخطيب

٤- الفخر العربي :

مجلة الأبراء ، العرب للعلوم الإنسانية ، تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

٥- مجلة المجمع العلمي العربي :

مجلة شهرية ، يصدرها المجمع العلمي العربي بدمشق.

٦- المقال :

محله سوريه تصدر بالقاهرة ، لمؤسسها دورودي ريدان ، بدأت في الصدور سنة ١٢٣١ هـ - ١٨٥٣م



الفهرس

الآراء الكلامية والفلسفية عند الأمير شبيب أرسلان	الموضوع
١	- مقدمة
١٢	- الباب الأول : الأمير شبيب أرسلان مفكر إسلامي
١٢	الفصل الأول : الأمير شبيب أرسلان
١٣	- حياته وعصره
٢١	- نسبه وأسرته
٢٢	الفصل الثاني : طائفة الأمير شبيب أرسلان ، وعقيداته .
٢٢	- طائفة الأمير شبيب أرسلان .
٤٠	- عقيدة الأمير شبيب أرسلان .
٤٠	الفصل الثالث : لماذا نعتبره مفكراً إسلامياً ؟
٤١	- تمهيد
٤٢	- حركة المقاومة للإستعمار الغربي في الفكر الإسلامي
٤٤	- عناصر هذا الإتجاه
٤٢	- العوامل المذرية في آراء الأمير شبيب أرسلان
٥٢	العامل الأول : إتصاله بالإمام محمد عبده والشيخ الأفغاني ، وتعلمه منه عليهما
٥٩	العامل الثاني : دفاع الأمير عن الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر العربي
٦١	- الأمير شبيب أرسلان أحد رواد النهضة والإصلاح في العصر الحديث.

٦٢	الباب الثاني : الآراء الكلامية عند الأمير شكيب أرسلان
٦٨	الفصل الأول : رأي الأمير في قضية الخلافة ، وانقضاها ، والقدر
٦٩	- قضية الخلافة الإسلامية في فكر الأمير شكيب أرسلان
٧١	-- تمهيد
٧٥	- حكم الخلافة في الإسلام
٧٧	- معنى الخلافة
٨٠	- قضية فصل الدين عن السياسة
٨٩	- دفاع الأمير عن الشريعة الإسلامية :
٩١	- رمي الشرع الإسلامي بالجمود لتعلقه بالمعاد والمعاشر
٩٣	- الاستشراق والشريعة
٩٤	- حزب المترنجين
٩٨	- علاقة الدين بالسياسة في حضارة الغرب
١٠٠	- دفاع الأمير شكيب عن استقلال الشرع الإسلامي وأصالة متبوعه
١٠٤	- الإجتهاد لا ينفي الطابع الإسلامي للتشريع
١٠٥	- صلاحية الشرع الإسلامي لكل زمان ومكان وواجب علماء المسلمين
١٠٧	- تعقيب
١٠٨	- اشتراط القرشية في الخلافة
١١٥	- تعقيب
١١٦	- موقف الأمير شكيب أرسلان من عقيدة القضا ، والقدر

الفصل الثاني : موقف الأمير شبيب أرسلان من بعض الفرق الإسلامية القديمة والمعاصرة .	١٢٠
- موقف الأمير شبيب أرسلان من الدروز .	١٢١
- علاقة الدروز بالإسماعيلية الفاطمية .	١٢٢
- الجانب الباطني في عقيدة الدروز فيما يتعلق ب :	١٢٣
- الألوهية .	١٢٤
- يوم القيمة والثواب والعذاب .	١٢٤
- تأويل آي القرآن الكريم .	١٤٠
- الدرزية كمذهب ينتمي إلى الإسلام .	١٤٢
- موقف الدروز من أركان الإسلام .	١٤٨
- موقفهم من رسول الإسلام محمد (صلى الله عليه وسلم) .	١٥٠
- موقف الدروز من القرآن الكريم .	١٥٢
- حكم علماء الإسلام في الدروز .	١٥٥
- نقد موقف الأمير شبيب أرسلان من الدروز .	١٥٢
- موقف الأمير من المعتزلة والأشاعرة .	١٦٠
١ - فرقة المعتزلة .	١٦٠
٢ - الأشاعرة .	١٦٢
- موقف الأمير شبيب أرسلان من : الخارج .	١٦٥
- نشأة الخارج .	١٧١

١٦٨	- فرق الخارج وعقالدهم :
١٦٩	الفرقة الأولى : المحكمة
١٧١	الفرقة الثانية : الأزارقة
١٧١	الفرقة الثالثة : النجدات
١٧٢	الفرقة الرابعة : العجارة
١٧٢	الفرقة الخامسة : الشعالبة
١٧٣	الفرقة السادسة : الصفرية
١٧٤	الفرقة السابعة : الأباضية
١٧٦	- موقف الأمير شبيب من : الباب ، والبهانية
١٧٧	١ - البابية
١٧٩	٢ - البهانية
١٨٤	- نقد موقف الأمير شبيب من البابية والبهانية
١٨٦	الباب الثالث : الآراء الفلسفية عند الأمير شبيب أرسلان
١٨٢	الفصل الأول : نقد الأمير شبيب أرسلان للفكر المادي الحديث
١٨٨	- تمهيد
١٩١	- قضايا الإنسان في فكر الأمير شبيب أرسلان ، ونظريه التطور
١٩٢	- عمر الإنسان
٢٠١	- مذهب النشو ، والإرتقاء
٢٠٨	- مذهب النشو ، والإرتقاء ، في الغرب

٢١٢	- مذهب النشو، والإرتقاء، في الشرق العربي :-----
٢٢٠	- تعقيب .-----
٢٢٢	- رأي الأمير شبيب أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية .
٢٢٨	الفصل الثاني : الفكر السياسي عند الأمير شبيب أرسلان .-----
٢٢٩	- تمهيد : شبيب أرسلان بين (الإصلاح الديني) و (الإصلاح السياسي) .
٢٣١	- تصور الأمير شبيب أرسلان للدولة الإسلامية :-----
٢٤٠	- استقلال النظام الإسلامي (الفرق بين الخليفة والملك) .-----
٢٤٩	- الأصول والمبادئ العامة التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية :
٢٥٠	١ - الشوري .-----
٢٥٢	٢ - المساواة .-----
٢٥٦	٣ - معاملة أهل الذمة ، ونشر الإسلام .-----
٢٦٠	- الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير شبيب أرسلان .
٢٦١	- تمهيد .-----
٢٦٢	- الجامعة الإسلامية .-----
٢٨٥	- الجامعة العربية .-----
٣٠٩	- آراء الأمير شبيب أرسلان في التربية .-----
٣٢٠	- بعث (مدنية الإسلام) في مواجهة (الحضارة الغربية) .-----
٣٢٤	- الخاتمة .-----
٣٢٦	- المراجع .-----